سألتك؟

عن الحسين (عليه السلام)

رواية
تحكي حياة السيدة
فاطمة بنت حزام الكلابية
المعروفة بأم البنين عليها السلام

يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ بها، قتل الحسين.

الكاتبة
رجاء محمد بيطار

دار المحجة البيضاء

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

ISBN 978-614-426-650-2

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

«. . . سألتك عن الحسين»

رواية
تحكي حياة السيدة
فاطمة بنت حزام الكلابية
المعروفة بأم البنين عليها السلام

رجاء بيطار

دار المحجة البيضاء


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وإهداء

أللهم صل على محمد وآل محمد، كلما سبّح لله خلق ومجّد، كلما هلّل ملك أو بشر ووحّد، كلما غنى على الغصن طيرٌ وغرّد، كلما خفق قلب ودمعت عين، وانطلق من الأعماق نداء يتردّد: «أللهم صلّ على محمد وآل محمد».

أفتح دفتري، . . . تمتد السطور مستقيمة على أرضية بيضاء، وتتوالى بين قلبي وفكري وأطراف أناملي أفكارٌ كثار، . . . ويهتز القلم، الحيرة تشتت قوامه، فيصارع أمواج العواطف الثائرة، والأفكار الثائرة، والكلمات الثائرة.

كثيرة هي الأحداث وعظيمة، والقلم صغيرٌ ودقيق، والحروف قليلة وفقيرة، والأصوات ترتفع وتنخفض، والأنفاس تعلو وتهبط.

على أن حبي لك أيتها العظيمة عظيم، لا تقيسه الكلمات ولا الأصوات والحروف، ولكن، ما حيلتي وانا لا أملك سواها أدوات للتعبير؟! . . .

مولاتي، . . . دعيني أحاول، وإن قصّرت، أن أبثّك بعض نجواي، . . . أن أرسم بنبضي المتسارع عشقاً وأنفاسي المتلاحقة وجداً،

ويراعي النحيف، وهمسي المشبوب كالحفيف، شيئاً ولو يسيراً من ظلال عظمتك المتنامية.

مولاتي، استصغرتِ قدرك تحت عرش سيدة النساء، فتوّجكِ عرفانُها قدراً عظيماً في عيون العظماء.

خضعتِ لأوليائك حباً وطواعية، وخططتِ لنفسك ولبنيك الأبرار نهجاً، يحتذيه كل موالٍ عاشقٍ للصراط المستقيم، مصدّقٍ للنبإ العظيم، يحصي مع أنفاسه نبضاتٍ تنطق بحب الإمام المبين وأبنائه الميامين، فقلّدك ذاك الخضوع كل أوسمة العز والولاء والعطاء.

مولاتي، . . . بين الماضي وما قبله والحاضر وما بعده، تولد الحكاية.

وأحاول، . . . أستمد من دمائي النابضة عشقاً، ومن روحك المتسامية السابحة في عليين، روحاً تنطق بها الحروف، علّها تعبّر عن بعض ما يجول في خاطري نحوك أيتها العظيمة، . . . يا كريمة الحسب والنسب، والقول والعمل، . . . يا من نظرتِ إلى الكون بعيون آل محمد. . . .

يا من عرفتِ معنى الولاية حقاً، وكان لك نصيب من الولاء لم يكن لسواك، . . .

يا من كنتِ ترين نفسك خادمة في باحة قدس علي وفاطمة، وأولاد علي وفاطمة، وإذا بك ترتفعين بهم وتستمدّين ألقاً من نورهم الملكوتي، . . . إذا بك ترتقين سيدةً ينسكب القدس من عينيك اللتين طالما نظرتا بشغفٍ وتقديسٍ إلى قدس آل محمد، وتنطق الحكمة على لسانك الذي ما فتر

لحظة عن الذكر والتسبيح للخالق البارئ، والثناء والمديح والطاعة بالتلميح والتصريح لمحمد وآل محمد.

... وتشرق أم البنين بأبنائها، أبناء أمير المؤمنين، لتثبت للكون والعالم والناس أجمعين، أن الأم شمس تمدّ أبناءها بالنور والدفء، كما تمدّهم بالحياة، وأنها، لم تنجب لسيد الوصيين أبناء فحسب، فأبناؤها لم يكونوا أبناءه الوحيدين من غير الزهراء، وهو من هو في تربية الأبناء بل تربية الناس أجمعين، ولكن أبناء فاطمة بنت حزام، أم البنين، لم يكونوا كسواهم، لأن المجد والسؤدد اجتمع لهم بأبيهم خير الآباء، وأمهم التي نذرت نفسها حقاً وصدقاً خادمة لسيدة النساء، فاستمدت من قدوتها ما استطاعت به أن تكون مربية من أصلح مربيات التاريخ، إن لن تكن أصلحهن على الإطلاق، خلا سيدة النساء طبعاً.

وكيف لا تكون أم البنين عليها السلام هكذا وأكثر، وفي أبنائها ليث الوغى وناسك الورى، العبد الصالح، البالغ علم اليقين، من شهد له أهل بيت النبوة ببلوغ أعلى درجات العلم والتقى والورع والصلاح، حتى قال فيه إمامنا الباقر عليه السلام:

«إن لعمي العباس عليه السلام علماً لو وُزع منه على الناس لوسعهم».

... إيه أيتها الأمة الصالحة، يا أم العبد الصالح،

... إيه أيتها المؤثرة سيدة النساء على نفسها، كما آثر ولدك أخاه الحسين على نفسه،

إيه يا أم البنين،

إنما أنا جارية في باحة قدسك، أسعى لأتشرف بمحضر أنسك.

اغفري فضولي، أيتها العظيمة الفاضلة، يا أم العظماء الفاضلين، واغفري تطفلي على مكنون نفسك.

لست أعلم ما أخفيتِ يا شريفة الشريفات، من شرف وعظمة ورواء، . . . ولكن الشمس تشعّ بنورها فتفضي ببعض ما تخفيه، وتشفّ عن اليسير مما تحتويه، وإنما أنا مستنيرة بشمسك، ناظرة إلى ذلك الكوكب الدري المشرق في يومك وغدك وأمسك.

ولا بد لمن نظر فاعتبر، ورأى فوعى وخبر، أن تزدحم عليه الفكر، وأن يفيض ببعض ذلك الخبر.

مولاي يا أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم.

مولاي يا أبا الفضل العباس، يا عين الزهراء ويمين السبط الأمين، يا بكر أم البنين، وفخر أبنائها الصالحين.

مولاتي يا أم البنين، . . .

ما يعتريني أكثر مما أقول وأكبر. . .

مولاتي، . . . نذرت قلبي الساعة وحتى قيام الساعة، ليخفق بحبك، وحب من تحبين، فهل ترضين مني، وهل يرضى بعلك المرتضى وولدك أخو السبطين الشهيد والمجتبى، بأن أتضمخ بعبق هاتيك السنين. . . أن أقتحم بفؤادي يراعاً، ودموعي ودمائي مداداً، ذاك الحصن الحصين،

لأرسم منه لمحاتٍ قد لا تفي بالمقصود، ولكنها تتردد نغمات ضئيلات في معزوفة العاشقين وصدىً ترجّعه أنفاس الوالهين في ذيل نداء العارفين من أصحاب اليمين؟!...

مولاتي يا أم البنين، أستميحك العذر إن عبّرتُ فقصّرت، فما أنت سوى قبس من شمس أمير المؤمنين، حملتِ بعض أنواره، وكنتِ جديرة بتربية صغاره وخدمة كباره، فمن ذلك القبس نقتبس بضع شذرات، ونقتطف زهراتٍ قليلات، من روضة غنّاء ترفل بالضياء والولاء، فنستضيء بضيائك ونتمرغ في عطر ولائك.

مولاتي يا أم البنين، فهل تقبلين؟!...

أمتك وأمة أوليائك خير الأولياء

جاريتك وجارية سيدتك البتول الزهراء

رجاء

ما وراء السطور

حين نقرع باب التاريخ ونلحّ في قرعه، تنفتح لنا أبواب وتوصَد أبواب.

فالتاريخ المدوّن هو مجموعة أحداث جرت في زمن ما من الماضي، فنقلها البشر المعاصرون لذلك الزمن، شفاهاً أو كتابة، حتى وصلت إلينا.

والتاريخ الشيعي خصوصاً، جرى عليه من الطمس والتمويه ما لم يجر على غيره، . . . ذلك أن الشيعة منذ كانوا، أي منذ عهد النبيﷺ، فهو الذي أسس لهم وأسماهم شيعة، كانوا ولا يزالون مضطهدين، محارَبين على يد السلطات الحاكمة، التي هي غالباً ما تجند رجال التاريخ ليدونوا لها لا عليها.

ولكن الشمس مهما غطاها السحاب، وتضافر على إخفاء نورها الغبار والضباب، لا بد من أن يغلب شعاعها وينفذ إلى الأبصار والبصائر، فيكشف الحق لمن طلب فأصاب.

ولكن بعض الشخصيات الشيعية، من نساء ورجال، كان لهم أثر كبير في ذلك التاريخ المشرق الدامي، الذي تلطخ بدمائهم البريئة وأنفاسهم الزاكية، وإذا بالتاريخ قد غمطهم حقهم، ولم يذكر عنهم إلا القليل، مما لا يروي ظمأ الطالبين لأخبارهم، المحبين لأعمالهم، المقتفين آثارهم!

ولكن التاريخ يروي في جملة ما يروي، ظروفاً عاشوها، لأنهم عاصروها، وبشراً عاشروهم، لأنهم كانوا على صلة وثيقة بهم، وخصالاً تحلوا بها، وهي لم تنشأ من الهباء، بل كان لها في ماضيهم جذوراً.

من هنا، كان الحديث عن السيدة الجليلة القدر، العظيمة المكانة، أم الشهداء العظماء وزوجة ولي الله المعظم، أم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية، رضوان الله تعالى عليها.

لم يروِ التاريخ غليلنا بأخبارها، وأخبار طفولتها ونشأتها وشبابها وكهولتها، بل هو لم يزد على بضع قطرات من رحيق مختوم، كانت لنا رياً، وللجوهر شعاعاً يدل على محتواه.

ولذا كان لابد لنا لنستكمل الصورة من أن نعرج على التاريخ، لنقتطف منه ما يواكب مسيرة حياتها، فنرصد تلك المسيرة الخالدة، في ضوء ما قدمه لنا من أحداث، بدءاً بتاريخ ولادتها الميمونة، وما اكتنفها من ظروف تاريخية، ومروراً بنشأتها، طفولةً وشباباً وحتى اقترانها بسيد الوصيين، ثم بعد ذلك، بعدما عايشت أهل بيت العصمة، وتألقت أكثر فأكثر في رحاب جنتهم الزاهرة، حتى فاضت ألقاً وضياءً، فأنجبت ذاك البدر المشرق في غياهب الإنسانية، عنيت به قمر العشيرة أبا الفضل العباس، ثم أنجبت بعده تلك النجوم الزواهر، عبد الله وعثمان وجعفر، وقدمتهم جميعاً على مذبح الفداء، قرباناً لابن الزهراء.

وتختتم السيرة المباركة بما تختم به كل حياة مباركة، ولكنها، وأكثر من كل شمعة تنصهر ليستنير الآخرون، كانت شمعة أم البنين الأشد انصهاراً في عشق آل الرسول، ولذا فقد كانت الأكثر إنارة، . . . لم تنطفئ إذ استحالت

مادة حياتها إلى شعاع، بل ارتقت إلى حيث لا ترتقي إلا النفوس المطمئنة، فرجعت إلى ربها راضية مرضية، لتدخل في جملة عباد الله الصالحين، وتدخل جنة أعدت للمتقين.

وتبقى إشارة لا بد منها، . . .

إن ما خفي علينا تفصيله من حياة تلك السيدة الجليلة المباركة، قد بدا لنا مجمله، ولذا فقد كان للمحة دور في واقع ربما كان، بل لا بد أن ما كان، كان أعظم، . . . ولكنها، ما استطاعت عقولنا ومخيلتنا أن تحيط به وتستنتجه، عما كان.

وإذا نحن أردنا أن ندرس ما تحتويه الشمس من صنوف الجواهر، قرأنا ما كُتب على صفحتها النورانية من شعاع، . . .

إن ما رسمه القلم من لوحات وجدانية نقلت، عبر القلب لا عبر صحائف التاريخ، ما جرى، في بعض المشاهد التي لا بد منها، ولعل ما جرى كان أعظم وأرقى، ولكنه ما استطعت أن أراه بخيالي القاصر عن إدراك الكل، فلا بأس بأن ينقل جزءاً، فينبئ بعض الإنباء عن ذلك الكل.

ولكي يتميز التاريخ عن القصة، والحدث المنقول بحرفيته عن الحدث المسبوك بحبكة فنية، مما يوافق مقتضى الحال وما بلغنا من أحوال، كان لا بد من الإشارة إلى ذلك في موضعه، باستخدام علامات الترقيم المناسبة، حيث الأهلة والأقواس تتضمن الاقتباس والتضمين، أما المصادر والمراجع المعتبرة فهي مذكورة في آخر الكتاب، لتوثيق المعلومات بالطريقة الموضوعية الصحيحة.

أما في ما يتعلق بالأحداث المنقولة عن لسان المعصوم، وما جرى عليه ومعه، فهنا يتوقف القلم، ويصمت الخيال، لكي لا يجري إلا بما قال، ولئلا يكون في النقل ما يمكن أن يحال إلى كذب على الله ورسوله وأهل بيته الميامين، وهذا ما نعوذ بالله منه، ونستعيذ بالخالق عزوجل من مهاويه، حتى وإن كان الهدف سامياً في سرد الخبر، لأن الغاية في نهجنا لا تبرر الوسيلة، وأهل البيت عليهم السلام هم الغاية والوسيلة، ولا يمكن أن ينطق اللسان أو يخط اليراع إلا ما كان مذكوراً بحرفيته عنهم في الكتب المعتبرة والأسانيد المقبولة، بلا زيادة أو نقصان.

. . . مولاي، يا أمير المؤمنين، هذه سطوري بين يديك، عساها تكون قد استقامت على صراطك المستقيم لا تتزحزح.

مولاتي يا أم الحسنين، هذه كلماتي خططتها في حديث أردت به نقل صورة عاشقة لك، عرفت حقك وحق بعلك وحق أبنائك، وعسى أن لا أكون قد قصرت أو انحرفت عن السبيل.

مولاتي يا أم البنين، هذه همساتك، سمعتها عبر أروقة الزمان، تخاطبني، فخططتها بيميني، لتنبئ بما اختلج في أعماقي من فهم لذلك النبأ العظيم، الذي عشش في وجدانك، وتنفسته بكل كيانك، ولم تحيدي عنه قيد أنملة حتى أتاك اليقين.

أللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين.

ربنا تقبل أعمالنا بأحسن القبول، واجعل مثولنا بين يديك أحسن المثول،

ربنا واجعلنا ممن يدخل الجنة في ركب فاطمة البتول،

واجعلنا ممن يقتدي بآل الرسول، وأحبة الرسول، في كل ما يفعل وما يقول،

ووفقنا بتوفيقك، وسددنا بتسديدك، يا أرحم الر احمين!

رجاء محمد بيطار

النبطية ـ لبنان

العشرون من جمادى الآخرة

١٤٣٥ هجرية

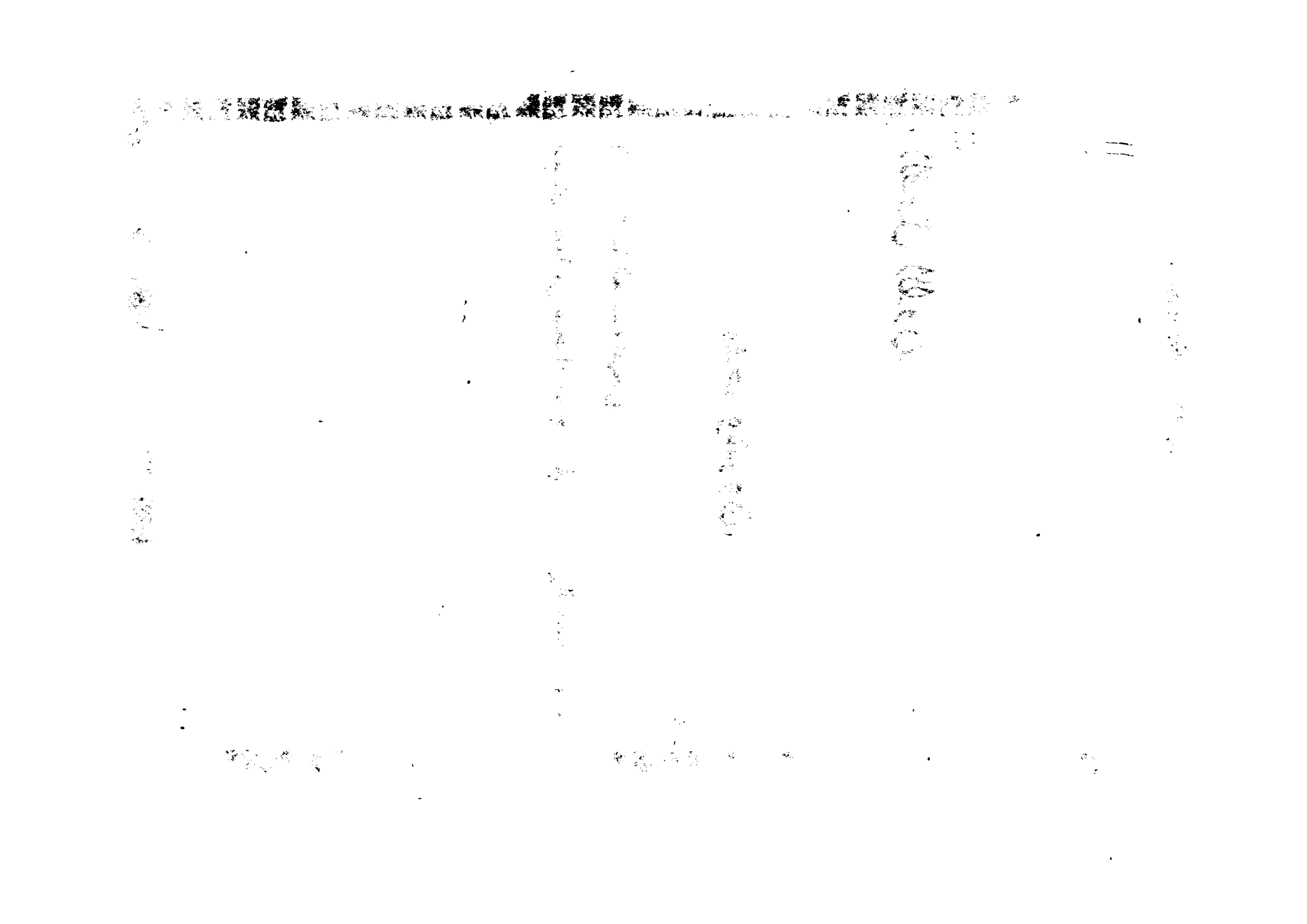
الموافق ٢٠١٤ ميلادية

الفصل الأول:

«فجر وشروق»

الزمان: السنة الخامسة للهجرة

المكان: بقعة من صحراء الحجاز على مقربة من المدينة المنورة



تسلّلت نسيمات رقيقات من ثنايا الخباء، لتداعب أهدابها المغمضة في هدوء وسكينة، وتساقط شعاع ضئيل من تلك الأشعة الساطعة التي راح ينثرها على ليل الصحراء الساجي ذاك البدر المتألق في وسط السماء.

حرّكت النسمة والشعاع سكون ملامحها، ففتحت عينيها تستشفّ المحيط، . . .

هي لم تنم إلا سويعات قليلات، فقد جافاها الكرى مطلع الليل، وراحت تسامر النجوم، بعدما أوى معظم أبناء العشيرة وبناتها إلى أخبيتهم.

لم تكن تكره الوحدة، فهي معها تشعر بسكينة لا توصف، وتكون نجواها للباري أكثر خشوعاً وخضوعاً ورهبة.

لم تكن ثمامة تدري، لِمَ كانت الوحدة في تلك الليلة أكثر أنساً من أي وقت مضى!

أهو الجنين في أحشائها يؤنسها ويسليها، ويزداد أنسه لها كلما طال مكوثه بين ضلوعها وقرب فؤادها؟!

أم هو تسليمها للخالق جل وعلا بأنها وزوجها راضيان بما يصور لهما

في هذا الجنين، وهو ما أدبهما الإسلام ورسوله الكريم به، إذ جعل الأنثى رحمة والذكر نعمة، وكلاهما من فيض عطاء الله، حسب ما يقدّر ويشاء؟!

أم لعله التفاؤل بما حمله ولا يزال يحمله هذا الجنين الحبيب من يمن وبركة؟

فأخبار انتصارات المؤمنين لا تفتأ تصل إليها وإلى قومها متوالية متتابعة، وها هي حرب الأحزاب، التي حشد لها المشركون ما حشدوا من عدد وعدة، تُتوّج بالنصر المبين لدين الحق على يد أبطال هذا الدين، الذي منّ به الله عليها وعلى زوجها وعلى قومهما، حتى كانوا في طليعة القبائل العربية من البدو، التي بايعت النبي محمداً بصدق وإخلاص، وحاربت بين يديه ولم تتأخر عن نصرته.

. . . تحركت ثمامة من مكانها، والتفّت بعباءتها وخمارها وهي تخترق سجوف خبائها، لتطل على السماء خارجاً، . . .

كان النسيم بارداً، ولكنه كان عليلاً منعشاً، وكان ضوء البدر ساطعاً، يكاد يحوّل ليل الصحراء إلى نهار شاحب، حتى الرمال كانت تبرق بانعكاس خفيف، ولولا أصوات الكلاب البعيدة تنبح وحوش الصحراء، لكان الجو موحشاً!

ولكن، بمجرد أن كانت ثمامة تشعر بحركة الجنين في أحشائها، كانت تبتسم، وتزول عنها كل وحشة، وكيف تستوحش وفي أعماقها تسكن معجزة الخلق؟!

إنها لم تكن تدرك كم هي عظيمة لحظات الخلق إلا حينما أصبحت

مستقراً لهذا الكائن الرائع الذي يوشك أن يطل بعد أيام على هذه الدنيا ليملأ حياتها وحياة زوجها حزام، حباً وسلاماً وعطاء، فوق ما هي عليه.

جلست ثمامة على الأرض أمام خبائها وقد تلاشت ابتسامتها....

ولكن حزاماً سافر قبل أيام في تجارة له، وهي تخشى أن تضع هذا المولود في غيابه....

عاد النسيم يهب من جديد، وكأنما لينبهها، إنك في حمى الله يا ثمامة، ولن يضيرك أن تضعي مولودك في غياب زوجك، فالعشيرة كلها طوع أمرك، ولن يقصر أحد في الاهتمام بك وبمولودك، فأنت أولاً بنت شريفهم وزوجة سيدهم، كما أن بني كلاب يكرمون غرباء العرب ويستضيفون حتى عابري السبيل، فكيف يقصرون في حق بناتهم وشريفات قومهم؟!

... ولكنه الشوق يا حزام، فعسى أن لا تطيل الغياب.

وهو أيضاً، توق إلى أن تكون أنت أول من يرى مولودنا المنتظر، أن ترفعه بين يديك وهو لما يزل في قماط الولادة، وأن تؤذن في يمنى أذنيه وأن تقيم في اليسرى، أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة، وأن تعق عنه بكبش سمين، كما تعلمنا من رسولنا الأمين، وكما فعل الحبيب بسبطيه الحسن والحسين ولدي فاطمة الزهراء بضعته الزكية.

تنفست ثمامة ملء رئتيها وهي تتذكر أهل بيت النبي، وما يتناهى إليها من أخبارهم في كل حين...

لشد ما تشتاق لرؤيتهم، ولشد ما يؤنسها ذكرهم وتعقب مآثرهم...

إنهم لها كبعض أهلها، بل أكثر، وإن زوجها ليشاطرها هذا التعلق بهذه الأسرة الطيبة العظيمة، أسرة خاتم المرسلين. وهو في كل يوم يسوق لها خبراً جديداً يروي فضلهم، أو آية نزلت في علو منزلتهم، مما يزيدها تعلقاً بهم أكثر فأكثر.

«ويحك يا ثمامة، يكاد الفجر يبزغ وأنت لمّا تتوضئي وتتهجدي بعد، وإن للقيام بالليل فضيلة ما بعدها فضيلة، كذا أخبرنا نبينا العظيم، فلتغتنمي الفرصة الآن ولتبادري إلى ما يكاد يفوتك من الأجر، ولتدعي أيضاً بنصر المسلمين، وبعودة حزام من سفره سالماً غانماً، ليستقبل مولوده، عسى أن يكون من الصالحين، إن الله هو القادر والمعين.

***

كان القيظ يلهب الوجوه والأبدان فأشعة الشمس أتون يلسع جلود البشر ومشافر الإبل وأديم الصحراء.

هتف حادي الركب أن أنيخوا الإبل وانصبوا الخيام للاستراحة، فالتعب قد أخذ من القافلة مأخذه، ولا يزال المقصد بعيداً، فلا بأس من التوقف لبضع ساعات، ريثما تهدأ حدة الشعاع، ويرتوي المسافرون بشربة ماء مما تزودوا به، ويزدردوا لقيمات من زادهم، ليتقووا على متابعة المسير.

وقبل هذا كله لا بد من إطعام الدواب وسقايتها، لتتقوى هي الأخرى على إكمال الرحلة، فهي تتحمل فوق ما يتحمله البشر المسافرون، ثقلهم وثقل أحمالهم، وتصبر فوق ما يصبرون، كما أن الشمس توشك أن تزول فيحين موعد الصلاة.

لعل حزاماً نظر إلى الرمال الملتهبة ومد يده يتحسّس سخونتها، ثم استردها بسرعة وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، . . . لعل عينه دمعت، . . . فلم يخف أمره على صاحبه غالب، الذي رمقه مستغرباً وهو يقول:

ـ مابالك يا أبا المحل؟ ما يشغلك ويشجيك؟!

لم يجبه حزام، بل تابع ما كان بصدده من إناخة ناقته التي تحمل متاعه، وراح يساعد غلامه في نصب خيمته، فأصر عليه غالب بقوله:

ـ ما بالك لا تجيب يا ابن العم؟أتخفي ما بك، أم تستغشّ صاحبك؟

تنهد حزام وهو يلتفت إليه بقوله:

ـ لا هذا ولا ذاك يا أخي، لكنها خاطرة خطرت لي فحركت قلبي وعيني ليس إلا! . . .

ـ أهي مفارقة الأهل يا أبا المحل؟! . . . إنهم لعمري في حفظ الله وصونه، في حمى العشيرة ولا خوف عليهم، . . .

عاد حزام يتنهد مبتسماً هذه المرة ويقول:

ـ ليست مفارقة الأهل هي ما يشجيني يا ابن العم، فهم كما تقول في الحفظ والصون، ولكنها ذكرى امرئ، له في قلبي ما له من فرط المحبة، ما أنسى معها نفسي حين أذكره، وإذا هذا القلب الذي لا تهزه أقسى الصعاب، ولا تزلزله الأهوال، يتدكدك كما تدكدك طور سيناء أمام نور الباري جل وعلا إذ تجلى لموسى الكليم عليه السلام.

ـ أهي امرأة؟! . . .

كانت دعابة انتفض لوقعها مغضباً وهويحدج صاحبه بنظرة هائلة ويقول:

ـ أولا تعرفني يا غالب؟! . . . لو قالها غيرك ما درأ عنه سيفي سوى رحمة ربي، وهل أنا صاحب غواية؟! أما إن كنت مداعباً إياي، فهي دعابة لم أستمرئها، . . . إليك عني.

كان ذلك آخر الكلام بينهما، فأما غالب فقد انكفأ جانباً مستاءً من نفسه لتطاوله على سيد قومه، دونما قصد بالإساءة.

وأما حزام، فقد شغله حتى حين إصلاح شأنه، وتفقد من في القافلة من بني قومه وسواهم، والنظر في ما ينقصهم، وتزويدهم بما يحتاجون، حتى أوى معظمهم إلى الرقاد في استراحة قصيرة ريثما يحين وقت صلاة الظهر، فيؤدونها جماعة ثم يستأنفون المسير.

[ثم إن حزاماً توضأ، وصلى في ظل ناقته ركعتين قربة إلى الله تعالى، وفيما هو ينتظر أوان الصلاة، إذ راوده نعاس ثقيل، فأوى إلى خيمته يستظل بفيئها، وينال من النوم لحظات قصاراً تعينه على استئناف واجبه تجاه أصحابه، فضلاً عن استئناف الرحلة.

. . . لم تمضِ هنيهات حتى كان حزام قد انتقل إلى مكان لم يرَ له مثيلاً في حياته، . . . أشبه بواحةٍ خصبة الجنى موّاجة بالخيرات، . . . فانتحى زاويةً من تلك الواحة، وبين يديه درة من أحسن الدر وأصفاه.

لم يدرِ حزام ما الذي حمله إلى ذلك المكان ولا ما هو كنه تلك الدرة

البهية المتلألئة التي كانت بين يديه! . . . ولم يزل على حاله من الحيرة والتساؤل، حتى أقبل نحوه فارس غريب.

لم يزل الفارس يطأ بفرسه صدر البرية حتى وصل إليه فحياه، فرد حزام تحيته، فهتف الفارس يسأله، مشيراً إلى الدرة التي يحملها:

ـ بكم تبيع هذه الدرة يا أبا المحل؟

نظر حزام إليه مستغرباً معرفته باسمه، وأجابه:

ـ إني لا أعرف قيمتها أيها الفارس، ولكن أنت بكم تشتريها؟

فأجابه الفارس:

ـ أنا أيضاً لا أعرف قيمتها، ولكن، ما رأيك بأن تهديها إلى من هو جدير بأن تهدى إليه، وحقيق بأن يتحف بها، وأنا أضمن لك عنده ما هو أغلى من الدراهم والدنانير؟!

فقال حزام متعجباً:

ـ وما ذاك؟

ـ أضمن لك الحظوة عنده، والزلفى لديه، والشرف والسؤدد أبد الآبدين.

فرد حزام متسائلاً بعجب:

ـ أوتضمن لي ذلك حقاً؟!

فأجابه الفارس بثقة:

ـ نعم أضمن لك ذلك.

فعاد حزام يسأل:

ـ وتكون أنت الواسطة والكفيل؟

فأجاب الفارس بنفس الثقة وبلهجة قوية:

ـ نعم، وأكون أنا الواسطة والكفيل، لو فوضتني أمر هذه الدرة وخولتني فيها.

عندئذٍ، قدّم حزام الدرة للفارس وفوّضه أمرها.

. . . وهبّ حزام من نومه، ولا يزال صوت الفارس يرن في أذنيه، ومنظر الدرة وبريقها عالق بناظريه.]

التفت حوله وأنصت، . . . كانت الشمس في أوج توهجها، وقد بلغت أوان الزوال، وقد ارتفع أذان مؤذن القافلة، يبلغ المسافرين بموعد الصلاة، ويهيب بهم أن يتجمعوا لأدائها.

تململ حزام وهو ينتفض واقفاً ليجدد وضوءه ويتهيأ للصلاة، وإن لم يستطع أن يتناسى رؤياه، فقد دخل في خلده أن لهذه الرؤيا تفسيراً وتعبيراً لا يعرفه، ولا بد من أن يستشير به أهل التعبير والتفسير، لينظر في ما يرونه من تأويل.

لم يطل الأمر حتى اجتمع أرباب القافلة بعد الصلاة، وراحوا يتداولون في بعض شؤونهم.

أما حزام فقد غلب عليه الشرود، فاقترب منه غالب يهمس له بتؤدة:

ـ ألا زلت غاضباً من قولي يا أبا المحل؟ . . . لعمري إني ما أردت

سوءاً بما قلت، إنما هو عبث من القول، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم، . . . ألا تقبل اعتذاري إليك؟

تبسم حزام وهو ينظر إلى صاحبه قائلاً:

ـ لا عليك يا غالب، لقد انفثأ غضبي عليك مذ تركتني، ولا أحمل لك أي ضغينة، لكن لا تعد إلى مثل ذلك القول، فإني والله لم أغضب لنفسي إذ غضبت.

ـ لمن غضبت إذاً؟!

فأجابه حزام والبسمة لا تفارق شفتيه كما لا تفارق النظرة الحالمة عينيه:

ـ لذاك الذي أخبرتك أني عاشق له، ملء قلبي وروحي!

ـ ومن هو؟! . . .

برقت عينا حزام أكثر وهو يجيب:

ـ ومن تراه غير ليث الليوث وأسد الأسود، بطل الأبطال ومنتهى الآمال، فلاّل الكتائب وأسد الله الغالب؟!

توقف حزام عن الكلام وهو يلتقط أنفاسه، فيما انبرى أحد الحاضرين يتدخّل، وقد سمع آخر الحديث:

ـ من هو هذا الذي يصفه أبو المحل بهذه الصفات العظيمة؟إنك لم تكذبنا في خبر قط يا سيد كلاب، فما بالنا نشتمّ في حديثك ريح المبالغة والشطط؟! . . . وهل تتحدث إلا عن بطل من أبطال بني كلاب، من آبائك وأجدادك، أو أعمامك أو بني أعمامك، فأيهم

يستأهل في نظرك كل هذا المديح؟!..

التفت حزام إلى محدثه كالملدوغ وهو يجيبه بشدة:

ـ بل هو كما أقول وأكثر، وليت أن بيني وبينه مثل ما تقول من نسب، إذاً لكان ذلك أحب إليّ من الدنيا وما فيها، ... كلا أيها القوم، إن من ينطق لساني ويتشرف بسمو ذكره، ليس من أبناء قومي، وفيهم خيرة الأبطال والأشراف، بل هو خير منهم، بل خير من العرب والعجم والبشر أجمعين، خلا الرسول الكريم محمد بن عبد الله.

فعاجله غالب بقوله:

ـ ما أظنك إلا أردت ابن أبي طالب، علياً، وقد عرفتك له هاوياً ومريداً من قبل، ولكن ما كنت أظنك قد بلغت بعشقك له كل هذا الحد!

تنفس حزام الصعداء وهو يقول:

ـ بل إياه قصدت، وإنما أخذ حبه بمجامع قلبي لأنه حب لرسول الله، ومودة القربى التي أمرنا بها الله عزوجل، أولست مطلعاً على فضائله عارفاً بحقه يا غالب؟!

ـ بلى يا ابن العم، ولا يلومك في حبه لائم، ... وما عرفناك للهوى مطيعاً، بل كنت ولا زلت فينا سيداً مطاعاً، وعاقلاً لا ينكر رأيه، وذا حجىً لا يفلّ حجاه، وليس رأيك بأقل حداً من سيفك، فقرّ عيناً يا أبا المحل، ... والله إنا لا نخالفك، ولكن لعلك عرفت من أمره ما لم نعرف، أفلا تذكر لنا ما يزيدنا به معرفة على معرفتنا؟

أشاح حزام عن صاحبه وهويتمتم:

ـ إن الشمس يا غالب لا تحتاج لأكثر من عين باصرة حتى تراها، وإنما ذكرني به قبل ساعة إذ تلمست الرمال الملتهبة فتلوعت، تذكري لفضيلة من فضائله، يوم أمّ يثرب بعدما ترك مكة مهاجراً بصحبة الفواطم الهاشميات، . . . تذكرت سوقه الرواحل بالليل والنهار حتى يأمن شر قريش وعتاتها ويصل بهم إلى مأمن، حتى إذا أدركه فرسانهم وقتل جناحاً بضربة واحدة ثم تابع المسير بما استودعه النبي من ودائع الرسالة، قصدت الفواطم، ووصل إلى مشارف يثرب، فاستقبله النبي استقبال الفاتحين، . . . كانت قدماه تشخبان دماً لطول المسير ووعورته وحرارة الرمال، وإذا بالنبي يبكي رحمة له، ثم يتفل في يديه ويمرهما على قدميه ويدعو له فيبرأ من ساعته، . . . ويقول عليه السلام: «والله ما شكوت منهما بعد ذلك قط». لقد ذكرتني حرارة الرمال وتلافينا المساس بها، ما مر على علي في تلك الرحلة الشاقة المحفوفة بالأخطار، وإني لعمري لأتمثله وأتمثل الرسول ومآثرهما في كل ما يصادفني من أحداث!

ـ نعم الصاحب أنت يا حزام، إنك حقا لصاحب من أصحاب النبي وإن لم تكن قد رافقته ولازمته، فإنما أنت ملازم له بالقول والفعل والقلب واليد واللسان، . . . بوركت يا حزام، بوركت!

طأطأ حزام برأسه مهموماً بدل أن يستبشر بمديح من حوله، فهو أولاً لم يكن يعشق المديح، وثانياً. . . لقد عاودته ذكرى تلك الرؤيا، وخطر له سؤال:

ـ إيه يا أشراف العرب، أفيكم من يعرف تعبير الرؤيا؟!

. . . التفت الجميع إلى ذلك الشيخ الطاعن في السن، الذي توارت حدقتاه خلف حاجبيه الكثيفين الأبيضين اللذين لا يختلف لونهما عن لون لحيته وثوبه، أو لون عمامته التي غيّر بعض بياضها غبار السفر.

وتابع حزام يروي رؤياه، مما حمل الجميع على الإصغاء والاستغراق، وتمثل الرؤيا بكل تفاصيلها، وما إن فرغ من سرده، حتى ساد صمت وسكوت، ثم ارتفع صوت أعمق من الصمت بقليل يقول:

ـ [إن صدقت رؤياك يا أبا المحل، فإنك ترزق بنتاً ويخطبها منك عظيم من العظماء، وتنال عنده بسببها الشرف والسؤدد.]

كان صوت القدر ينطق على لسان العجوز، فهش حزام وبش، وشعر بأن التعبير صادق حقاً، وتضاحك بعض الحاضرين يمازحه بقوله:

ـ أتهشّ وتبشّ يا أبا المحل، وإنما تبشرك الرؤيا بأنثى؟

. . . لم يعبس حزام، رغم استيائه للتعليق، بل رد بحزم وهو يستعد للقيام:

ـ وهل أكون كالذي جاء ذكره في محكم الكتاب «إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم»؟ بل أكون ممن يقتدي بنبينا محمد، الذي رزقه الله خير النساء وسيدتهن فكانت أعز عليه من نفسه التي بين جنبيه! . . . قوموا يرحمكم الله لنتابع المسير، فما أعجل ما يداهمنا الليل، ولما نقطع من الطريق إلا القليل، . . . هيا! . . .

وتتابع القوم يقومون، ويتهيأون لمتابعة المسير، تتراوح بين أسماعهم وأبصارهم جلبة التهيؤ للرحيل، تتداخل في أحاديث شتى يجمع بينها عنصر واحد، حزام ورؤياه، وما أضحى يصرح به بين الحين والحين من حبه وهواه، لا للنبي الأمي فحسب، وهو ما يجتمع كلهم عليه، بل لآله الأقربين، وهو ما يسعى ليجمعهم حزام عليه.

ومضت بهم اللحظات آخذة بلجام الساعات، ومضوا يواصلون رحلتهم، . . . ناهجين سواء السبيل.

***

كانت مضارب بني كلاب لا تبعد كثيراً عن مشارف المدينة، وكذلك تلك الصرخة العذبة التي شقت فجأة فضاء المكان، لتعلن للكون ميلاد حياة جديدة، خرجت من ظلمات الأرحام إلى نور الشمس الوضاء، فاجتمع لذلك الضيف الجديد كل ما هو جديد متجدد في الحياة، النور والهواء، والفراغ المحيط الذي ينبئ الوليد بحركة واحدة، أنك قد خرجت إلى هذه الدنيا حراً، لك ان تختار أي سبيل تشاء.

. . . رُفع الوليد بعدما غُسّل وطُهّر ولُفّ بقماطه، ليوضع على صدر أمه، وهمست أم ثمامة في أذن ابنتها:

ـ خذيها يا ثمامة، لقد وضعتها أنثى!

نظرت ثمامة بإعياء في وجه وليدتها، وإذا بالنشاط يسري في عروقها ويتهلل وجهها حال رؤيتها، فتهتف بأمها قائلة:

ـ وأي بأس في الأنثى يا أمها؟! . . . أشتم في كلماتك رائحة الأسف

ولا أرى له سبباً. ألم تكن مريم بنت عمران أنثى، وتقبلها ربها بقبول حسن، وكذلك فاطمة بنت محمد التي أنزل بها الله الكوثر على نبيه وأفحم شانئيه؟!

تنهدت الأم بهم وهي تجيب:

ـ لست أنكر ما تقولين يا ابنتي، ولكن حزاماً سيد قومه، وهو لا بد يرغب في الذكور من الذرية، كي يباهي بهم أبطال بني كلاب.

ـ وهل البطولة حكرعلى الرجال يا أماه، أفلا ترين إلى أمهات أنجبن أبطالاً؟! أكان الأبطال ليولدوا بلا أمهات؟!

نظرت الجدة إلى حفيدتها التي نطقت ملامحها الرقيقة بحسن آسر، وأسرار كثيرة، كما لاح في عينيها الناظرتين حولها تستطلع الكون، وهي لما تفتحهما على الحياة إلا قبل لحظات، لاح فيهما ألق غريب، فهزت برأسها تجيب:

ـ لست أنكر ما تقولين يا ابنتي، فإنما هي عطية من الله، وعسى أن تكون لك ولبعلك طالع يمن وبركة، . . . عليك الآن بإرضاعها والاستراحة من تعب الولادة، فلا تكثري من الحديث، . . . والأيام المقبلة كفيلة بأن تظهر المكنون.

. . . ضمت ثمامة طفلتها، قربت وجهها من وجهها، كانت أنفاسها المتلاحقة الدافئة تنبئ بالكثير، وكذلك نظرتها البارقة، وما إن التقت نظراتهما، حتى صار من الصعب عليها أن تشيح أو تزيح، . . . خفق قلبها بعنف، ربما للمرة الأولى كان حب آخر يدخل قلبها، سوى حب فاطمة

بنت محمد، . . . ولكن، كانت بين الحبّين قرابة ما، حتى لكأن أحدهما كان وليد الآخر!

ترى. . . أهي فاطمة تبارك الساعة مولودتها، في من تبارك من بنات المؤمنين؟!

. . . هل وصلت إلى مسامعها العلوية صرخة الولادة، والتقط بصرها المتجول بين السماء والأرض حال مناجاتها، نور هذه النجمة الجديدة الذي برق فجأة في فضاء المحبين؟!

. . . ألن تُمِدّ بنور عطائها هذه النجمة بالألق والشعاع، وتتعهد هذا البرعم الريان الذي أنبتته حديقة عشقها، ليتفتح زهرةً فواحة الشذى، ثم ثمرة طيبة الجنى تؤتي أكلها كل حين؟!

وتمنّت ثمامة، . . . ربما تمتمت بدعاء قصيرٍ ترجم بعض لهفتها وشوقها، . . . أن يحضر حزام ليشاطرها حلاوة اللحظة، وليقوم بمراسم الولادة لابنته، . . . فهو دون سواه كفيل بأن ينقل إلى ذلك البرعم الغضّ كلما يحتاجه الساعة من ري زلال، يحدد له ما سيكون عليه بعد حين في الحياة من هداية ونجاة.

. . . لم تكد ثمامة تسترد ناظريها اللذين راحت تطوف بهما في فضاء المكان، وهما يجولان بدموع الفرحة والحيرة والاشتياق، إلا وقد طرق سمعها صوت من خارج خيمتها ووقع خطوات لا تنكره، ونبرة يعشقها فؤادها، فهتفت كأنها تخاطب صغيرتها:

ـ إنه أبوك!

وكأنما تهلل وجه الطفلة للخبر، بل لعله أشرق لتهلل وجه أمها وإشراقه، وربما لأمر آخر، . . . وأطل حزام من باب الخيمة وقد ارتسمت البهجة على ملامحه، وتقدم تواً صوب امرأته وطفلته، لعله نسي لشدة لهفته أن يلقي السلام، فقد كان محياه المتلهف ينطق بالسلام، وتبسم وهو يمد يديه ليتلقى الوليدة المباركة.

. . . وأطل عليه ذلك الوجه الملائكي القسمات، يتلألأ كالدر صفاءً ورواء، . . . احتضنها، تماماً كما كان يحتضن تلك الدرة الثمينة في رؤياه، وقرب فاه من أذنها اليمنى، وراح يؤذن. . . كان وجهها يزداد اشراقاً وتلألؤاً مع الكلمات، حتى إذا تابع يقيم في اليسرى، كانت أنفاسها المتلاحقة قد أضحت أشبه بصدى لصوته، . . . إن المعاني تتغلغل في أعماق روحها، لتعيش وتترعرع وتنبت نباتاً حسناً.

[كانت ثمامة تعرف في زوجها بعده عن ترهات العرب وجهلهم، وكانت تتوقع رضاه بما ارتضاه الله له، لكنها لم تكن تتوقع أن يسر بولادة طفلته كل هذا السرور، . . . بدا لها أن في الأمر سراً، فلما سألته قصّ عليها رؤياه، وكيف أنه بُشر بهذه الولادة الميمونة قبل حدوثها، وها هي أول بوادر صحة التعبير للرؤيا تظهر، فقد بشر بولادتها حالما بلغ مشارف المضارب، وها هو قد سعى إليها فور وصوله ليستكمل بها فرحته، وإنه ليستشعر في صميم فؤاده ان لهذه البنت شأناً من الشأن.]

وختم حزام يوصي امرأته بقوله، وهو يعيد الطفلة إليها:

ـ احرصي على هذه الدرة يا ثمامة، لا تقصري في رعايتها وحسن

تربيتها، وقد عرفتك للتربية والتهذيب أهلاً، فهي لعمري كنز قد منّ به الله علينا، . . . ولئن صدقت الرؤيا، وما أراها إلا صادقة، فهي ستكون لنا ذخراً، ننال به الشرف والسؤدد أبد الآبدين، كما أخبرني ذاك الفارس في رؤياي، وإني لقوله من المِصدقين، وإني لهذا الأمر من المنتظرين، وإني على الله من المتوكلين، وإني أحمد الله وأشكره أن أولاني هذه النعمة العظيمة، وإني له من الذاكرين الشاكرين.

. . . والتقت يداهما تحت قماط الطفلة، كما التقت عيناهما الناضحتان بالشكر والسرور على الوجه الهادئ القرير، والتقى قلباهما الخافقان بالحمد لعطايا الجليل القدير، وهمست ثمامة، وقد أشرق على جبينها نور محا عنه كل ما كانت آلام المخاض قد رسمته قبل ساعة من شحوب وإعياء:

ـ أفلا تسميها يا حزام؟

نظر حزام إلى الطفلة مجدداً، يستشف سريرتها الناصعة، وكعادته، تمثّل أحبته محمداً وأهل بيته، وهتف بثقة وهو يتنهد:

ـ هي جديرة بحمل خير الأسماء، ولا أجد خيراً من «فاطمة»!

تهلل وجه ثمامة، وتبسمت حتى بان سنها وهي تقول:

ـ أحسنت يا أبا المحل، جعلك الله محلاً لكل المكرمات، أفلا تكنيها؟!

وعاد حزام يجيب بنفس الثقةالسابقة:

ـ فلتكن «أم البنين»، فقد جعلها الله لي عوضاً وخيراً من كل ما يمكن أن أنجب من بنين، عسى أن يجعل الله لي في ذريتها كما جعل لرسوله الكريم في بضعته فاطمة، خير ذرية من الكرام النجباء، إنه سميع الدعاء.

الفصل الثاني:

«أول الشعاع»

الزمان: السنة السابعة للهجرة

المكان: مضارب بني كلاب في صحراء الحجاز مابين مكة والمدينة

أسندت ثمامة رأسها إلى يدها وهي تسلم فكرها لعاصفة من الحيرة والقلق، دونها عواصف الصحراء ورياحها العاتية، فها هي جالسة في فناء خيمتها تتلاعب بقلبها عواطف الشوق والخوف، كما تتلاعب أصابعها المتشنجة الباردة بخصيلات شعر تناثرت على جبين طفلتها، فراحت تسويها بيد مرتجفة.

فتحت فاطمة عينيها، وأزاحت رأسها المستند إلى صدر أمها، وسألت:

ـ أماه، ما لقلبك يخفق بشدة، وما ليدك باردة ترتجف هكذا؟ هل من سوء أصابك؟!

تبسمت ثمامة لفصاحة ابنتها وطلاقة لسانها، وهوأمر لم يكن غريباً عليها، فقد عرف الجميع حولها ما تتحلى به الصغيرة من صفات كبيرة، تتفوق بها على أترابها، ممن لا زلن يلثغن بالحروف وبالكاد يجمعن الكلمات، وأجابت متنهدة:

ـ كلا يا بنيتي، ما بي من سوء والحمد لله، ولكن، لعله ليل الصحراء البارد قد أثلج كفي.

ـ وهل يبرد القلب أيضاً يا أماه فيزداد وجيبه؟

أدركت ثمامة أن ابنتها أذكى من أن تستطيع إخفاء مشاعرها أمامها، ولم يكن بوسعها إلا أن تجيب:

ـ كلا يا بنتاه، لا يبرد القلب، بل يزداد خفقه إن أصابه قلق أو خوف.

اتسعت حدقتا فاطمة وهي تسأل من جديد، وقد بدا في نظرتها حزن لا تتسع له عيون الأطفال:

ـ وهل أنت خائفة يا أماه؟... ومم تخافين، وقد علمتني أن المؤمن لا يخاف، لأن الله يكلأه ويحميه؟!

لم يكن بمقدور ثمامة أن لا تبتسم وهي تضم طفلتها إليها، تهدئ من روعها وتخفف عنها حزنها وتجيب:

ـ ليس خوفاً يا صغيرتي،... بل هو قلق،... تعلمين أن والدك مسافر منذ حين، و...

غصت ثمامة بعبرتها، ولكن فاطمة لم تكتفِ بل عادت تسأل بإلحاح:

ـ أماه، أبي دائماً يسافر،... فهل هذا السفر مختلف؟

خففت ثمامة من غلواء ضمتها لابنتها، تراخت يداها وهي تنظر إلى البعيد، وتقول بنبرة بين الحلم والرجاء:

ـ إنه سفر جهاد يا ابنتي، وأنا لست قلقة عليه وحده، بل على من هو معهم،... لا إخوتي وأبناء عشيرتنا فحسب، بل من هم فوقهم جميعاً.

ـ تقصدين نبينا محمداً وأهل بيته؟، لكن الله يحميهم يا أماه، ألم

تقولي لي أن الله قد وعد نبيه بالنصر، وأنه يحفظه من شر الكفار والمنافقين؟ أليس هذا ما تقولينه لي دائماً، حين تحكين لي ما مر على نبينا محمد من كيد الكفار ومكرهم، وما أعطاه الله عليهم من الفضل والنصر؟

ـ بلى يا بنيتي، لكن القلق أمر لا يد لنا فيه.

أمسكت فاطمة بيد أمها، وعادت تسند رأسها إلى صدرها، وتغمض عينيها مطمئنة، وهي تمرر كف أمها على شعرها كما كانت قبل قليل، وتقول باطمئنان:

ـ إذاً، فاستعيذي بالله من الشيطان الرجيم، وتوكلي على الله، واحكي لي حكاية جديدة، عن نبينا الحبيب محمد، وعن ابنته فاطمة الزهراء وزوجها وأولادها، فإني أحب حكاياتهم كثيراً، . . . أرجوك يا أماه!

كانت كلمات فاطمة كفيلة بأن تخرج أمها، لا من قلقها الجسيم فحسب، بل من مجرد التفكير في أي أمر سواها. . . . امتلأ فؤادها الذي هدّأ وجيبه الثائر بلسم كلامها، ليخفق بالسرور والغبطة، شكراً لله على هذه المنة العظيمة، هذه العطية المباركة، للطفلة الوضاءة القسمات، اللماحة الذكاء، الصافية العقيدة، الثابتة الولاء والإيمان، فقد حازت وهي في هذه السن الصغيرة، ما لا يحوزه ربما أكابر الناس وأعيانهم.

. . . وراحت تجمع أفكارها، ما شتته القلق قبل قليل، من أخبار وروايات، تتحف بها مسامع ابنتها المتشوقة دائماً وأبداً للمزيد، من أحاديث الأنبياء والعظماء، وأبناء الأنبياء والعظماء.

. . . لم تدرِ ثمامة كم كان قد مضى عليها من الزمن وهي باقية على جلستها تلك وقد غلبها النوم، فيما كانت تسرد لابنتها ما تسرد من حديث، ولكنها تدري أنها، وحينما فتحت عينيها، أدركت أن الليل قد انتصف أو كاد، وأن عليها أن تقوم لتسوي نومة ابنتها، ولتتهيأ للعبادة والذكر، تتقوى بهما على تحمل الوحدة والفراق، وتتسلح بهما، بالدعاء للمؤمنين بالنصر، وفيه بلوغ الغايات والمقاصد.

. . . لم تكد ثمامة تبلغ من العبادة شأواً حتى تناهى إلى مسامعها صوت نباح كلاب القبيلة، وهو أمر لا يحدث عادة إلا إذا اقترب من المضارب أحد ما، ضيف أو رسول، أو. . .

. . . ، أرهفت ثمامة السمع عساها تحصّل خبراً ما، دونما السعي وراءه، فهي ما كانت لتغادر الخيمة تاركة فاطمة وحدها، مهما كانت الأسباب.

. . . وارتفعت أصوات التكبير من كل جانب من جوانب المخيم، . . . لا بد ان أمراً عظيماً قد حدث.

لم يعد بوسع ثمامة أن تصبر، فسوّت خمارها، ووقفت على باب خبائها تستوضح ما يجري، بنظرة تلتقطها من الخارج، أو نداء جديد.

رأت ابنة عمها سلمى تطل من بعيد ملهوفة، فهتفت تسألها بصوت مبحوح:

ـ إيه سلمى، ما الخبر؟! . . .

اندفعت سلمى نحوها والبهجة ملء محياها وهي ترد:

ـ النصر يا ثمامة، . . . النصر للمؤمنين، . . . لقد نصر الله رسوله على يهود خيبر، وفتح له فتحاً مبينا.

لم تتمالك ثمامة أن راحت دموعها تنسكب، وأهوت على الأرض ساجدة من فورها وهي تلهج بالشكر لله العلي القدِير.

ولما رفعت رأسها كانت سلمى لا تزال واقفة وهي تتأوه قائلة، وكأنها تحدث نفسها:

ـ عسى أن لا نكون قد فقدنا الكثير من الشهداء، . . .

انتفضت ثمامة لوقع كلماتها وهتفت بقوة:

ـ كل شهدائنا فداء لمحمد وآل محمد ودين محمد! . . . ألك علم بأخبارهم؟

فاستدركت سلمى تقول:

ـ لا علم لي يا ثمامة إلا ما أخبرتك، وقد وصل البشير قبل ساعة إلى مضاربنا، وأبلغنا فانتشر الخبر كالنار في الهشيم، لكنه يقول ما مفاده، [أن علي بن أبي طالب قتل مرحباً اليهودي قتلة أشبه بقتلة عمرو بن عبد ود العامري في حرب الخندق، وأن المشركين انهزموا، وأنه ما تتامّ آخر الناس مع علي حتى فتح الله لأولهم على يديه، فالحمدلله.]

وانصرفت سلمى، فيما عادت ثمامة إلى داخل خيمتها، ولسانها لا يفتر عن الشكر والحمد، وعيناها لا تفتران عن ذرف الدموع.

أقبلت نحو مصلاها تريد أن تصلي ركعتين شكراً لله على ما أنعم به على المؤمنين من النصر والعزة، وإذا بها ترى فاطمة تتقلب في نومتها، فأقبلت تصلح عليها الغطاء، وتذكرت ما قالته قبل نومها بقليل، تذكرت حزاماً ورؤياه، . . . إنها في كل يوم يمر ترى تحقق الرؤيا، ففاطمة طفلة غير عادية، لا في ذكائها ونباهتها فحسب، بل في وعيها وصفاء عقيدتها وجلاء بصيرتها كذلك، فهي تشعر بالحق وتعرفه بقلبها وروحها قبل أن تعرفه بعقلها وإدراكها، وتعيش في ظل معرفتها هانئة مستقرة، حتى وإن خالج مَن حولها القلق والاضطراب، . . . إن نفسها ساكنة مطمئنة، لذا فإن قلبها كذلك ساكن مطمئن، لا يساوره ما يساور قلوب الكبار من شك وريب.

***

ـ أبتاه، . . . لديك أخبار كثيرة، أعلم هذا، فأنت كلما عدت من سفر أخبرتنا الجديد، . . . وقد كان سفرك هذه المرة جهاداً، فهل ستخبرنا عن الحرب، وكيف انتصر المسلمون؟

. . . ضم حزام ابنته مبتسماً، ووضعها في حجره وهو يجيب:

ـ سأخبرك يا بنية، فلا تتعجلي، . . . ولكن، ما لك وللحرب وأخبارها؟! . . . إنما أنت فتاة، ولا شأن لك بالحروب، فأخبارها، وإن كانت مشوبة بالنصر، إلا أنها تقرح القلوب.

. رفعت فاطمة ناظريها إلى أبيها متعجبة وسألت:

ـ ولكنك قلت لي مرة، أن المؤمن إذا حارب فاستشهد دخل الجنة،

وإذا لم يستشهد نال النصر. . . . إذاً فليس هناك ما يقرح القلوب، . . . وهل سنحزن على الكافر مثلاً؟!

هزّ حزام برأسه وبادل امرأته الجالسة جانباً نظرة تعجب يخالطها إعجاب، ثم تنحنح وأجاب:

ـ إنك على حق يا أم البنين، لله درك، . . . ما لنا وللكافرين، إنما أخبارنا عن بطولات المؤمنين، وما أكثرها في هذه الحرب، بل إن فيها الأبرز والأهم.

ـ أهي بطولات ابن عم الرسول، علي بن أبي طالب، يا حزام؟

سألت ثمامة سؤال عارف بالجواب، فرد حزام:

ـ ومن سواه يا ثمامة؟! . . . لقد رأينا منه في هذه الموقعة العجب العجاب، فهو في كل وقعة يتحف المسلمين بمأثرة جديدة تفوق سابقاتها، حتى طبقت مآثره الخافقين، . . . بأبي هو!

ـ وماذا فعل يا أبت؟! . . .

سألت فاطمة متشوقة:

ـ لو لم يفعل شيئاً إلا قتل مرحب صاحب الحصن لكفاه، كيف وقد زاد أشياء وأشياء، مما لا يصدقها العقل، لولا أن العين والقلب يؤكدان، فلا يجد بداً من التصديق؟!

ـ لقد شوقتنا يا أبا المحل، أفلا تسرد الخبر لنعرفه، وما هو على صاحب لواء النبي بكثير؟!

ـ إن حمل اللواء الذي ذكرتِ هو أول الغيث.

ـ ولكن علياً هو حامل لواء النبي في كل غزواته وحروبه، فما الجديد هذه المرة في حمل اللواء؟!

ـ لا جديد، سوى أن [علياً كان أرمد في بادئ الأمر، فدفع النبي اللواء إلى سواه، حتى إذا عادوا بالهزيمة والخوف، وصاروا يجبنون بعضهم بعضاً، قال لهم النبي مقولة اشرأبت لها أعناقهم وتطلعوا إلى ما لم يكن لهم.]

ـ ماذا قال؟

ـ [لقد قال الصادق الأمين «لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، يفتح الله على يديه»]. لقد علمنا نحن محبي علي أن النبي لا يقول مثل هذه المقالة إلا فيه، ولكن الشك ساور البعض إذ علم برمد علي، وظن أن النبي لا يدفع الراية له، ولكن [النبي دعا به غداة، فأقبل لا يبصر طريقه، فتفل في عينيه فبرئتا، ودعا له، فأبصر، وعقد له اللواء، ثم ألبسه درعه وشد ذا الفقار على وسطه، ووجهه إلى الحصن. . . . لقد خافه أهل الحصن، فلما برز إليه الحارث قتله، فخرج أخوه مرحب صاحب الحصن مغضباً، . . . لعمري إن منظر مرحب هذا كان يفل في عضد الجيش، فقد كان فارساً جسيماً مغواراً، خرج شاكي السلاح من حصنه وهو يخطر ويهدّ ويتوعد، وقد لبس درعين وتقلد سيفين واعتم بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً، وحجراً

قد ثقبه قدر البيضة، ومعه رمح لسانه ثلاثة أشبار، وهو يرتجز بقوله:

«قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب»

فلم يجرؤ أحد على مناجزته.]

ـ إن من يقتل بطلاً كهذا يكون سيد الأبطال!

هتفت فاطمة محتبسة الأنفاس، فرد أبوها وقد سرته نباهتها:

ـ إنه كما تقولين يا فاطمة، [ولقد برز له علي وهو يرتجز بدوره قائلاً:

«أنا الذي سمتني أمي حيدرة ليث بغابات شديد قسورة»

فاختلفا ضربتين لا أكثر، فضربه علي فتترّس، فوقع السيف على الترس فقدّه وشق المغفر والحجر والعمامتين وفلق هامته، وقد سمع جميع أهل العسكر صوت ضربته، فذهل الذين كفروا وارتعبوا وانهزم اليهود وفتح الله على المسلمين.]

كان حزام يتحدث بحماس واندفاع، فيرفع صوته حيناً ويخفضه حيناً، وكانت فاطمة تتابع انفعالاته وتواكبه وتجاريه وتزيد عليه أحياناً، غير أنها لم تكتفِ، بل سألت تستزيده وقد برقت عيناها:

ـ أبتاه، وما قصة باب الحصن؟ سمعت في مضاربنا من يتحدث عن باب ثقيل رفعه بطل عظيم ولم يقدر على رفعه جماعة، فما قصته؟!... أخبرني بالله عليك.

تنهد حزام وهو يجيب:

- لا حيلة لي إلا بأن أجيبك، ولكن فليكن هذا هو سؤالك الأخير يا ابنتي، فإني متعب من السفر والحرب وأحتاج شيئاً من الراحة.

- لن أسأل شيئاً بعد، فقط أخبرني عن قصة الباب.

- إنها ليست قصة باب واحد، بل هما بابان، [فقد جرى أثناء الحرب أن فقد علي ترسه، إثر ضربة من لعين، فوجد باباً إلى جانب الحصن فتترّس به، ثم إنه بعد قتله مرحباً هرب اليهود إلى حصنهم فدخلوه وأغلقوا الباب خلفهم، وكان باب الحصن منحوتاً من الصخر، فعالجه علي بيده حتى اقتلعه ورماه، بل هو جعله جسراً ليعبر عليه المسلمون فوق الخندق الذي احتفره اليهود ليحموا به أنفسهم، وقد رأيت باب الحصن وقد قصّر عن الخندق، فأمسكه علي بيده حتى عبرعليه الناس. لقد حاول تحريك باب الحصن بعد ذلك أربعون نفراً فما قدروا. أما الباب الذي تترّس به فقد عجز ثمانية عن حمله]. . . . لله درك يا ابن أبي طالب من بطل مغوار لا يشق له غبار، ومن أسد غالب لا مثيل له بين الآساد، . . . إن قوته ليست قوة بدن فحسب، بل هي قوة قلب وروح، فهو لم يكن يحارب بيده، بل بإيمانه، وبما أن إيمانه فاق إيمان كل المؤمنين فقد كانت ضربته لمرحب يوم خيبر، ربما كضربته لعمرو بن عبد ود يوم الخندق، تعادل عمل الثقلين إلى يوم القيامة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

- صلى الله عليه وآله وسلم.

أنهى حزام حديثه، وعلمت فاطمة أن الحكاية قد انتهت، فنهضت من

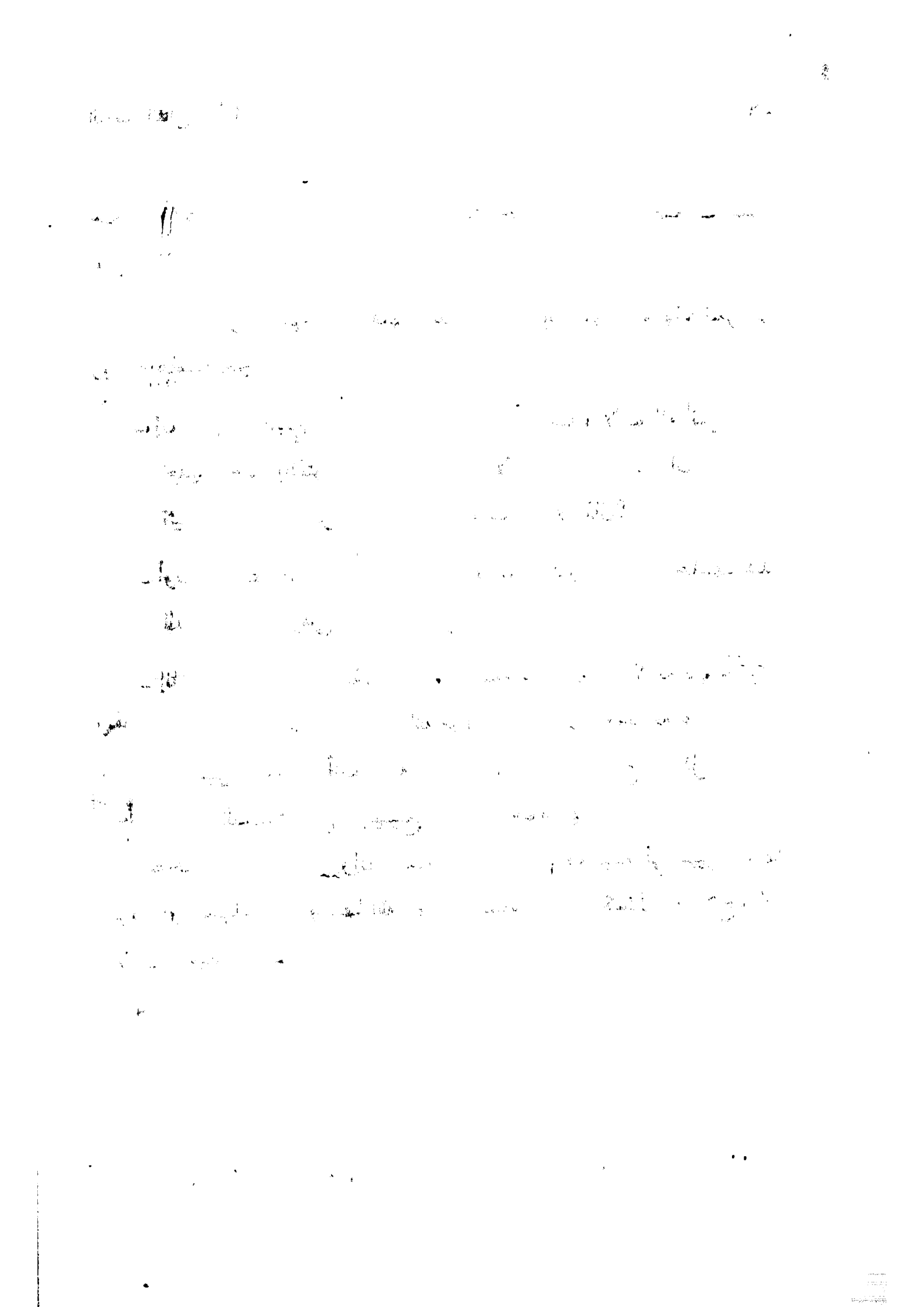
حجر والدها، وانتحت زاوية الخيمة حيث جلست بهدوء وصمتت صمتاً عميقاً.

. . . أما حزام، فهو قد رافقها بنظره، حتى إذا رأى صمتها، نظر إلى زوجته هامساً بعجب:

- إن أنسها بحديثي عن حروب النبي ومآثرآل بيته، لا يماثله أنس شاب حديث عهد بالفتوة، متطلع إلى بطولات العرب، . . . إن حماستها تثير عجبي، فما تريد بنت صغيرة بقصص الأبطال؟!

- أولم تدعُها «أم البنين»؟ . . . أولا ترى كم هو لائق عليها هذا اللقب، حتى وهي في هذه السن؟!

- إنك على حق يا ثمامة، . . . إن فاطمة ستكون فتاة لا تماثلها أخرى في بني كلاب، فهي بعون الله موفقة إلى الخير، مجبولة على الفطرة والطهر، وهذا ما أحمد الله تعالى عليه، . . . وأتطلع في كل يوم إلى ذلك المستقبل البهيج الذي أرجوه لها، وهي لعمري به جديرة، . . . فهي وإن كانت لا تزال صغيرة، تبدو لي كبيرة بأدبها وفهمها، . . . وفقها الله لما فيه تمام الخير وكمال الصلاح، إنه حميد مجيب.



الفصل الثالث:

ظهر الحق وزهق الباطل

الزمان: السنة الثامنة للهجرة

المكان: مضارب بني كلاب

تدافعت الشياه وهي تتسابق صوب الحظيرة لاهثة، وأقبل حزام يشرف على القطعان العائدة ويسأل:

ـ ما بالك قد عدت بالقطيع يا مالك، النهار لما ينتصف، والشياه لم تطعم شيئاً منذ مساء أمس، . . . ما كان عليك أن تعود سريعاً هكذا قبل أن يأخذ القطيع حاجته من الماء والكلأ.

أجاب مالك وهو يمسح العرق المتصبب الملتمع على جبهته السوداء:

ـ لا كلأ في المرعى يا سيدي، فقد أجدبت الأرض لقلة المطر كما تعلم، ورأيت أن القطيع يحتمل حرارة الشمس سدى، ففضلت الرجوع، أما الماء فهو بالكاد يعصم الشياه من الموت ظمأً لا أكثر.

هز حزام برأسه، . . . لم يكن مهموماً، فقد تعود أن يلقي همه على كافي الهموم، ولكنه كان منشغل البال قليلاً، يفكر في ما سيؤول إليه أمر الجفاف فيما لو لم تمطر السماء، . . .

«لا بد من الاستسقاء» . . .

كانت الفكرة لا تراود حزاماً فحسب، ولا بني كلاب فقط، بل هي

كانت تدور في خلد كل بشرعلى امتداد الخط من مكة إلى المدينة، وما يحيط بهما من صحراء.

[وتناقل الناس أن القحط قد عم مكة، وأن الجدب والجوع أخذا من أهلها كل مأخذ، حتى بلغ بهم الأمر أن أكلوا نبات الأرض وجلود الحيوان. . .]

ـ إن قريشاً قد أنكرت نعم ربها، فحق عليها العذاب!

كان غالب ينقل إلى حزام آخر ما وصله من أخبار مكة، فرد حزام:

ـ ليسوا خيرا من قوم عاد الذين كذّبوا نبيهم، حتى حاق بهم العذاب فهم لا يُنصرون، لقد ظلموا أنفسهم، وذلك جزاء الظالمين.

ولكن غالباً عاد يقول:

ـ لكن [أبا سفيان صخر بن حرب، أتى النبي مستعطفاً يسأله أن يدعو برفع القحط عن قومه]. . . ولست أدري ما يكون رد النبي.

تنهد حزام وهو ينظر بعيداً ويقول:

ـ ما أشبهه بفرعون موسى إذ سأله رفع العذاب عن قومه على أن يرسل معه بني إسرائيل، وإذا به يكذب المرة تلو المرة، بل إن نبينا يحتمل من قومه ما لم يحتمله نبي، أولم تسمع بقوله «ما أوذي نبي كما أوذيت»؟ وما أظن هذا الخبيث إذ أتى يستعطفه الآن، إلا باقٍ على رأيه لو ارتفع البلاء، . . . ولكن، يبقى الرأي لرسول الله في هذا الأمر، فالله أعلم حيث يضع رسالته.

لم يكد حزام يتم كلامه، وهويرمق الأفق الذي اشتدت زرقته حتى دكنت، وسطع نور شمسه حتى توهج، . . . لم يكد ينهي قوله، حتى اربدّت السماء فجأة، وبدا فيها غيم كالدخان.

تعجب حزام ونظر إلى صاحبه محتبس الأنفاس، فيما هتف غالب بصوت بين اليأس والرجاء:

ـ أتظنه غيماً يحمل مطراً؟

دقق حزام النظرفي ما راح ينتشر في وسط السماء من لون أغبر، وغمغم بشك:

ـ لا أظن، . . . إنما هو دخان، . . . أللهم أجرنا من غضبك وحلول سخطك ولا تبتلنا بعذابك، أللهم ارحمنا بنبيك ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا!

. . . وبات أهل الحجاز ليلتهم راهبين، [فالدخان المخيم على زاوية السماء، صوب مكة، لم تكن تكذبه عيون الناظرين، وأيقنوا أنه العذاب سيحل على الكافرين، جزاءً بما اقترفت أيديهم من تكذيب الرسول وإيذائه، والبقاء على كفرهم به، وبدينه القويم، رغم كل ما قدمه لهم من أدلة وبراهين.]

على أن رحمة الباري التي صبها في قلب خاتم المرسلين، لم تكن لتوصد في وجه أحد، حتى الظالمين.

لم يدعُ النبي على قومه، ولم يسأل الله نزول العذاب، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، لم يكن ليكون نقمة حتى على الكافرين.

[لقد رفع النبي يديه المباركتين نحو السماء، وصلى صلاة الاستسقاء. فانقشعت سحب العذاب وحل محلها غيم ماطر، ولم يكد النبي يستكمل دعاءه، حتى تفتحت أبواب السماء، وراحت تتدفق بالماء تلو الماء.]

. . . ولجأت فاطمة إلى أمها مع اشتداد المطر تسأل:

ـ أماه، هل المطر نعمة أم نقمة؟

نظرت إليها ثمامة متعجبة، لم تكن المرة الأولى التي تسأل فيها سؤالاً يحتاج تمعناً وتفكيراً عميقاً قبل الإجابة، . . . ثم إنها طأطأت برأسها هنيهة، ثم رفعته قائلة، وهي تتنهد:

ـ إنما هو نعمة على كل حال يا ابنتي، حتى لو بدا لنا نقمة أحياناً، فهو يروي الأرض وينبت الزرع، وإن زاد على ذلك فهو يهلك الحرث والنسل، ولكنه في كلي الحالين يستجيب لمشيئة الله ويمتثل لأمره، . . . وهل هناك أكثر من طوفان نوح؟ . . . وهل نقول أنه كان نقمة؟

ـ أوترينه كان نعمة؟

سألت فاطمة متعجبة، فأجابت الأم وهي تضم إليها ابنتها، وتنتحي بها زاوية الخيمة هرباً من الماء المتدفق:

ـ لقد قال نوح لربه: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّارا». لقد دعا عليهم بأن يهلكوا إذ لم ير فيهم خيراً ولا في ذريتهم، وهوالعالم بعلم

الله، فكان ما أصابهم نقمة عليهم رحمة بالمؤمنين.

ـ إنه كما تقولين يا أماه، وعسى أن يكون هذا المطر رحمة لنا، مهما كانت عواقبه.

لم تكد فاطمة تنهي كلامها، حتى أقبل أبوها، ليدخل الخباء نافضاً عن ثوبه ما علق به من ماء، ويتمتم:

ـ سبحان الله ما أوسع رحمته وأوجع عذابه، إنه إن أعطى أسبغ، وإن منع لا يُسأل في ما يمنع.

لم يكن حديث حزام موجهاً إلى أحد، بل كان يفضي بما جال في خاطره، ولكن ثمامة سألته:

ـ ما فعلتم بالماشية يا أبا المحل؟ هل جمعتموها كي لا تبتل بالماء فتنفق؟

ـ لا تخشي شيئاً يا ثمامة، إن مالكاً قد حبسها في الحظيرة، وقام مع سائر الغلمان يتولون أمرها، وهوما علمتِه عارف بهذه الأمور، وأنا أعتمد بعد الله عليه.

همست ثمامة وفي نبرتها قلق، ربما كاد يتسلل جزء منه إلى ابنتها الصغيرة الممسكة بذيلها:

ـ أرى الغيث متدفقاً يا أبا المحل، عسى أن لا يستمر على هذه الحال أكثر، وإلا سالت السيول، وجرى ما لا تحمد عقباه!

ولكن فاطمة التي تشبثت برداء أمها لحظات، لم تلبث أن أفلتته قائلة بثقة:

ـ ولكنكِ أخبرتني أن المطر نعمة، مهما بدا يحمل النقمات، فلنسلم أمرنا لله، وليفعل بنا ما يشاء.

تبادلت ثمامة وحزام نظرات متعجبة، ربما لا تختلف كثيراً عما تعودا تبادله من نظرات، منذ وعت فاطمة، وراحت براعم فهمها تتفتح مبكرة فتنثر بين الفينة والفينة من عبيرها نفحات ونفحات.

***

أسبغت ثمامة وضوءها، وانتحت ركن خيمتها تصلي.

كانت تشعرمنذ الصباح بانشراح غريب، . . . لم يكن مبعثه اليسر والدعة اللذان تنعم بهما، وهي في القوم من نساء الكبراء، فذاك لم يكن يوماً ليترك فيها من الرضى، ما يتركه رضاها عن عمل خير تتقرب به إلى الله عزوجل، من صدقة تؤديها إلى فقير أو ضيافة تقوم بها لعابر سبيل.

. . . ولم يكن سبب انشراحها وجود فاطمة المؤنس بجوارها، فذاك أنس تعودته وهو إلى الطمأنينة أقرب.

. . . كان للصلاة مقام خاص عند ثمامة، فهي حينما كانت تستعد لها، تتمثل فاطمة بنت محمد، وصلاتها، فتستصغر قدرها أمامها، ويعرق جبينها، فتسألها فاطمة الصغيرة:

ـ ما بالك تعرقين يا أماه، ليس الجو حاراً إلى هذه الدرجة!

. . . ولو لامست الفتاة وجه أمها لأدركت أنها لا تشعر بالحر، بل أن البرد يجتاحها، لا لبرودة الجو بل لانفعالها، . . . لقد كانت تستشعر ضآلتها أمام سيدة النساء، وربما خفوت أنوارها أمام شمسها الساطعة

الوضاءة، فتروح تتطلع إلى البعيد، عساها تستمد من دفء شعاعها ما يبعث في كيانها فوق ما يفيض به من عشق لها ومن ولاء.

. . . كان في الأفق خبر يشق عباب الرمال ويمخر أمواج الصحراء، . . . كان يفوح شذى ويتضوع عطراً وإن لم يشعر المؤمنون بعد بشذاه.

وأتى صوت المنادي من بعيد، . . . شقّ صمت الهاجرة وأيقظ القائلين عند تلك الظهيرة القائظة، . . . شقّ الفضاء العابق نوراً كسيف من نور يفوق كل نور:

ـ (قل ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)

وراح النداء يتكرر. . .

خرج من كان باقياً في المضارب من الرجال، فجلّهم كانوا يواكبون النبي في الوجه الذي هو فيه. وخرجت النساء، ولكن ثمامة لم تخرج، بل بقيت واقفة متسمرة مكانها، وقد وقفت فاطمة بقربها مرهفة السمع مقشعرة البدن وهي تسأل:

ـ أماه، ما الخبر؟

انسابت دموع ثمامة، . . . لم تجد أمامها ما تعبر به عن مكنون فؤادها، سوى امتداد ذراعيها إلى صغيرتها، لتضمها بشدة، ربما أشد من أي وقت مضى، وتهمس في أذنها بصوت لا يكاد يُسمع، فتلتقطه الروح:

ـ إنه الفتح، . . . إنه الفتح!

وسجدت، . . . سجدتا معاً. . .

ترى، هل فهمت فاطمة ما عنته أمها؟ . . . ربما، فهي اللبيبة الفهيمة، تدرك بالقلب قبل العقل وتسمع بالروح قبل الأذن.

وتعالت صيحات التكبير، لتؤكد لثمامة ظنها.

بلى، إنه الفتح، فتح مكة. . . .

ها هي الكعبة تتراءى في المدى اللا منظور، ها هي حيث تتجه الأفئدة عند الصلاة، وفي كل آن. . . . ها هو مقام إبراهيم وحجر إسماعيل، قد طهرتهما أيدي المؤمنين من الأوثان.

ألله أكبر، . . . إنه الفتح حقاً. . . . (لقد ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)!

***

ـ بقي أن تتطهر القلوب من أوثانها يا ثمامة، وذلك ما لا علم لسوى الله به!

كان حزام ينفض عنه وعثاء السفر والحرب، وهويخاطب امرأته مسروراً بالنصر، فيما وقفت فاطمة كعادتها تراقب وتستمع، وتسأل:

ـ ماذا تقصد يا أبتاه؟ . . . ألم تقل أن رسول الله قد طهّر الكعبة من الأوثان، وأنه حطّم الأصنام جميعها؟!

نظر حزام إلى ابنته وتنهد، لم يدرِ بِمَ يجيب، فقد كان يعلم أنها لن ترضى حتى تسمع ما يشفيها من جواب، فهب نحوها يضمها إلى صدره بشوق وهو يقول:

ـ إنه قد حطّم الأصنام يا بنتاه، [ولم يترك في مكة صنماً واحداً، . . . لقد أصعد علياً على منكبه حتى بلغ سطح الكعبة فرمى كل ما عليه من أوثان، وانتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة عنوة، ثم فتحها وحطّم كل ما فيها من أصنام أيضاً]. . . . لقد كان نصراً ما بعده نصر، ولقد تمثلت وأنا أرى علياً ينهال على الأصنام ضرباً باليمين، تمثلت خليل الله إبراهيم، حينما حطم أصنام النمرود وعلق الفأس في يد كبيرها ليلقي الحجة على الظالمين، أتذكرين القصة يا ابنتي؟

نظرت فاطمة في وجه أبيها، استكانت لحظة لضمته، ولكن حب الاطلاع كان أقوى لديها من أي شوق، فعادت تنفلت من ضمته، وتجيب بسؤال:

ـ أذكر يا أبي، ولكنك لم تجبني، ماذا تقصد بأوثان القلوب؟

علم حزام أنه لن يفلت من السؤال، فهتف يجيب:

ـ إن أوثان القلوب هي الباطل الذي يسكنها، والإصرار على المعاصي والذنوب، وأحياناً نكران الإيمان رغم اعتراف اللسان، فالإنسان بذلك هو عابد لهواه دون الله.

صمتت فاطمة، . . . نظرت ثمامة إليها مستطلعة، ثم إلى زوجها عاتبة، وهي تسأله بلا صوت:

ـ هل تظنها فهمت؟ ألا تظن أنك قد أثقلت عليها بالجواب؟!

فأجابها حزام بنظرة كنظرتها، زاد بأن أطلقها بعد ذلك نحو البعيد:

ـ إن من يسأل كما تسأل، لا بد أن يُجاب كما أجبت.

مدّت ثمامة يدها إلى رأس ابنتها المنضوية تحت جناح والدها، وخفق قلبها، ربما قلقاً، . . . إن فتاتها تزداد فهماً وتألقاً مع كرالأيام لا السنين، وهي تخشى عليها حسد الحاسدين، . . . ثم إنها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، . . . إن الله هو حافظها وراعيها، وهو خير الحافظين.

***

الفصل الرابع:

. . . والعاديات ضبحا

الزمان: السنة التاسعة للهجرة

المكان: مضارب بني كلاب

صفقت سلمى كفاً بكف وهي تقول متذمرة:

ـ أولم تنته الحروب والغزوات بعد؟! أولم تفتح مكة وينتهي الأمر؟!

نظرت ثمامة إليها شزراً وهي ترد مستاءة:

ـ ما تقولين يا سلمى؟! . . . إن إطاعة أمر رسول الله واجبة على كل مسلم شاء أو أبى، فهو ولي الأمر الذي افترض الله طاعته، وهو أولى بالمسلمين من أنفسهم، ثم إنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وقد أمر المسلمين بالحرب، فهي أمر لا بد منه لنصر الدين وإعلاء كلمة الحق، . . . ثم ألا ترين أنها جيوش احتشدت لتكيد للإسلام والمسلمين، وما على المسلمين إلا الرد للذود عن حياض الإسلام؟

نفضت سلمى رداءها وهي تقوم، وتتمتم قائلة:

ـ لست أشك في ما تقولين يا ثمامة، ولكني ظننت الحروب انتهت بفتح مكة، نحن نقلق على رجالنا كلما غابوا، ونخشى على أنفسنا أوزار الحرب!

انتفضت ثمامة وقد دمعت عينها وهي تقول:

ـ بئس المسلمات نحن يا سلمى إن بخلنا على رسول الله برجالنا، وقد جاد بأعز أهله في سبيل الدين، . . . ألا ترين إلى عمه عبيدة شهيد بدر، وعمه الحمزة أسدالله وأسد رسوله شهيد أُحُد؟! . . . ألا ترين إلى ابن عمه جعفربن أبي طالب، الطيار في الجنة، شهيد وقعة مؤتة؟! . . . ألا ترين إلى ابن عمه وأحب أهله إلى قلبه، صهره ونفسه وزوج بضعته، علي بن أبي طالب، الذي لا يفارقه في موقعة قط، يحمل لواءه في كل غزوة، يصول بين يديه ويجول، شديد على الكفار رحيم بالمؤمنين؟! . . . أيكون لنا ونحن السابحون في فلك عظمة هؤلاء، أن نضن بأنفسنا وأرحامنا عليهم، . . . تالله إنني ما وددت أن أكون رجلاً يوماً كما وددت اليوم، وأنا أرى الناس وقد دخلوا في دين الله أفواجاً، بعضهم خالص القلب للإيمان، وبعضهم قد زاغت به الأهواء حتى. . .

أمسكت سلمى بذراع ثمامة تقاطعها قائلة:

ـ رويدك يا ثمامة، ما قصدت زيغاً ولا ضلالة، وما أنا عما تقولين بغافلة، ولكنها العواطف تتلاعب بنا نحن النساء، فتحملنا على قول ما لا نعقل.

انبرت ثمامة ترد دون أن يطرف لها جفن، رغم أنها لاحظت دخول فاطمة في تلك اللحظة، بعد أن كانت في خيمتها، ربما تستمع لما يقال، وقد أتت تستوضح وتستزيد:

ـ كلا يا سلمى، ليس على المرأة أن تكون ألعوبة بيد العواطف والأهواء، وليس لها أن تقول ما لا تعقل، لأنها تحاسب على قولها وفعلها كما الرجل يوم الحساب، ولكن الأسف كل الأسف على رجال يقولون مثل ما تقولين وأكثر، ولا عذر لهم من عاطفة ونحوها، بل هو هوى النفس لا دواء له سوى تطهرها باليقين والتقوى، والتسليم لرب العالمين.

طأطأت سلمى رأسها وقد شحب لونها، وغمغمت:

ـ ويحي لما تقولين يا ثمامة، لقد أثمت وأخطأت، وليغفر لي الله ما تسرعت به من قول، أما أنت فللّه درك من عاقلة لبيبة، وما كنت أرغب إلا أن يكون لي نصف ما لك من الفهم.

هزت ثمامة رأسها وهي تشيح جانباً، فتلمح وجه ابنتها تراقب حركاتها، ثم تبسمت وهي تقول:

ـ لا بأس عليك يا سلمى، إن عرفت خطأك فاستغفري ولا تثريب عليك، ولا تعودي لمثل هذا الحديث ثانية، إن أردت أن تبقى بيننا أواصر الوداد.

. . . ثم إن سلمى استأذنت وغادرت، فيما التفتت فاطمة إلى أمها تسأل:

ـ عم كانت الخالة سلمى تتحدث يا أماه؟ . . . سمعتكما تتشاجران، ولا عهد لي بمثل هذا!

ربتت ثمامة على وجنة ابنتها، ثم جلست وأجلستها بجوارها وهي تشرح لها بعض ما هناك.

انتفضت ثمامة وقد دمعت عينها وهي تقول:

ـ بئس المسلمات نحن يا سلمى إن بخلنا على رسول الله برجالنا، وقد جاد بأعز أهله في سبيل الدين، . . . ألا ترين إلى عمه عبيدة شهيد بدر، وعمه الحمزة أسدالله وأسد رسوله شهيد أُحُد؟! . . . ألا ترين إلى ابن عمه جعفربن أبي طالب، الطيار في الجنة، شهيد وقعة مؤتة؟! . . . ألا ترين إلى ابن عمه وأحب أهله إلى قلبه، صهره ونفسه وزوج بضعته، علي بن أبي طالب، الذي لا يفارقه في موقعة قط، يحمل لواءه في كل غزوة، يصول بين يديه ويجول، شديد على الكفار رحيم بالمؤمنين؟! . . . أيكون لنا ونحن السابحون في فلك عظمة هؤلاء، أن نضن بأنفسنا وأرحامنا عليهم، . . . تالله إنني ما وددت أن أكون رجلاً يوماً كما وددت اليوم، وأنا أرى الناس وقد دخلوا في دين الله أفواجاً، بعضهم خالص القلب للإيمان، وبعضهم قد زاغت به الأهواء حتى. . .

أمسكت سلمى بذراع ثمامة تقاطعها قائلة:

ـ رويدك يا ثمامة، ما قصدت زيغاً ولا ضلالة، وما أنا عما تقولين بغافلة، ولكنها العواطف تتلاعب بنا نحن النساء، فتحملنا على قول ما لا نعقل.

انبرت ثمامة ترد دون أن يطرف لها جفن، رغم أنها لاحظت دخول فاطمة في تلك اللحظة، بعد أن كانت في خيمتها، ربما تستمع لما يقال، وقد أتت تستوضح وتستزيد:

ـ كلا يا سلمى، ليس على المرأة أن تكون ألعوبة بيد العواطف والأهواء، وليس لها أن تقول ما لا تعقل، لأنها تحاسب على قولها وفعلها كما الرجل يوم الحساب، ولكن الأسف كل الأسف على رجال يقولون مثل ما تقولين وأكثر، ولا عذر لهم من عاطفة ونحوها، بل هو هوى النفس لا دواء له سوى تطهرها باليقين والتقوى، والتسليم لرب العالمين.

طأطأت سلمى رأسها وقد شحب لونها، وغمغمت:

ـ ويحي لما تقولين يا ثمامة، لقد أثمت وأخطأت، وليغفر لي الله ما تسرعت به من قول، أما أنت فللّه درك من عاقلة لبيبة، وما كنت أرغب إلا أن يكون لي نصف ما لك من الفهم.

هزت ثمامة رأسها وهي تشيح جانباً، فتلمح وجه ابنتها تراقب حركاتها، ثم تبسمت وهي تقول:

ـ لا بأس عليك يا سلمى، إن عرفت خطأك فاستغفري ولا تثريب عليك، ولا تعودي لمثل هذا الحديث ثانية، إن أردت أن تبقى بيننا أواصر الوداد.

. . . ثم إن سلمى استأذنت وغادرت، فيما التفتت فاطمة إلى أمها تسأل:

ـ عم كانت الخالة سلمى تتحدث يا أماه؟ . . . سمعتكما تتشاجران، ولا عهد لي بمثل هذا!

ربتت ثمامة على وجنة ابنتها، ثم جلست وأجلستها بجوارها وهي تشرح لها بعض ما هناك.

وفهمت فاطمة فيما فهمت، أن هناك حرباً يخوضها المسلمون، حرباً ضروساً يُخاف منها على بيضة الإسلام، قد جمع فيها الكافرون فلولهم، واستعانوا بحلفائهم، ولربما كان لهم من المتظاهرين بالإسلام أعوان وأنصار، وتلك هي عين الخطر، . . . وأطرقت ثمامة وهي تتنهد قائلة:

ـ العدو الباطن شر من العدو الظاهر، . . . كفى الله رسوله والمؤمنين شر أولئك قبل هؤلاء، إنه سميع مجيب.

همست فاطمة بطمأنينة ردت إلى أمها بعض هدوئها:

ـ ولكن الله قد وعد رسوله بالنصر، فلا خوف إذاً عليه، . . . ولئن ابتلانا الله ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فعلينا بالصبر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

اتسعت عينا ثمامة دهشة وهي تستمع لتعليق ابنتها، وسألت:

ـ وتحفظين الآية يا فاطمة؟!

ـ وكيف لا أحفظها؟! . . . إن ذكر الله يحيي القلوب، ولا أحب إلي من أن يحيى قلبي بالذكر.

ضمت ثمامة ابنتها بلهفة فاجأتها، وهمت تسألها عما حفظت حتى الساعة من القرآن، فأجابت مبتسمة:

ـ أنت أدرى يا أماه، أولست أنت من تتلين على مسامعي الآيات ليلاً ونهاراً؟! . . . إني أحفظ ما أسمع يا أماه، . . . وأظنني أحفظ الكثير، لا أعرف كم!

. . . . قاطعهما حديث انطلق فجأة ليخترق مسمعيهما، . . . كانت سلمى تخاطب إحدى نساء العشيرة بانفعال قائلة:

ـ هل أنت واثقة من الخبر، أم هو محض توقع لا أكثر؟

ـ بل واثقة، والنذير الساعة على مشارف مضاربنا، . . . هو يؤكد أن الهزيمة تكاد تكون قدراً لا مفر منه، فالوادي عسير المسلك ولا سبيل لهجوم يبتدئ به المسلمون فيضمنون النصر، الويل لنا إن هزمنا هذه المرة!

. . . على غير عادتها من عدم الخروج لتعقب الأخبار، خرجت ثمامة تجر ابنتها بيدها لتواجه ذاك الجدل المحتدم بين المرأتين، فتتدخل قائلة باندفاع، ربما كان بعضه مستمداً من اندفاع فاطمة السابق:

ـ ما تقولان؟ . . . أي نذير وأي هزيمة؟ . . . إلام تشككان في النصر وما النصر إلا من عند الله وبشر المؤمنين؟!!

صمتت المرأتان، لم تكونا تملكان أمام اندفاع ثمامة القدرة على المواجهة، ولكن سلمى انبرت في النهاية تقول بحذر:

ـ إن أخباراً وصلتنا يا ثمامة، عن حشود الكافرين، . . . إنهم يعسكرون في وادي الرمل، وهوما تعلمين وادٍ شديد الانحدار. . . . لقد فشل المسلمون في الإحاطة بهم وردهم، ولا أحد يعلم ما تكون النتيجة!

ـ إن الله يعلم، وهو خير العالمين، وإني لعلى ثقة من النصر، أشد من وثوقي بأني أراكما الساعة، . . . لقد أعز الله المؤمنين وأذل

الكافرين، وهو على نصر رسوله لقوي متين!

ثم إن ثمامة انصرفت، عادت إلى خيمتها، لتتفرغ لصلاتها ودعائها، وتلتفت إلى ابنتها...

كانت نظرة فاطمة تشبه إلى حد بعيد نظرة أمها، بل إنها كانت تزيد عليها بطمأنينة وثقة لا حدود لهما.

... ووقفت ثمامة تصلي، فيما جلست فاطمة بإزائها، ... ولم يطل بها الجلوس حتى انتهزت فترة تعقيبها لتسأل في لهفة وشوق:

ـ أماه، ... ألا يمكنني أن أصلي؟ ... ألا يقبل الله صلاتي؟

نظرت إليها ثمامة مذهولة وأجابت:

ـ بلى يمكنك، وإنها بلا ريب ستقبل، ... ولكن، أتحفظين الصلاة؟

أجابت في خجل وقد احمرت وجنتاها:

ـ بل إنني أرددها معك في قلبي دائماً، أراقبك وأرافقك وأضم همسي الخفي إلى همسك!

ـ إذاً هلمي، ولكن... عليك أن تتوضئي أولاً.

ـ أعرف الوضوء، لقد علمنيه والدي مرة فحفظته، وأنا أراقبك في كل مرة تتوضئين فيها، هل أفعل؟

رفعت ثمامة كفيها وعينيها وكل فؤادها إلى السماء شاكرة لله أنعمه، أن منّ عليها بصلاح ذريتها، وجعل لها في هذه البنت خير الدنيا، وبحسن تربيتها لها خير الآخرة.

. . . لم تمر لحظات حتى كنت فاطمة قد توضأت أحسن الوضوء، ثم اختارت من أثوابها أشدها بياضاً، ومن خمرها أحسنها نقاءً، فأسبلتها عليها، ووقفت إلى جانب أمها، ترفع إلى الباري صلاة لا تشوبها شوائب الأهواء، فهي مذ عرفت الحياة لم تعرف لها هوى سوى حب محمد وآل محمد، الذي زُرع فيها منذ كانت ذرة في عالم الذر، حتى تكونت بذرة في عالم الأرحام، ورضعته مع اللبن إذ انتقلت إلى عالم الدنيا، . . . فإذا هي قد جمعت في كيانها كل ما أكنّه والدها ووالدتها من إيمان وتقى وحب للحق على طول المدى.

وغمغمت ثمامة لنفسها وقد دمعت عينها فرحاً وهي تراقب ابنتها:

ـ لقد بدأت براعم الحق تظهر في شجيرتنا يا حزام، فالحمدلله، . . . لقد بدأت سريعاً، أسرع مما كنا نتوقع، . . . لقد زرعنا وروينا، ووفقنا الله لخير زرع وري، ولا بد أن يوفقنا في غدٍ لخير ثمرٍ وحصاد، إنه كريم جواد.

***

ـ الأمر شديد يا غالب ورسول الله مستاء مما انتهت إليه الهجمتان الأوليان، ولا ندري ما تحمل لنا الساعات المقبلة!

ـ أراك خائفاً على غيرعادتك يا أبا المحل، أتخشى الهزيمة؟

انتفض حزام بشدة وهو يجيب غاضباً:

ـ عم تتحدث يا غالب، أي هزيمة تذكر لا أبا لغيرك؟! . . . إنما هو قلق وليس خوفاً، وترقب وليست خشية، فأنت تعلم أني لا أشك طرفة عين بالنصر الموعود.

أطرق غالب ولم يجب، بينما تابع حزام وهو يرمق المكان حوله متنهداً، يستطلع القلق المخيم على وجوه الرجال المتجمعين في مسجد الرسول، يهمهمون ويغمغمون بنبرات خفية، وتفلت من أروقة الحديث كلمات تعبر الأسماع جلية تارة مبهمة طوراً، . . . وتتحرك النبضات في القلوب، . . . [الكل ينتظر قرار الرسول في هذه الحرب الغريبة، التي لم تكن قط على البال، . . . فالعدو يختبئ في بطن الوادي كأفعى رقطاء، تلدغ المهاجم وتهاجم المدافع، وتكمن من جديد.

. . . وسرى بين الرجال حديث، . . . إن عمرو بن العاص السهمي قد عرض على الرسول أن يقود الهجمة التالية، عساه يخدع العدو بمكره ودهائه، «فالحرب خدعة» ولعلي أخدعهم، كذا قال ابن العاص، وقد أنفذه الرسول مع جماعة بعدما وصاه.

استغرب المسلمون في المسجد أن يدفع الرسول الراية إلى ابن العاص وهو حديث عهد بالإسلام، قريب عهد بالكفر، قد كاد ما كاد للمسلمين قبل إسلامه، ولم يزل صدى صوته إذ كان يحرّض على النبي، تردده هضاب البادية وكثبانها، وهو لم يثبت له خلوص النية وصفاء العقيدة بقول أو عمل.]

لم يكن غريباً على الجميع استغرابهم، وعلى بعض السفهاء اعتراضهم على الرسول، ولكن حزاماً تبسم بغيظ وهو يخاطب صاحبه بقوله:

ـ تالله إن الله قد وصف الحال بأحسن مقال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ . . . إن كان المسلم ليرد على رسول الله فكيف يكون مؤمناً حقاً؟!

ـ أوتحسب أن رسول الله قد جعل الأمر اختباراً؟

هز حزام برأسه، فتابع غالب:

ـ لعمرو أم لنا؟

ـ انتظر وسترى!

ـ وما أدراك بما سيجري يا أبا المحل؟ هل أطلعك النبي على ذات نفسه، أم علي؟!

بدا في حديث غالب شك وارتياب، مما ساء حزاماً فتركه ومضى، وهو يتمتم:

ـ لم يطلعني أحد، ولكنه يقيني أن النبي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾!

. . . ولعل حزاماً انتهز الفرصة ليجالس أصحاب النبي، ويختبر بنفسه ولاء الموالين منهم عن قرب، وتسليم المسلّمين ورفض الرافضين.

وهاله الأمر، . . . إن الرسالة اليوم في أوج مجدها، وقمة انتصاراتها، حتى إذا واجه القوم بلاء أو عرضت لهم فتنة، كانوا إلى الشك أقرب منهم إلى اليقين، إلا القليل!

[لم يطل الانتظار بالمسلمين، حتى عاد عمرو بن العاص بما عاد به سابقاه من هزيمة نكراء، ومقتلة عظيمة ذهب ضحيتها عدد كبير من الشهداء.

. . . اغتم الرسول، واغتم لغمه المسلمون، كانوا يعلمون أن الفرج آتٍ ولو بعد حين ولكن كيف ومتى، فذاك ما لم يكونوا يعلمون.

. . . مضت أيام من الترقب، . . . العدو يتربص بالمدينة الدوائر، ويعد

العدة ويتجهز، والمسلمون يتجهزون، ولكن الهزيمة أضعفت عزائم جلّهم، إلا من كان له من إيمانه جُنّة ومن يقينه درع يقيه شر اليأس والقنوط، وكان في أولئك المؤمنين عماربن ياسر وأبو ذر الغفاري وسلمان المحمدي والمقداد. . .]

كانوا ينظرون إلى وجه النبي إذا حزن فيحزنون، ولكنهم كانوا يرون في بريق عينيه ما تبرق له أسرّتهم فيطمئنون. . . . وأدركوا كما أدرك من هم دونهم ووراءهم، أن النبي يدخر سلاحه الأقوى للموقف الأقوى!

[. . . وتجاوبت أنحاء المسجد في ذلك اليوم المشهود، بالنداء المشهود:

ـ «أين علي!»

وأقبل علي،]. . . أقبلت معه قلوب تخفق لخفق نعليه، وأدبرت قلوب لا ترى فيه غير ما قاتلها يوماً عليه.

[وأمره النبي أمراً مبرماً أن«امضِ إلى الوادي!» فردّ بلا تردد أن «نعم»، . . . ثم مضى إلى منزله يتهيأ، ليعود بعد قليل متعصباً بعصابته الصفراء المعروفة، التي لم يكن يتعصب بها إلا حين يبعثه النبي صلى الله عليه وآله في وجهٍ شديد.]

لم يدرِ حزام لِمَ أصابه قلق مفاجئ على علي، . . . لقد خشي أن يصيبه مكروه فاشتعل قلبه ناراً، وأراد أن يقصد إلى النبي ليسأله.

لم يكن حزام قد وصل إلى النبي بعد، حين تناهى إلى سمعه حديث آخر، [إن النبي قد بشر فاطمة، لما رأى حزنها على بعلها، أنه عائد سالماً بإذن الله].

اطمأن حزام، كما اطمأن سائر المؤمنين، وزادهم اطمئناناً ما رأوه من النبي بعد ذلك، [فقد دعا علياً فعقد له اللواء ثم قال:

ـ أرسلته كراراً غير فرار.

ثم رفع يديه إلى السماء، وهو يدعو بصوت تزلزلت له أركان القلوب:

ـ أللهم إن كنت تعلم أني رسولك فاحفظني فيه!

ومازال الرسول يدعو والمؤمنون يؤمّنون، ثم أن الرسول شيّعه إلى مسجد الأحزاب، وألحق به عدداً من أصحابه.]

ولعل حزاماً قرر أن يكون في جملة الملتحقين، إذ لم يكن بأي حال من الأحوال ليطيق فراق علي، وانتظار ما يكون، . . . إن عليه أن يشارك، وأن يكون له نصيب من الحروب والمعارك، وما هو عليها بغريب.

***

تحرك النسيم يدغدغ وجنات النخيل، وينسلّ في حذر بين صفوف المؤمنين، يلفّهم بغشاء سحري يقيهم عيون الظالمين، ويخترق الإهاب ليدخل القلوب العابقة بنور اليقين، فيهزها رعشةً تهز العضد فيصبح كجلمود، وترهف حركة الساعد فيضحي كعاصفة تتلوى، كزوبعة تلف البيداء، وتضرب بغضبها، فلا تبقي ولا تذر، وكيف تبقي، والغضب لله، والضربة لله، والنصر كله بيد الله.

وارتفعت نبرة حزام تزاحم النسيم، وهو يروي الواقعة:

ـ [كانت الضربة قاصمة للمشركين، بغتهم بها علي من ثغر لم يتوقعوه في زمن لم يتوقعوه]، . . . تدرع بصلاة الفجر وخرج بنا، فكانت صلاته جُنّة، لا له وحده، بل لنا جميعاً، فقد حاربنا تحت لوائه

ممتثلين لأمره، معرضين عمن هو دونه، فكنا جديرين بأن نحوز معه إحدى الحسنيين، وكان لنا النصر دون سواه، نصر مؤزر من عند الله.

[وأتى البشير يزف الخبر إلى رسول الله، وما كان البشير سوى جبريل]، . . . فقد أُبلغنا [أن الرسول قد قام من رؤيا له منتفضاً، فلما سألته أم المؤمنين أم سلمة عما رأى، أعلمها أن علياً قادم منتصراً بعون الله، وأن الله عزوجل أنزل عليه سورة بحقه.

لقد أمر الرسول بالخروج لاستقبال البطل المنتصر، فخرجت المدينة في ركاب الرسول، وقف الناس صفين كما يوم الحشر، لاحت لنا صفوف الناس ونحن مقبلون نهلل ونكبر، كان علي في المقدمة، حتى إذا وصل ترجل عن فرسه وخطا صوب الرسول، فأقبل عليه النبي مبتهجاً يقول له:

ـ إركب يا علي، فإن الله ورسوله عنك راضيان.

فبكى علي، بكى فرحاً بالبشرى برضا الله ورسوله]، لقد كانت كلمات الرسول أفرح لقلبه من النصر نفسه، لقد كانت هي النصر بعينه.

. . . وتوالت الآيات على لسان النبي، تلاها على مسامع أصحابه ليدونوها، على صفحات قلوبهم قبل صفحات التاريخ، . . . . [لقد نزل الوحي مجدداً بمآثر علي، إنها العاديات، خصها الله عزوجل بفضل عظيم، وخص بها علياً دون العالمين، ليظهر فضله على فضل العالمين:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ

لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾].

أنهى حزام تلاوته كالمناجي عمق السماء، وختم روايته متنهداً شارد اللب في البعيد، في ذلك القمر المتفتح فوق قبة الأفق، . . . دمعت عينه وتحرك قلبه، . . . نظر إلى ابنته المسندة رأسها إلى عضده، أذهله أنها لم تغفُ بعد، رغم طول الرواية وتأخر الوقت، . . . كانت لا تزال مفتوحة العينين، تنظر حيث ينظر وتدمع عينها كما عينه.

حتى ثمامة، لقد همست، وكأنما كانت بكلماتها تترجم إحساسهما:

ـ الحمد لله الذي أكرمنا بحب ذوي القربى ومعرفة حقهم، الحمد كل الحمد لله!

وكعادتها، رفعت فاطمة رأسها، وتحرك على شفتيها سؤال:

ـ أبتاه، من قصدت ب «من هم دونه»، إذ كنت تتحدث عن المعركةالأخيرة؟ وهل كان المؤمنون المحاربون في معرض الخروج عن أمر ابن عم رسول الله؟

تبسم حزام، وقد سره صبرها على طرح السؤال حتى نهاية الحديث، مما يدل على أدبها في حسن الاستماع، ولكنه لم يفاجأ، كان قد تعود على أسئلتها ونباهتها، فضمها إليه وأجاب:

ـ إن المؤمن معرض في كل موقف للفتنة يا ابنتي، والرابح من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله، ويُعرض عن المنافقين.

ـ وهل كاد المؤمنون يفتنون هذه المرة أيضاً يا أبا المحل؟

سألت ثمامة متعجبة، فأجاب حزام بحسرة:

ـ بلى، [فقد كان عمرو بن العاص في جملة من احتشد للقتال تحت لواء علي، فلما رأى منه ما رأى، من خطة للهجوم كمن بها في فم الوادي ليلاً ولم يطلع أحداً على رأيه، أدرك بدهائه وخبثه أن النصر سيحالفه، فحاول أن يؤلب المقاتلين عليه ويقنعهم بأن يخالفوه، أن يهجموا معه هو في ذلك الحين، منحدرين نحو الوادي من عل، كما فعل سابقاً حين مني هو ومن معه بالهزيمة، ولكنهم أبوا إلا إطاعة أمر رسول الله بإطاعة أمر علي، وخالفوا عمراً، فكان النصر بالخطة التي اختطّها علي، وكانت الفضيحة لعمرو، وظهر بها نفاقه، وكانت الغلبة للمؤمنين].

غمغمت فاطمة وهي تغمض عينيها:

ـ الحمد لله!...

وغابت في نوم عميق، كانت صورة البدر تشرق في فضاء مخيلتها، وتندمج بشكل غريب في صورة ذلك البطل العظيم، الذي أرضى الله ورسوله فرضي عنه الله ورسوله.

كانت كلمات السورة العتيدة تتردد على مسامعها، يرتلها أبوها ثانية بهمس، مستأنساً بوقعها، مرصعاً بصوته الرخيم صمت الليل الصحراوي الموحش، وإذا بالكلمات تتحول درراً تتألق حول الفارس البطل، إشعاعات من شمسه، أو ربما نجوماً تتحلق حول بدره البهي الوضّاح.

الفصل الخامس:

النبأ العظيم

الزمان: السنة العاشرة للهجرة

المكان: مضارب بني كلاب

«يا فرحة لم تتم، ويا نداءً لم يكد ينطلق مجلجلاً مشعشعاً حتى كُمّ!»

ترقرقت الدموع في عيون آل حزام، وتلاحقت زفرات البكاء وشهقات النحيب، . . .

أحقا قد آذنت شمس الحبيب الأعظم بالغياب، وانقطع الوحي والخطاب؟ . . .

أحقاً قد لملم جبريل أذياله وارتحل عن هذه الأرض، معتنقاً حبيبه، قد أصمت من فؤاده الخفّاق بأعظم الحب وأروعه وجيبَه؟!

ويلاه! . . . أحقاً قد قبض عزريل روح محمد؟! . . .

ما أقساها كلمة انطبقت لها السماء، وأجفلت القلوب، . . . وتعالى البكاء من كل حدب وصوب!

مسح حزام على رأس ابنته وامرأته بيد، وهو يمسح باليد الأخرى دمعه المنسجم، . . . ذاك الفارس الذي لا تبكيه إلا أقسى الشدائد، وهل في الكون شدة أقسى من هذه، أن نفقد المصطفى المختار، وأن نكون بعده أيتاماً، أيتاماً حقاً، كما لم نكن أيتاماً من قبل! . . .

وغمغم مناجياً، معزياً نفسه ومن حوله، وهو يجاهد أن لا تجرفه موجة البكاء المتواصل، الذي طبق آفاق المكان، من كل حجر ومدر وحيوان وإنسان، حزناً على فراق محمد:

ـ يبقى لنا آلك أيها الحبيب، . . . يبقى لنا أحبابك، نصبّ كل لهفتنا على فراقك في صدورهم، وننتظر اكتمال الحق بطلعتهم، . . . إنهم لنا نعم العزاء، . . . ولنا فيهم نعم العوض عما افتقدناه، فهم ذوو القربى، من أحبهم فقد أحبك، ومن أحبك فقد أحب الله، وكفى بالله حبيباً!

ـ ولكن الأمة مجتمعة على خلاف ما ذكرت يا حزام،

غمغمت ثمامة وقد ازداد بكاؤها، ثم تابعت:

ـ ألم تخبرني أن [المهاجرين والأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليقتسموا إرث النبي، ولما يوارى جسده الشريف في ثنايا لحده بعد؟!]

لم يعد بوسع حزام أن يصبر، فأشاح بوجهه وهو يرخي لدموعه العنان، . . . إن المصاب لجلل حقاً يا ثمامة، . . . إذ لو كان المصاب فقد النبي فقط لهان الأمر، إن كان له أن يهون، ولكن المصاب بنكران حق عترته وغصب إرثهم أعظم، . . . . وهل هناك فوق مخالفة الأمر الإلهي؟! . . . إنهم إن ثلموا هذه الثلمة في الدين، فلن يستقيم الدين بعد، وسيذهب دم الشهداء في بدر وأحد وحنين وخيبر والأحزاب، وفي كل المواقع، سيذهب هدراً، وستذهب كل التضحيات التي قدمها المسلمون،

وفوق ذلك، ستذهب كل جهود النبي وعلي في إحياء هذا الدين، ستذهب كلها سدى، . . . . تالله، ما هو المخرج من هذه الأزمة؟ . . . وهل سيسكت علي على هضم حقه، وإنما هو حق الأمة في ولايته، كما كان قبلاً في نبوة محمد؟! . . .

لم يكن صوت حزام لينطلق محولاً خطابه الصامت إلى نطق مبين، فقد كان مختنقاً بعبرته، قد اكتفى بها دليلاً على عظيم حسرته، فهتفت ثمامة منتحبة:

ـ وهل ستصمت يا حزام؟ . . . هل ستقف مكتوف اليدين أمام هذه المخالفة الصريحة السافرة لدين الله وأمره؟ . . . بل هل سيصمت المؤمنون؟ هل سيقفون متفرجين فيما حرمة آل الرسول تُنتهك وحقهم يُسلب؟ . . . . واهاً للمؤمنين! واهاً لأنصار آل محمد!

. . . لم يعد بمقدور حزام أن يصبر، بل هو انطلق إلى سيفه المعلق يتقلده، وإلى درعه يرتديه، وخرج . . .

تعلقت به فاطمة وأمها، لا لترداه عن عزمه، بل لتنظرا إليه، وتسأل فاطمة:

ـ أبتاه، أتريد نصرة آل محمد؟

وتجيب ثمامة:

ـ لا تعد إلينا إلا بالنصر في ركاب أمير المؤمنين، . . . إن بيعة الغدير لم تزل في عنقك، ولئن نكثها الناكثون فلست منهم، وإني لأظن

أن في أصحاب النبي الخلّص من يرى رأيك ويكون لك ظهيراً، ولا أظنهم إلا سبقوك إلى ما تريد.

نظر حزام إلى امرأته وابنته طويلاً، ثم قال قبل أن يهرع إلى جواده فيمتطيه:

ـ إن الأمر أمر الله وأمر أمير المؤمنين، وإنما أنا ذاهب لأستجلي ما يكون، ولأنصاع لأمره مهما يكون، والله ولي المؤمنين!

***

لعل حزاماً لم يعد يوماً إلى مضارب قبيلته مطاطئ الرأس جاري العبرة كما عاد في ذلك اليوم!

هل كان في ركابه عدد غير قليل من أبناء قومه؟... ربما، ولعل فيهم من كان شأنه كشأنه، ولكن، لعله زاد عليهم بنظرات كان يقلبها حوله، وزفرات كان يطلقها فيكاد يتفتت لها كبده، وهمسات كان ينثرها فتقع في الأسماع متقطّعة تقطّع نياط القلوب:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون....

... واستقبلته على باب الخباء فاطمة وثمامة،... للمرة الأولى كانتا تخرجان من خبائهما لتستقبلاه.

كم مرة عاد منتصراً في ركاب المنتصرين، فكانتا تنتظرانه في خيمتهما بابتسامة وإشراق، وتهنئانه بكلمة وعناق، ولكنهما اليوم تقفان وتنظران، بعيون ملؤها الدموع، وتقرآن في معالم وجهه ووجوه المقبلين معه، شيئاً آخر غير عزة النصر، وغير ذل الهزيمة.

ويجف لسان ثمامة في حلقها، فلا تجد ما تقوله، . . . وينطلق لسان فاطمة من عقاله، لتسأل:

ـ أبتاه، أجئتنا بما أردناه؟

ويسأله غالب من ورائه بمرارة، خارجاً عن ذلك الصمت الطويل الذي لزمه الجميع منذ انطلاقهم من المدينة حتى الساعة:

ـ بِمَ وعدتها يا أبا المحل؟ . . . وهل كنت في رحلة صيد أو تجارة لتأتيها بما تريده؟! . . .

فيجيبه حزام بنبرة أمرّ:

ـ ليس ما تريده أم البنين سوى ما أردناه يا غالب، وما لم نستطع تحصيله، وأنا الآن أعدّ العدة لجوابها.

ـ وهل تحسب حساباً لطفلة صغيرة يا أباالمحل، ونحن في غمرة هذه الأهوال الكبيرة؟!

استدار حزام ليجيبه متنهداً:

ـ لست أبالغ يا غالب، ولكن، ليست أم البنين صغيرة وإن بدت في العمر والجرم كذلك، وإن جوابي لها هو بعينه جوابي لربي حين يسألني كيف خلفت رسول الله في عترته، . . . تالله إني لأعرف جوابي، وهو وإن أقرح قلبي، فقد أنارلي دربي، لأنه مستلهم من أمر أمير المؤمنين، ولئن رفضه ساعدي الملتهب لحمل السيف في سبيل الدفاع عنه، وكل كياني المستعد لنصرته عند أول إشارة، إلا

أنني أعلم أنه بالحق أدرى، وبمصلحة الدين أعرف، فهو وليي وولي كل مؤمن ومؤمنة، وعليّ فرض طاعته، اقتنعت بما أمر به أم لم أقتنع!

***

لعل حزاماً دخل خيمته، من غير أن يعرج على زوجته وطفلته، وهبط على ركبتيه حالما اختلى بنفسه، وأجهش بالبكاء.

لم يكن من عادة ثمامة وابنتها الدخول بلا استئذان، ولكن منظر حزام وهو يُعرض عنهما ويدخل خيمته أقلق ثمامة وجعلها تهرع خلفه وتدخل...

وهالها منظره، للمرة الأولى ترى زوجها على هذه الحالة، ترى ماذا جرى؟!

ولعل خاطرة سوداء خطرت لها، ... لعلها سألته بقسوة لم يكن منها مفر:

ـ أتقاعست عن نصرة آل محمد يا حزام؟... أخِفت أعداد الناكثين وانهزمت أمام كثرتهم وتكاثرهم؟!

ازداد انفعال حزام ولم يكن بمقدوره أن يجيب، ولكن، لعل فاطمة انبرت تجيب أمها بقوة:

ـ كلا يا أماه، ماكان أبي ليفعل ما تقولين، ... إن في الأمر لحدثاً أجلّ وأعظم مما نعلم!

وأقبلت نحو أبيها مصفرة الوجه زائغة النظرات، اعتنقت رأسه وهي تخلط دموعها بدموعه، وتسأل:

ـ أبتاه، بالله عليك؟ ماالذي يبكيك هكذا وأنت فارس بني كلاب، وليثهم وأشد أبطالهم، إن ما يبكي الأبطال هو أشد وأقسى الأهوال بلا ريب.

جلس حزام أرضاً وهو يحاول أن يتماسك ليجيب على الأسئلة المتدفقة عليه، ولما وجد أنفاسه غمغم يجيب بين شهقاته:

ـ أعجب كيف لا تنطبق السماء على الأرض لما يجري، أعجب كيف تستمر الحياة الدنيا ولا تقوم القيامة، وقد انتهكت حرمة الرسول، . . . رباه، إنهم لم يسلبوا إرث آل محمد فحسب، إنهم. . .

. . . لم يستطع حزام أن يكمل، غلبته العبرات أكثر، . . . اكفهر وجه ثمامة، . . . خفق قلبها بعنف وهي ترجوه أن يتابع، . . . لم تمنعها دموعها المنسكبة هي الأخرى عن رؤية ارتجاف شفتيه وشحوب سحنته، كما لم يمنعها صوت النحيب المنبعث منها ومنه ومن ابنتهما، أن تميز صوته المتحشرج الباكي وهو يقول:

ـ [لقد اقتحموا دار فاطمة! . . . أرادوا حرق الدار على من فيها، وكان فيها علي وفاطمة وأولادهما، وبعض الأصحاب من بني هاشم، . . . لقد خرج الأصحاب من الدارعسى القوم يرتدعون، وقالوا للناكثين: «ويحكم، أتحرقون بيت فاطمة؟ إن فيها أهل بيت

النبي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، إن فيها بضعته فاطمة!»

فأجابهم كبير القوم بكلمة صلفة واحدة: «وإن. . . »]

ازداد بكاء حزام وثمامة، أما أم البنين فقد تجمدت في مكانها لهول الصدمة، وراحت تحدق في والدها تحديقاً شديداً، فيما الدموع تتناثر من عينيها، وصرخت ثمامة:

ـ «وإن»؟ قال «وإن»؟. . . ويلاه، إنها فاطمة!. . . ألم يقل الرسول فيها: «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»؟. . . ويلاه ما أقسى ما تقول، وما أشد هوله!

. . . تابع حزام سرده، . . . كان لا بد له من أن يتابع:

ـ بل إن هناك ما هو أكثر، . . . رباه، كيف لي أن أقول هذا؟ كيف أستطيع؟

صرخت فاطمة بدورها وقد كاد قلبها يتوقف عن الخفقان:

ـ أبتاه، تابع بالله عليك، ماذا جرى بعد؟ بل ماذا يمكن أن يجري بعد؟!

لطم حزام وجهه وهو يقول:

ـ [لقد فتحوا الباب عنوة، وكانت فاطمة خلفه، تذكّرهم وتعظهم، فتحوه بقسوة، بشراسة ما لها نظير، ودفعه كبيرهم بشدة، فاعتصر فاطمة وراءه،] و. . .

لطمت ثمامة وجهها وانكفأت إلى ابنتها تعتصرها وتسأل بأنفاس تكاد تزهق:

ـ هل... أصاب مولاتي فاطمة مكروه؟

مر وقت طويل قبل أن يستطيع حزام أن يتماسك ويجيب، ... كانت تلك الفترة كافية لتصعد بروح فاطمة، لو قدر لها ذلك، ولكن أباها همس في النهاية:

ـ [لقد تأذت حبيبة الرسول، تأذت بشدة، ... أُخبرت أنها أسقطت جنيناً ذكراً، بين الحائط والباب، ... قيل لي أن الرسول كان قد أسماه قبل ولادته «محسناً».]

مضت دقائق، استطاعت بعدها فاطمة أن تهدأ قليلاً، وتسأل بلهفة، وعيناها متعلقتان بوجه أبيها ولحيته المخضلة بالدموع:

ـ وماذا فعل أمير المؤمنين؟

عاد حزام يزداد بكاءً وهو يتابع:

ـ وهذه مصيبة أعظم، ... [لقد كان علي في الدار، يجمع القرآن كما أمره النبي، هي ثلاثة أيام لا أكثر قد مضت على وفاة الرسول، وقد أمره ان لا يلتفت لأمر قبل جمع القرآن، ... لقد دخلوا الدار غصباً، واقتادوا علياً غصباً، ... إني لأتمثلهم الآن وهم يجرونه جراً، ...]

قاطعته ثمامة بصوت مبحوح ذاهلة:

ـ علي؟! . . . يجرون علياً؟! . . . وهل كان بمقدورهم أن يقفوا أمامه؟! . . . ألم يستل سيفه ذا الفقارويبيدهم عن بكرة أبيهم، كما تعود، فداء لدين محمد، ودفاعاً عن حرمة الإسلام وبضعة النبي؟! . . . ألم يفعل؟! .

هز حزام برأسه نافياً وهو يكمل:

ـ لقد أخذ منا العجب مأخذه، . . . كدنا نختنق ونحن نرى ما يُفعل بوصي النبي، [وهولا يحرك ساكناً سوى لسانه يلهج به محوقلاً مستغفراً، . . . علي، . . . ليث الليوث، أسد الله الغالب، . . . داحي باب خيبر، وقاتل عمرو بن ود ومرحب، وغيرهما من أشد الأبطال، كيف لم يقاومهم، لم يرد عليهم، لم يحاربهم، . . . ساعتئذٍ، لم ندرِ. . . . حتى إن فاطمة خرجت خلفهم، خرجت جريحةً قد بان أثر الدم على خمارها، وهي تصرخ بهم:

«خلوا عن ابن عمي، أو لأكشفن للدعاء رأسي!»

كانوا قد وصلوا بعلي إلى مسجد النبي، وإني لأرى جدران المسجد وقد كادت تطبق بعضها على بعض، ورأيت علياً وهو يخاطب سلمان المحمدي ويهيب به أن يرد فاطمة إلى البيت، . . . لقد وقفت شعورنا على رؤوسنا فزعاً لهول المشهد، وأقبل سلمان المحمدي نحو الزهراء باكياً يقول:

ـ إن علياً يناشدك الله.ويقول: «يا حبيبة محمد، لقد أُرسل أبوك رحمة للعالمين، فلا تكوني عليهم نقمة!»

لقد لملمت فاطمة أذيالها، وانصاعت لأمر زوجها وإمامها، . . . خرجت من المسجد ساخطة ناقمة، جريحة مقهورة، تبكي وتئن، حتى وصلت إلى بيتها، فأوصدت بابها على نفسها وأولادها وأحزانها، وآلامها أيضاً.]

ـ وبعد، . . . وبعد يا حزام، ماذا فعل علي؟ هل بايع؟

مسح حزام دموعه وهويجاهد أن يستكين، وأجاب:

ـ لقد علمتنا فاطمة درساً، أن نلتف على جرحنا ونصمت، رغم عمق الجرح واتساعه وشدة إيلامه، وأن نطيع إمامنا مهما كان ما يدعونا إليه، . . . كلا، إن علياً لم يبايع، ولكنه رفض أن يدعو للثورة والمطالبة بحقه!

ـ ولِمَ؟!

. . . كان السؤال منطلقاً من حنجرة ثمامة وقلب فاطمة،

ـ لقد خشي على بيضة الدين، وحريّ بمن بذل ما بذله علي في سبيل إعلاء كلمة الحق، أن يكون أحرص من كل أحد على المحافظة على تلك الكلمة. إن النبي قد قال لنا: «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور معه كيفما دار»، وقال أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها»، وقال له كذلك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ألم تري إلى هارون إذ عكف قومه على عبادة العجل، حين وعظهم فكذّبوه، حتى كادوا يقتلونه؟. . . تالله، إنهم ليتربصون بعلي،

ويريدون قتله، غيلة إن لم يقدروا عليه جهراً، ولعمري إنه لأعلم منا بما يجب فعله، إن علينا طاعته، وليس علينا أن نعمل بما لا نعلم فنكون من الخاسرين.

انتزعت ثمامة خمارها وصرخت متلوية تقول:

ـ أكاد أختنق يا حزام، ليس بمقدوري أن أصمت، إن حرمة الرسول تُنتهك، فاطمة الزهراء تُضرب وتُؤذى، علي يُقهر ويُغلب على أمره، أكاد أختنق، . . . كيف لنا أن نصمت على كل هذا، كيف نصمت على كل هذا الجور يا حزام؟!

أقبل حزام نحو امرأته، والتفت إلى ابنته التي كانت لا تزال متشنجة في مكانها، تذرف الدمع بلا توقف، فضمهما إلى صدره معاً يهدئهما ويقول:

ـ إن ما أعانيه من إطاعة هذا الأمر لأشد مما تعانيه أنت يا ثمامة، أنا الذي أحمل سيفي وأنتظر الإشارة، . . . لقد اضطررت إلى إغماده وإلى تنكيس رمحي والعودة من حيث أتيت، لأني علمت أنه بلاء ابتلي به آل محمد ومحبو آل محمد، وأن النطق حيث يجب الصمت لا يكون بلاغةً بل عيّاً، كذلك الحرب حيث لا يجب أن تكون، وإن ما زادني اقتناعاً رغم صعوبة ذلك، أني رأيت [أبا سفيان، وهو من تعلمين طليق لم يدخل الإسلام إلا خوفاً وطمعاً، وهو يمشي في المدينة يستفزّ بني هاشم للحرب، ويدعوهم للقيام لاسترداد حقهم، . . . . لقد رده علي خائباً]، وكانت دعوته للقيام

هي أصرح دليل على أن القيام اليوم ليس هو المطلوب، أن فيه تشتيتاً لكلمة الحق، وتضييعاً للدين الذي لم يزل غضاً طري العود، . . . إن ما أمرنا به علي أن نعض على الجرح وأن ننتظر، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يُرَد فيه الحق إلى أصحابه، لأن الله عزوجل لا يرضى بأن ينتصر الظلم بحال من الأحوال، وإن بدا في بادئ الأمر منتصراً، . . . إن علياً نفسه قد صمت عن حقه، لأن هناك ما هو أهم، حماية بيضة الإسلام، فلا أقل من أن نصمت نحن، اقتداءً به وامتثالاً لأمره، ويبقى حق ولايته ديناً في أعناقنا نؤديه حالما تسنح الفرصة، ويصدر منه أمر المواجهة، و﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

***

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

كأني بأم البنين تردد الآيات بصوت مسموع، وهي جالسة في مصلاها، تصعّد الآهات وتذرف الدموع، فتقبل أمها نحوها، تلمس كتفها برحمة وهي تسأل، بصوت متحشرج لا ينكر فيه أثر البكاء:

ـ إيه فاطمة، ألم تنتهي بعد؟

فتلتفت فاطمة، تسارع لتمسح دمعها، وتجيب:

ـ أماه، هل تحتاجينني في شيء؟!

ـ كلا يا بنتاه، ولكن يحزنني حزنك يا منية الروح، ولا أقوى على

سماع بكائك، ألا تظنين أنه قد آن الأوان لتعودي إلى أقرانك فتلعبي معهم، وإلى عرائسك لتحاكيها وتتسلي بها؟ . . .

طأطأت فاطمة رأسها وهي تتنهد قائلة:

ـ أماه، كلما أردت الانصراف إلى اللعب واللهو تذكرت الحسنين وزينب، . . . تمثل لي حزنهم على جدهم، وعلى مرض أمهم، وانصرافهم عن كل شيء إلا ذاك، فأجد نفسي عازفة عن الفرح والسرور، . . . أماه، قلبي يمتلئ قهراً ودموعي تنصبّ رغماً عني، إن حزن مولاتنا فاطمة على أبيها لم ينقضِ بعد، وهي لا تفتأ تبكيه ليل نهار، فكيف ينقضي حزننا نحن؟!

ـ ولكنك لا زلت صغيرة ياابنتي على هموم الدنيا وآلامها، . . . ما لك وللأحزان يا صغيرتي، فإنها قد تأكل عودك وتنحل بنيانك، فتصيبك بالسقم والمرض.

ـ أليس الحسنان صغيرين أيضاً يا أماه، لا يجاوز عمرهما الثامنة؟ أليست زينب أيضاً صغيرة؟ . . . إنها تصغرني بقليل، . . . صحيح أني لم أرها بعد، ولكني أراها كل يوم بعين محبتي، وأعايشها بقلب مودتي، فأعلم أني أعرفها كما لم أعرف أحداً من قبل، إن أم كلثوم أيضاً هي أصغر الجميع سناً، وهي مع ذلك تعايش الحزن ليل نهار، أفلا يكون لي بهم أسوة واقتداء؟! . . . أويكونون لي عبثاً أولياء، دون أن يكون حزني لحزنهم أقل عزاء؟!

لعله لم يعد بمقدور ثمامة أن تقول شيئاً، ولكن ما كانت تشفق منه حقاً

هو أن يصل الخبر العتيد إلى فاطمة!

لقد جاهدت جهاداً جباراً لتتمكن من الهدوء قبل أن تدخل إليها، رغم أنه كان عسيراً عليها أيما عسرٍ أن تهدأ، ولكنها علمت أن فاطمة ستموت غماً وكمداً إن علمت ما تعلم، إن وصلتها الأخبارِ المشؤومة!

. . . إن إيذاء الزهراء وغصب حق أمير المؤمنين وحزن أولادهما على فراق جدهم يكاد يزهق روحها حزناً، فما تفعل إذاً إن علمت أن سيدة النساء قد. . . رحلت، غادرت عالم الفناء والظلم والبغي هذا، إلى عالم البقاء والعدل الإلهي اللامتناهي، . . . أنها حملت ظلامتها في ضلعها المكسور وعينها المحمرّة، ورفعت جنينها المحسن بين يديها، لتفد على الباري مظلومة مقهورة، تستعطيه الرحمة وتستنصفه، وهوخير المنصفين؟! . . .

. . . ولكنها ستعلم في النهاية، فخبر كهذا لا يمكن إخفاؤه.

ولكن، كيف ستخبرها؟ إنها لا تعلم أين ولا متى ستفعل، . . .

. . . لئن لم تخبر ثمامة ابنتها في تلك اللحظات بما هناك، إلا أن قلبها لا بد أخبرها، . . . لعلها رفعت إلى أمها عينين ذابلتين منكسرتين، وسألت والهة:

ـ أماه، الحزن لا يغادرني مذ جرى على أهل البيت ما جرى، ولكنني أجدني الساعة أكثر حزناً، . . . عندما نظرت إلى السماء قبل قليل، رأيت النجوم شاحباً لونها والقمر محمراً كعين دامعة، وسمعت عويلاً من بعيد، أماه، حتى رمال الصحراء كانت تتململ، وكأنها تتزلزل وتجهش بالبكاء، . . . أماه، ألك علم بأي جديد؟ . . . بالله

عليك يا أماه، أرى في نظرتك دموعاً تجول، هي غير ما تعودت، هي حديثة عهد وهي تنطق بالكثير، أرجوك يا أماه أفصحي لي، فإن ما أنا فيه الآن يعذبني أكثر!

لعل ثمامة لم تستطع أن تهرب من تساؤلات ابنتها، ولكنها كذلك لم تستطع أن تجيب، فحملت دموعها وآهاتها إلى زاوية الخيمة وتركت فاطمة حيث هي.

لعله انبعث من مكان ما في أطراف المخيم صوت، . . . لم تدرِ فاطمة ولا أمها، أمن الأرض انطلق أم من السماء، . . . كان نحيباً ونداء:

ـ وافاطمتاه، واسيدتاه، وازهراءاه، واضيعتنا بعدك يا بنت رسول الله!

لعل فاطمة وقفت مشدوهة، نظرت حولها، لم تعد ترى شيئاً، كان الظلام يكتنفها، ضاقت أنفاسها وتشنجت، ولو لم تهرع إليها أمها في تلك اللحظة، لسقطت على وجه الأرض، لقد سقطت بين ذراعي أمها وهي تجد صوتها في النهاية لتصرخ وهي تتخبط:

ـ يا مولاتي، يا سيدة نساء العالمين، . . . . وافاطمتاه، خذيني إليكِ!

لعل فاطمة استكانت، وسكنت حركتها، حتى خُيّل لثمامة أن ابنتها ماتت، فارتفع صراخها ونحيبها أكثر.

. . . ورغم أن النحيب كان يعم أرجاء المضارب للمصاب الجلل، استشهاد الصدّيقة الزهراء، إلا أن صوت فاطمة وأمها فاق كل ما عداه، واجتذب انتباه نساء بني كلاب، اللواتي كن ينحن صائحات، فاندفعن صوب خيمة فاطمة، ليجدن ثمامة منكبة على ابنتها، تارة تنادي

«وافاطمتاه» تندب سيدة النساء، وأخرى تصرخ «وافاطمتاه» عساها توقظ ابنتها الممددة بين يديها كالجثة الهامدة.

ولعل خبراً شاع في أنحاء المضارب أن فاطمة قد ماتت، فاطمة الصغيرة، أم البنين بنت حزام، . . . لعل الخبر وصل إلى حزام، فأقبل يتعثر بأذياله، . . . ولم يكد يصل إلى خيمة ابنته حتى تعالى التهليل والتكبير، وأُذن له بالدخول، فدخل ليجد فاطمة مستلقية في حجر والدتها، قد شحب لونها وازداد نحولها، ولكن، كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة ذابلة، كانت قد فتحت عينيها وراحت تتصفح الوجوه حولها كالذاهلة، ثم إنها نظرت إلى أمها، وأشارت إليها بأن تزيح رأسها من حجرها، وتابعت بصوت ضعيف:

ـ لا عليك يا يا أماه، إن حزني شديد، ولكن لعلني لأموت احتاج المزيد.

ثم إنها راحت تنشج بصمت، ولعلها لما أرادت أمها أن تواسيها وتمسح دمعها، تحاملت على نفسها لتزيح يد أمها برفق وتقول:

ـ دعي دمعي يا أماه، دعيني، . . . لن تمسح أمي دمعي وأولاد الزهراء أيتام لا يمسح دمعهم أحد!

لعل حزاماً تدخل متأثراً، واقترب من ابنته يقول:

ـ إن أبوهم هو إمام المتقين، وأحد أبوي هذه الأمة يا ابنتي، وهو أب لهم وأم، فلا تخشي عليهم شيئاً وهم في ظله الوارف.

ازداد بكاء فاطمة بدل أن يخفف حديث والدها من حزنها، وتابعت:

ـ هو ما تقول يا أبتاه، ولكنه قد يُتّم أيضاً لفقد الزهراء، . . . أولم تكن هي البقية الباقية له من رسول الله؟! أولم تكن هي المعزية له عن فقده؟! فبمن يتعزى الآن؟!

احتضن حزام رأس ابنته وراح يمسح عليه قائلاً وهو يجاهد لكي يخفي انفعاله:

ـ إن له في أولاد رسول الله، أولاده، خير عزاء وسلوى. . .

لكن فاطمة عادت تنسحب ثانية وهي تقول بإصرار:

ـ أما أنا، فلا عزاء لي عن فقد مولاتي، . . . دعوني أرثيها بدموعي، وأواسي أولادها بوحدتي، بالله عليكم، دعوني وحدي!

كان لا بد للجميع من إجابة فاطمة إلى رغبتها، فانسحبت نساء القبيلة وهن يتبادلن نظرات مستغربة ولكنها متأثرة، وانسحب حزام مشيراً إلى امرأته بأن تترك الفتاة وحدها، وهمس في أذنها وهو يتقدمها نحو الخارج:

ـ إنها تعرف ما تريد يا ثمامة، وإن روح الزهراء عليها السلام تكلأها وترعاها، فلا تخشي عليها شيئاً. . . . لو كان الحزن ليقتل، لكان علي أول قتيل له، وقد سمعت عن حزنه على سيدة النساء ما يفوق الوصف!

ـ وما سمعت؟!

سألت ثمامة بعدما أصبحا خارجاً، فرد حزام:

ـ [إنه ما برح في داره لا يفارقها منذ دُفنت سيدة النساء، . . . هو لا يخرج إلا ليلاً ليقرأ القرآن عند قبرها الذي أعفى أثره، ثم

يعود، . . . لقد ذهب إليه أصحابه ليعزوه، فوجدوه]. . . . ويحي يا ثمامة، إن ذلك الأسد الضرغام، [ليبكي بكاءً مراً لفراق الزهراء، وهومنفرد بأولاده، تارة يواسيهم ويمسح دمعهم وأخرى يواسونه ويمسحون دمعه، وهو في كل حين يناجي حبيبه رسول الله ويكرر: «يا رسول الله، قلّ عن صفيّتك صبري، وعن سيدة نساء العالمين تجلّدي!]»

أجهشت ثمامة بالبكاء، وهي التي لم يجف دمعها بعد، ولم يكن حزام بأقل منها انفعالاً، ولكنهما خفضا صوتيهما، لئلا يصل إلى مسامع فاطمة، فيزيد حزنها وتأثرها، إن كان إلى زيادة ما هي فيه من سبيل.

الفصل السادس:

الدرة المكنونة

الزمان: السنة الحادية والعشرين للهجرة

المكان: مضارب بني كلاب

تتابعت أصوات الأهازيج تتجاوب بين أنحاء المضارب، تتخللها ضحكات وأشعار يتناقلها المنشدون، وضرب دفوف لا ينكر، وانطلق في الفضاء عبير الثريد تطبخه نساء القوم وهن يهزجن ويهللن.

كأني بثمامة قد التفت بعباءتها وهي تشير إلى ابنتها أن تقتدي بها، عساهما تخرجان لتلبية دعوة العرس، عرس عبدالله بن غالب على ليلى بنت الحارث، بنت سلمى الكلابية، جارتهما.

وكأني بفاطمة قد رسمت على وجهها المشرق ابتسامة وهي تجيب:

ـ أنت تعلمين أن حضور الأعراس ليس عملاً أرغبه عادةً يا أماه، ولكنني سأحضر إكراماً لخاطر ليلى، فهي جارتي ورفيقتي، وأظن أن لها عليّ حق الجوار.

ـ لست أكثر منك لهفة للحضور يا ابنتي، ولكنه عمل يحبه الله ورسوله، وإن ليلى هي نعم الفتاة المؤمنة، وعسى أن يبارك الله في تزويجها من الفتى عبد الله، يعلم الله أني مسرورة بهذا الزواج كما لو كان لابنتي.

تبسمت فاطمة ثانية، فيما ارتفع من الخارج صوت يستأذن بالدخول، كان صوت سلمى، فعجلت ثمامة ترد قائلة:

ـ أهلاً بك يا سلمى، أفي هذا الوقت تأتين إلينا ونحن نتهيأ للخروج إليك؟!

دخلت سلمى وقد بان في وجهها حرج وهي تتمتم:

ـ يعلم الله شدة حبي لك يا ثمامة، ولفاطمة أيضاً، وقد خشيت أن لا تقدما، فأردت أن أحثكما على ذلك بقدومي.

ربتت ثمامة على كتف سلمى وهي ترد باشّة في وجهها:

ـ وأنت أيضاً حبيبة إلينا يا سلمى، وما كان لنا أن نتأخر عن عرس ابنتنا ليلى، وها نحن قد تهيأنا، أفنخرج معاً؟

اعتنقت سلمى ثمامة ودمعت عينها وهي تقول:

ـ أنت دائماً تقهرينني بحلمك وتغلبينني بحسن ظنك، أما أنا، فاغفري لي سوء ظني...

ـ وأي ظن ظننت بنا؟!

ـ لقد بلغتني شدة لهفة غالب على خطبة فاطمة لولده عبد الله، ولولا رفض أبي المحل المتكرر لتلك الخطبة لكان اليوم هو عرس فاطمة لا ليلى، وها هو قد خطب ابنتي اليوم، أفلا يسوؤك هذا؟

ـ ولماذا يسوؤني يا سلمى؟ بل إنه يفرحني، فليلى عزيزة علي، وإن خطبتها لعبدالله قد أثلجت صدري، فعبدالله من خيار فتياننا وفرساننا، وهو لها كفؤ كريم،...

ـ أنت أطهر من عرفت قلباً يا ثمامة، وإن لي بجيرتك وصحبتك

وقرابتك لحظ عظيم، ولكن، أتسمحين لي بسؤال وإن لم يكن الوقت وقته؟

ـ سلي ما بدا لك! . . .

تململت سلمى خارجة من الخيمة وهي تأخذ بيد ثمامة تاركتين فاطمة خلفهما، وهمست في أذنها:

ـ أما آن لزوجك ان يفتح بابكم أمام الخاطبين؟ . . . إن فاطمة زهرة متفتحة ما لها نظير بين بناتنا وإن رجال بني كلاب وفتيانها، بل ورجال العرب كما تعلمين، يتنافسون في طلب يدها، لما تتصف به من جمال وكمال وعقل وأدب وفهم ودين، وهو عازف عن الجميع، فما سر عزوفه هذا، وفي خاطبيها من يضاهون عبدالله بن غالب بل ويفوقونه نسباً وعزاً ودياناً وجاهاً؟ . . . ماذا ينتظر حزام ليزوج ابنتكما؟ وهل أنت راضية بما يواجه به كل هؤلاء من رفض وإعراض لا مبرر لهما؟

لم تتغير ابتسامة ثمامة، ولكن برقت عيناها بنظرة جديدة لم تفهمها سلمى، وهي تجيب:

ـ إن حزاماً رجل حكيم، وهو أدرى بما يفعله، . . . لست أشك أنه في رفضه هذا معذور، ولا أعارضه قط، لا قولاً ولا فعلاً، ولا حتى في أعماق ضميري.

ـ وفاطمة؟ . . . ألا يسوؤها رفض والدها المتكرر لخاطبيها؟ . . . إنها لا بد مستاءة، وهي إن لم تقل شيئاً فلأن الحياء يمنعها!

نظرت ثمامة إلى جارتها نظرة عميقة وهي تختم الحديث قائلة:

ـ لا عليك يا سلمى، أشكر لك غيرتك واهتمامك بصالح ابنتي، ولكن فلتعلمي أن فاطمة لا يعنيها من قريب أو بعيد أمر كهذا، . . . فهي غالب عليها ما هي فيه من عبادة وتفقه في الدين، وهي راضية مسلّمة لمشيئة ربها في كل الأمور، ولن يكون رضاها وتسليمها في هذا الأمر بأقل من سواه، فهي تعلم أن والدها لا يأخذ الأمور جزافاً وأن همه الأكبر سعادتها، في الدنيا والآخرة، . . . ألا تنظرين إلى شدة سرورها بخطبة ليلى، ولعل الأجدر بفتاة مثلها أن تغتاظ لخطبة من هي أصغر منها سناً من رفيقاتها؟!

ـ إنها كما تقولين وأكثر، إن صفاء نفسها لينعكس على صفحة وجهها فيزيدها إشراقاً ونقاءً على إشراقها ونقائها، . . . كتب الله لها كل خير، فإنها جديرة حقاً بكل خير.

. . . التفتت ثمامة تفتش عن ابنتها لتستدعيها، وإذا بها لا تزال داخل الخباء تنتظر انتهاء مسارّتهما، لعل فاطمة استبطأتهما، فجلست في ركن المكان تتشاغل بتلاوة ذكر وآيات ترددها، حتى إذا لاحظت إطلال أمها عليها، سارعت تقوم إليهما وتبادر مخاطبة أمها كالعارفة بما دار من حديث:

ـ ألا ننطلق يا أماه؟ . . . لا بد أن أهل العرس قد افتقدوك يا أم ليلى، وربما استبطأونا أيضاً، إن ليلى كذلك تحتاجنا بجوارها، أفلا نذهب الآن؟!

كأني بالنسوة قد أرخين خمرهن على جيوبهن، وخرجن متوجهات إلى خيمة ليلى، . . . كانت ثمامة وسلمى تتقدمان فاطمة، وأما فاطمة فكانت تمشي الهوينا خلفهما على استحياء، قد يغفل الناظر إلى مشيتها صغر سنها، فهي لم تكن مديدة القامة فحسب، بل كانت متزنة متقاربة الخطوات، تمشي بهدوء ووقار، مماثلين لمشية والدتها، أو ربما أكثر!

***

لم تكن سلمى هي الوحيدة بين نساء القبيلة ورجالها التي تسأل وتتساءل، حول سبب إعراض حزام عن خاطبي ابنته، ولم تكن وحدها تستغرب. . . .

ربما عزى البعض إعراض حزام إلى غرور ينتابه لتفوق ابنته على أترابها، ولكن حزاماً لم يكن يأبه لما يواجهه. . . كانت صورة فاطمة تملأ مخيلته أينما اتجه، وكلما نظر إليها، امتلأ قلبه تقديراً وحرصاً على فضائلها، . . . وتذكر رؤياه. . .

«إن فاطمة هي حقاً درة مكنونة قلّ نظيرها، وليس له إلا أن يزوجها من رجل يماثلها شرفاً وسؤدداً لا أقل، . . . إن الشقّ الأول من الرؤيا قد تحقق، وهاهي فاطمة تتوهج بين يديه كأصفى ما يكون الدر الثمين، ولا بد له من الصبر كي يتحقق الشق الثاني، أن يكون إهداؤها إلى من يعرف قيمتها ويصونها كأفضل ما تكون المعرفة والصون. . . إن فاطمة هي أمانة في عنقه، وليس له أن يؤديها إلا إلى صاحبها. . . ولكن، من تراه يكون ذاك الصاحب العظيم الذي ستهدى إليه هذه الجوهرة الغالية، والذي سيضمن بإهدائها إليه سعادة الدنيا والآخرة لها، والسؤدد والفخر له ولها أبد الآبدين؟!. .».

. . . كان السؤال يسبح في فكر حزام في كل حين، يجول بين قلبه وعقله، ويروح يتخيل صورة مبهمة لا يستطيع تفسيرها لذلك المنتظر، الذي لا يعلم من هو إلا عالم الغيب والشهادة السميع البصير.

. . . واستوقف أفكاره عند تلك الظهيرة القائظة نباح كلاب القبيلة، ونداء من بعيد، . . . كان صوت غلامه مالك يهتف وهو يتجه نحوه مهرولاً:

ـ سيدي أبا المحل، ضيف حل بساحتنا، عليه سيماء أهل المدينة!

انتفض حزام وهو يجيب:

ـ أهلاً به وسهلاً، حضّر خيمة الأضياف يا مالك ولا تتأخر!

فردّ مالك بين لهاثه، وهويتجه نحو خيمة الأضياف:

ـ سمعاً وطاعةً يا سيدي.

ولكن حزاماً عاد يستوقفه متسائلاً بلهفة:

ـ أين هو الضيف يا مالك، وعلام تركته دون أن ترشده إلينا؟!

ـ إن بعض أشرافنا قد لقوه على مشارف مضاربنا، وقد أرادوا استضافته، ولكنه يسأل عنك، ويقصدك أنت لا سواك، وها هم يرافقونه إلى هنا.

ـ وهل عرفته؟!

ـ لم أعرفه يا مولاي، ولكن، إن عليه سيماء الصالحين، . . . هو ليس من الأغنياء ولا من الفقراء، ولكن في ملامحه شرف وعزة، . . . لست أدري يا سيدي، الآن تراه، ولعلك تعرفه.

لم يكد مالك ينهي كلمته حتى أطل من المدى رجلان، يتوسطهم ثالث على جواد، قد بان في هيئته وهيئة جواده أثر السفر.

[حث حزام خطاه باتجاه الضيف وهو يحاول أن يتبين معالم وجهه من بعيد، . . . وتطلّق محياه وهو يسرع أكثر حينما لاحت له ملامح ضيفه، وامتلأ اعتزازاً وهو يهتف به:

ـ أهلاً بابن عم رسول الله، أهلاً بك أيها الشريف ابن الشرفاء، حللت أهلاً ووطئت سهلاً في ديارنا، إي والله، لقد حلت البركة في ربوع بني كلاب.

ترجل الرجل عن جواده، وسار نحوه حتى التقيا، فاعتنقا طويلاً، ثم التفت حزام إلى صاحبيه يشكر لهما صنيعهما إذ أرشدا ضيفه إليه، وراح يسايره حتى وصل به إلى خيمة الضيافة.]

***

لم تدر ثمامة ما كان سبب انشغال زوجها وغيابه عن خيمته كل تلك المدة، حتى رأت مالكاً منهمكاً يروح ويجيء، فنادته مستفهمة عما هناك، ونقل إليها مالك خبر الضيف المدني الذي حل بساحتهم، فسألته ثمامة:

ـ أهو من أهل المدينة أم من أهل مكة؟

تبسم مالك بفخر وهو يجيب:

ـ بل هو مكي مدني، . . . إنه ابن عم رسول الله ﷺ، وقد جاءنا قاصداً سيدي خاصة!

تهلل وجه ثمامة وعادت تسأل بلهفة:

ـ أي أبناء عم النبي هو؟

ـ لا أعلم يا سيدتي، ولكن سيدي [أبا المحل مهتم به منصرف إليه، وهو على عادته من الكرم والجود، بل فوق عادته، قد دعاني لنحر الإبل إكراماً له، وها أنا ذاهب لأهيء ما أمرني به مولاي.]

أشارت إليه ثمامة بالانصراف في شأنه، ثم عادت إلى خبائها وقد تحرك في أعماقها شعور غريب، لم يكن شوقاً ولا فضولاً، بل كان أشبه بالحنين إلى أمر خفي، هل هو ذكر الرسول وآله قد بعث في كيانها ذاك التعلق الذي لا ينقطع بأذيالهم، والذي لا يفارقها قط؟... ربما،... وربما كان الترقب لأمر تجهله، ولا يعلمه إلا الله، وذلك الضيف الكريم!

***

ـ [ثلاثة أيام قد مضت على مكوث عقيل بن أبي طالب في ضيافتنا يا ثمامة، وهو لم يفصح بعد عن سبب قدومه إلينا!]

كان حزام يخاطب امرأته متحيراً، ويكاد لولا صبره على لهفته أن يطرح سؤالاً، لا عليها بل على نفسه،... وكفته ثمامة مؤونة السؤال إذ قالت مستفهمة:

ـ لعله يريد النصرة؟!

ـ لمن يا ثمامة؟

ـ لأخيه أمير المؤمنين، ومن غيره؟!

هز حزام برأسه وقد ازداد حيرة وهو يجيب:

ـ لست أدري يا ابنة العم، إن صمته يزيدني قلقاً، ولا أظنه قد جاء طالباً ما تقولين، فمن يطلب مثل ذلك لا ينتظر كل هذا الوقت، إن في وجهه لخبراً ما!

ثم إنه انتفض مستطرداً، وقد برقت عيناه حماسة لفكرة راودته:

ـ أما إن كان قد أتى مستنصراً، فإني خير ناصر لسيدي ومولاي علي، وهويوم طال انتظاري له!

ثم إنه استأذنها في الانصراف إلى ضيفه، فتعلقت به تسأله عما ينوي فعله، فأجاب:

ـ [إن الضيف لا يُسأل عن حاجته إلا بعد مرور ثلاثة أيام على استضافته، وها قد مضت الأيام الثلاثة، ولا مفر لي من سؤاله اليوم.]

لم يكن حزام قد توارى بعد، حين عاد إلى زوجته وقد خطر له سؤال، . . . ربما لم يعرف حتى هو نفسه لماذا التفت يسألها:

ـ أي ثمامة، ما لي لا أرى أم البنين؟ . . . إني لا أراها منذ أيام إلا لماماً، فما حالها؟

تنهدت ثمامة كالمهمومة وهي تجيب:

ـ إنها بخير يا حزام، ولكنها. . . .

لم تكمل ثمامة، . . . ورغم لهفة حزام لاستجلاء أمر ضيفه إلا أن

اهتمامه بشأن ابنته شغله، فاقترب من زوجته يسألها بقلق:

ـ ماذا هناك يا ابنة العم؟ . . . هل من خطب؟!

ـ إن فاطمة اليوم على غير عادتها، هي مضطربة ترتعد بين الحين والحين، . . . لقد حسبتها محمومة، ولكني تحققت من ذلك فإذا هي بخير، . . . ولكنها لا تزال ترتعد، . . . إني عائدة إليها الآن، وأرجو أن تكون قد ارتاحت.

ـ أجل، إذهبي إليها يا ثمامة، ولا تتركيها حتى تطمئني عليها، وإن لزم الأمر أرسلنا في طلب أفضل الأطباء لمداواتها، . . . إن فاطمة هي روحي التي بين جنبيّ يا ثمامة، ولا أطيق أن أرى بها أي بأس، أنت تعلمين ذلك.

قامت ثمامة متوجهة إلى خباء ابنتها، وهي تطمئن زوجها دون أن تكون هي نفسها مطمئنة:

ـ لا عليك يا أبا المحل، لست بأقلِ منك حباً لها واهتماماً بها، فهي مهجة فؤادي وفلذة كبدي، عد إلى ضيفك يا ابن العم، وعسى أن يكتب لنا الباري في الآتي كل خير.

***

وافترقا، . . . توجه حزام إلى خيمة الضيافة للقاء عقيل، وتوجهت ثمامة إلى خيمة ابنتها.

. . . . [وما إن أطل حزام حتى هشّ له عقيل وبشّ، وظهر على محياه خبر يوشك أن ينطلق.

لم يخفَ أمر عقيل على حزام فرأى الفرصة سانحة ليطرح سؤاله:

ـ إيه يا ابن عم الرسول وأخا وصيه، . . . إن ديارنا قد تشرفت بمكوثك بيننا، ولئن كان لنا أن نفتخر، فالفخر كل الفخر في تردد أنفاسك الطاهرة بين ربوعنا، كيف لا، وأنت من بيت النبوة والإمامة، قد تضمخت أعطافك بمسك محمد وكوثر علي، فجئتنا تنثر بيننا رذاذ ذاك العبير الفواح.

لعل عقيلاً تبسم ولمعت عيناه بما يُسِرّه، وكأني به قد أجاب:

ـ إنه يوشك أن ينتشر ذاك المسك بين ظهرانيكم.

ثم أمسك، فلم يفهم حزام، ووجد نفسه يصرح بعدما كان يلمّح:

ـ أي أخي، إن في قدومك إلينا وتشريفك ديارنا لحاجة ما، فهلا أفصحت عما تريد يا ابن عم الرسول؟!

لعل عقيلاً لم يجبه تواً، فعاد يسأل بإلحاح وقد استقر في نفسه أنه قد جاء مستنصراً حقاً كما توقعت ثمامة:

ـ هل لك يا أخي حاجة فتُقضى أو ملمة فتُمضى، من مال أو رجال أو عدد وعدة؟ . . . فإنا نحن رهن إشارتكم، نأتمر بأوامر مولانا علي، وهي الفرصة التي نرجوها لنكون في ركابه نخدمه ونرضيه، عسى أن يرضى عنا الله ورسوله!

علم عقيل بما دار في خلد حزام، فوجد ان لا بد من الإفضاء بما لديه، لئلا يشتبه الأمر على الرجل أكثر، فهتف به شاكراً:

ـ إنما أنت أهل لذلك يا أبا المحل، ولكني ما لذلك أتيتك!

. . . وقبل أن يستطيع حزام التخلص من دهشته وتساؤله، كان عقيل يقول وعيناه تزدادان التماعاً:

ـ لقد جئتك يا أبا المحل بالشرف الشامخ والمجد الباذخ، . . . جئتك بخير الدنيا والآخرة!

سأل حزام محتبس الأنفاس وقد تزايدت دهشته:

ـ وما ذاك يا ابن عم الرسول؟

تنهد عقيل مجيباً:

ـ لقد جئتك خاطباً!

كاد قلب حزام يفر من بين ضلوعه، ولكن كان لا بد من السؤال:

ـ مَن ولِمَن؟

لعل عقيلاً جلس مستوياً بعدما كان مستنداً، وتطلّع في وجه صاحبه وهو يقول بتؤدة، وكأنما يعُدُّ كلماته عدّاً:

ـ جئتك خاطباً ابنتك الحرة فاطمة أم البنين، إلى. . . أخي يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين وإمام المتقين وسيد الوصيين، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف صلوات الله عليهم أجمعين!]

. . . ظن حزام أنه لم يسمع جيداً، . . . كاد قلبه يقفز، . . . نظر في وجه عقيل يتحقق الجد في كلامه، فإذا هو مبتسم ينتظر جوابه.

. . . لم يدرِ حزام، أيبكي؟! . . . أيضحك؟! . . . أيسجد شكراً للباري على هذه النعمة الجزيلة التي غمره بها؟! . . . . وهل في وسعه شكر تلك النعمة؟! . . . بل هل حقاً ما طرق سمعه قبل قليل، أم أنه يتخيّل؟! . . . لقد كان يتوقع أن تُخطب فاطمة لعظيم من العظماء، لرجل ذي سؤدد وشرف، أما أن يكون هذا الرجل هو أعظم العظماء، سيد الأوصياء، علي بن أبي طالب، فذاك ما يصعب عليه تصوره، فضلاً عن تقبله وفهمه!

. . . صمت حزام ملياً ريثما استعاد هدوءه، ولكن حاله لم تخفَ على عقيل، فقد دمعت عيناه مراراً وكان يمسحهما بكفيه، ويتنحنح، حتى إذا وجد صوته أخيراً هتف بنبرة متهدجة:

ـ [إن ما جئتنا به يا عقيل، لهو خير الدنيا والآخرة حقاً، . . . لقد جلبت لنا الشرف الرفيع والمجد المنيع، . . . ونحن، . . . نحن نتشرف كل الشرف بهذه المصاهرة ونفتخر أيما فخر بهذه الوصلة، فمن مثل علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين، وحجة الله على الخلق أجمعين، إمام الإنس والجِنة، قسيم النار والجَنة، . . . ولكن، يا ابن عم الرسول، أين نحن منه؟! . . . ، وأين ابنتنا من جنابه؟! . . .

صمت حزام هنيهة ريثما يلتقط أنفاسه ليتابع القول، وكأنما يستكثر على نفسه النعمة:

ـ ثم إننا من البدو، والإمام مكي مدني، فهل تصلح بدوية كابنتنا، وهل تليق لتكون خادمة في باحة قدسه؟!

كان لا بد لعقيل من أن يجيب، فربت على كتف صاحبه قائلاً:

ـ إن أخي أمير المؤمنين يعلم كل ما قلتَه، ولا يخفى عليه شيء مما بيّنتَه، وهو مع ذلك يرغب في مصاهرتكم، ويحب أن يتزوج منكم، وقد رضي أن تكون ابنتكم زوجة له لا خادمة، وربة لبيته وأماً حنوناً لأولاده.]

طأطأ حزام برأسه يستجمع أنفاسه ليقول:

ـ لو أنفقت عمري كله، وأضعاف أضعافه إلى يوم يبعثون، على أن أشكر الله على ما حباني من هذه النعمة، لكنت مقصراً في أداء حق الشكر عن لحظة واحدة تقضيها ابنتي في ظل الإمام، ولكن، [أمهلني يا ابن عم الرسول، لأستشير أمها في هذا الأمر، فالأم كما تعلم أعرف بأحوال ابنتها من الأب، وأدرى بأخلاقها وآدابها، ولئن أشارت علي بالقبول، عرضت الأمر على ابنتي، فهي سنة الرسول كما تعلم، أن تُسأل الفتاة في أمر تزويجها، لمعرفة رضاها، . . .]

ثم إنه تابع كالهازئ من نفسه وهويقوم مغادراً:

ـ وهل لها أن ترفض؟! . . . إن هي إلا كلمة نقولها إطاعة لأمر الله ورسوله، ولكن أمهلني كما أخبرتك، وأنا عما قريب عائد إليك.

***

. . . خرج حزام من خيمة الضيافة على غير ما دخل، . . . خرج متطلق الوجه منشرح الأسارير، تكاد عيناه تقفزان من وجهه لشدة لهفته، ويكاد قلبه يسبق خطواته، . . . خرج ميمماً وجهه شطر خيمة ثمامة.

[رغم لهفة حزام على الدخول إلى خيمة زوجته حالما وصل ليزف إليها الخبر، ورغم امتداد يده إلى باب الخيمة يريد كشفه للولوج، إلا أن صوتاً استوقفه، وجعله يتجمد في مكانه، مسترداً يده، مستمعاً لما يدور من حديث، لعله أراد أن يتراجع حتى حين، فهو ما أراد تجسساً ولا تعوده، حتى على أهل بيته، ولكن الكلمات سبقت إلى سمعه فشغلته وجعلته يتوقف ليستمع ويطمئن، كان صوت ثمامة تخاطب ابنتها برجاء:

ـ أي فاطمة، . . . ألا تسرين إليّ بما يعتريك يا ابنتي؟ . . . إنما أنا أمك، ولئن خالجك خير أو شر، فليس لك سوى مشورتي فيه.

لم تتأخر فاطمة حتى أجابت أمها بنبرة لا يُنكر فيها اضطراب وذهول:

ـ أماه، . . . ما كان لي أن أخفي عنك من شأني شيئاً، ولكن، ما بي من سوء، فلا تقلقي!

ـ إذاً فعلام ارتعادك بين الحين والحين؟! . . .

تنهدت فاطمة وقالت بصوت مرتجف راح يزداد هدوءاً ورواء:

ـ أماه، إنما هي رؤيا رأيتها البارحة، وقد دخل في خلدي أن لها تفسيراً، فهي رؤيا عجيبة غريبة!

تريث حزام وحبس أنفاسه وهو يستمع لحديث ابنته، واستمر واقفاً في مكانه بلا حراك ينتظر بقية الكلام، وتابعت فاطمة:

ـ لقد رأيت وكأني جالسة في روضة غنّاء، ذات أشجار مثمرة وأنهار جارية، كان الوقت ليلاً والقمر بدراً يتلألأ في صفحة السماء،

ويرسل أنواره الفضية على الروضة فيكسبها جمالاً فائضاً وبهجةً رائعة، وكانت النجوم منتثرة حول القمر ترصع وجه السماء كذلك. . . . وفيما أنا أنظر حولي، أفكر في عظمة الله خالق السماء والأرض ومبدع الشمس والقمر، وإذا بالقمر ينقض من كبد السماء ويقع في حجري، وهو يتلألأ نوراً يغشي الأبصار ويبهر العيون، فتعجبت من ذلك كثيراً، ولكن، . . . زاد تعجبي أكثر حين رأيت ثلاثة نجوم زواهر تنقضّ من السماء نحو الأرض وتسقط في حجري أيضاً، وهي تتلألأ نوراً وتشعّ سناءً وضوءاً، وإذا بهاتف يهتف بي ويقول:

«بشراك فاطمة بالسادة الغرر ثلاثة أنجم والزاهر القمر
أبوهم سيد في الخلق قاطبةً بعد الرسول كذا قد جاء في الخبر»

. . . صمتت فاطمة لحظة وقد عاودها ارتعادها، ثم عادت تقول:

ـ أماه، لقد انتبهت من نومي فزعة حالما سمعت ذلك الهاتف، وها أنا كما ترين الآن، . . . أماه، هل تعرفين لرؤياي تأويلاً يريحني، بالله عليك؟!

قبل أن يستطيع حزام الدخول والتدخل، كان صوت ثمامة يستمهله إذ انطلقت تقول مهدئة ابنتها مستبشرة:

ـ بشراك يا فاطمة، إن رؤياك خير إن شاء الله، وهي تنبئ أنك ستصبحين زوجة لرجل له عند الله جاه عظيم وشأن رفيع وقدر كبير، سيد في قومه مطاع في عشيرته، عظيم عند الناس كبير عند

الله، وترزقين منه أربعة أولاد، أولهم أكبرهم قدراً وأعظمهم منزلة، يكون كالقمر، ويكون الثلاثة الباقون أمامه كالنجوم الزواهر.

. . . لم يعد حزام يستطيع الصبر على ما يسمع، فاقتحم المكان على غير ما تعود أن يدخل، وسلّم على زوجته وابنته بحرارة وقد بدا عليه البشر والسرور، ليجد فاطمة بين يدي أمها ترجّل شعرها، وتضمها مهدئة روعها، . . . وانطلق لسانه من عقاله ليهتف:

ـ لقد تحققت رؤياك يا بنية، فهذا عقيل بن أبي طالب، ابن عم رسول الله، قد جاء يخطبك منا!

انفرجت أسارير ثمامة، بينما غضت فاطمة الطرف حياء، . . . وسألت ثمامة:

ـ لمن يخطبها يا أبا المحل؟

فهتف حزام بصوت مجلجل ينطق بفخر وزهو ما له حدود:

ـ لفلّال الكتائب ومظهر العجائب، فارس المشارق والمغارب، أسد الله الغالب، علي بن أبي طالب عليه السلام!]

. . . ذاب فؤاد فاطمة وتزلزل، وتضرجت وجنتاها بحمرة قانية، لعلها لم تكن خجلة فحسب، بل إنها كانت أقرب إلى الموت من فرط حيائها، . . . هل هي لم تفهم؟ . . . بل إنها فهمت، ولكنها لم تكن لتصدق، . . . هي، فاطمة بنت حزام، أم البنين، تتزوج أمير المؤمنين وسيد الوصيين؟! . . . وهل في مقدورها أن تتحمل مثل هذه المسؤولية؟! . . . بل هل هي جديرة بمثل هذه المكانة؟! إنها لتشعر

بوضاعتها أمام رفعته، وتدني شأنها أمام علو شأنه، . . . إن شأنه يليق بشأن الزهراء عليها السلام، حبيبة روحها وسيدة فؤادها، أما هي فمن تكون؟! . . . وما عسى يليق بها أمام عظمته، أكثر من أن تكون خادمة في فناء داره، تمسح غبار نعليه ونعال أولاد الزهراء؟! . . . يكفيها شرفاً شرف خدمته، وليس في مقدورها تحمل المزيد!

. . . . انفلتت فاطمة من حضن والدتها، تدثرت بعباءتها وتسترت بخمارها وانسلت نحو خيمتها، تدفن في ذلك الحيز المنفرد وجدها وحنينها، وما أصابها من ذهول، إن كان الذهول كافياً ليصف ما تملكها من شعور إذذاك!

[أما ثمامة فقد تألقت وازدهت، وراحت تبادل زوجها نظرات البشر والزهو، ثم هبت تسأله:

ـ ولكن، بِمَ أجبت عقيلاً يا حزام؟

ـ استمهلته حتى أستشيرك وأرى رأيك، فما ترين؟

وتابع في شيء من القلق:

ـ هل ترين ابنتنا مؤهلة للزواج من وصي رسول الله؟ . . . إن الأمر ليس سهلاً كما تعلمين، وعلينا رغم فرحتنا بهذه الخطبة الميمونة، أن نتأنى في الإجابة، خشية أن لا تكون ابنتنا كفؤة لتكون زوجة لولي الله وحجته على الخلق، أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام!

نظرت ثمامة إلى البعيد وهي تجيب في ثقة وانشراح:

ـ إن فاطمة يا حزام، هي بحمد الله عاقلة نبيهة، وأديبة أريبة، وقد رأينا منها التفوق على أترابها منذ أيامها الأولى، كما تعلم، ولقد أدبتها بآداب العرب، وربيتها تربية الصالحين، . . . لقد أعددتها خير إعداد لتكون زوجة صالحة وأماً حنوناً، وقد حسنت سيرتها خَلقاً وخُلقاً كما ترى يا أبا المحل، وإني لأرجو أن تبيض وجهنا عند أمير المؤمنين عليه السلام!

. . . تهلل وجه حزام أكثر، ودار بنظره حوله يريد أن يسأل فاطمة رأيها، فلما لاحظ خلو المكان منها تكدر وأشار إلى زوجته أن تطلبها، وأن تستطلع رأيها ثم ترد عليه في الحال!]

هرعت ثمامة خلف ابنتها، لتجدها تجلس في ركن خيمتها ذاهلة شاردة اللب، لعلها كانت ترتعد وترتعد، وتذرف الدموع. . . اقتربت منها، ضمتها بحنو وهي تهمس في أذنها قائلة:

ـ إيه فاطمة! . . . أما يسرك أن يخطبك سيد الأوصياء وإمام الأولياء وثاني أصحاب الكساء؟! . . . أما تفتخرين؟!

رفعت فاطمة إلى أمها وجهاً مشرقاً غسلته بفيض عينيها، وتمالكت نفسها لتستطيع أن ترد:

ـ أماه، . . . إن ما يخالجني، هو فوق السرور، وفوق الافتخار، . . . إنه أشبه بالتحليق في فضاء الملكوت بأجنحة من نور!

ـ إذاً، فهل أنت موافقة؟

صمتت فاطمة وطأطأت رأسها حياءً، واختنق صوتها، فقرأت أمها في

صمتها علامة الرضا، فضمتها بشدة وقبلتها، ثم أفلتتها وقد استخفتها الفرحة لتعود إلى والدها فتزف إليه الخبر.

أما فاطمة، فقد انسابت دموعها على خديها أكثر من ذي قبل، وراحت تشهق بلا توقف، ثم أهوت ساجدة، وقد راحت تتوالى على لسانها كلمات الحمد والثناء، راحت تناجي ربها بدمع هتون، تارة تشكر له عظيم منته، وأخرى تستعطفه أن يمنحها القدرة والقوة على القيام بهذه المهمة الجسيمة، أن تدخل بيت الإمامة، فتكون فيه خادمة مطيعة، ترعى شؤون أهل البيت بقلبها وروحها وعينيها، وكل كيانها الذائب في عشق آل محمد. ثم إنها رفعت رأسها، لتتوجه صوب المدينة، صوب ذلك المرقد النوراني المتوهج في بقيعها، تلك الجنة المعفي أثرها، تخاطب الزهراء عليها السلام، تستأذنها وتأخذ منها الموافقة على هذه الخطبة، وكيف لا تفعل، وهي لا تعدو كونها جارية في ركبها الملائكي المتألق، ولئن طرق النور بابها الآن، فهو شق ذاك النور قد أتاها، لتقتبس منه شعاعاً، أصله من سيدة نساء العالمين، التي تريد أن تمنحها تلك المنحة التي ليس لها في الكون نظير، أن تدخل بيتها الطاهر، فتكون أمة تخدم أبناءهاوبناتها، وتحظى بشرف مجاورتهم!

***

... [عاد حزام إلى عقيل، متهللاً مستبشراً أكثر من ذي قبل، فسأله عقيل:

ـ ما وراءك يا أبا المحل؟

فأجابه حزام، والدنيا لا تكاد تسعه لفرط سروره:

ـ كل الخير يا ابن عم رسول الله، لقد رضينا أن تكون ابنتنا خادمة متواضعة في بيت النبوة والإمامة، إن قبلها أمير المؤمنين عليه السلام.

فرد عقيل بقوله مصححاً:

ـ لا تقل خادمة يا أبا المحل، بل قل زوجة وفية وقرينة كريمة.

ثم تابع يسأل:

ـ ولكن، لا بد للمرأة من صداق، فما ترون يا أبا المحل؟

طأطأ حزام برأسه خجلاً وهو يجيب:

ـ الرأي رأيك يا ابن عم الرسول، والأمر في ذلك إليك، فنحن لا نبغي سوى رضا إمامنا، من ثم رضا الله عزوجل، وهي هبة منا إليه!

ـ بل الأمر لله ولرسوله ولأمير المؤمنين، وإنما نريدها ممهورة، . . . تعلم يا أبا المحل أن رسول الله نهى عن غلاء المهور، ولئن كان مهر المرأة تقديراً لقيمتها، لما كان كل ما في السماء والأرض ليكفي مهْراً للزهراء عليها السلام وهي بضعة النبي وسيدة النساء، ولكن تعلم أن أهل بيت رسول الله لا يتجاوزون في صداق بناتهم ونسائهم ما سنه رسول الله، وهو خمسمئة درهم، مهر الزهراء عليها السلام.

ـ روحي فداء للزهراء وأبيها، ونحن لا نرضى إلا بما سنه لنا رسول الله ولا نتجاوزه، لقد رضينا وسلمنا.

قام حزام ليعود من جديد إلى زوجته وابنته ليزف لهما الخبر، «لقد

رضي عقيل بن أبي طالب ابنتنا فاطمة لأخيه أمير المؤمنين على مهر السنّة، مهر فاطمة الزهراء، وهو خمسمئة درهم».

سجدت ثمامة شكراً لله على هذه المنة، ثم إنها انقلبت إلى ابنتها تقبلّها وتهنئها، وتوصيها...]

كانت ثمامة تعلم أن فاطمة واعية لمسؤولياتها، وتعرف تماماً ما هي مقدمة عليها، كانت تعلم أيضاً، أن كل ما زرعته في ابنتها، وما وفقها الله إليه من تربية صالحة ومعرفة ويقين، وتعلق بأهل بيت النبوة، سيثمر في الأيام المقبلة، ستكون فاطمة هي الشجرة المباركة التي تمّ زرعها لتفيء على من حولها، وتثمر أينع الثمر، رضاً لله ولرسوله، ولوليه، بل لأوليائه أجمعين.

***

... وانتشر الخبر في عشيرة بني كلاب انتشار النار في الهشيم، أو ربما انتشار النور في الليل البهيم، ويمم أشراف القبيلة وجوههم شطر منزل حزام، بعدما دعاهم ليحضروا مجلس الخطبة.

كان الكل مستبشراً، ولعل فيهم من غبط حزاماً على هذه النعمة، وحسده على هذه المكرمة، أن يصاهره بنو هاشم، بل أن يصاهره سيد بني هاشم، وسيد المسلمين جميعاً بعد رسول الله، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولكن، كان كلهم يعلم أن حزاماً وابنته جديرين بهذه المكرمة، بل أن هذه المكرمة بالذات، هي فخر لبني كلاب جميعاً لا لحزام وحده.

وذهب لوم اللائمين أدراج الرياح، أدركوا أن حزاماً لم يخطئ بصبره

وانتظاره، وأن الله قد جزاه خير الجزاء، بأن جعل قرين ابنته سيد الأوصياء، وهذا منتهى فخر المفتخرين.

[ولما التأم الجمع، انعقد مجلس الخطبة، وقد راح بنوكلاب وبنو عامر، عشيرة حزام، يهنئ بعضهم بعضاً بالكلمة والنظرة، قاطعتهم نحنحة وتهيؤ للكلام، فصمتوا، وإذا عقيل بن أبي طالب يقوم فيهم خطيباً.

حمد عقيل الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله وعلى أهل بيته الطاهرين، ثم قال:

أما بعد، فاعلموا يا بني كلاب، ويا بني عامر بن صعصعة، أن الله قد منّ علينا إذ بعث فينا رسولاً من أنفسنا، محمداً ﷺ، فجاءنا بدين الله القويم الذي ارتضاه الله لنا، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ويقول أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وأمرنا بنبذ البغضاء والشحناء، وأوجب علينا التعارف وصلة الأرحام، إذ يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾. وحرم علينا الزنا والسفاح، وأحلّ لنا الزواج والنكاح، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، وقال رسول الله: «تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم»، وهذا وصي رسول الله ﷺ، وابن عم نبيكم، الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام، قد أحب مصاهرتكم، وخطب إليكم كريمتكم فاطمة أم البنين بنت حزام بن خالد بن ربيعة،

على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وقد قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

. . . وجلس عقيل، فقام حزام ليقول بعد الحمد والثناء على الله تعالى وعلى رسوله محمد وعلى آل بيته الطاهرين:

أما بعد، فيا قوم قد سمعتم ما قاله ابن عم رسول الله ﷺ، عقيل بن أبي طالب، من ذِكر نبينا محمد ودين الإسلام القويم، وإني أُشهِدكم، وأُشهِد الله أني أدين بدين هذا النبي الكريم، وأطيعه في ما نهى عنه وأمر به، وقد ارتضيت وصيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لابنتي فاطمة بعلاً وارتضيتها له سكناً، وأنتم عشيرتي وقومي، فما تقولون في هذا الأمر؟

تعالت أصوات القوم مهلّلة مستحسنة يهنئون حزاماً قائلين:

ـ ما تريد أن نقول في وصي رسول الله ﷺ، وابن عمه، إنه أكرم الناس نسباً وحسباً وأعظمهم شرفاً وسؤدداً، ولنا كل الفخر والشرف بالانتساب إليه والوصلة معه، فنعم ما صنعت وخيراً قد فعلت.

. . . وانفضّ المجلس، وعلم بنو كلاب أنهم قد حازوا شرف الدارين بهذه الخطبة الميمونة، فخرجوا وليس على وجه الأرض من هم أشد منهم فخراً وازدهاء.]

أما حزام، فقد أدرك كما لم يدرك من قبل عظيم نعمة الله على من توكل عليه، وعلم أن رؤياه قد تحققت كما لم يكن ليخطر له على بال، لقد حاز بهذا الزواج حقاً الشرف والسؤدد أبد الآبدين!

الفصل السابع:

«أم البنين»

الزمان: السنة الحادية والعشرين للهجرة

المكان: المدينة المنورة، منزل أمير المؤمنين عليه السلام

تلألأت سماء المدينة ألقاً، وازدهت فرحاً، . . .

لم يكن نور الشمس الساطع سبب ذاك الألق، بل كانت إشراقة وجوه أهل المدينة والتماع أعينهم دهشة، وهم ينظرون إلى ذلك الموكب المهيب الذي أطل على مدينتهم على حين غرة.

[كانت المطايا الخمس مجللة بالحرير، متوجة بهوادج يرصعها الديباج والإبريسم، وقد أحاط بالهوادج عشرة فرسان مدججين بالسلاح، يرفعون السيوف الهندية ويشهرون الرماح السمهرية، ويهلّلون ويكبّرون.]

. . . ربما ظن بعض من في قلوبهم مرض أن ثورة ما قد قامت، وربما حسب العارف ببني كلاب وولائهم لآل الرسول ﷺ، أنهم في صدد الإلتحاق بثورة يقودها أمير المؤمنين لاسترداد حقه، ولكن أهازيج النسوة داخل الهوادج كانت تكذب الخبر، وارتجاز الشعر خارجها كان يؤكد، أن الموكب موكب عرس.

لم يكن الخبر خافياً على أهل المدينة، خبرخطبة فاطمة بنت حزام الكلابية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولذا فإن الجميع، محبين

وقالين، ما لبثوا أن أدركوا أن بني كلاب يزفون عروسهم إلى بيت علي عليه السلام.

[. . . وارتفع صوت أحد الفوارس المحيطين بالهوادج، يكبّر ويسلّم على الرسول قائلاً:

ـ السلام عليك يا رسول الله، ها نحن في ضيافتك اليوم، أترحب بنا أم تردنا خائبين؟ لعمري إنك لجواد كريم، وها نحن قد جئناك حاملين، أحلى وأغلى هدية إلى وصيك أمير المؤمنين عليه السلام.

وارتفعت أصوات التهليل ثانية من داخل الهوادج وخارجها.

أما فاطمة، فقد احتلت وأمها أفخم تلك الهوادج وأجملها منظراً،]. . . ولعلها نظرت إلى وجه أمها المتطلق، بعدما كانت طوال الطريق مطرقة برأسها غائبة عن كل ما حولها، تسبح وتستغفر، وتتقوى على مواجهة المرحلة المقبلة، ينازعها شعوران من سرور وخشية، وفرحة ورهبة، فها هي قد صارت قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنة، فهي إما أن تكون مؤهلة لدخولها، وإما. . .

إن كل ذلك يعتمد على جواب لسؤال واحد، يكمن بين قلبها وشفتيها، وينتظر الوقت المناسب للنطق به!

همست فاطمة لأمها بصوت مبحوح لا يكاد يُسمع:

ـ أوصلنا؟!

لعل ثمامة كانت تلاحظ ما يكتنف ابنتها من قلق وترقب، فضمتها إليها

مهدئة، مؤكدة لها أن مقامها في بيت النبوة والإمامة سيكون أكرم مقام، وأن أمير المؤمنين سيكرمها ويحسن استقبالها بلا ريب، فهو أكرم الناس حتى على أعدائه، فكيف به مع من هي حليلته ومن ستكون يوماً أماً لأبنائه؟!

لعل كلام ثمامة زاد من توتر فاطمة، فراحت ترتجف، وكان لا بد لها من الرد فأجابت:

ـ أماه، لست قلقة ألا يكرمني أمير المؤمنين، فهو كما تقولين وأكثر، ولكني متهيّبة لقاءه، خائفة ألا أكون أهلاً لخدمته وخدمة أبنائه.

وكأني بها تابعت كالمتوسلة، والدموع تملأ عينيها:

ـ أماه، ألا تدعين الله أن يسدد خطاي، ويوفقني لما فيه طاعته ومرضاته؟... أماه، إن قلبي مشتاق إلى بضعة المختار، وإلى ذريتها الطاهرة، تعلمين كم أتوق للقائهم منذ صغري،... أماه، أخشى أن يكون كل هذا حلماً جميلاً لا يلبث أن ينقضي بحركة واحدة توقظني،... أماه، هل تظنين أن الزهراء عليها السلام راضية عني؟!

لعل ثمامة مسحت دموع ابنتها وهي تجيب:

ـ وكيف لا ترضى يا بنيتي، وإنما أنت جارية لها، قد ارتضتك خادمة لأولادها، وإلا لما خطبك أمير المؤمنين؟! وهل تحسبينه يفعل ما يغضب الطاهرة البتول؟... إنها، وإن غابت عنا في جنتها الزاهرة، إلا أنها حاضرة بيننا ترعانا بعين ساهرة، فهي أم

لنا جميعاً، كل هذا بقدرة الله وتفضيله لها على نساء العالمين، بعدما امتحنها فكانت لما امتحنها به صابرة، ألست مؤمنة بذلك مسلّمة به؟

كأني بفاطمة التقطت أنفاسها وكفكفت عبراتها، وهي تتحامل على نفسها لتهدأ وتجيب:

- بل إنني طوع أمر سيدة النساء وسيد الرجال، إمام المتقين ويعسوب الدين، لقد عايشَتْ بطولاتُه ومعجزاتُه خيالي منذ الصغر، وها هي تزدحم جميعها في ذهني الساعة، ها أنا ذي أشمخ بناظريّ راصدةً شمسه، رانيةً إلى ذلك السيف المشهر في يمينه واللواء المرفوع في شماله، لقد أسرَتْني بطولاتُه، وعشقتُه إماماً منذ وعيت الحياة، وها أنا ذي اليوم أعزّ أسيرة لأشرف آسر، وأطوع عاشقة لأكرم معشوق، . . . رباه، أكرمني بخدمة أوليائك، وجنّبني مهاوي الدنيا، يا أكرم الأكرمين.

***

ربما لم يحظَ قومٌ عند صهر لهم بمثل الإكرام الذي حظي به بنو كلاب لدى أمير المؤمنين عليه السلام، فهم قد [أقاموا في ضيافته معززين مكرمين ثلاثة أيام]. وكيف لايكرمهم سيد الكرماء، وهو بحر الجود، وقد حملوا إليه درة نفيسة، بحث عنها واختارها، والتقطها كما يلتقط الطائر الحب الجيد من الحب الرديء؟!

. . . أجل، ولعل فاطمة سمعت حديث الهاشميات، اللواتي رحبن بها

أجمل ترحيب، وهن يتحادثن أمامها حديثاً وقفت عنده طويلاً، لقد قالت إحداهن للأخرى:

ـ أوليس والدها هو حزام بن خالد بن ربيعة، فارس بني كلاب؟

فأجابت الثانية وقد بدت عارفة بأنساب العرب:

ـ بلى، [وجدها عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، ملاعب الأسنة، وجدها لأمها عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب، وجدها أيضاً الطفيل فارس قرزل].

فهتفت الأولى وهي ترمقها مستبشرة:

ـ إنها حقاً كما طلب أمير المؤمنين، قد ولدتها فحول العرب وفرسانها، فبارك الله لأمير المؤمنين في هذا الاختيار، وهنيئاً لك يا بنت الأبطال هذا الفخر العظيم.

وعلمت فاطمة فيما علمت، [أن أمير المؤمنين توخاها، لتنجب له ولداً غلاماً فارساً ينصر أخاه الحسين عليه السلام!]

لم تدرِ فاطمة ما ذلك الشعور الذي انتابها حينما سمعت بذلك، أهو فخر، أم تعجب واندهاش؟ أم كل تلك المشاعر مجتمعة، يتوّجها حب يتزايد باطراد، نحو أهل هذا البيت الطاهر الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا؟!

لقد علمت فاطمة أن وراء اختيار أمير المؤمنين لها سراً، أدركت أن في ضمير الغيب لها قدراً يُنسج، وتذكرت رؤياها، فتنازعتها عواطف شتى،

من ترقب وانتظار لما سيكون، وفخر واعتزاز بما هو كائن، والأهم، . . . خاطرة رسمتها لها ريشة الولاء، سؤالاً كانت ولا تزال تعتزم طرحه، على أهل بيت خاتم الأنبياء، سؤالاً ما فتئ يراودها منذ كانت الخطبة، ومنذ خرجت من ديارها، ترفل في زينتها وحللها، كأحسن ما تكون العروس، وقد علقت في خيالها، وفي أعماقها، وأمام ناظريها كيفما اتجهت، صورة الزهراء في عرسها، . . . لقد رافقتها الصورة منذ دخلت عليها الداية لتعدها وتصلح شأنها، وراحت نساء بني كلاب يتنافسن في الاهتمام بها وإظهار المودة لها، فعلقت في حلقها غصة، وراودها تساؤل مرير، أن كيف كان تجهيز فاطمة الزهراء لعرسها في ذلك الأمس المبارك، يوم خطبها أمير المؤمنين؟

لقد كان تجهيزها على يدي نساء النبي وسائر الهاشميات، ولكنها كانت تفتقد أهم إنسانة تفتقدها الفتاة في يوم كهذا، . . . كانت تفتقد والدتها! . . .

لعل فاطمة استشعرت غصة الزهراء في حلقها، في كل لحظة كانت ترى والدتها قربها تهتم بها وترعاها، ولعل مواساتها للزهراء في كل أحوالها، كانت تدفعها في كل لحظة إلى التباعد عن كل ما تباعد عن الزهراء يوماً، ولسان حالها يقول: «أي مولاتي، لا يكون لي ما لم يكن لك، ولا أتنعم بما حُرمتِ منه يا أحب الناس إليّ، لا كان ولا يكون!»

لقد أحاطت الهاشميات فاطمة بالرعاية والاهتمام، حتى شعرت أنها قد أصبحت حقاً واحدة منهن، رغم أنها لم تدخل بيت الأمير بعد!

و لعل فاطمة لم تكن في تلك اللحظات، لحظات عرسها، لترى ما حولها من الزينة والأعلام، . . . لم تكن تسمع الأهازيج وتنصت للأناشيد، بل لعلها لم تكن مزهوة بحلة عرسها وموكب الفرحة الذي طبق آفاق المدينة بزخرفه وبهجته، بعدما وضعت نصب عينيها تلك الخاطرة وذلك السؤال، وكانت تنتظر أوان البوح بها وبه.

. . . وآن الأوان، . . . [لقد عزم بنو كلاب على الرحيل، بعد ثلاثة أيام من إقامتهم في ضيافة أبي الحسنين، وقامت ثمامة تودع ابنتها، وتصطحبها في موكب العرس، إلى منزلها، منزل أمير المؤمنين عليه السلام.

كانت الأشعار تُنشَد، والصلاة على النبي وآله تُرَدّد، وهتفت إحدى النساء تنشد قائلة:

«نهنّيك فاطمة بالفارس البطلِ نعم القرين أمير المؤمنين علي
مَن للأنام إمامٌ حجة وولي للمؤمنين أميرٌ والغدير جلي»

ووصلوا، . . . وفيما ثمامة تودّع ابنتها آخر وداع، وتوصيها بآخر وصاياها، وإذا بفاطمة تستمهلها، وتبرق في عينيها نظرة تكاد تسطع من خلف نقابها، وإذا بصوتها يعلو قليلاً بعدما كان حتى ذلك الحين متخافتاً أشد التخافت، وبان في نظرتها جد وتصميم وهي تقول:

ـ أماه، انتظريني هنا، . . . لقد زففتموني إلى دار امير المؤمنين، وأنا حامدة لله فضله العظيم، شاكرة لأنعمه الوافرة، وإن كان شكري لا يفي بحق هذه النعمة الزاخرة، ولكن، انتظروني هنيهة، فإن لي كلاماً سأقوله، فإن قُبِل، وإلا . . . عدتُ معكم!]

لعل وجه ثمامة شحب واصفرّ، ولعلها لم تعد تقوى على الرد، فأي كلمة ستقولها فاطمة، وفي هذا الوقت بالذات، لتحدد لها مصيرها، بل مصير بني كلاب أجمعين، بعدما وصلوا في أمرهم إلى هنا؟!

وقفت ثمامة محتبسة الأنفاس ترمق ابنتها، التي تركتها، لتتقدّم صوب البيت بخطىً ثابتة، وتدخل...

... [دخلت فاطمة دار أمير المؤمنين، مطأطئة رأسها خافضة بصرها، ...

وفي الدار، كان أبناء وبنات الزهراء محيطين بأبيهم، لعل عيني فاطمة امتلأتا بالدموع وهي تنظر، وتنطق بكل أشواق السنين، ... لم تكن تتكلم بقدر ما كانت تناجي، وتهمس بنبرة متأثرة وصوت متهدج يفيض بالحنين:

- السلام عليكم، ... يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ... السلام عليكم، يا أحباء الله وأحباء رسوله، ... أنا... خادمتكم، فاطمة بنت حزام بن خالد، جارية لكم، ولكم عليّ فرض الطاعة ما حييت، فهل تقبلونني بينكم خادمة؟!...

وقف أبناء الرسالة والإمامة لاستقبال هذه السيدة الجليلة، التي دخلت عليهم، متواضعة لعظمتهم، عارفة بحقهم، فارتفع قدرها في أعينهم.

... وأجابها الحسن عليه السلام، بصوت، لعل في نبرته ضعف لما كان به يومئذٍ من مرض وعلة، ولكنه شقّ الفضاء المحيط ليصل إلى مسامع فاطمة، فيملأ وجدانها هدوءاً وارتياحاً وولاء:

ـ لستِ خادمة، بل أنت أم!

لم تتمالك أم البنين دموعها المنسجمة لرده، واشتعل قلبها قلقاً وهي ترى ما كان عليه من ضعف، وأخاه الحسين أيضاً، ولكنها عادت تقول بإصرار شديد:

ـ بل شرطي أن أكون خادمة، أو أعود من حيث أتيت!]

لعل الحسنين تبادلا نظرة طويلة، لعلهما عرجا بنظرهما على أختيهما زينب وأم كلثوم، ولعل النظرات جميعها التقت على وجه أمير المؤمنين الواقف بينهم يستمع، لعل وجه الأمير كان يزداد اطمئناناً وهدوءاً ويوحي إليهم بالجواب، [فردّ الحسن بقوله:

ـ أهلاً بك في بيت النبوة!]

. . . هل طارت فاطمة فرحاً لذلك الجواب؟! . . . هل انهمرت دموعها أكثر حتى ابتل خمارها؟! . . . ربما، . . . [ثم إنها عادت تخرج إلى أهلها، إلى أمها التي كانت لا تزال تنتظرها خارجاً زائغة النظرات والهة الفؤاد، لعلها وقعت بين أحضانها وهي تزداد انفعالاً وتقول:

ـ أماه، لقد قبلوني خادمة، . . . هنئيني على هذه المنة، . . . أنا الآن خادمة الزهراء وبنيها!]

بكت ثمامة، بكت فرحاً بابنتها التي دخلت بيت أعز البشر متذلّلة متواضعة، فارتفعت بعزه، وعرفت قدره، فعرف لها أهل البيت هذا القدر. وعلمت ثمامة أنها قد عرفت كيف تربي حقاً، وأن فاطمة أم البنين ستبيّض وجهها حقاً عند أمير المؤمنين، لا في يومها هذا فحسب، بل في قابل

الأيام أيضاً، والله هو عالم الغيب والشهادة وهو بكل شيء عليم.

***

. . . على مشارف الأنواريقف نور خجول، وفي فضاء الكواكب الدرية يلتمع نجم بزغ على حين غرة، . . . نجم كان يلتمس التماعه وشعاعه من أشعة تلك الكواكب، وينزوي جانباً حياء من ضيائها الباهر، وتطل شمس تفوق كل الشموس روعة وبهاء، فتلتف أنوارها حول الكواكب، تعانقها، تهدهدها، وتحميها، ويمتد شعاع تلك الشمس ليعطف على ذلك النجم النائي، ليتصدّق عليه بقطرة من معين أنواره، فيغمر النجمَ دفءٌ وسناء، ويتألق فوق ما كان يتألق، ويأخذ حيّزه في فناء تلك الأنوار القدسية التي تفيض على دنيا البشر، فترفع الأرواح من ذل المعاصي إلى عز الطاعات.

. . . وتلتحق فاطمة بركب الصالحين، وتمضي، . . . تتلمس هداهم، وتسترشد دربهم، ويكاد يعشي بصرها اشتداد النور، ولكن قلبها الذي لا يني يخفق بمحبتهم، بعشق ما له حدود، يمسح على عينيها بخفق لا يهدأ، خفق يبارك ذينك الناظرين، ويكشف لهما عن المستور، فتريان، فوق ما يرى الآخرون.

[وها هي تلك الليلة المباركة، ليلة زفاف فاطمة على أمير المؤمنين، . . . ها هي فاطمة تستأذن الأمير في السهر على تمريض الحسنين!

وها هو الأمير يجيبها إلى طلبها، ويأذن لها بذلك!]

كانت فاطمة تعلم أن هناك من يمكن أن يقوم مقامها في تلك المهمة،

فهناك زينب وأم كلثوم، ولكنهما بنتا الزهراء، سيدتاها، وهناك فضة، جارية الزهراء، وهناك إمامة وخولة وأسماء، زوجات أمير المؤمنين، ولكن فاطمة ما كانت لتترك شرف تمريض الحسنين لسواها، . . بل إنها ما كانت لتستطيع الخلود إلى الراحة والنوم في مخدعِها، وريحانتا رسول الله يحتاجان للرعاية، فتكون بمعزل عن همهما ومرضهما، وهي ما دخلت البيت إلا خادمة لأهله ما عاشت، وهي لن تتنازل عن تلك الصفة والفضيلة مهما كانت الظروف، ولئن كانت اليوم عروساً، فهي لا تعدو أن تكون جارية الزهراء، وما كان لجارية الزهراء أن تقر عينها بعيش وعرس وأولاد الزهراء غير قريرين، بل إن نفسها وروحها وكل ما تقل الأرض منها وما تسعه السماء، فداء لأبناء وبنات الزهراء! . . . إن الزهراء قد تصدّقت بثوب عرسها ليلة زفافها على فقير لا تعرفه، وهي مهما فعلت لا تقوم بالوفاء لحق الزهراء عليها وعلى كل مؤمن ومؤمنة، . . . وهل كانت الزهراء لتبيت هانئة في فراشها وولداها سقيمان! ولئن لم تقم الآن بخدمتهما وتمريضهما فهي غير جديرة بهذا المكان أبداً!

[. . . وتمر أيام على زفاف فاطمة، ويرى الإمام في وجهها كدراً لا يتغير، وهي التي أزاحت بصفاء نفسها وصدق ولائها عن حياة أهل البيت كل كدر، فيسألها عما هناك، وتجيبه بغصة المهموم، معبرة عما اختلج في روحها طيلة الأيام الماضية:

ـ مولاي، يا أمير المؤمنين، لن يدخل السرور فؤادي حقاً، طالما أن الحسنين مريضان، إن ألمهما يؤلم مهجتي واعتلالهما يعل كياني!].

وكأني بأمير المؤمنين يشير إليها بأنها لم تقصر في رعايتهما، . . . هي شهادة من إمام العاملين بعدم التقصير. ولكن فاطمة لا تكتفي، فواجبها نحو الحسنين يعدو كونه واجباً شرعياً، هو واجب روحي نحو أمهما الحبيبة، ولعل فاطمة تضيف وهي تخفض بصرها في حياء، وتستشعر التقصير:

ـ بل إن خدمة أهل هذا البيت هي كل ما أبغيه من هذه الحياة، ولئن لم أقم بهذا فلا مكان لي بينكم يا مولاي، ولا حياة!

ويباركها الإمام، وتفيض نظراته نحوها بالمودة والرضى!

[وتمضي بها أيام اخرى، ويتماثل الحسنان للشفاء، فتقرّ عيون أهل البيت، وتقرّ عينا فاطمة وتكتمل فرحتها،]. . . الآن قد حق لها ان تفرح حقاً، فهي تستشعر السعادة في رضى الزهراء، فهي منية روحها مذ وجدت، ما تنفست الهواء إلا ممتزجاً بعطر أنفاسها، ولا دخلت حيز الوجود إلا بتمسكها بمسك وجودها، وها هي اليوم تعيش في نعمة ما بعدها نعمة، تستظل بدوحة المرتضى وتطعم طوباه وترتوي من كوثره، . . . ها هي تأتمّ بأئمتها، وتصل جناح زينب وأم كلثوم، في الصلاة وغيرها، فتشتمّ في عبير مناجاتهما عبق أمهما سيدة النساء، فتتيه من فرط السعادة، وتنتشي، . . . فالحمد لله، . . . الحمد كله لله! . . .

***

. ويتصل الليل بالنهار، رغم أن ليل آل محمد لم يكن ليلاً، فهو مشعٌ بأنوار العبادة، تنطلق من أفواه الذاكرين المتقين، أبناء وبنات سيد

المرسلين، المرتلين لآيات الذكر الحكيم، وهو ناطق بدوي كدوي النحل، بأصداء المناجاة تتجاوب بين جدران المنزل الكريم.

أجل، . . . لم يكن ليل فاطمة المستضيء بأنوار المرتضى وأبنائه الميامين، لم يكن ليلاً، فهو لا يحمل من الليلِ سوى السكون المحيط بالمكان، والهدأة التي تفسح الدرب أمام ذكر الرحمن لينتشر ويعبق، بين الأرض والسماء، دونما حائل من ضجيج الكائنات.

ويزداد لصوق فاطمة بالبيت الأطهر، كيف لا، وهي القائمة على خدمة أهله ليلها ونهارها، بنفسها التواقة للتقرب منهم بكل سبيل.

كان فؤاد فاطمة الواله يعبق بمودة القربى، وتشرق فيه أكثر فأكثر أنوار العشق المحمدي العلوي الفاطمي، فيزهر على محياها الصبوح، فتمتلئ قلوب أهل البيت مودة لها، وكيف لا تنال مودتهم، وهي تكرس نفسها، وكل حياتها قولاً وفعلاً، في سبيل مرضاتهم وخدمتهم.

. . . ولكن أمراً ما كان ينغص على فاطمة هناءتها وهدوء بالها في ظل دوحة المرتضى الوارفة!

كلا، لم يكن ذلك وجود ثلاث نساء قد تزوجهن أمير المؤمنين قبلها، سوى الزهراء، وأنجب من كل واحدة منهن من أنجب من بنين وبنات. . . لم تكن فاطمة لتتنغص بما تتنغص به النساء من غيرة وتباعد، فهي مكتفية من زوجها، ولي الله ووصي رسول الله، بما يخصها به من مودة وعطف، ترى في نظرة منه نعم الباري قد أُغدقت عليها بغير حساب، ولذا فهي لا يخالجها تحاسد النساء وتباغضهن، فالإمام يجمعهن بعدله، ويفيض عليهن

وعلى أولاده من أنواره، مثلما تفيض الشمس، لا يزيدها كثرة المستنيرين بأشعتها الوضّاءة إلا إشعاعاً وتألقاً.

لم يكن يسوء فاطمة انشغال أمير المؤمنين بما يُهِمه من شؤون الآخرة، ومن شؤون الدنيا المؤدية إلى الآخرة، فتلك حياته، وهي تشاطره حلوها ومرها، وهي متشرفة متهنية بأن يكون لها لحظات من حياتها تتقاطع مع لحظات من حياته المقدسة المباركة، لحظات يكفيها أن تقضيها تحت قدميه، تتمرغ في عطر جنته البهيجة الغنّاء، ولا تطمع في المزيد.

... أجل، ... لم تكن فاطمة تغار من إمامة بنت أبي العاص، ولا من خولة الحنفية، ولا من أسماء بنت عميس.

[أما إمامة، فهي بنت زينب ربيبة رسول الله، وهي من الصالحات العابدات، وقد تزوجها أمير المؤمنين بعد شهادة الزهراء عليها السلام بوصية منها إليه، ليجد أولادها في كنفها وتحت رعايتها، كنف الأم ورعايتها وحضنها الرؤوم وعينها الساهرة، وهم بعد صغار يلتمسون كل ذلك، فكانت لهم نعم الأم والمربية، أغدقت عليهم من أمومتها وعطفها ما رفع عن كواهلهم البريئة مرارة اليتم المبكر، ورسم في نظراتهم، غير الحزن الذي لا يبرأ، رسم طمأنينة وهدوءاً لا ينكر.

وأما خولة، فقد اصطفاها أمير المؤمنين منذ بضع سنين، من سبي بني حنيفة، واتخذها له زوجة، فولدت له ولده محمداً الذي أسماه على اسم حبيبه المصطفى وكناه بكنيته، بعدما كان قد استأذنه بذلك قبل عروجه إلى الملأ الأعلى، فأذن له، وها هو اليوم ابن ست سنين، يدرج بين أخويه

الحسن والحسين عليهما السلام، ويأخذ عنهما ما يأخذ من العلم والفهم، وسعة الأفق وسمو الروح،] وإن فاطمة لتحمل له في قلبها ما تحمله من مودة ومحبة، لسجاياه الحميدة ولحب أمير المؤمنين له.

لله درك يا محمد، وعسى أن يكون لي من الذرية ما تقر به عين أمير المؤمنين وعين الزهراء، وعيني، . . . فما أنا سوى خادمة تحت عرش أمومتها، وما أولادي لو وجدوا سوى غلمان يجرون بين يدي أولادها، . . . بنفسي هم، وبنفسي هي من طاهرة مظلومة، لا يفي بحق خدمتها وأمومتها، حتى الفناء في هذا السبيل.

[وأما أسماء بنت عميس، فتلك حكاية أخرى، ولعلها كانت كبيرة زوجات الإمام، فهي سيدة جليلة صحبت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وروت عنه، وصحبت فاطمة الزهراء عليها السلام، ولازمتها، حتى كانت آخر من خدمها من أهلها حين مرضها ووفاتها، وكانت أقرب الناس إليها. أوليست قد كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب أخي أمير المؤمنين، وشهيد مؤتة، الذي دعاه الرسول بعد استشهاده بجعفر الطيار، إذ قطعت يداه في سبيل الله فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة؟ لقد بكاه الرسول بعد استشهاده، وأتى إلى زوجته أسماء فعزاها به، وإلى أطفاله فمسح على رؤوسهم بحنانه ورعايته، . . . إن أسماء قد تزوجت بعد جعفر بأبي بكر، وولدت منه ولدها محمداً، ثم تزوجها أمير المؤمنين بعد ما توفي عنها أبو بكر، فحملت معها ولدها وهو طفل صغير، فرباه الأمير وعطف عليه، وزرع فيه ما كان يزرعه في أولاده من الإيمان والتقوى وطاعة الله وأوليائه،

وقد عاش بين أولاده كأحدهم، حتى قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «محمد ولدي من صلب أبي بكر».

كلا، . . . لم يكن ما يساور فاطمة من هم يتعلق بكل ذلك، فهي قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذا البيت الكريم بكل ما فيه ومن فيه، تعيش بين أهله متهنية راضية بما يقسمه الله لها من رزق، ومن عطف واهتمام، ومن ذرية إن شاء.

لم يكن أي من تلك الأمور ليعكر صفو فاطمة، بل كان أمراً آخر.

. . . كانت منزوية في غرفتها عند تلك العشية على غير عادتها، تزدرد غصة وتذرف آهات ودموع.

لم تخطئ عين أمير المؤمنين وقلبه النابض الكبير، ما يساور فاطمة، فسألها بحنانه المعهود عما يؤسيها، . . . لعل حنانه زاد من همها وغصتها، فلم تعد تقوى على الكلام، حتى إذا استطاعت أن تفعل، وقد وجدت أنها لا بد أن تفعل، أجابت بنبرة مضمخة بالدموع:

ـ [مولاي، يا أمير المؤمنين، . . . لي إليك رجاء!]

لعل الأمير تبسم، وقد أدرك ما وراء تلك الدموع المتلألئة في عيني زوجته الوفية، وسألها سؤال العارف المختبر ولاءها:

ـ [ما تريدين يا فاطمة؟!]

أجهشت بالبكاء من جديد، وهي تقول:

ـ [بالله عليك يا أمير المؤمنين، بحق ابن عمك رسول الله، بحق

مولاتي الزهراء عليك، . . . لا تدعُني فاطمة!]

لعل أمير المؤمنين دمعت عيناه لذكر الرسول، والزهراء، وعاد يسألها عما يحدو بها إلى مثل ذلك الطلب، فتابعت متوسلة إليه بين شهيق وزفير:

ـ [مولاي، . . . إن اسمي هو أحلى ما تسمّت به أنثى، وإني معتزة به مذ ولدت ولا أرضى عنه بدلاً، فهو اسم سيدتي ومولاتي الصدّيقة البتول، ولكنني، ولهذا السبب عينه أرجوك أن لا تناديني به، فهو يبعث الحسرة في قلوب أبنائها وبناتها، إن أحباب فاطمة يتلوعون لذكر هذا الاسم في كل حين، وإن مناداتك لي به يحرك الذكرى والحنين في أعماق مواليّ الحسنِ والحسين وزينب وأم كلثوم، مولاي، . . . إن ذكر مولاتي فاطمة، لا يخلو منه ركن من أركان هذا البيت الطاهر، ولا من أركان قلوبنا، إنه يختلج في ثنايا أنفاسنا، ولئن كان يسرني أعظم السرور أن تدعوني به، إلا أنني لا يمكن أن أتنعم بما يكون سبباً بحزن أولاد الزهراء، لا كان ولا يكون.]

لعل الإمام مسح دموع زوجته ببسمة رقيقة عطوفة، وهمس يسألها برحمة:

ـ [أترضين أن أناديك ب«أم البنين»؟]

كفكفت أم البنين دموعها راضية، وتبسمت وهي تجيب:

ـ [هو ذاك يا مولاي، ولئن كانت هي الكنية التي أطلقها عليّ والدي يوم ولدت، فلتكن كنيتي عندك اليوم، وعند سادتي أحباب

الزهراء، فذاك أرجى لأن يكون وجودي بينكم جالباً للمسرة لا للحزن والحسرة!]

لقد راحت أم البنين تغرس غرسات الحب العميق، في قلوب أولاد الزهراء وبعلها نحوها، بدأت ترسم وتستكمل لوحة ولائها لهم، تلك اللوحة التي مرت عليها ريشة رقتها وحنانها، فأبدعت على نصوع فؤادها أبهى وأرقّ الخطوط.

وانطلقت أشعة العشق الفاطمي من قلب فاطمة أم البنين، لتعمّ ما حولها ومن حولها، ولتعمّ كيانها كله، لتكون مرتعاً لما سينضح به هذا المعين العذب الزلال بعد حين، من عذوبة لا تضاهيها كل موارد العاشقين، . . . وكيف لا يعذب ويحلو ماء مصدره ذاك المعين، النابض حقاً بالولاء لأمير المؤمنين وأبنائه الميامين، والممتزج بكوثر يرشح من عينٍ وفؤادٍ وروحٍ، متعلقة برب العالمين، عبر سيدة نساء العالمين.

الفصل الثامن:

البذرة المباركة

الزمان: شهرذي الحجة من السنة الخامسة والعشرين للهجرة

المكان: المدينة المنورة، منزل أمير المؤمنين عليه السلام

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

ها هي الأيام المعلومات قد أقبلت، ثم أدبرت، وها هم أهل المدينة قد بدأوا يتوافدون من مكة بعدما أدّوا مناسك الحج.

ها هي المدينة تتهيأ لاستقبالهم، وها هي النساء تهيء منازلها وتكنس أفنيتها وتعلّق الأعلام.

وها هي أم البنين، . . . لعلها كانت تروح وتجيء في دارها، دار أمير المؤمنين، تجهز الدار لقدوم الأحبة، أمير المؤمنين وولديه الحسن والحسين، عائدين من مكة بعدما فرغوا من أداء فريضة الحج، التي لا بد كانوا يهرعون لأدائها في كل عام ما استطاعوا، وكيف لا يهرعون وهم من هم في أركان الدين، وولايتهم أصل من أصوله، وحبهم أهم فروعه؟!

. . . وتتهلل الوجوه حين يطل ركب الحجيج، وربما تهب أم كلثوم وزينب، وتتأخر عنهما أم البنين، فيقفون بالباب منتظرين،

ويخفق قلب أم البنين خفقة عظمى حينما تطل شمس الدجى لتشرق في فضاء البيت، وفضاء قلبها، يلحق بها الكوكبان، سيدا شباب أهل الجنة.

وكأني بهم يسلمون على بنتي الزهراء، ثم يلتفتون إليها بالسلام، . . . هل تشعر أم البنين بأن فيض النور المتدفق عليها لا يحتمل؟ . . . ربما، وكيف لا تشعر بذلك، وهي الساعة، وفي كل حين، موضع السلام والتسليم، من ثلاثة من أئمة أهل هذا البيت ؛ سيد الوصيين، وولديه السبطين، . . . ثلاثة، تجتمع قلوبهم على مودتها وتقديرها، ويلقون التحية عليها بكل رقة ولطف وحنان، إن هذا حقاً لكثير، وإنه لأمر عسير، ان تشكر العلي القدير على هذه المنن المتواترة التي ليس لها في الكون نظير!

. . . ولعل أم البنين تندفع لتقوم على خدمتهم، متشوقة ملهوفة، أوليس قد حُرمت من تلك الخدمة أيام غيابهم عنها، . . . إذاً، فلا أقل من أن تحاول التعويض عما فاتها من الخير، فهي ضنينة بأن لا يفوتها من مثله شيء، وإن كان قد عوّضها عن ذلك بعض التعويض، خدمتها لسيدتيها زينب وأم كلثوم، اللتين كانتا بجانبها، تتنسمان وإياها عبير الأحبة في زوايا المكان، فيتناجين هنيهات، وربما يبكين، حنيناً واشتياقاً إلى أصحاب المكان، ثم يمسحن الدموع، ويرسمن بسمات الأمل بقرب العودة، عودة الأحبة، الذين خلت الدار من رسمهم أياماً ولكنها، لن لتبث أن تمتلئ بأنوارهم، وتعبق بمسك أنفاسهم، فها هم قادمون، . . . على درب مكة سائرون، حاملون فوق ما يحملون من طهر الإمامة وقدس الولاية، أريج تلك الأرض التي كانوا فيها يحجون، وهم بحجهم، يقدّسونها بقدس وجودهم، ويباركون أديمها بطهر خطواتهم، ويعطّرون سماءها بأشعة نفوسبهم الزكية، وأصواتهم الهادية . . . حتى ركن الحطيم، إنه يستلم أكفهم الطاهرة إذ يستلمون، ويقبّل شفاههم ويلثم ثغورهم المسبّحة إذ

يلثمون، فإذا هم خطَوْا نحوه مشتاقين، كان أشد منهم شوقاً إليهم، لأنهم على الخطو نحوه قادرون، أما هو فباقٍ مكانه لا يريم، ينتظر من سنى عطفهم شعاعاً، ومن امتداد أيديهم إليه يداً، . . . هم يصافحونه بأكفهم، وهو يصافحهم بكله، ويبذل في سبيل الوصول إليهم وإلى أنوارهم كيانه، وتترك مسحة الأنامل الطاهرة عليه، غير عطرها الفواح، نوراً لا تنكره العيون ولا القلوب والأرواح، وإذا سواد الحجر يشعّ بشكل عجيب، فيراه البعيد قبل القريب!

لعلها لم تكن أول مرة يحج فيها أمير المؤمنين وولداه، فتبقى بعض نسائه وعياله في المدينة، فهن بأمره مؤتمرات، وهو إذ يرى الخير في أمر، لا يخالفنه ولا يجادلنه، فما بالك بأم البنين؟!

لا بد أنها قد حجت في ظله قبل هذا اليوم، ورافقته إلى مكة وأدّت فرضها ومناسكها، ولعلها كانت أياماً لا تُنسى، وهي قبل أن تحج البيت الحرام وبعد حجها، تحج كل يوم في ظل وليد البيت الحرام، هي بطاعتها له وخدمتها له ولأهل بيته، بتذللها وخضوعها وانضوائها تحت جناحه، لا تفتأ تحج وتحج، وتغتسل من أدران الخطايا والذنوب، إن كان لمثلها أن تمسه أدران الخطايا والذنوب، إذ كيف للذنوب أن تدخل داراً يملؤها ويتغلغل في ثناياها عشق الزهراء؟! وكيف للخطايا أن تعشّش في زوايا بيت يفيض ويفيض من عشق آل محمد؟!

وما تلك الدار وذلك البيت سوى روح أم البنين وفؤادها، هي التي ربت نفسها وطوّعتها على حب أوليائها، فكان حقاً لها وعليها، ان تتحصن بتلك المعرفة من هوى الدنيا ومهاويها، وأن تعيش معنى الولاية وسرها عن

قرب، . . . وكيف لا تفعل، وأقرب الأقربين إليها، من تشاركهم ليلهم ونهارهم، وغذاءهم وهواءهم، ومكانهم وزمانهم، وحديثهم وحياتهم، ودعاءهم وصلاتهم، . . . هم الطيبون آل محمد؟!

***

لعلها لم تكن إلا أيام قليلة قد مضت، . . . لم تكن فرحة العودة واللقاء قد ذبلت بعد في أفئدة آل محمد ومحبي آل محمد، إن كان لها أن تذبل، وهي في كل آونة ترتوي من ري كوثرهم، . . . لم تكن تلك الفرحة لتذبل، ولكنها، وكما في كل عام في مثل ذلك اليوم، ومنذ حجة الوداع، تتندى بحزن ودموع، بدل الفرحة وإشعال الشموع، . . . أجل، فالثامن عشر من ذي الحجة، كان ولا يزال عيداً، يحتفل به أصحاب الإمام المقربون، وأهل بيته، ومن تشرّب فؤاده بحبه ومعرفة حقه من المؤمنين، ولكنه لم يكن كسائر الأعياد، لم يكن يُحتفل به بالزينة والأعلام، ولا بالأناشيد والأهازيج، فذلك جهر بولاية ولي الله، في زمن لا يعترف بتلك الولاية، ولذا، فإنه لم يكن بوسع محبي علي عليه السلام أن يحتفلوا بتلك الذكرى التي تطفح بها قلوبهم، فرحاً وسروراً بإكمال الدين، وحزناً وحسرة على غصب حق سيد الوصيين.

ولكن عيد الغدير كان على كل حال مناسبة للذكرى، ليتذاكر الموالون عهدهم ووعدهم، وليجددوا ذاك العهد لأمير المؤمنين، ليؤكدوا لأنفسهم وربما لبعضهم بعضاً، أنهم على ولايته باقون، ولأمره مطيعون.

كان عيداً فيه من العبرات أكثر مما في كل الأعياد من البسمات، فمظلومية الأمير ترشح من ثناياه، لا مظلوميته هو وأهل بيته فحسب، بل

مظلومية البشر أجمعين، الذين حُرموا نعمة إمرته عليهم، ونعمة حكمه العادل، ليرضخوا لنير الحكم الكائن حتى حين!

***

. . . هي سنوات خمس قد مضت، منذ دخلتِ أم البنين بيت سيدة نساء العالمين، لتكرس نفسها لخدمة أولادها الطاهرين.

خمس سنوات، والنور يتألق ويزداد، وأم البنين تعيش نعيم السابقين، وتنتقل في مفازات المتقين، وترتل في حدائقهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾، ولم تكن تصغي للّغو، ولا لوساوس نفس سمت عن أن تداخلها الوساوس.

خمس سنوات، وأم البنين الفاهمة العالمة، تزداد علماً وفهماً وترتوي من معين عليّ عليه السلام، فلا تكاد تبلغ حد الارتواء، مهما ارتشفت ونهلت، ومهما استسقت وسقت، فالذي يرتقي قمة صعبة الارتقاء، فهو يرقى ويرقى ووجهته عنان السماء، ولا يكفيه شراباً ملء الأرض ماء!

خمس سنوات، والطهر يعبق أكثر فأكثر، في وجدان أم البنين وكيانها، والجواب عن السؤال يتأخر، ولكن لعل لسان حالها كان يقول: «أللهم لا تجعلني أحب تأخير ما عجلت، ولا تعجيل ما أخرت».

. . . لم تكن أم البنين لتعترض على حكم الله فهي مسلمة لمشيئته، لا يختلف تسليمها كثيراً عن ذلك التسليم الذي واجهت به نساء بني كلاب، حينما رحن ينعين عليها وعلى والديها تأخير زواجها، . . . لقد تكلّل صبرها إذذاك بالزواج من سيد الوصيين، فكان الرد أبلغ من أي جواب،

وها هي الآن تنتظر، وإنها لعلى ثقة من تحقق آمالها وأنها ستقطف ثمار انتظارها، وإن كانت لا تدري أين ولا كيف أو متى!

لم تكن رؤياها التي رأتها عشية خطبتها لأمير المؤمنين، هي وحدها منشأ ذلك الإيمان واليقين، بل لعل ما قالته الهاشميات عن سبب اختيار الأمير لها، كان هو السبب الأساس، فهي تلك الأم المرتقبة لغلام حليم، ينتظره قدركريم عظيم. كما أنها تعودت أن تسلم أمرها لله رب العالمين، وأن ترضى بما يكتبه لها المولى في صفحة الأقدار، فهي حسنة الظن بالله تعالى، وهي على الانتظار صابرة لا تخشى مع الله أحدا.

ولكن، لعل الرؤيا كانت تلح عليها أحياناً، فتمسح على فؤادها ببرد وسلام، وتهدئ وجيبه التواق إلى ذلك السلام، لتذكرها، بأن لها مع الرؤيا قصصاً لا تنكرها صروف الأيام، ولا تنكرها المقادير التي رأت في ثناياها، كيف تتحقق الأحلام.

هو الوعد يتحقق، وهي ليست متعجلة تحققه، ولكن، . . . هي خمسة أعوام قد مضت على مكوثها في هذه الجنة الزاهرة، ولعل في أعماق فؤادها أمر ما يتحرك، . . . فكرة، أو ربما خاطرة، بل هو سر، . . . إن في «الخمسة» لسراً! وإن بينها وبين «الخمسة» لحكاية وعمراً.

أجل، . . . أوليس أهل الكساء خمسة، وصلوات الفرائض خمسة، وأصول الدين خمسة، وأصابع اليد خمسة، وعقدها أربع عشرة؟!

أولم تولد هي سنة خمس للهجرة؟! . . . وها قد أضحى عمر زواجها اليوم خمسة أعوام؟!

إن وجه أمير المؤمنين يشرق كل صباح ومساء في فضاء روحها، يضيء آفاق حياتها ببسمته ونظرته التي تجبر قلبها الملهوف، وتعدها بقرب تحقق الوعد!

إنها تعلم أن رؤيا والدها قد تحققت، وأن رؤياها هي قد تحققت، وها هي تنتظر أن تأتي شجرتها الطيبة بثمارها عن قريب، . . . هي تشعر بأن أحشاءها التي تنتظر منذ خمسة أعوام تتهيأ الآن لاستقبال البشرى. . . لقد اضطرمت الأنوار في كيانها حتى توهج، وأضحى ذلك المكان الطاهر مؤهلاً ليحتضن تلك البذرة الطاهرة، وليغذيها من طهر فؤادها، الذي يضخ في أوردتها وشرايينها، وفي كل عرق من عروقها، دماء العشق اللامحدود لآل بيت محمد!

***

لعل حدس أم البنين لم يكذبها، ولم تتأخر البشرى، . . . فقد خالجها ما يخالج النساء من تغير وتبدل، ولعلها أفضت إلى أمير المؤمنين بما تحس به، وكأني به وقد تهلل واستبشر، . . . لعلها رأت في فضاء عينيه الباسمتين أطياف دموع، وهو يبشرها بما هناك!

. . . وتناقلت الهاشميات خبر حمل أم البنين، وأتين يهنئنها، ولعل زينباً أقبلت تضمها وتبارك لها اكتمال الفرحة بعد طول انتظار، وكذلك أم كلثوم.

وكأني بأم البنين قد سجدت، تماماً كما سجدت في ذلك اليوم المشهود قبل خمسة أعوام، يوم علمت بخطبة أمير المؤمنين لها، . . . وكيف لا

تسجد، وإنما السجود هو أحب ما يحب أن يراه الله من عبده، حيث يكون العبد أقرب ما يكون إلى المعبود، مناجياً له أو شاكراً، . . . وما أحلى السجود حين الشكر، إذ تتمرّغ أكرم مواضع الإنسان في التراب، وتتذلّل الجوارح، وتلتهب المساجد، وتعبق الروح بالخشية والعشق، يمتزجان في خليط عجيب، وتلهج الشفاه لتنقل نجوى الفؤاد إلى رب العباد، . . . ويطول السجود.

. . . وهل يكفي للشكر حتى سجود الدهر؟! . . .

إنها في نعمة لا يكفي معها شكر وإن زاد، ولا سجود وإن طال، ففي أحشائها تنمو بذرة مباركة من أهل بيت النبوة، . . . وهي تدري أنها إذ تزداد عشقاً وتعلقاً بأهل هذا البيت، إنما تحمل ثقلاً أكبر بهذا الحمل، أكبر من هذا الثقل الذي تحسه الساعة في أحشائها، إن كان لها أن تدعوه ثقلاً، ذاك الشعور الغريب الرائع الذي يكتنفها، إذ هي الآن مستودع لسر من أسرار الخلق، لنور يشرق في أحشائها ويتوهج، ليعم قلبها دفئاً فوق دفئه، وروحها سلاماً فوق ما هي فيه من سلام.

ولعل أم البنين تسأل نفسها وتتعجب، . . . . مَن يا ترى يغذي مَن؟! . . . ومَن يضفي النور والعشق الفاطمي على مَن؟! . . . أهو هذا الصغير الحبيب، المعشش في عمق أعماقها، يمدها بما تحس به من عشق متزايد لأهل هذا البيت، أم هي التي تغذّيه بذاك العشق مع كل دفق من دمائها يضج في عروقها وينبض في شرايينها، فيصل إليه غذاءً وريّاً، وعشقاً لا يُحدّ؟!

. . . لم تكن أم البنين لتجد الجواب، ولكن، كان يكفيها أنها تعيش هذا الواقع، وأنها ترتبط الآن بالزهراء عليها السلام، ارتباطاً، لا روحياً فحسب، بل ومادياً أيضاً، فهي تحمل بين ضلوعها، لا قلباً يهواها فقط، بل تحمل تحته، وبين حناياها، طفلاً هو ابن المرتضى، صنو البتول وزوجها، وأبو أولادها الأطهار، وإنها إن شاء الله وعاشت لتلده وتربيه، فهي لن تنسى أن للبتول عليه أكثر مما لها هي عليه، من حق الطاعة والخضوع، والمحبة التي لا تنتهي، ولا تحول ولا تزول.

***

بزغ هلال المحرم، وكأني بأم البنين وقفت تراقبه، لعلها لم تدرِ لِمَ انشدّ بصرها نحوه عند تلك العشية، . . . ربما لأن الحزن الذي خيم على دارها مع بزوغه كان حزناً غريباً، وبلا مقدمات، لعل وجه أمير المؤمنين المشرق أبداً ببسمته الوضّاءة، لعله كان كئيباً حزيناً، تغرورق عيناه بالدموع بين الفينة والأخرى، ولعله كان يخفيها لئلا يُسأل عنها. . . ولعله كان يسرّ إلى الحسن والحسين بحديث ما، فيتناجَون ويغصّون بالدمع لحظات، ثم يتغاضَون.

وتمرّ الليالي متتابعات، ويزداد الهلال وضوحاً، وربما تزداد أم البنين حزناً، . . . رباه، ما لهذا الهلال لا يشبه سواه من أهلّة الشهور، . . . إنه يطلّ عليها من عليائه مترقرقاً كدمعة تسيل، ثم إذا هو يتحول جرحاً نازفاً، ثم يتّسع الجرح فيتفجر دماءً، . . . ونوراً.

وكأني بأم البنين تشرق بدمعها كلما ترى دمع الإمام، وتعلم أن في الأمر سراً، ولكن، لعلها تخشى السؤال!

. . . وينتصف الشهر أو يكاد، ويتمثل لها الهلال بدراً، وقد يرتجف فؤادها إذ تتذكر رؤياها، ويرتجف أكثر إذ تجد نفسها تربط بين هذا القمر الحزين، وقمر رؤياها التي تأوّلت بشبل لأمير المؤمنين، يملأ حياتها فوق ما تمتلئ الآن، بالحب والحنين، وكيف لا يفعل، وإنما هو ثمرة العشق الأبدي الأطهر للإمام المبين.

. . . ولعل أم البنين تتذكر وتبتسم، تحاول أن تنتشل نفسها من الحزن الذي لا ترغب في خوض لجته الساعة، وتتذكر ما تكرر على مسامعها من حديث، حول ذلك [الاختيار الذي خصها به أمير المؤمنين، إذ أرسل أخاه عقيلاً لخطبتها، ليستولدها بطلاً يكون ناصراً لولده الحسين]. . . إن أم البنين لتمتلئ زهواً وفخراً كلما فكرت بتلك الحقيقة، وهي قد استيقنت وتزداد مع الأيام يقيناً أن لها دوراً ستؤديه، دوراً يختلف عن كل ما سبقه، فالإمام إذ اختارها [حرة قد ولدتها الأبطال] لتلد له بطلاً، . . . أو كان به حاجة إلى امرأة من نسل الأبطال لتلد له ذاك البطل وهو بطل الأبطال وأسد الأسود، بل إن الحقيقة هي أكثر من هذه، وإنما هو وجه الحقيقة الظاهر فحسب، أما الباطن، فلا ريب أن الإمام قد توسم فيها ما لم يتوسمه في سواها، أن تكون مربية تربي بطلاً لا يهزم الجيوش ويجندل الأبطال فقط، بل يرسم في الحياة بطولات من نوع آخر، تبدأ بالجهاد الأكبر، وتمر بالعلم الأزخر، وتصب في نهر الكوثر. . . . . إن أمير المؤمنين يعلم أن ولاءها للحق هو نبراسها، به تقتدي وبه تهتدي، وهو اللواء الذي سترفعه أمام من ستربي، وتنصبه له هدفاً وتسلمه إياه علَماً، ليناضل دونه ويستميت في سبيله، ويرفعه ويسمو به قولاً وعملاً، ما بقي فيه عرقٌ ينبض.

الفصل التاسع:

ناصر الحسين

الزمان: شهر شعبان، من السنة السادسة والعشرين للهجرة

المكان: المدينة المنورة

. . . الأيام تترى، والليالي تتوالى، تطويها كف الزمن كطي السجل للكتب، والساعات تمر وتكر. . .

حتى مرور الدقائق والثواني كان بطيئاً، فالمنتظر يستبطئ حتى خفقات قلبه المتسارعة، ويستوقف حتى ذرات الهواء المتطايرة، عساه يلتقط من بين ثناياها خبراً أفلت من رياح الغيب المبحرة في عرض السماء، هناك عند الأفق، حيث تتلاقى سحب الضياء، ويتفجر كوكب الحياة بين غروب وشروق، ليملأ الكون سناء وعطاء.

. . . كانت أنحاء البيت تتلمس عطفها، وزواياه تتنسم اهتمامها، وسكانه يمسحون على صدق ولائها ببسمات الرضى وهمسات الشكر والتقدير.

وينطلق النداء الأجمل ليقرع أسماع أم البنين، من أبناء وبنات سيدة نساء العالمين، «أماه»، ويهتز منها الفؤاد وتدمع العين، . . . لقد سمعته مرات ومرات، وانتشت بعبق صداه كلما انطلقت به الحناجر الطاهرات، ولكنه أضحى في الشهور والأيام الماضيات، يحمل لها معنىً آخر ينبثق عنه فيض لا تستطيع له حصراً، حتى لكأنها قد وَلَدت قبل أن تحمل، وَلَدت وربّت

منذ سنين وسنين، غير هذا الطفل الذي يتهيأ للخروج إلى هذه الدنيا بعد حين!

لقد وَلَدَ فؤادُها كل هؤلاء الطاهرين، وما الطفل الذي ستلده أحشاؤها عما قريب إلا دونهم، ولئن ناداها بهذا النداء الحبيب، «أماه»، فسيكون التالي عندها في سجلّ أولادها، يسبقه إلى فؤادها الحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم، ثم يأتي بعد ذلك من يكون!

***

هي ذي شهور الحمل قد تصرّمت، وهوذا الطفل الراتع في أحشاء أم البنين باقٍ في مكانه لا يريم.

هو يتمطى طولاً وعرضاً، فتتمدّد أحشاؤها وتتقوّس تبعاً لحركاته وسكناته، ويختلج فؤادها مع كل حركة يصدرها، . . . وكيف لا يفعل، وهي تدري أنها تحمل في أعماق كيانها «ناصر الحسين»؟!

إن كل ما انطوى عليه هذا الكيان الملوّع بعشق آل البتول، قد صُبّ في كيان هذا الضيف المنتظر، ليترجم بوجوده كل ما عبق به وجودها من طيب آل محمد.

إيه أيها القادم من عمق أعماقي وأعماق الغيب، لست أدري لأيهما أنا أشد شوقاً، لبقائك بين ضلوعي أبثّك خفقات فؤادي وتطرب روحي لخفقات فؤادك، المشتقّ من فؤاد أمير المؤمنين، أم لرؤية وجهك المتألق بدراً في سماء العاشقين؟!

أأتشبّث بروحك العالقة بين روحي ونفسي، وهي نسمة من روح أبيك

السامية الشامخة في أعلى عليين، أم أفلت هذه الروح إذ أفلتك، وتنفصل عن كياني، لتعلق بين أجفاني وأحضاني، ولعل في انفصالك عني خروج روحي من جثماني؟!... ولكن ما يعزيني أنها لا بد ستُبعث من جديد، لتضم هذا الوليد العتيد، ولتروي هذا النبات الحسن أحسن الري وأهنأه وأعذبه، وترويه بالمزيد!

***

... وتمضي ثلاثة أيام من شعبان،... ولعل أم البنين تقف أمام الهلال من جديد.

هل ترتسم على ثغرها بسمة هادئة وهي تتأمل في هدأة الكون بعيد الغروب، ذاك الهلال المتألق كبسمة عريضة دامعة تنصب من عرض السماء نحو الأرض؟!... ربما، وأكبر الظن أنها تتذكر، وهي التي لم تكن لتنسى قط، ذكرى ولادة الحسين عليه السلام... الحسين بن فاطمة، نور عينها وثمرة روحها، وسيدها وسيد آبائها الماضين وأولادها المقبلين.

إنها، ككل أم تذكر يوم ولادة ولدها وتتبسم، وهي إذ تذكر هذا اليوم في كل عام، إنما تشاطر الزهراء ذكراه، بل تستمد من فيض عطرها وعطره بعض شذاه، ولعلها تُسِرّ بالذكرى إلى أمير المؤمنين، تعلم أنه ليس ناسياً لها، ولكنها تذكُرُها لتقاسمه إحساسها بتعاظم هذا الحب والتقدير لنجله العظيم، مع ازدياد سني عمره الشريف، فهو إنما يزداد إشعاعاً وعطاءً، كما الكوكب الدري حين يرتفع ويشمخ أكثر فأكثر إلى عنان السماء.

ولكن، مرة أخرى لا تخطئ عين أم البنين، دموعاً تجول في عيني أمير

المؤمنين، ولعلها تتساءل: أهي دموع الفرحة لبلوغ نجله الحبيب سن الثالثة والعشرين، أم هي ذكرى تلوح في أفق الغيب فيأبى أن يفضي بها المستقبل للحاضر حتى حين، تماماً كما تلوح الدمعة في عيني أبي الحسنين فتأبى النزول؟!

ولعل يد أم البنين تمتد دون أن تدري إلى بطنها، فتربّت على رأس وليدها المستقر هناك، فيتجاوب الوليد الذي لم يولد بعد، مع تلك الحركة، فينتفض ويهتز، ويتحرك طولاً وعرضاً وارتفاعاً، ولعل أم البنين تتبسم إذذاك، فهاهي تخاطب ولدها وتناغيه، حتى قبل أن تراه، تناجيه ويناجيها، تهدهده في أحشائها ويهدهدها بإيمائه.

ولكن، لعل الحركة تزداد، فتلجأ أم البنين إلى فراشها، عساها تهدّئ وجيب هذا الحبيب، عساها تسكّن من روعه، وتخفف من لوعة شوقه وحنينه، إلى من يريد له أن يستجيب.

ولعلها تتقلب على فراشها، . . . ربما تفكر، أهو عمل المنزل قد أضناها اليوم؟! ولكنها لم تعمل أكثر من عادتها، وهي تأبى إلا أن تكون خادمة هذا البيت، رغم توفر من ينوب عنها في هذه المهمة، فها هي فضة خادمة الزهراء لم تزل تلازمها وتكفيها مؤونة العمل المجهد، ولكنها مهمتها هي، وشرطها المشروط الذي لم تكن لترضى أن تشاطر أهل هذا البيت حياتهم لولاه، عساها تجد لنفسها مكاناً بين أصحاب هذه الجنة الوارفة، فهم السابقون، وهي لا تطمع بأكثر من أن تكون من أصحاب اليمين اللاحقين.

كلا، ليس عمل المنزل هو ما هاج حركة الطفل في أحشائها، حتى غدا يتململ ويتزلزل ويتأهب للخروج!

أجل، هو ذاك، . . . إنه يتأهب للخروج، وما عليها إلا أن تستكين قليلاً عساها تهدئ روعه فيخرج في غير جلبة ولا ضوضاء، فلا يقضّ مضجع مولاها ومولاه، إمام المتقين.

وينتصف الليل ويكاد ينصرم، خلا الهزيع الأخير، . . . ترى، هل تقوم أم البنين تتهيأ للنافلة، أسوة بسيد العابدين؟ . . . ربما، بل إنها ما كانت لتفوت تلك الفرصة، في أي ليلة، فما بالك بتلك الليلة من شهر شعبان، شهر رسول الله حبيب أمير المؤمنين، . . . تلك الليلة بالذات، التي لعلها ستكون الليلة الأخيرة لها، وهي لا تزال تضم بين ضلوعها تلك الثمرة المباركة والوديعة الغالية التي أودعها لديها يعسوب الدين.

ويخرج الأمير لصلاة الفجر، يخرج هو والحسنان إلى مسجد الرسول ﷺ، ولعل أم البنين تؤدي صلاة الفجر وقد اشتد بها الطلق، ثم تعود إلى فراشها من جديد.

لعل حركة الطفل تزداد قوة، إنه حقاً يتأهب للخروج، . . .

إذاً، لا بد لها من الاستعانة بأحد، ولا تجد أمامها سوى بلسم روحها، مولاتها الزهراء، لتستعين بها، . . .

ولعل أم البنين ترسل فضة في أثر نفحة الزهراء، من تستلهم من أنفاسها بعض أنفاسها، ومن لمسة يدها وهمسة حديثها بعض حنانها وحديثها، . . . إنها ترسل في طلب الحوراء زينب، وما كان لها أن تفعل، أن تزعج حبيبتها

بالقدوم عند ذلك الوقت المبكر، لولا شدة وطأة الأمر عليها، فهي الساعة ستؤدي الأمانة، ولا بد لها ممن يتلقى منها تلك الأمانة.

وتقدم زينب، . . . تقدم على جناح السرعة، وهي تعلم أن أم البنين لا ترسل في طلبها إلا لطارئ، فهي لم تسألها يوماً إلا الاستزادة من علمها، ولم يكن لها طلب يتعلق بها!

ولعل زينب إذ تصل دار أبيها، تتوجس خيفة من غياب أم البنين عن استقبالها، فهي ليست خلف الباب تفتحه حالما تعلم بقدومها وتتهيأ لخدمتها! ولعل أم البنين تناديها بصوت ضعيف حالما تسمع صوتها، وتسألها أن تمنّ عليها بالقدوم إلى حجرتها!

هل تهرع زينب إلى حجرة أم البنين؟ . . . هل تنكب عليها ملهوفة تستفسرعن حالها وهي ترى استلقاءها على غير عادتها في فراشها وفي مثل ذلك الوقت، بل وهي ترى ضعفها وشحوب لونها وعلائم الألم المرتسمة على ملامحها التي تناضل لتبتسم في وجهها مرحبة؟

ولعلها إذ تنكب عليها بلهفة وتمسك بيديها بعطف، لا تملك أن تسألها بحرارة:

ـ أماه، مابالك؟!مم تشكين؟

وكأني بأم البنين، كعادتها إذ تنتشي لوقع النداء، وتستكثر على نفسها النعمة، تدمع عينها وتخبرها:

ـ أظنها آلام المخاض!

ولعل القلق يعتصر قلب زينب، بنفس القدر الذي يفيض به بالبهجة، . . . أما القلق، فلعل صورةً ما راودتها، صورة خالدة في أعماق ذاكرتها، وذكرى أليمة، إنها صورة أمها فاطمة، إذ ألقت حملها في ذلك اليوم المشؤوم، خلف ذلك الباب المعلوم، وارتمت على ذلك الفراش بضلعها المكسور وقلبها المكلوم وحقها المهضوم. . . وأما البهجة، فها هي المرأة الحبيبة التي نذرت نفسها لتكون أما لها، ها هي تريد أن تضع ذاك المولود المنتظر، الذي سيكون ناصراً لأخيها وقرة عينها الحسين، وهو ما أخبرها به أبوها أمير المؤمنين.

هبت زينب ترسل في أثر القابلة، ولعلها قامت تتفقد المكان، ولوازم الطفل المقبل، من مهد وقماط وأثواب، وتجهزها لاستقبال الضيف العزيز، ثم عادت إلى أم البنين تجلس إليها فتسليها وتبلسم آلامها بلطفها ومودتها وحديثها الرقيق المحبب.

ومرة أخرى تستكثر أم البنين على نفسها النعمة، فترفع طرفها للسماء حامدة شاكرة، لاهجة بذكر ودعاء، يتخلله أنين الألم، والحنين إلى مولاتها الزهراء. . . . وما أحيلاه من أنين، وما أروعها من سياط تلسع الأعماق، وتلتفّ على الكيان فتعتصره، لتخرج منه ذاك الكنز المكنون، . . . أجل، هو خروج النفس من النفس، . . . وأي نفس تخرج من أي نفس!

وربما تطغى اللوعة على الألم، والأسف على مكابدة العناء، إذ أن هذه النفس الطاهرة ستفارقها الساعة، فهل سيكون بمقدورها احتمال هذا

الفراق؟!... وهل سيكفيها بعده دهر من الضم والعناق، ومدى من الحنين والاشتياق؟!... هل سيعزيها أنها ستغذيه بعد دمها المجبول بعشق آل محمد، من لبنها الذي هو أصلاً نابع من معين ذاك العشق؟!... أجل، فإذا كان الدم يتدفق في الكيان منطلقاً من خفق الفؤاد، فاللبن يتدفق من الفؤاد نفسه،... وإذا كان الدم قد جمع الأوصال وبنى العظام وكساها لحماً، فاللبن سيشد تلك الأوصال، ويزيد في ذلك البنيان البشري اللطيف ليصبح أمتن من الجبال، لا جسداً فحسب، بل قلباً وروحاً ونفساً لا محالة.... ولكن، لا بأس لو فارقها هذا العزيز، فذلك أمر لا بد منه، لترى الفرحة على وجه أمير المؤمنين، وهي لا تريد المزيد!

وتشقّ الوجود الطاهر المحيط، والأسماع المتشوّقة الملهوفة، صرخة ولا أعذب، وينبثق من خضم تلك الدعوات التي يزخر بها المكان والزمان، متّجهة من قلوب الطاهرات وأرواحهن، نور ساطع يملأ المدى ويجاوبه الصدى،...

لقد ولد «ناصر الحسين»... نوراً راح يباهي الشمس في إشراقها، ها هو الفجر يتنفس، وها هو وليد أم البنين يتنفس، وها هي الملائكة تصعد وتهبط، لتبارك لأم البنين، لزينب، للزهراء عليها السلام، هذا الكنز الأنفس.

وكأني بأم البنين تسكب الدموع فجأة، غزيرة مدرارة، فتلتفت إليها زينب ملتاعة،... لعلها تستفهم عما بها، وهي تمسح بإحدى يديها ما تصبب على وجهها من عرق ودموع، وتقدم لها باليد الأخرى وليدها المبارك:

ـ أماه، ما يبكيك؟!...

ولعل أم البنين تغص بالجواب، ولعل زينب تتابع وهي تنكب عليها فتقبلها بحنو وعطف:

ـ أماه، أنظري، إنك قد ولدتِ ولداً لم أرَ من يفوقه أو يدانيه في الحسن والجمال، سوى أخويّ الحسن والحسين، . . . أما ترضين أن تكوني قد جلبت إلى هذا الوجود أخاً جديداً فريداً للحسن والحسين، وولداً جديداً لأمي الزهراء؟!

ولعل بكاء أم البنين يزداد، وهي تمد يديها المرتعشتين لتتلقى أغلى ما لديها، وتمد نظرها الملهوف لتنظر إلى أحلى ما لديها، وتقول:

ـ روحي فداك يا بنت الزهراء، . . . ما لهذا أبكي، ويعلم الله أني ما سررت قط في يوم من الأيام كما أنا مسرورة الساعة، ولكنني، . . . لعلني أرى في المدى مولاتي الزهراء، . . . هي تهبط من عليائها لتبارك ولدي، وإنني لأرى في وجهها سروراً، يخالطه كدر، وإني لأخشى أن يكون كدرها لفعل سيء اجترحته، أو لتقصير نحوها قصرته، أو لنية غير خالصة، . . .

لعل عينا زينب تدمعان للحديث، ولعل دموعها تختلط بدموع أم البنين، . . .

ولكنه يوم غبطة وابتهاج، فلا يليق به إذاً إلا دموع الفرح والسرور، لعلها إذاً تربت على خد أم البنين وهي تكفكف دموعها بالقول:

ـ هوّني عليك يا أماه، لا أحسب أنك قد قصرت أو اجترحت ما يسيء إلى أمي الزهراء، ولا أحسب نيتك إلا خالصة لله عزوجل، لعمري

لأنت أهل لكل خير وثناء، ولكن، لعلها الأيام وما تحمله من صروف وغِيَر، فلا تأسَي وابتسمي، فعما قريب يصل والدي، وعليك أن تكوني باستقباله في أحسن حال!

. . . لعل زينب لا تكاد تنهي حديثها حتى يُقرع الباب، وتعلم من وقع القرع أنه ليس أباها، بل تعلم أنه قنبر غلامه، إذاً، فلا ريب أن والدها قد أرسله في حاجة ما!

[و تهب نحو الباب الذي تفتحه فضة، لتقف وراءه وتستمع إلى قنبر يسأل فضة عن سر الحركة التي تعم أرجاء البيت، وإذا فضة تخبره بميلاد الوليد الميمون، وإذا بقنبر يحمل طلباً من الإمام إلى الحوراء زينب، أن ترسل له سفطاً ما، كان قد أودعه في مكان تعرفه، لسائل أتاه، وتحضر زينب السفط فتسلمه لقنبر، الذي يسألها:

ـ ألا تريد مولاتي أن أزف إلى مولاي البشرى؟!

وتجيب زينب بفرحة هادئة، يبدو أثرها في نبراتها المتمهلة:

ـ بلى يا قنبر، وأخبره بأنها أم البنين.]

. . . لا تمر أكثر من دقائق، هي في عمر الانتظار سنين، ويُسمع وقع خطوات تقترب، وتقف على الباب، . . . إنه وقع يعرفه كل من في البيت، وتخفق القلوب على إيقاع تواليه، إنها خطوات إمام المتقين، . . . [لقد بلغه الخبر، فخفّ يستقبل مولوده ويباركه، ويتوج فرحة الدار بهينمات استقبال لا تليق إلا منه، ولا يستحقها إلا هذا العزيز الصغير.]

ويدخل بلهفة واشتياق، عيناه تنطقان بمعانٍ شتى منها الفرحة والامتنان

للخالق الديّان، ومنها ما لا يستطيع أن يفهمه إنسان، . . . هو لم يستقبل - مولوداً من أولاده قط مذ أولاد الزهراء، بمثل ما يستقبل به هذا المولود الآن.

[وتقبل زينب، تحمل في عينيها ألقاً لم تحملِه حتى لولادة ولدها، وترفع بين يديها ذاك الطفل الموعود، ملفوفاً بقماط أبيض، ربما لا يزيد بياضاً على نصوع طلته البهية، وتقدمه لوالدها بفرحة تكاد لفرط شدتها أن تتحول إلى دمعة. . .

ويتلقى الأمير ولده، . . . وأي ولد.]

يطل من ثنايا القماط الأبيض كشمس رابعة النهار، يشعّ حسناً وبهاء، . . . وتبرق أساريره حالما يطل عليه، وتتلاقى عيناه بعينيه، فتنسكب ألف آية من نور لتفتح تينك العينين النجلاوين على معنى النور، ويبتدر الإمام وليده، بفعل ربما تذهل له زينب، فعل لم يسبق أن ابتدر به وليداً له من قبل، . . . [إنه قد راح يمر بلسانه الشريف على عيني الطفل وفمه وأذنيه!]

ترى، ماذا أراد الإمام بذلك؟! . . . هل أراد أن يبارك منافذ المعرفة عنده، قبل أن تبدأ باستسقاء تلك المعرفة؟!

ثم إن الأمير أقبل على ولده، يضمه ويلثمه، بكل أبوته الفياضة، لا له فحسب، بل لكل ما يعنيه، فهو الحامي، هو الكفيل، هو بذرته التي زرعها في واحة العشق الفاطمي، فأنبتت خير نبات، وستثمر في ذلك المدى، غداً حينما يعز الناصر ويتكاثر العدى.

ويهنأ الوليد بالضمة فيتنهد، وكيف لا يهنأ، وقد التصق فؤاده الصغير اليافع بفؤاد الأمير، وراحت خفقاته الرقيقة تستمد من خفقات ذلك القلب الكبير معنى الحنان والولاء والقوة والعطاء، والفناء في الحق حتى الفناء؟! . . . بل كيف لا يهنأ، وأنفاس الجنة تلفح وجهه فيتنفسها ملء الأنفاس، وأنوار الآخرة تنير دربه وناظريه، منذ لحظة الولادة حتى آخر الأنفاس؟!

[ويقبل الإمام على ولده يناجيه ويناغيه،]. . . وهل أحلى من الأذان مناجاة ومن الإقامة مناغاة؟

[ويؤذن في أذنه اليمنى، ويقيم في اليسرى]، ويلقنه مع أول صوت يخترق سمعه اللطيف، أصول الإيمان والولاية.

ولعل الإمام يستأذن بعد ذلك ليدخل على زوجته، ليهنئها بمولودها المبارك، وقد ارتسمت على أساريره علائم الغبطة والسرور.

ترى، هل تنظر إليه أم البنين على استحياء، والدنيا لا تكاد تسعها لفرط سعادتها بسعادته؟!

هل يتهادى صوت الأمير عذباً رقراقاً يملأ مسامعها وفؤادها طمأنينة وهناءً، أن بورك لك هذا المولود يا أم البنين، بورك لك هذا الشبل، وبوركتِ من لبؤة تحمي ذمار العرين؟!

. . . ويرفعه بين يديه، متأملاً له مغتبطاً به، وتزداد فرحة أم البنين لما ترى غبطته، ولعله يخاطبه، ينطق ملء المدى، تخاطب روحه الملكوتية روح وليده: «أهلاً بك يا ناصر الحسين».

[فيتمطى الوليد، يتمطى في قماطه حتى يقطعه!]

ترى، هل تتبادل أم البنين وزينب نظرة متعجبة، وهل تتلاقى نظرتهما على وجه الإمام الذي يغالب ذكرى قديمة يتبسم لها، وفكرة قادمة تدمع لها عيناه اللتان لا تنسيان أبداً عهد الدموع؟!

ربما، ولا ريب أن الذكرى تمت بصلة إلى ما قد تذكره زينب معلقة، بعزة وافتخار:

ـ إنه ابن علي بن أبي طالب حقاً، أوليس قد بلغني أن [أباه كان يقطع القماط إثر القماط وهو يتمطى]؟

أما الفكرة، فلعل الأمير يمتنع عن البوح بها في ذلك الحين، وإن لمح التساؤل حولها في عيون المحيطين به، ولعل الدموع تغلبه، فتنحدر على كريمته المباركة وتتساقط فوق القماط المقطوع، ولعل أم البنين تتمثل حينها صورة الزهراء، التي أطلت عليها قبل ساعة بحزنها الدفين، وتجهش بالبكاء رغماً عنها وهي تسأل بحرقة تغذيها حرقته:

ـ مولاي، يا أمير المؤ منين، ما يبكيك؟!... مولاي، أليس هو المولود الذي كنت تنتظره، هل ترى به من بأس، أم لعله دون ما أردت؟!

ولعل أمير المؤمنين يهز برأسه نافياً، ويمسح دموعه،... وهل يخبرها بما تغيبه سجوف الغيب؟... هل يطفئ فرحتها بمولودها بإطلاعها على ما يعرفه؟... [لقد جاء جبريل بالخبر إلى حبيبه محمد، فأخبره الرسول به]، وها هو يتمثل المستقبل الآن، ولكنها أم، وهي قد تموت غماً لو علمت بما سيجري على حبيبها الصغير، وهي لم تكد تفرغ من آلام الولادة بعد، فلا

حاجة إذاً إلى إيلام قلبها الرقيق بخبر لن تبخل به عليها الأيام.

[ويجيب الأمير برقة وحزن، وغصة مكبوتة:

ـ لا يا أم البنين، ولكني تذكرت ما جاء به حبيبي جبرائيل إلى حبيبي محمد بشأنه، ولقد علمتِ أنه يكونْ ناصراً للحسين.]

ولعل أم البنين تفهم أمراً، فتمسح دمعها بدورها لتسأل من جديد:

ـ ويكون له ناصراً على الحق لا يزيح عنه؟

لعل الأمير يبتسم بين زفراته مؤكداً أن الأمر كذلك، فترتسم على ملامحها بهجة من نوع آخر وهي تقول بلهجة تفيض حناناً وولاءً:

ـ إذا، ما عليه من بأس ولا عليّ، إنما نفسي وولدي وكل ما أعطاني ربي فداء للحق، . . . لحقّ مولاتي الزهراء، وحقك يا مولاي، وحق أولادك الطاهرين.

لعل الإمام يرمقها بنظرة راضية ترفعها إلى أعلى عليين، وتتغذى بسمو تلك النظرة وعطاء ذاك الرضى، منذ تلك اللحظة، حتى ما شاء الله وقضى.

***

[. . . وتمر أيام سبعة، ويأتي الإمام ولده، يحلق رأسه ويتصدق بوزن شعره فضة، وتقبل زينب على عادتها، تحمله وتناغيه، ثم تودعه والدها وهي تسأل بمودة:

ـ أبتاه، هل سمّيت أخي وكنّيته؟

فينظر الإمام إلى ولده ملياً، ويهتف بصوته الهادئ المطمئن:

ـ إنه «العباس»، وكنيته «أبو الفضل»، . . . وله غيرها ألقاب كثيرة!

تتبادل زينب وأم البنين نظرة رضى، ثم تعاود زينب السؤال مستحسنة:

ـ «العباس»، اسم يليق به، و«أبو الفضل» كنية تحكي فضله، أفلا تخبرناعن ألقابه؟

كأني بالإمام يملأ عينه وقلبه من حسن ولده ووسامة محياه، التي راحت تزداد يوماً بعد يوم، قبل أن يجيب:

ـ هو قمر بني هاشم، وهوالسقّاء. . .]

لعل أم البنين تبتسم إذ تسمع من الإمام لقب القمر، وتتذكر رؤياها، وتخاطب ولدها بعينيها إذ تتلقاه من والده لتضمه: «إن رؤياي قد تحققت حقاً، وها هو القمر قد استقر في حجري الآن، فما أسعدني به».

أما زينب، فكأني ببسمتها تتخافت وهي تخفت نبرتها، . . . لعلها تسر إلى والدها ما لا تريد لأم البنين أن تسمعه، وتسأل بقلق:

ـ [«قمر بني هاشم»؟! . . . إنه ليس أقل بهاء من القمر، ولكن عمر القمر يكون قصيراً يا أبتاه، . . . و«السقّاء»، صفة يتصف بها الأشراف والكبراء، . . . قد يسقون الحجيج، . . . فهل سيسقي أخي حجيج مكة أيضاً؟

لعل الإمام ينظر إلى ابنته ملياً، يستحضر ما يجري عليها وعلى هذا

الوليد، وتكاد تأخذه العبرة من جديد، . . . لعله يقوم من مجلسه ويتوارى وهويحمل معه الغصة والعبرة، وآخر الكلمات، أن أخاها سيسقي حجيج كربلاء، سيسقي ويسقي حتى يسقي الأرض بأزكى وأعذب سقاء!]

***

- إيه يا أم البنين، هنيئاً لك تحقق رؤياك، وهنيئاً لك هذا البدر الساطع في سماء العاشقين!

وتضم ثمامة ابنتها مهنئة، تعتز وتفتخروهي تتأمل حفيدها، ابن أمير المؤمنين، المنضوي تحت جناح أمه، يشعّ محياه ويتألق، ويطوف بعينيه في المدى حوله ويتعمق، وتمد يديها تستلمه، كنزاً طال أوان انتظاره، وترفعه، وهي لا تحسب أنها رفعت يوماً أغلى من ذلك الحمل ولا أثمن.

ترى، هل تقدم ثمامة الطفل إلى جده، وتجتمع يداهما وقلباهما تحت ذلك القماط المفكوك الذي لا يطيق التقمط به هذا الوليد الفريد؟! . . . هل يستشعران معاً نفس ما شعرا به يوم ولدت فاطمة؟! . . . بل لعل ما يمكن ان يكون قد استشعره حزام وثمامة في تلك اللحظة كان يفوق أي شعور آخر تملكهما يوماً حتى نحو ابنتهما الأثيرة، فهذا الطفل هو فريد حقاً، هو منشأ ذاك السؤدد وهذا الشرف الذي اختص الله به فاطمة، ومن ثم والديها، إثر زواجها من أمير المؤمنين، . . . هو جوهر تلك الدرة الفريدة التي سطعت بنورها على حياتيهما منذ ولدت حتى الساعة، . . . وإن الأيام والشهور والسنين، لتحمل لها ولهما ما هو أكثر وأرقى وأجلّ، مما لا تعلمه ولا يعلمانه، ولكنه يبقى في علم الغيب المكنون المخزون حتى حين.

ولعل الطفل يلتفت فجأة ويتنهد، لعله يطلق آهة يتهيأ معها للبكاء، فيطير فؤاد أم البنين شعاعاً، وتطير نحوه، وكأني بها تمد يديها لتسترده معتذرة، وتعلق ثمامة مبتسمة:

ـ إنه مولود نجيب، وهو بار أيضاً، يعرف أمه ولا يرضى عنها بدلا.

ولعل أم البنين ترد وهي ترمقه بحنان واعتزاز بلا حدود:

ـ صدقت يا أماه، ولكنه بأمه الأخرى أكثر براً!

تتعجب ثمامة، وتسأل ابنتها عما تقصد، وقبل أن تستطيع أم البنين أن تجيب، تلاحظان تغير مزاجه، وإذا هو يشرع في البكاء حقاً رغم أنه كان بين ذراعي أمه وقرب فؤادها، يتلمس نبضها وينصت إليه، ولكن، لعله كان يتوق إلى ذراعين آخرين، ونبض آخر.

وتسأل ثمامة:

ـ ماذا دهاه يا ابنتي؟!... أواثقة أنت أنه غير جائع؟

لعل أم البنين تهز برأسها نافية وقد اشتعل قلبها لبكاء ولدها حتى لاح أثر ذلك في عينيها أشباه دموع، وتتمتم، لعلها تدري ما وراء بكائه:

ـ لقد أرضعته قبل هنيهة، وهولا يحتاج سوى...

وتطل في تلك اللحظة زينب، ربما لا تكاد تلقي السلام حتى تندفع نحو أخيها، فتتلقاه من أمه وتحتضنه، لا بيديها، بل بقلبها وعينيها.

ويحدث أمر عجيب، إن الطفل الذي كان قبل لحظة مسترسلاً في البكاء، قد صمت فجأة حالما أحس بحرارة اللقاء.

وتنظر ثمامة إلى ابنتها مستغربة، وتسترد نظرتها باسمة وهي تطالع في وجه ابنتها تتمة كلامها وتفسير ما سلف منه، . . . أجل، [إن العباس ليس باراً بأمه فحسب، بل هو بأخته الكبرى أكثر براً، فهو لا يهنأ إلا بين ذراعيها، ولا يصمته عن البكاء إذا بكى سوى حنو كفيها ونبض فؤادها]، وكيف لا يصمت، وهو لا يبكي إلا شوقاً إليها، ولعله ما بكى قبل قليل إلا لاستشعاره إشعاع وجودها في المكان، فكانت تلك طريقته في طلبها، والتعبير عن حاجته إليها. ولعل أم البنين تقرأ في نظرة أمها سؤالاً عن سر هذا التعلق الغريب، فتجيب بنبرة حالمة ولكنها واثقة:

- إن بين ولدي وبين الزهراء عليها السلام نسباً وروحاً، وهو إذ يطلب ابنتها، فهو إنما يستسقي عذب حنانها، كوثر أمها بيد أبيها، وطوبى لمن سقاه ساقي الكوثر من ذاك المعين الأطهر، بيد هذه الجوهرة المكنونة، بنت الزهراء وحيدر!

وكأني بزينب تنظر إلى أم البنين باسمة وتجيب:

- صدقتِ يا أماه، ولعمري إن في قلبي من الحب نحوه ما لم أكنه لأحد من إخوتي خلا الحسن والحسين، ولا حتى لأولادي، رغم شدة حبي لهم جميعاً، . . . إن روحي تناجي روحه، ونفسي تشتاق إليه، ، إن شوقي إليه لا يفتر ولا يهدأ، ولعل شوقه إليّ ما هو إلا صدى لذلك الحنين اللا محدود الذي يغلبني نحوه، ولعلني لولا اضطراري للمغادرة إلى داري، والعودة إلى بعلي وأولادي، لما كنت أفارقه لحظة، . . . إن ما بيني وبين العباس يا أماه، لهو سر غريب لا أعرف له تفسيراً، وهو أمر ليس بيدي، فإني لم أكنه لأحد

قبله، ولا أظنني سأكنه لأحد بعده!

وتطأطئ ثمامة رأسها، تنطلق من قلبها خفقة امتنان ومن عينها دمعة شكر للرحمان، ومن صدرها زفرة طويلة، أن الحمد لله على هذه النعمة، . . . لقد أحسنت صنعاً يا بنتاه، لقد رفعت رؤوسنا وبيّضت وجوهنا أمام مولاتنا الزهراء، لقد دخلت هذا المنزل المبارك وكنت بين هذه الكواكب شعاعاً ضئيلاً راح يزدهي ويشعشع ويزداد تألقاً، حتى آنس الكواكب بنوره، . . . لقد أكرمنا الله بما أكرمك به، وجعلت نفسك خادمة تحت أقدام هؤلاء الميامين، فجعلوك لهم أماً، فطوبى لك يا أم البنين هذا الإكرام من سادة البشر أجمعين، ولعمري لقد فزت فوزاً عظيما.

ولعل حزاماً وثمامة خرجا بعدما قضيا مدة زيارتهما لدى ابنتهما، خرجا هانئين هادئي البال، ربما أكثر من أي وقت مضى، . . . لقد كانا يعلمان قبل الآن أي علاقة طيبة سامية تربط ابنتهما بأهل هذا البيت، ولكنهما رأيا بأم العين اليوم، كيف يكون تمام الوفاء وقمة الولاء وذروة العطاء، . . . إن أم البنين قد أضحت جزءاً لا يتجزء من بيت الزهراء، لقد منحها أمير المؤمنين وسام أم البنين، ومنحها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وسام الأمومة لهم، فبلغت بما وصلت إليه غاية الفناء في حب سيدة النساء.

***

[ويطل أمير المؤمنين من جديد، وهو على عادته مذ ولد العباس، يدعو به ليلاعبه ويناغيه، ويهنأ بما يزرعه فيه ويرويه.

وكعادته أيضاً، يتلقاه، ويضجعه بين يديه، ويروح يتأمله، يتأمل كفيه

اللتين يلوح بهما أمامه بسعادة وحبور، فيقبلهما ويبكي!

ربما لم تعد أم البنين تستطيع أن تصمت بعد، كان لا بد لها من معرفة ما هناك، فالأمير لا يني يقلّب كفي ولده كلما وضعه بين يديه ويقبلهما ويبكي.

وتسأل أم البنين وقد فاض بها الأنين، بلهجة ملؤها الحنين:

- مولاي، ما لي أراك تقلّب كفي ولدي وتبكي، هل في كفي ولدي من عيب يا سيدي، هل فيهما ما يدعو إلى التأسف والبكاء؟!

وينظر إليها أمير المؤمنين، لعل من حقها أن تعرف ما يدور، ولعله لن يخفي عنها ذلك السر إلى حين حدوث المحذور، ولكن، لعل في بعض الكلام كفاية عن الكل، ويجيب الأمير بصوت حزين:

- كلا يا أم البنين، ما في كفي ولدك عيب ولا نقصان، وما بكائي إلا لتذكري لما يجري عليهما وعليه.

وتسأل أم البنين وقد تزايدت لهفتها وحنينها:

- وما يجري عليه يا مولاي؟!

ويجيب إمام المتقين، ولعله يتلمس كفي ولده الغضتين بكفيه المباركتين:

- إن هاتين الكفين ستقطعان، ستتحولان جناحين أخضرين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما عمه جعفر الطيار، وذلك في نصرة أخيه الحسين!]

وتخفض أم البنين رأسها وقد تلوع فؤادها واعتملت في داخلها حسرة وعبرة، ولكن، لعلها ترفعه بعد قليل، وهي تتنهد حسرتها وتزفر عبرتها، وتحكي كل هدوء نفسها ويقينها وتسليمها لرب العالمين:

ـ لا بأس عليه يا مولاي، ولئن كانت روحه فداء لمولاي الحسين، فذاك منتهى المراد. إنه لفخر لي وله ان يفدي ابن الزهراء وان لا يفارقه طرفة عين، ولئن فداه بالنفس والروح واليدين، فذاك لعمري هو الفوز المبين!

لعل وجه أمير المؤمنين يتطلق رغم حزنه، وعيناه تتألقان رغم دموعه، ويبدو على محياه الرضا.

ولكن، ترى هل تسأل أم البنين، وبعدما ترى سرور الأمير بجوابها، سؤالاً آخر لتطمئن به، أم تزداد لوعتها والأنين:

ـ مولاي، ولكن، هل يغني عن سيدي الحسين ذاك الفداء، هل يفديه العباس فيحميه من كل سوء يأتيه؟

لعلها لو طرحت ذاك السؤال لكان جواب الأمير، وهو يرمقها بنظرة لا يفهمها سوى الله:

ـ هو يغنيه ويحميه، ولكن القدر المكتوب يأتيه، فهو أمر الله فيه!

ولعلها إذذاك تفقد القدرة على كبت الأنين، ويتعالى بكاؤها الحزين، فيختلط بآهات أمير المؤمنين، ولعل العباس يلتفت إليها، إلى مصدر الصوت، فيكاد يبكي، ولكنه يعود فيلتفت إلى والده، فيطالع الهدوء الشجي في قسماته المتأثرة، فيلتصق بحضنه الآمن، ويستكين.

الفصل العاشر:

سقاء المدينة!

الزمان: من سنة سبع وعشرين للهجرة إلى سنة ثلاثين للهجرة

المكان: المدينة المنورة

. . . على أطراف البيداء تلتقي الأرض بالسماء، وبين الأرض والسماء ترتفع نخلات باسقات، وأخر يافعات، قد غرستهن أيدٍ مباركات، وروتهن من ماء استنبطته من باطن الأرض كف سيد الأوصياء.

أجل، فعلى أطراف المدينة كان علي بن أبي طالب عليه السلام يستسقي الأرض ويستنطقها كلمات السماء، كان يحفر الآبار في البراري والقفار، ويستصلح الأرض الموات بالماء والنبات، ويستولدها الشجر والثمر وينفخ فيها روح الحياة بإذن الله.

وكانت أرض المدينة تكتنز الخيرات، تنتظر من يكتشفها ويشق عنها ظلمات القحط والجدب لتربو وتنمو، كانت تربتها تشتاق لوقع قدميه، وصخورها لضربة كفيه تفجر منها الماء الزلال، تماماً كما كانت قلوب البشر.

على أن الجماد يلين أكثر، فهو لا يستطيع أن يقاوم الريح والمطر، فهما يحفران فيه ويتركان أعمق أثر، ويد الأمير تبارك وتروي، . . . أما البشر، فقد أعياه أمرهم، يرون الحق فيشيحون، بل ينكرون ما لا يُنكَر، ويقولون ما لا يعلمون، ويدّعون ما لا يفقهون، فيَضِلّون ويُضِلّون، ويخيب سعيهم في الحياة الدنيا، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

. . . كان الإمام قد نأى بنفسه عن التدخل في شؤون الحكم إلا في ما ندر، مما كانت تدعوه الضرورة، فعثمان بن عفان لم يكن كسابقَيه، بل كان متفرداً برأيه لا يقبل النصيحة من الإمام ولا يعترف بفضله، بخلاف أبي بكر وعمر، اللذَين كانا يطلبان مشورة الإمام، عن قصد أو عن غير قصد، ويتقبلان حكمه حين تدعو الضرورة ويعملان به.

ولذا فإن الإمام اعتزل الأمر، لما كان يجره عليه وعلى محبيه من وبال، ويزيد من شدة القوم عليهم واضطهادهم لهم.

وكانت أم البنين تراقب ما يجري وتتألم، كانت ترى ما يُفعل ببعلها وإمامها، كيف يُغتصب حقه حتى في إعطاء النصيحة، بعدما اغتُصب حقه في الخلافة، فالنصيحة لم تكن مقبولة، وهي حتى لو جرت مجرى القبول، تُخالَف ويُتغاضى عنها، فقد كان بنو أمية، عشيرة عثمان، هم أصحاب الحول والطول، يقولون ويفعلون، ولا يردهم رادّ.

وكم من مرة كاد ينفد صبر أم البنين، لكنها كانت تعتصم بعرى الصبر من جديد، وتتأسى بمولاتها الزهراء، التي جرى ما جرى عليها، وتعرض أمير المؤمنين لما تعرض له تحت ناظريها، فيهون عليها ما تقاسيه، وتحتسب مظلوميتها ومظلومية الإمام بل ومظلومية المسلمين أجمعين، الذين حُرموا من ولاية إمامهم العادل، تحتسب كل ذلك أمام الله تعالى وتصبر.

لقد تعلمت من مأساة الزهراء، أن لا مأساة تفوق مأساتها، مهما عظُمت، فتلك هي أم المآسي، ولا تزال.

وفي يوم، [كانت أم البنين جالسة في دارها، قد وضعت العباس في

حجرها، وراحت تهدهده وتناغيه كعادتها، وهي كلما نظرت إلى محياه الوضّاء ازدادت تعلقاً به وخوفاً عليه من أعين الحاسدين، فقد كان رائع الجمال بديع التكوين، لم يكن يسعها إلا أن تعيذه في كل لحظة بالواحد الأحد، وينطلق صوتها العذب تحدو له قائلة:

أعيذه بالواحد من عين كل حاسد
قائمهم والقاعد مسلمهم والجاحد
صادرهم والوارد مولدهم والوالد

وتكرر حداءها، وتكرره.]

وكأني بأمير المؤمنين يدخل عليها في تلك اللحظة، وقد عاد لتوه من «ينبع النخل» بضواحي المدينة حيث أرضه. لعله كان يمكن أن يداخله تعب وجهد لمشقة الطريق من ناحية، ولعمله في أرضه بيده المباركة من ناحية أخرى، على أن الأمير لم يكن تعِباً ولا نصِباً، بل لعله تبسم في وجهها، فهبت تترك ولدها وتقوم إليه، تستقبله برقتها وحنوها، وتخدمه وترعى شأنه، حتى إذا استقر به المقام، [سألها أن تأتيه بولده العباس.]

لعل أم البنين لم تكن تستطيع إلا المبادرة لتلبية طلبه، رغم أنها كانت تعلم طلبه للراحة، ولكن، يبدو أن راحته لم تكن لتتحقق إلا بمناغاة ولده العزيز، وتكحيل عينه باستجلاء طلّته البهية.

ولعل أم البنين إن تنسَ لا تنسى، كيف استقبل الإمام ولده بعد ولادته، وهي في كل يوم تطالع تفتح مواهبه وإزهار سجاياه، تتذكر تلك اللحظات، حين لقنه أول دروس العبودية الحقة لله عزوجل، والإيمان الخالص

واليقين، وتعلم أن لهذا الطفل شأناً من الشأن يهيئه له الإمام.

على أن ما جرى عند تلك العشية، وما بدأ يجري في محضر أم البنين، جعلها تفهم ما أراده أمير المؤمنين حقاً بصنيعه ذاك مع العباس.

[لقد أقبلت أم البنين تحمل العباس بين يديها، وتسلمه لأبيه، طفلاً لا يكاد يجاوز سنته الأولى من العمر، غضاً أزهرياً وسيم الطلعة ملائكي القسمات، تنطق أساريره بالبهجة والحبور لمرأى والده، وتتألق في عينيه أنوار علوية.

وراحت أم البنين تراقب ولدها، وهومستكين لحجر أبيه، يناجيه ويلاعبه،]

وتذكرت رؤياها من جديد، إن طفلها هو حقاً قمر بني هاشم، كما لقبه أبوه، وكما أنبأتها الرؤيا، ولئن كان القمر مشعشعاً ينير ظلمات البيداء، فها هو العباس يتوهج نوراً وجمالاً بين ذراعي والده، الذي يفوقه بهاءً، وإذا به يستمد البهاء منه، وإذا هو بين يديه كبدر أطل فجأة في وسط النهار، يبهر الأبصار بشعاعه، ولكنه يتهادى هنيهات، ليخطف الأبصار نور الشمس الكبرى، التي يتناعس أمام ضيائها الوهاج كل ضياء.

وتبسمت أم البنين وعادت تراقب، وتهنأ بما تراقب.

. . . [لقد راح أمير المؤمنين يحادث ولده، وهو حديث عهد بنطق الكلمات، . . . لقد أجلسه في حجره وراح يغمره بحنانه الأبوي، ثم همّ به يقول:

ـ بني عباس، قل واحد.

وافترّ ثغر العباس المتفتح كبرعم ورد، وبرقت عيناه النجلاوان، وهويطيع قائلاً بصوت كزقزقة عصفور طليق:

ـ واحد.

. . . أشرقت أسارير الأمير فوق إشراقها، فعاد يقول:

ـ ولدي عباس، قل إثنين.

تطلع العباس في وجه أبيه متسائلاً، نظر في عينيه يستمد منهما نوراً فوق ما به من نور، ولم يجب.

كان الأمير ينتظر جواب ولده مترقباً، لعل أم البنين علمت أن وراء ترقبه أمراً، وإذا بالعباس يطأطئ رأسه الصغير وهويهتف بلثغة طفولية بريئة:

ـ أبتاه، أستحي أن أقول إثنين، بلسان قلت به واحد!

خفق قلب أم البنين فرحاً وهي تطالع نجابة ولدها، والتفتت إلى أمير المؤمنين، وإذا به أكثر منها فرحاً بإجابة طفله، . . . لقد ضمه إليه واعتنقه، وراح يوسعه لثماً وتقبيلاً وهو يقول:

ـ أحسنت يا ولدي، بارك الله فيك!]

لقد تذكرت في تلك اللحظة، صنيع الإمام بولده حين ولادته، وعلمت أن ما صنعه أتى أُكُله، فإن ولدها قد باركته يد الإمام وأنفاسه منذ الولادة، فهو قد أزال عن منافذ العلم عنده غشاوة الباطل قبل أن توجد، وفتحها على الحق كل الحق، وحري به والحال هذه أن لا يرى إلا الحق ولا يسمع إلا الحق، ولا يقول إلا الحق!

مولاي يا أمير المؤمنين، لقد أكرمت ولدي بهذه الكرامة، وخصصته بهذه الفضيلة، فأي أمر تهيئه له، ولأي شأن عظيم تعده، بل إنك يا مولاي أكرمتني أنا إذ اخترتني لأكون أماً ومربية لهذا الشبل الهمام، عساي أقوم بما رجوته مني خير قيام، وعلى الله أتوكل وإليه أنيب، فهو خير مربٍّ لي ولولدي، وخير أديب!

***

لم تكن الليالي مشرقة يوماً أكثر مما كانت في تلك الليالي المباركة من كل عام، وكل ليالي آل علي عليه السلام مباركة مشرقة، ولم تكن تزهر بهذا القدر وتكتسح المدى ظاهره وباطنه، كما كانت في تلك الظلمات الحالكة، وهم النور الذي يبدل الظلمات، ويهزم الطاغوت الذي يريد أن يجتاح الأنوار ويطفئها، ولكن هيهات، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

. . . رغم كل ما كان يخيّم على الأجواء من ضباب، كان نورهم يسطع أكثر، . . . ويبقى البصر متعلقاً بما يهوى، إما ينشدّ إلى الحضيض أو يرقى نحو العلى، وتبقى الأفئدة خفاقة لما يشجيها، إما حب الدنيا وزينتها وزخرفها وزبرجها، وإما حب الحق وأهله، الذي يفوق الدنيا وما فيها، و«لا يجتمع حب الله وحب الدنيا في قلب واحد».

كانت تلك ليالي شهرالله، تبدأ بالصلاة وتُختم بالصلاة، وما بين الصلاة والصلاة أوراد وأذكار، وتلاوة قرآن وعبادة أفكار، ودعاء ومناجاة. . . وناهيك بصلاة علي وآل علي، وأذكارهم وقرآنهم، ودعائهم وعبادتهم، وهم خير البرِيّة، هم القرآن الناطق، هم أئمة الهدى، وكواكب المغارب والمشارق.

كان النهار يمر، صياماً يقتدي به الصائمون، يحتذون حذو آل الرسول ﷺ في ما يقولون ويفعلون، يصومون عن الملذات، وهم في غير هذا الشهر أصلاً صائمون، وينتقلون بين الناس كالكواكب في أفلاكها، ترصدهم القلوب والعيون، بين مسجد الرسول وأعمال بها يقومون، في ظاهرها أمر دنياهم، ولكنهم عن الدنيا معرضون، فهم بتحصيل الرزق على العبادة يتقوون وللخير والمكرمات يفعلون، فيبرّون ويصلون، ويعطون ويتصدّقون.

ومساءً، كانت أم البنين تهنأ بقرب أمير المؤمنين وأولاده، أولاد الزهراء، الذين أضافت إليهم من قلبها الخفّاق بحبهم خفقة لا تهدأ، ومن عينها المحيطة بهم ترعاهم نظرة لا تستكين، ومن روحها الحائمة حول أشخاصهم نفساً لا يريم، . . . كانت مهجتها قد زرعت بينهم تلك المهجة اليانعة، ، لقد كان العباس ينتقل بينهم كالندى إذ يتساقط فوق الأزاهر، أو كنحلة نشيطة ترتشف الرحيق من أحداق الورد الريان، ولكن أم البنين كانت تعلّمه دائماً وتذكّره، أن الندى يسقط من السماء ليسقي الزهر ويروي ظمأه، وأن النحلة إذ ترتشف الرحيق، فهي تلامس الورد بحنان وتربّت عليه بمودة، وتستجديه الخير لتصنع منه العسل الشافي لمن ينشد العسل، ويعشق الورد ويرتجيه. وكان الزهر يتلقف قطرة الندى بشوق وحنان وحب، وكان الورد يعانق النحلة بكرم وسخاء وعطف، ويمنحها أعطر الشذى وأشهاه، فتتغذى به وتترعرع بيمنه، ثم هي تطلق الشهد بعدئذٍ فلا تنساه!

كان العباس يجول بين إخوته نسمة هفهافة تلامس وجناتهم، وتلملم عطر الجنة من فيض صفاتهم، ويترقرق في عيونهم دمعة تكاد تسيل،

فيكفكفونها بوجدهم طوال حياتهم، فهم له راعون وعليه يحدبون، يسقونه عذب كوثرهم ويغذونه أشهى ثمارهم، وإذا هو يخدمهم كأطوع ما يكون الغلام لأسياده، وهم يرعونه ويحيطونه بالعناية، كأفضل ما يكون الإخوة بأخيهم الأصغر، وينزلونه منهم منزلة ربما كانوا لينزلوها أخاهم المحسن، الذي لم تتركهم يد الغدر ينعمون بأخوّته، فعوضتهم يد الرحمة عنه بهذا الحبيب الذي ولدته أم استحقت منهم لفظة الأمومة، فكان لهم شقيقاً وإن اختلفت الأمهات، وكانت أرواحهم تعشقه، كما كان لهم عاشقاً وبهم متعلقاً، فهو من مائدة جنتهم يرتوي ويقتات.

كان الوقت عشاءً، وقد تعود أهل البيت تأخير الإفطار لما بعد الصلاة.

لعل أم البنين كانت تعد الإفطار لأهل بيت النبوة، قد عجنت خبزهم بماء فؤادها وطبخت إدامهم بطيب أنفاسها، وراحت تتفقد ما قد ينقص، . . . لعلها نظرت إلى المائدة نظرة استردتها غارقة في الدموع، ثم حولتها نحو السماء هامسة:

ـ لك الحمد يا رب على ما أوليتني من نعمة، أن يكون طعام أهل الجنة هذا من صنع يدي، أن تلامس يدي ذرات إدامهم فتستمد من بركته ما يزيدها بهذا العمل شغفاً.

ثم لعلها حانت منها التفاتة، وإذا بطعام أمير المؤمنين، الذي تم إعداده سابقاً، قرصين من شعير يابس، وملح وماء، . . . لعل دموعها هطلت وهي تتابع لاهجة تقول:

ـ إيه يا مولاي يا أمير المؤمنين، . . . ما يقيم أودك إلا هذان القرصان،

ولعمري إن فيهما كفاية، فقد اكتفيت من نفسك وروحك ما يغنيك عن هذه الدنيا وطعامها، وجعلت من مر المذاق تذكاراً لمرارة الدنيا، ومن الملح الأجاج تذكرة بملوحة الدمع الناجم عن مرارتها، . . . يا لهذه الدنيا كم أذاقتك من مر ومالح، وكم تجاوزتَ تلك المرارة والملوحة وأسغتها، تماماً كما تسيغ الآن مرارة الشعير وملوحة الملح، لتصل إلى منتهى العبودية الحقة لله عزوجل، ولئن لم أتأسّ بك فإني لا أكون جديرة بحمل أطفالك ورعاية أحبابك.

. . . [وقاطع مناجاتها صوت عصفور بريء يزقزق لاهثاً، وهو يجذب طرف ثوبها:

ـ أماه، عليّ بالماء، فأخي الحسين عطشان!

انتفض فؤادها وهي تحوّل ناظريها نحوه، وإذا الدموع تكاد تطفر من عينيه الكحلاوين الناظرتين إليها برجاء، . . . هبطت نحوه بلهفة تضمه وتقبله، وتقول منبهة:

ـ أي ولدي، لا تقل أخي، بل سيدي ومولاي، فما أنت سوى خادم بين يدي أبناء الزهراء! . . . انطلق معي لآتيك بالماء!

وجرّته وراءها، إلى حيث سكبت قدح ماء بارد من قربة كانت في ركن المكان، ووضعته فوق رأسه وتابعت:

ـ اذهب يا بني واسقِ مولاك الحسين، وارو ظمأه، . . .]

ولعلها أضافت في أعماقها بغصة والهة:

ـ لعمري إنك السقّاء حقاً، ولسوف تسقيه غداً حينما يعز السقاء، فطوبى لك وله هذا وذاك السقاء.

[لم يتأخر العباس، بل انطلق من فوره جذلان يعدو، والقدح فوق رأسه يتأرجح يميناً وشمالاً، فيتأرجح الماء العذب في القدح وينسكب بعضه على رأسه ووجهه وكتفيه، فيلتمع محياه الناصع فوق التماعه، ويختلط ألق الماء بألق بهائه.

وصل العباس بالماء إلى حيث كان الإمام وولداه، . . . لعلهم كانوا قد أنهوا صلاتهم وقاموا يتأهبون لدخول الدار لتناول إفطارهم، . . . كان الحسين عليه السلام قد ذكر عطشه قبل قليل، ففوجئ بأخيه الصغير العزيز الذي كان يلازمه كظله ووإذا به يغادره على عجل، ليعود بعد هنيهة بهذه الهيئة، ويتقدم نحوه، . . . كأني به يجثو أمامه مقدّماً إليه الماء وهو يقول مبتهجاً:

ـ مولاي أبا عبد الله، إنما أنا ساقيك، وقد أتيتك بالماء، أفلا تشرب؟!

نظر الحسين إلى أخيه برحمة، لعله أراد أن يقول له شيئاً، ولكن صوت أبيه انبعث فجأة بغصة وحزن يقول:

ـ ولدي عباس، إنما أنت ساقي عطاشى كربلاء!

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بالدموع،] وهو يتمثل تلك السقاية الدامية، وويرى بعين بصيرته ما يجري هناك، في تلك الصحراء النائية، حيث سيسقي العباس عطاشى الحسين، وحيث سينسكب سقاؤه على وجهه وصدره وكتفيه، لا ماء فحسب، بل ما هو أعز من الماء بكثير!

بكى أمير المؤمنين، ولعل الحسنين بكيا لبكائه، لعل إفطارهم كان ذلك

اليوم دموعاً يروون بها ظمأ التراب، لا ماء يروون به عطشهم اللهّاب.

أما العباس، فلعله وقف بعدما كان جاثياً، لعله رفع وجهه إلى أبيه وأخويه، رأى دموعهم، فتقاطرت دموعه على خديه الأزهرين، وهتف بملء الفؤاد والعين:

ـ أبتاه، كيف لا أسقي من هم علة وجودي وجوهر حياتي، . . . أبتاه، لو تعذر الماء سقيتكم من دموعي، فما أنا سوى خادم على بابكم، أفلا تقبلونني خادماً؟!

لعل أمير المؤمنين تذكر، وتذكر الحسنان، قول أم البنين يوم دخلت دارهم أول مرة، لعلهم مسحوا دموعهم، لا لزوال الهم والغم، بل لاطمئنانهم أن العباس هو حقاً ناصر لدين الحق، أنه جدير بأن يكون إبناً ليعسوب الدين، وأخاً لسبطي الرسول الأمين، . . . وكأني بهم وقد تلاحقت خطاهم يتوجهون لتناول إفطارهم، يتقدمهم أمير المؤمنين، ثم الحسن، ثم الحسين الذي لم يكن ليتقدم يوماً أخاه أو يمشي بين يديه، ثم العباس الذي يمضي أبداً في ركابهم، كذا أدبته أمه، وكذا علّمته، كيف يكون منضوياً تحت جناح سادته، لا يتقدمهم ولا يحاذيهم، بل هو ذيل لشهابهم الساطع، يستمد سطوعه من تألق أنوارهم، ويعيش ما عاش في ظلهم النوراني المتوهج، لا يتنكبه ولا يحيد عنه.

***

ـ أماه، هل لي بمرافقة مولاي الحسين إلى المسجد اليوم؟

كأني بالعباس يسأل أمه سؤال من يعرف الجواب، وكعادتها، تجيبه أم

البنين بأن تربت على رأسه وتتلو بضع آيات تعوذه بها من شر كل ذي شر، وتبتسم قائلة:

ـ اذهب يا ولدي، وكن لمولاك الحسين كظله، لا تفارقه ولا تقصّر في خدمته، فهو مولاك ووليك في الدنيا والآخرة.

وكأني بالعباس يهرع خارجاً من باب الدار وهو يتمتم بلسان فصيح:

ـ حباً وكرامة يا أماه، حباً وكرامة.

لعلها شيّعته ببصرها متبسمة وهو يغيب، كانت أنياط قلبها متعلقة بوجوده، فهي تشتدّ وتتوتّر حتى تكاد تتقطّع حالما يبتعد عنها، ولكنها تعلم أن ولدها هو صنيعة الزهراء عليها السلام بها، ولذا فهي مستعدّة في كل لحظة لتقديمه بين يديها، يخدم أولادها ويرعاهم حيث لا تستطيع هي خدمتهم ورعايتهم.

لعله لم يمضِ وقت طويل حتى قُرع الباب، فسارعت فضة تفتحه، وإذا بقنبر يسأل عن أمير المؤمنين.

. . . لعل أم البنين استمعت إلى صوت الجارية الوفية تخبره بأنه في المسجد، ولعلها نادته قبل أن يغيب لتسأله عما هناك، وقد توجست خيفة وقلقاً من سؤاله، فطأطأ قنبرٌ رأسه احتراماً لها وهو يجيب مغموماً:

ـ إنه أبو ذر الغفاري، صاحب رسول الله.

لعل فؤاد أم البنين انقبض، فهي تعرف أبا ذر، وتعرف سابقته وصحبته، كما تعرف شدّته في الحق، تلك الشدّة التي جعلته لا يصمت عن منكر

يراه، ويقول كلمة الحق ولو غالته الغوائل، وذاك ما جعل أمير المؤمنين وأصحابه قلقين على مصيره، فالمنكر قد أضحى ديدن أهل الحكم، يتجاوزون حدود الله فلا يأبهون، بعدما سيطر بنو أمية الطلقاءعلى الإمارة عبر عثمان، وراحوا يصولون ويجولون كما يحلو لهم دونما رقيب أو حسيب، بل إن الرقيب والحسيب كان موجوداً، كانَ المهاجرون والأنصار يعارضون ويطالبون، وسائر أهل الأقطار يثورون، ولكن دون جدوى.

ولعلها استفهمت أكثر، وهي تجهد أن لا تطيل الكلام:

ـ هل أصيب أبو ذر بسوء يا قنبر؟

ـ بل إنه نُفي إلى الربذة، وقد هرعت إلى مولاي لأنقل إليه الخبر، فها هو مروان بن الحكم يُخرِج أبا ذر من المدينة، ومعه أمر من عثمان لأهل المدينة بعدم تشييعه وعدم التحدث إليه.

لعل أم البنين أشارت إليه بالانصراف إلى شأنه، وهي تسرّ في نفسها غصّة حملت إلى عينيها دموعاً لم تستطع حبسها لتقول:

ـ وارحمتاه لك أيها الشيخ الصالح، لقد أفنيت عمرك في جهاد أعداء الدين والدفاع عن كلمة الحق، حتى إذا تلبّس الأمر من ليس له أهل، ورأوك لا تأخذك في الله لومة لائم، خافوك وأبعدوك خشية انكشاف الباطل وإحقاق الحق، فوارحمتاه لك!

لعل ساعة وبعض ساعة قد مرتا، قبل أن يعود أمير المؤمنين إلى البيت بصحبة أولاده، الحسن والحسين والعباس، ولعل أم البنين لم تكِد تراهم حتى طالعت في وجوههم الكدر وآثار الحزن الشديد، فتزايد حزنها

وكادت تختنق بعبرتها، ولكن، لعلها لم تشأ أن تزيد كربهم بالسؤال عما جرى، وإن كانت أحاديثهم قد أنبأتها بما هناك، لقد فهمت أن [الأمير هرع إلى مشارف المدينة حالما سمع بنفي أبي ذر، ومعه أولاده وخلّص أصحابه، فشيّعه تشييع المحب]، ولكن، لعلها أرادت أن تستزيد من الخبر لتعلم منشأ كل هذا الهم العابق في وجوه أحبتها، فاستدعت ولدها لتسأله:

ـ أي بني، هل شيّعتم أبا ذر؟!

وكأني بالعباس يرفع إليها عينين محمرتين من أثر الدموع، ويجيب بلوعة:

ـ لقد شيّعنا مؤمن آل فرعون يا أماه، كذا قال والدي أمير المؤمنين، [وقد بكى حينما رآنا مقبلين نحوه، فأبكانا لبكائه، وانطلق يقول: «بأبي وجوه إذا رأيتها ذكرت بها رسول الله وشملتني البركة برؤيتها». ثم إنه رفع يديه إلى السماء وقال: «أللهم إني أحبهم، ولو قطعت إرباً إرباً في محبتهم ما زلت عنها ابتغاء وجهك والدار الآخرة».]

هل مسحت أم البنين دمعة فرت من عينها إذ استشعرت ما يصفه ذاك العاشق الولهان المتيّم بحب آل محمد؟ ربما، فقد استذكرت ما تعانيه في عشقهم من هناءة وألم... ثم عادت تستفسر:

ـ وهل عارضكم معارض يا ولدي؟

لعل العباس نظر إليها وقد بان في وجهه غيظ مفاجئ وهو يقول:

ـ بلى يا أماه، فقد [كان هناك ذاك المسمى مروان، كان يقود أبا ذر

خارج المدينة، وقد اعترض سبيلنا، ولما رأى مولاي الحسن يحادثه نهاه عن الحديث معه، فأغلظ له والدي القول وضرب وجه راحلته بالسوط فمضى مغضباً].

لعل العباس تبسم وهو يصل في سرده إلى تلك النقطة، وكأنما سره ما فعله والده بمروان، فهمست أم البنين وهي توعز إليه بالعودة إلى مجلس أبيه:

ـ كفانا الله شر الظالمين وكيد الباغين، عد إلى المجلس يا ولدي، وخفف عن سبطي رسول الله، فإني أراهما شديدي الحزن والأسى لما جرى!

لم تكن أم البنين مخطئة، بل لعل ما رصدته عينها في محيا الأمير والحسنين عليهما السلام كان أقل مما اعتمل في صدورهم بكثير، لقد كان بمثابة ما يلوح فوق الجمر من شرر إذا اشتد اضطرامه، إذ لم يكن نفي أبي ذر أول الغيث في تجاوز حدود العدل، ولا كان أول الحيف الذي يلحق بأصحاب رسول الله الذين رفضوا أن يكونوا مركباً سهلاً يركبه أهل الحكم لتحقيق مآربهم، فكانوا المؤمنين الذين قصدهم أمير المؤمنين بقوله حين عرّف الإيمان: «الإيمان أن تفضل الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك»، وكان أبو ذر بحق مصداقاً لتلك الكلمة، كان كما قال الإمام له وهو يودعه: [«إن القوم قد خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فامتحنوك بالقلى ونفوك إلى الفلا، والله لو كانت السموات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منها مخرجا، . . . يا أبا ذر، لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل».]

لقد مضى أبو ذر، مضى إلى تلك الصحراء الموحشة، وقد أوحشه أكثر من الخلاء وقلة الزاد والماء، بعده عن الأحبة والأصفياء، ولكنه خرج محتسباً مظلوماً، منكس الطرف دامعه، قد اشتدّ به الجوى، وقلّت الرفقة، إذ لم يكن يؤنس وحشته في ذلك المكان المقفر القصي سوى زوجة وابنة، وشاة هزيلة لا يكاد احتلاب ضرعها ليقوم بأوده وأود من معه، كان خروجه من المدينة إلى الربذة، كالخروج من الجنة إلى دار الدنيا، ولكن أبا ذر كان يعلم أن في خروجه ثمن الجنة التي يطلبها، التي جعلها الله للصابرين المحتسبين.

كانت كلمة الصدق التي قالها في زمن أضحى للكذب مرتعاً، وعرق رسول الله لم يجف على ثوبه بعد، وصوت جبريل لم يزل يتردد في الآفاق، . . . هي عشرون عاماً فحسب، مضت منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنها كانت كافية لتحرف عن الدين من رأى فيه طريقاً إلى الدنيا، واتخذه ممراً للوصول إلى مطامعه، ذلك أن الطريق قد انحرف منذ البداية، منذ تنكّب أصحاب السلطة سبيل الولاية، فاجتهدوا برأيهم مقابل النص الصريح والبرهان القاطع والآية، ونكثوا بيعة الغدير، فلم يكن غريباً على كل من يتبع نهجهم أن ينكث من العهود ماشاء.

***

ترى. . . ما علة هذه السنين التي تترى وتترى، وتحمل لك يا أم البنين في طياتها مع السراء والضراء عَبرة وعِبرة؟!

وتستغفر أم البنين، وهل لها في ظل أمير المؤمنين وتحت سقف منزل الزهراء إلا السراء؟! ومن أين تأتيها الضراء وهي بقرب أحبتها هانئة، تقوم

على أمورهم، وتتغلغل فناءً في وجودهم؟!... أهو التأخر في الحمل من جديد؟!... وما يضرها أن يأتيها الرزق بقدر مقدور من رب محبور، وهي تعلم يقيناً أن ما كتبه الله لها في عالم الغيب سرور ما بعده سرور، ليس فقط في هذه الدنيا، حيث سرورها يتجسد في طاعة أولياء الأمور، بل في الآخرة أيضاً، حيث تعلم في أعماقها بأن سراً من الأسرار ينتظرها، وكنزاً من نور يكتنفها، وهو ينكشف لها ولمن حولها، بقدر وحساب، وبحسب ما يرى الخالق أنه الصواب.

... وكما توقعت أم البنين، بل كما علمت، لم تتأخر حتى حملت،... وإذا هي عبرة أخرى لها، فكلما ظن من حولها أن رجاءها قد انقطع، اتصل بأحسن اتصال، وهي ما عاشت لا تنسى مقولة نساء بني كلاب قبيل خطبتها وحديثهن في شأنها وتأخر عرسها، حتى كان لها عرس ما كان ولا يكون لأنثى بعدها، ثم هوذا بكرها الذي انتظرته خمس سنين، حتى أيس من حملها معشر الآيسين، فكان لها فطراً بعد صوم، وكوثراً بعد صبر، وقمراً بهيج النور بعدما ظن الظانون أن ليلها المشع بضياء آل محمد، لن يشعّ قط بضياء لها، أما هي فكانت ولا تزال مطمئنة البال، قد أسلمت أمرها للإله، ولم تتكل قط على أحد سواه، وهي تعلم أنه يريد بها خيراً، بل أفضل الخير، وإلا لما كانت اليوم تعيش بين عطر علي وسناه.

ومرت شهور الحمل يسيرة عسيرة، يسيرة لأن الطفل، وكما هو حال أطفال الأولياء، يكون أنساً لأمه ودواء، وعسيرة لأن فراقها له كان يعني لها مفارقة ذلك الذخر المكنون في أعماقها والعطاء... وكما أخوه من قبله، كان لا بد لها من أن تضعه لينتقل من جوار قلبها إلى قربه.

وكان الأمر حدثاً عظيماً في حياة العباس، وكيف لا يكون، وهو الذي بلغ الثامنة من عمره، ولابد أنه انتظر هذه اللحظة بشوق وتوق لا يقاس؟!

وكأني بالعباس، لما علم بأن أمه قد وضعت، وقد أقبل نحو غرفتها يحدوه حنين غريب لذاك الصغير الجديد الحبيب، . . . لعله أقبل نحوه بعدما فرغ والده من استقباله المعهود، بأذانه في يمنى أذنيه، وإقامته في يسراهما، شأنه شأن بقية إخوته، بل لعله أقبل بعدما استقبله الحسنان باسمَين لرؤيته مستبشرَين بقدومه، ، وكيف لا يتبسمان ويستبشران، وهو أولاً أخوهما، وشقيق حبيبهما العباس، وثانياً هو ابن أم البنين، الأم الثانية لهما، التي عرفا بمودتها وحنانها حنان الأم بعد أمهما، فكان لها عندهما، وعند أختيهما زينب وأم كلثوم، بل عند والدهما أيضاً المقام الرفيع والمنزلة السامية، التي لم تحتلها بعد أمهما الزهراء امرأة سواها؟!

أجل، فلعل العباس أقبل نحو أخته زينب، التي لا بد كانت تحتضن أخاه الجديد، لعله أطل عليه ملهوفاً، ولعل أم البنين رمقتهما من مكانها حيث كانت لم تزل في فراشها تستريح من آلام الوضع، لتهمس بصوت ضعيف، وقد سبحت عيناها في مكان غير منظور:

ـ إيه عباس، ها قد أتاك من يعينك. . . !

لعل الكلمة لامست شغاف قلب زينب وقلب العباس، . . . لعل زينباً نظرت إليها برحمة وقد فهمت ما تريد، ونظرت إلى أخويها الصغيرين بلوعة ودمعة، وانتظرت ما يكون من العباس.

وكأني بالعباس أقبل في تلك اللحظة، باسطاً يديه أمام أخته

بابتسامة، . . . وهل بمقدور زينب أن تقاوم تلك الابتسامة المتألقة الصافية، واليدين الممتدتين اللتين تعنيان لها الكثير؟!

. . . كان لا بد لها من أن تمد يديها بدورها إليه، لتسلمه أخاه، . . . لعله رفعه بين يديه، كما يرفع كنزاً ليس هناك ما هو أغلى منه لديه، سوى سيديه وأخويه وأختيه، . . . لعله همس يناجيه، وينفخ في أذنيه، بعهد يريد أن يعاهده عليه:

ـ أي أخي، ألا تكون عوناً لي في نصرة مولانا الحسين؟!

. . . لعل الوليد رفّ بجفنيه، والتقت عيناه بعينيه، فاستقى منه ما استقاه، وارتضى لنفسه من نفسه ما ارتضاه، وضحك فؤاده الغض الصغير لمرآه، فأجابه بهمس خفي لم يسمعه سواه:

ـ لبيك، لبيك يا أخاه!

ولعل وجه العباس تهلل أكثر، واستنار وشعشع أكثر، إن كان لتلك الطلة البهية أن تشرق بأكثر مما تعودت الإشراق به من نور يعشي الأبصار، . . . إن القدر ليرسم لكما أيها الأخوان أقوم سبيل، وإن الجنان لتتزين وتتهيأ وتتجمل وتتفنن، منذ الآن، فاليوم قد ولد لأم البنين نجم بعد قمر سبقه، وبه تمتد سلسلة أنصار الحسين حلقة بعد حلقة!

وأغمضت أم البنين عينيها هنيهات تسترجع الرؤيا، هوذا النجم الأول قد أطل، وبعده ستكتمل بعون الله عدة النجوم، لتكون جديرة حقاً بلقبها، الذي يطلقه عليها أبو الحسين وإخوة الحسين، لتكون حقاً أما للبنين، أنصار الحسين!

الفصل الحادي عشر:

عودة الحق

الزمان: سنة خمس وثلاثين للهجرة

المكان: مدينة الرسول ﷺ

«إن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا».

. . . كانت الآية من كتاب الله تعكس تماماً ما جرى في تلك الآونة من ختام عام خمس وثلاثين للهجرة.

ولعل عاماً لم يُختم منذ قُبِض الرسول الأكرمﷺ بمثل ما خُتِم به ذاك العام الحافل من الأحداث الجسام.

. . . كانت المدينة تضطرم ناراً ويزداد سعيرها، قد ارتفعت فيها أصوات التمرد على خلافة عثمان من كل ناحية، وراحت كل فئات العرب والمسلمين تستنهض بعضها للخروج عليه، خلا الفئة المستفيدة من ذلك الحكم، الذي جعل أموال المسلمين نهباً لبني أمية وأشياعهم.

وازداد الغليان، واستنجد عثمان بالإمام عليعليه السلام فأنجده مراراً، وكان يعقد العهود للناس بإصلاح أمرهم والتراجع عما فسد من أحكامه، وجلّها فاسد، ثم ينكث عهده حالما يدخل عليه مروان بن الحكم وزمرته، ويوسوس له بالتنكر لما قطعه على نفسه، مصوّراً له الأمر استضعافاً لرأيه وسلطته، مؤلّباً له على الإمام، حتى بلغ السيل الزبى، فحصره أهل المدينة، وعلى رأسهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام.

. . . كانت أم البنين تعيش أيامها ولياليها تواكب أهل بيت النبوة في ما يجري عليهم من ظلم واستكبار، وتخفف عن أمير المؤمنين والحسنين عليهما السلام ما يلاقونه من كيد الكائدين، الذين يحوّلون الأبيض أسوداً والحق باطلاً. . . ويلصقون بالإمام من الفعل ما هم فاعلوه، وهو بينهم كنبي الله عيسى، إذ استضعفه بنو إسرائيل وراحوا يكيلون له التهم والأباطيل، يلاحقونه بغث الكلام ولغوه، حتى ضاق بهم ذرعاً والتزم داره.

ولكن الإمام عليه السلام لم يُرفع إلى السماء كما رُفع المسيح عليه السلام بل ظل يعاني مكر المكرة وهو بينهم ناصح مشفق، ولكنه ناصح غير مطاع.

. . . [كان الأمير في داره ساعة قُرع بابه، ليأتيه رسول من عثمان يستنجد به كعادته، ولكنه هذه المرة كان يستسقيه، فقد منعه حاصروه من الماء!

لم يكن الإمام لينصر عثمان بعد كل ما فعله، من إغفال لنصحه ونقض لعهود المسلمين واستبدال لرأيه الصائب السديد برأي مروان بن الحكم الطريد بن الطريد، مرة بعد أخرى، ولكن فكرة منع الماء عن عثمان غاظت أمير المؤمنين وأغضبته بشدّة حتى بان الغضب في وجهه، وخرج من فوره يصطحب الحسنين إلى دار عثمان.]

. . . لعل العباس لحق بأبيه وأخويه كعادته، وقد استخفّته نجدة الملهوف وسقاية الماء، . . . لا بد أنه رأى شدّة أبيه على المحاصِرين، وراقبه وهو [يخاطب طلحة بن عبيد الله غاضباً يأمره بقوله:

ـ أدخلوا عليه الروايا!

ولكن طلحة رفض، فلم يزل الإمام على إصراره، حتى أرسل الماء إلى

بيت عثمان بيد أعز أولاده، الحسن والحسين]، ولعله ضنّ بالعباس أن يرسله معهم وهو لم يزل صغير السن، ربما خوفاً عليه من تنافر القوم وتخاصمهم، وما كانوا فيه من هرج ومرج.

ولعل العباس لما عاد إلى البيت روى لأمه ما جرى، وكأني به يعلّق بقوله، في غضب يشبه إلى حد بعيد غضب أبيه:

ـ حتى ولو كان عثمان مخطئاً في فعله، فمنع الماء ليس من شيم المؤمنين!

ولعل أم البنين ربتت على رأس ولدها بيد رحيمة، وهي تدنيه منها، وتجلسه بجوارها، وتروح تحدثه عن السقاية وأهميتها، قبل الإسلام وبعده، وكيف أنها كانت ولا تزال صفة كرام القوم وعظمائهم، مع ما للساقي من أجر عظيم عند الله، ولو لم يكن في الأمر إلا إغاثة الملهوف لكفى، كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة الماء»، وقال أيضاً: «من سقى عطشاناً أعطاه الله بكل قطرة يبذلها قنطاراً في الجنة، وسقاه من الرحيق المختوم، وإن كان في فلاة من الأرض ورد حياض القدس مع الشاربين».

وكأني بأم البنين تتابع روايتها، وهي تعتصر أعماق ذاكرتها وتسترجع صوراً شهدتها وأخرى سمعت بها وعقلتها، فتروح تنقل إلى مسامع ولدها ومخيلته حديثها وهي تقول:

ـ أي ولدي، [لقد كان جدك قصي بن كلاب، جد رسول الله، هو أول من أسس سقاية الحاج وإطعامهم، ثم ورثها عنه ابنه عبد مناف، ثم

هاشم، ثم ورثها عبد المطلب، ثم ورثها جدك أبو طالب رضوان الله عليهم أجمعين، ثم سلمها أبو طالب لعمك العباس بن عبد المطلب، رحمة الله عليه، ثم سلّمها العباس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة، ولكن الرسول ردها إليه ثانية. وقد استسقى جدك أبو طالب برسول الله يوم كان يرافقه في رحلة الشتاء والصيف، قبل بعثته، واستسقى به حينما أجدب أهل مكة وعمهم القحط والجفاف، كما استسقى النبي لأصحابه مراراً، ولأهل المدينة حين امتنع المطر، حتى فاضت السماء، وخشي أهل المدينة الغرق، فدعا النبي لهم قائلاً: «حوالينا لا علينا»، وتبسم ضاحكاً وهو يقول: «لله در أبي طالب، لو كان حياً لقرّت عيناه».]

لعل العباس نظر في وجه أمه وقد آنسه الحديث، وسأل:

ـ أماه، أولم يكن والدي ساقياً أيضاً قبل هذا اليوم؟

... لعل أم البنين استردت بصرها الذي كانت تطوف به في آفاق الذكرى لتحوّله صوب ولدها، فلما رأت تورد وجنتيه وبريق عينيه راحت تلهج بالصلاة على محمد وآله، خوفاً وحرصاً عليه إذ طالعها تألق جماله فوق ما كان يتألق، وأجابت وهي تتنهد والهة:

ـ بلى يا قرة عيني، إن أباك لهو الأول في كل مجال، والسابق إلى كل المكرمات، ما كان ليجاريه في الخير والبر أحد، سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، [ولقد استسقى للنبي وأصحابه مراراً، ففي ليلة بدر، وكانت ليلة ظلماء قارسة البرد، وبعدما أحجم الجميع عن الاستسقاء خوفاً من سطوة المشركين، إذ كانت البئر بجوارهم،

ولم يكن لها دلو يُستقى به، نزل أبوك روحي فداه في البئر، وملأ القربة ماء وثم خرج منها وتوجه إلى معسكر رسول الله ﷺ، وفي الطريق أوقفته عواصف ثلاثة أقعدته عن المشي، ولما سكنت أقبل إلى النبي الذي كان قد استبطأه، فقص عليه خبر العواصف!]

لعل أم البنين صمتت تلتقط أنفاسها، فيما العباس يبادر بالسؤال متعجباً:

ـ أماه، ولكن، أنى لأبي أن تقعده العواصف، وهو أسد الله وأسد رسوله، المسدّد بحول الله وقوته، لا يقعده عن خدمة رسول الله ﷺ والامتثال لأمره أي عائق؟!

كأني بأم البنين تبسمت وكأنما قد توقعت السؤال، وأجابت في شبه زهو:

ـ [لم تكن تلك عواصف ريح يا ولدي، بل إن رسول الله أخبر أباك بأمرها، فأما العاصفة الأولى فقد كانت جبرائيل في ألف من الملائكة سلّموا عليه، وأما الثانية فكانت ميكائيل في ألف من الملائكة سلّموا عليه، وأما الثالثة فكانت إسرافيل في ألف من الملائكة سلّموا عليه!]

لعل نظرة الفخر انتقلت من عيني أم البنين إلى عيني العباس وقلبه، فرفع رأسه عالياً وهو يستزيد:

ـ وهل كانت لأبي سقاية أخرى بعد؟

ـ بلى يا بني، لقد كان ذلك [يوم الحديبية، حين نزل رسول الله بأصحابه الجحفة فلم يجدوا بها ماء، فبعث سعد بن أبي وقاص بالروايا فرجع خائباً وقد أرعبه القوم، ثم بعث غيره فرجع بمثل ما

رجع به، ثم دعا بأبيك فأرسله، فعاد بالماء لا يرهبه أحد سوى الله، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله والماء معه كبّر ودعا له بالخير!]

كأني بالعباس طأطأ برأسه نحو الأرض في تلك اللحظة، وقد بدا عليه حزن مفاجئ، فقلقت أم البنين لحزنه، ولكنه لم يمهلها لتسأله، بل هتف فجأة بنبرة المهموم:

- لله در والدي من عظيم لا يفوقه عظيم، سوى ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولله دره من مظلوم مغصوب عليه حقه، إن فضله أبهى من الشمس في رابعة النهار، وحقه أبيَن من نور شعاعها الوهّاج، ولكن أهل الدنيا قد رغبوا عما فيه خير دنياهم وآخرتهم، فسحقاً لهم وتعساً، ولهفي على ما يقاسيه والدي من ظلمهم وجهلهم.

لعل أم البنين أقبلت على ولدها تضمه وتلثمه، وأسبغت على وجهه دمعتين تحدرتا من عينيها، لتمتزجا بدمع فر من عينيه، حزناً وأسفاً على حال أمير المؤمنين، مع قوم جهلوا حقه وتجاهلوا حق إمامته وولايته، ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أولئك هم الضالون الخاسرون حقاً، الذين خسروا أنفسهم وباؤوا بالخسران المبين!

ثم هي لا بد كفكفت دمعها، وختمت حديثها لولدها، بما كانت تحب دائماً أن تختم به، إذ ترى في البلاء فرجاً وفي المحنة رحمة، فهتفت تقول بنبرة غلب عليها الإصرار والتحدي وإن خالجها التأثر:

- يكفي السقاية فخراً يا ولدي أن يكون أبوك هو الساقي الأكبر على حوض الكوثر في يوم المحشر، فهل ترى فخراً فوق هذا؟

ولا بد أن العباس كفكف دمعه بدوره، وأجاب أمه بلهجة تشبه إلى حد بعيد لهجتها، ونظرة قوية تشبه نظرة أبيه:

ـ لا فخر فوق هذا الفخر يا أماه، ويكفيني فخراً أيضاً أن أبي قد أطلق عليّ لقب «السقّاء»، . . . الآن علمتُ حقاً أي شرف حبانيه والدي بهذا اللقب، ولعمري لأنعمنّك ولأنعمنّه عيناً، ولأكوننّ خير ساقٍ ولده علي بن أبي طالب لخير من يُسقى من آل محمد!

***

[لم يطلِ الأمر حتى عدا المحاصرون على عثمان، وكانت نهاية غضبهم الذي لم تفلح في علاجه حتى أنجع الوصفات، أن قتلوا الرجل،]. . . ثم إنهم راحوا يفتشون في ثنايا عقولهم عمن يخلفه، ليصلح الفساد ويقود العباد إلى سبيل الرشاد، ولو لم يفتشوا لكان أجدر بهم، فقد كان مثَلهم كمثَل من يتخبّط في الظلمات يفتش عن النور والشمس قائمة فوق رأسه، أو كالظامئ المتلظي يفتش عن قطرة ماء ترويه وهو يسبح في لجة من الماء الزلال.

أجل، فهم لم يكونوا يجهلون وجود أمير المؤمنين، ولا أفضليته وسابقته، ولكنهم، أو أكثرهم، كانوا يتوسلون الوسائل ليبعدوا الحق عن أهله ويجدوا الحل بمعزل عنه، ولكن الوضع كان صعباً، كان بنو أمية قد تشبثوا بالولايات التي مكّنهم منها عثمان أثناء حكمه، وجعلوها ملكاً يتناقلونه ويتوارثونه، كأنما أموال المسلمين نِحلة لهم نحلهم إياها آباؤهم، وكانوا على أهبة الاستعداد لبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل المحافظة عليها وعدم التخلي عنها، حتى ولو كان ذلك النفيس هو وحدة المسلمين

ودماؤهم وأعراضهم، ولم يكن ذلك مستغرباً من الطلقاء الذين لعنهم الرسول والكتاب في أكثر من موطن، فهم لم يسلموا إلا خوفاً وطمعاً، ولم يكن هناك ما يدفعهم للحرص على الإسلام كدين وملّة، إلا مظاهر تمظهروا بها وضحكوا بها على عقول البسطاء والجهلة، وأهل الدنيا الذين في قلوبهم مرض، فاستغفلوا بعضهم بإحياء العصبيات الجاهلية التي أماتها الدين، وأغرَوا البعض الآخر بالمال والجاه والمنصب، فالتفّ من حولهم جمع غفير، وراحوا يُعِدّون العدة، وبكل صلافة وجرأة على الله ورسوله، للمطالبة بثأر عثمان، بعدما كانوا هم قاتليه، بما جنَوه عليه من أفعالهم وآرائهم واستئثارهم بفيء المسلمين من جهة، وبتخاذلهم عن نصرته حينما استنصرهم من جهة أخرى.

أما الآخرون الذين قتلوا عثمان بأيديهم، فقد وقفوا محتارين، فيهم من قتله طمعاً في إرث خلافته، وفيهم من أراد التخلص من فساد حكمه حقاً، فكان إلى الحق أقرب.

... ولما أزِفت الأزِفة، وبلغت القلوب الحناجر، وعلم أهل المدينة أنهم أحيط بهم، وعلموا أنه لا يمسك بزمام الأمور إلا صاحبها، ولا يخمد الفتنة إلا من كان للأرواح بلسماً وللقلوب مرهماً، ولا يحيي معالم الدين إلا من أحيى أصوله وفروعه، ولا يقتلع جذور الضلالة إلا سيف الحق الذي أقام أسسه ووضع قواعده.... علموا أنه لا مفر لهم من الاستمساك بالعروة الوثقى، وانتهاج الصراط المستقيم والتصديق والإقرار بالنبإ العظيم، وإلا آل أمر الإسلام إلى الخراب.

... وقبل أن يتصرّم شهر ذي الحجة، قبل أن يرحل ذاك العام الحافل

بالأحداث الجسام، من ثورات وتمرّد، وموج يهبط ويصعد، . . . [قصد المهاجرون والأنصار إلى منزل الإمام، وقد استقرّ رأيهم على مبايعته بالخلافة، وكان فيهم طلحة والزبير!

وكان رد الإمام على طلبهم قوله، وقد علم ما وراءهم:

ـ لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به!

لم يكن الإمام راغباً عن الاعتراف بإمامته، ولكنه كان يعلم أن جل ما في الأمر أن المرحلة الصعبة كانت تطلبه، وأن من قصدوه لم يكونوا بمعظمهم معترفين بحقه في الإمامة، بقدر ما كانوا يعلمون أن الوضع الصعب المتأزّم لا يصلحه سواه، ولا يقدر عليه إلا من كانت له خبرته ودرايته وعلمه بخفايا الأمور، وسابقته وقرابته من رسول الله، تلك السابقة والقرابة التي لم يفطنوا إليها قبلاً، والتي ضربوا عنها صفحاً في حينها.

وأصرّ القوم على مبايعة الإمام، فحذّرهم بقوله:

ـ دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت العقول!]

كان الإمام يعلم أنهم لن يرضَوا بحكمه، ولن يستطيعوا الصبر والتسليم لأمره، لأنهم لا يرَونه كما يجب أن يرَوه، فأكثرهم كان يرى فيه حاكماً مصلحاً فحسب، بعدما طُمست الحقيقة في قلوبهم في العهود الماضية، عن قصد وعن غير قصد، ولم يكونوا يرَونه إماماً مفترض الطاعة.

[على أنهم أصروا قائلين:

ـ لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، ننشدك الله، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟

. . . عندئذٍ علم الإمام أن لا بد له من القبول، بعدما ألقى الحجة عليهم، فرد عليهم بقوله، وهويزيدهم علماً بما سيواجهونه ويلقَونه في ركابه:

ـ قد أجبتكم، وإني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم. . .

ثم زادهم يقول:

ـ إن كان لا بد من البيعة ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضى المسلمين!]

. . . ثم خرج الإمام من داره، خرج يحوطه الحسن والحسين، ويتبعهم العباس، ومحمد، وسائر أولاده وإخوته، وغيرهم من بني هاشم، وسائر المهاجرين والأنصار، الذين قصدوه ليسعفهم وينتشلهم من الهوة التي رمَوا بأنفسهم فيها منذ البداية، يوم قدّموا عليه في الأمر من لا يحقّ له التقدّم عليه، . . . ورافقته عيون محبيه وعارفيه، رافقوه بنظرات يمتزج فيها الرضا بعودة الحق إلى صاحبه، بالقلق من تلك العودة التي أتت بعد أوانها بكثير.

ولعل نظرة أم البنين الثاقبة وقلبها الملهوف، لم يخطئا نظرة زينب وأم كلثوم إلى أبيهما، وخفقات قلبيهما المشتعلين قلقاً وهو يغادر، فضمّت قلبها إلى قلبيهما، وخفقتها الشجية إلى خفقتهما، . . . ولعلهن تبادلن فيما بينهن بضع كلمات نمّت عما يعتلج في أعماق الصدور، من ترقّب لما هو

آتٍ، فهو أمر ظاهره سرور بصالح الأمور، وباطنه رحىً تدور، لا يعلم ما تطحن سوى الرب الغفور.

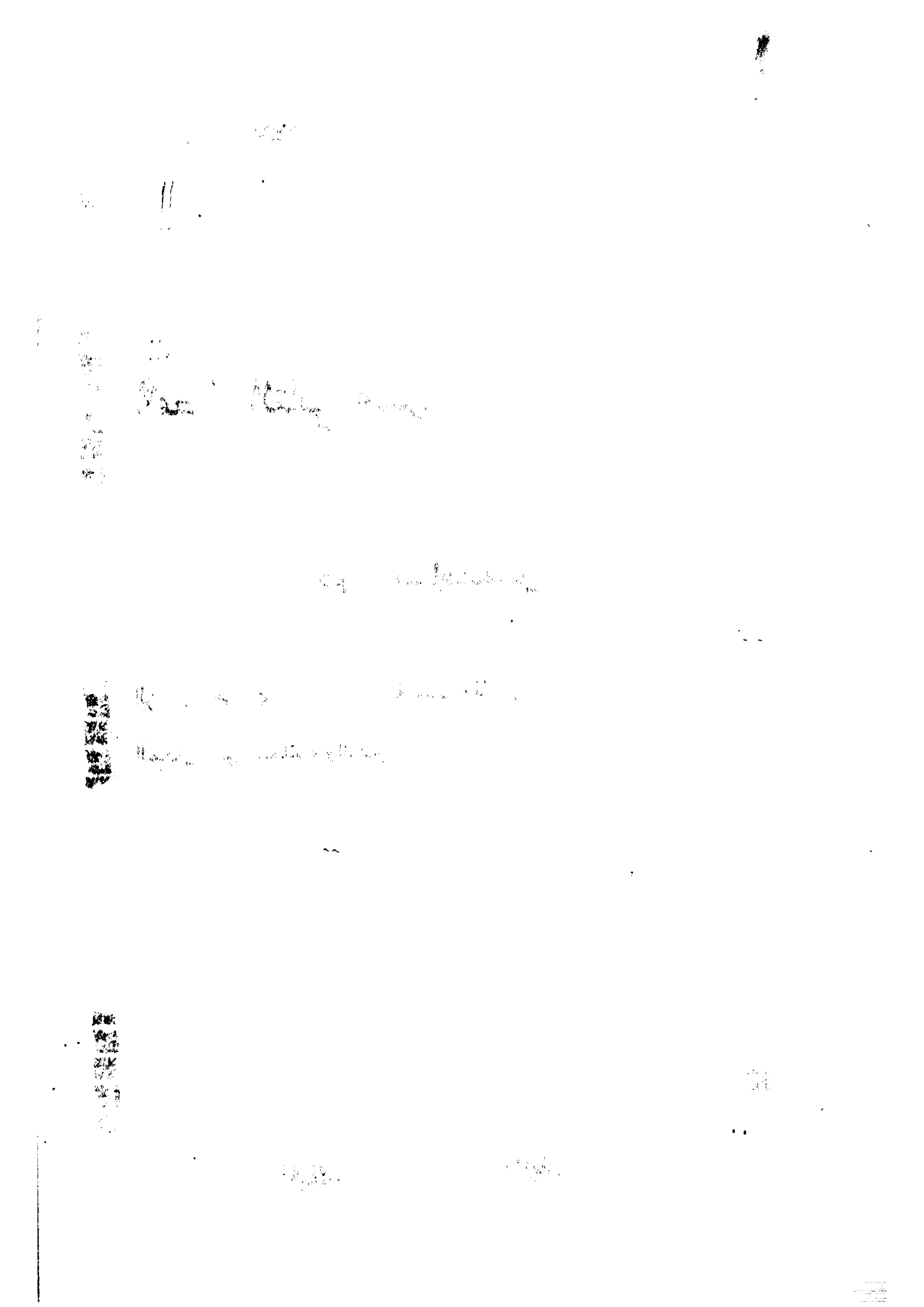
ولكنهن أسلمن أمرهن إلى بارئهن، كما تعوّدن وتربّين وعلّمتهن فطرتهن، وصروف الأيام وتوالي الخطوب والمحن، ورحن ينتظرن عودة وليّهن، وما تأتي به الساعات المقبلة، والأيام والشهور.

الفصل الثاني عشر:

حرب الناكثين

الزمان: جمادى الثانية من سنة ست وثلاثين للهجرة

المكان: بين المدينة والبصرة



لعله لم يكن قد مضى وقت طويل من دخول أمير المؤمنين داره، حينما قُرع الباب قرعاً شديداً، وسُمع بالخارج جلبة وحديث.

وكأني بأم البنين وضعت يدها على فؤادها، واصفرّ وجهها وهي تنظر إلى وجه أمير المؤمنين تستشف من ملامحه الخبر.

كان بالباب بعض أصحابه، وقد أتوه برجل من أهل مكة يحمل كتاباً.

وتتابع الحديث، وكأني بأم البنين فهمت أن الرجل قد وصل لتوه من مكة، [هو«ظفر الجهني»، رسول «أم الفضل بنت الحارث» زوجة «العباس بن عبد المطلب»رحمه الله، وهو يحمل لأمير المؤمنين كتابا منها.]

لعل أم البنين علمت أن في الأمر بأساً واستشعر قلبها الشر، فقد كانت تعرف أم الفضل، ولا بد أنها كانت تكنّ لها التقدير والمودة، فهي من صالحات نساء بني هاشم، لها في الفضل المرتبة العليا، شأنها شأن زوجها، عم النبي وعم الإمام، الذي كان لهما سنداً وعضداً طوال حياته، وكانا يُكِنّان له المودة والاحترام، . . . أولم يكن الرسول يردد بحقه: «لا تؤذوني في عمي العباس»؟

وإن أم البنين لتعرف أن أمير المؤمنين إنما دعا ولدها، ولده الحبيب،

بالعباس، وكنّاه بأبي الفضل، لشدة حبه لعمه وتفضيله له، وهو لا يحب أحداً لقربى أو رحم فحسب، بل لأنه جدير بحبه وتقديره، وطوبى لمن استحق تلك المرتبة السامية.

ولئن توفي العباس رضوان الله عليه منذ أعوام أربعة، ولئن أتت وفاته سحابة ربداء مرت على أهل بيت النبوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة، ودمعة أضافوها إلى ينابيع دموعهم التي لا تنضب، فإن امرأته لا تزال على وفائها وعهدها لأمير المؤمنين، تكنّ له من الإخلاص والولاء ما كانت تكنّه سابقاً وأكثر، فها هي الآن تقوم بعمل مضاعف، إذ تحمل ما كان زوجها يحمله من عبء نصرة الإمام، حيث تحل وفي أي مكان تقيم فيه، وها هي اليوم إذ تقيم في مكة، ترسل إليه بأخبارها مع هذا الرسول.

ولعل أم البنين عرفت من شدة استعجال الرسول ومن علامات التعب والإرهاق البادية على وجهه، وفي نبرته اللاهثة، أنه [قد طوى البيداء ليلاً ونهارا ليصل بكتابه دون تأخير، ولا بد أن ذلك كان بإيعاز من أم الفضل نفسها، فهي صاحبة الكتاب، بل لا بد أن في الأمر بأساً وداعياً للعجلة.]

ولعل كل ظنون أم البنين تأكدت حينما سمعت أصحاب أمير المؤمنين يتحاورون، ولعلها لمحت في وجهه المستقر الهادئ علامات الانزعاج، . . . لعله لم يُفاجأ بفحوى الكتاب، فأمائر الدهشة والمفاجأة لم تلح عليه، ولا بدت في نبرته التي طغت عليها المرارة والألم، ولعلها ارتفعت فجأة لتطغى على حديث الجميع وهو يخاطبهم، [فيخبرهم بأن عائشة أم المؤمنين قد خرجت من مكة بعد ما أنهت حجها، لا لتعود إلى بيتها في المدينة، بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أمرها الله أن تقِرّ فيه، بل لتتوجه

شطر البصرة، لتدعو إلى الأخذ بثأر عثمان، وفي ركابها جمع غفير من بني أمية، وعلى رأس الجميع، خرج بجانبها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام!]

. . . ارتفع لغط القوم وهم يتساءلون مستغربين:

ـ ممن تريد عائشة الثأر لعثمان؟ . . . بل لماذا تريد ذلك، وهي أول من دعا لقتله قائلة «أقتلوا نعثلاً فقد كفر»؟ . . . أوليس طلحة والزبير كانا في طليعة المحاربين له والمحاصرين والمؤلبين عليه؟ . . . أيدعون إلى قتله ثم يطالبون بثأره؟! . . . إن هذا لأمر عجيب!

. . . ثم أخذ الحوار منحىً آخر حينما أطلع الأمير أصحابه على أن القوم يريدون ثأر عثمان منه هو!

دمعت عيون البعض قهراً وارتفعت أصوات الآخرين، وهم يزدادون عجباً ويتذكرون [قول الأمير لرسول معاوية قبل شهرين، حينما أتاه يخبره أن معاوية قد نصب قميص عثمان الملطخ بالدم على منبره بالشام، وراح يؤلّب الناس ضد الإمام ويحرّضهم عليه ويدعوهم للثأر منه، لقد واجهه أمير المؤمنين يومها مغضباً يقول:

ـ أمنّي يطلبون دم عثمان؟! ألست موتوراً كتِرة عثمان؟! . . . أللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه!]

لعل الأمير [خرج من داره قاصداً المسجد]، خرج محاطاً بأولاده وأصحابه، وسائر الهاشميين، [حتى وصل إلى المنبر فاعتلاه، ووقف في

الناس خطيباً]، . . . كانت عيناه تتصفحان الوجوه، ونظرته تنفذ إلى القلوب فتميّز صفوها من كدرها، ثم تجتاز كل هذا لتحلّق في البعيد البعيد، العميق العميق، لتخترق سجوف المكان والزمان، فتقرأ في صفحات المستقبل المكنون أمراً قد قُدر، وربما يتنهد حسرة وأسفاً على ما وصل إليه الإسلام، إذ اتخذه ذوو المطامع مطية لهم، وغلبوا السذّج والبسطاء على أمرهم، وراحوا يتلفعون بمسوح الدين، وينطقون بالباطل وهم يتّخذون من الحق ذرائع، لو أُتيح لها أن تنطق لتبرّأت منهم، فكان مثَلهم كمثَل من نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

. . . وارتفع صوت الأمير على مسامع القوم، أماط عن الحقيقة لثامها وأوقد في القلوب الثائرة على الباطل ضرامها، وبيّن ما اختُلِف فيه من الحق، ورفع بصوته الرنان عن النفوس أدرانها، نفذ إلى صميم الأرواح، وخاطب الفطرة بحي على الفلاح، وإذا بكلماته تبدأ كعادتها بالحمد والثناء، ثم تنثني نحو ما قدّر الخالق وشاء:

ـ [أما بعد، فإن الله بعث محمداً للناس كافة، وجعله رحمة للعالمين، فصدع بما أُمر به، وبلّغ رسالات ربه، فلمّ به الصدع ورتق به الفتق، وآمن به السبل وحقن به الدماء وألّف به بين ذوي الإحن والعداوة والوغر في الصدور والضغائن الراسخة في القلوب، ثم قبضه الله إليه حميداً وكان من بعده ما كان من التنازع في الإمرة، فتولى أبو بكر وبعده عمر، ثم تولى عثمان، فلما كان من أمره ما عرفتموه، أتيتموني فقلتم بايعنا، فقلت لا أفعل، فقلتم بلى، فقلت لا،

وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم فجذبتموها، حتى تداككتم عليّ تداكّ الإبل على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتليّ وأن بعضكم قاتل بعضاً، فبسطت يدي فبايعتموني مختارين، وبايعني في أولكم طلحة والزبير، طائعَين غير مكرهَين، ، ثم لم يلبثا أن استأذناني في العمرة، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة، فجددت عليهما العهد في الطاعة وأن لا يبغيا الأمة الغوائل، فعاهداني، ثم لم يفِيا لي ونكثا بيعتي ونقضا عهدي، فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي ولست بدون أحد الرجلين، ولو شئت أن أقول لقلت، أللهم احكم عليهما بما صنعا في حقي وصغّرا من أمري وأظفِرني بهما. أيها الناس، إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا ولن ينالوا ذلك أبداً، ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد، والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة..... ورب عالم قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه، حسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قامت الفتنة، فيها الفئة الباغية، أين المحتسبون؟... أين المؤمنون؟... مالي ولقريش؟!... والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين، وما لنا ولعائشة من ذنب إلا أنا أدخلناها في حيّزنا،... والله لأبقرنّ الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجها!

ثم نزل. . .]

ولعل العباس عاد إلى أمه بعد قليل، عاد في ركاب أبيه وأخويه الإمامين، عاد ملهوف الفؤاد ثابتهُ، سريع الخطو واسعهُ، قد بان في حركاته وسكناته ما يعتمل في أعماقه من شجون وشؤون، ولعل أم البنين استوقفته، وأحاطته بعنايتها، وهي لما هو ملهوف له ملهوفة، ولما يعتمل في أعماقه طالبة شغوفة، وكأني بها تهمس في أذنه بنبرتها العطوفة:

ـ بني، . . . ألا تهدئ وجيب فؤادي وتخبرني بما يجري؟!

. . . لعله استدار نحوها، يكاد يسألها، لِمَ لا تسأل أباه بنفسها؟ . . . ولعلها أطرقت برأسها خجِلة وهي تقول:

ـ أستحي أن أستوقف همته العالية بسؤالي، وأن أعطله عن صنوف الفكر الذي يعتريه، يريد به إنقاذ الأمة وإزالة الغمة، وما أريد سوى جواباً يشفي غليلي ويطمئنني، ولأنت قادر على القيام بهذه المهمة!

وكأني بالعباس يجيبها، فينقل إليها بلسان فصيح، لا تعطله حداثة السن، فهو ابن عشرٍ قد عاشر أسياد الفصاحة والبلاغة، فإذا عشره عشرون أو ثلاثون في عمر البلغاء، لأن من نما بذرة طاهرة في رحم الطهارة، وارتضع حليب الإيمان والولاية، وتغذى من رضاب أمير البيان، ونشأ بين عذوبة الكلام وطلاقة اللسان، في بيت تطهر بالوحي والتنزيل، وباركه الرب الجليل بنزول أمينه جبريل، وأذهب الرجس عن أهله حتى غدَوا للبشر شموساً يستضيئون بها، وأقماراً يهتدون بهديِها، . . . إن من ولد ونشأ وترعرع في أحضان هذا البيت، بين ذراعي عاشقة له تذوب فيه

وتجعل من نفسها جارية بين لابتيه، لهو ابن هذا البيت عن جدارة، وله فيه بين أهل هذا البيت مقام وصدارة.

. . . ولعل أبا الفضل إذ يخبر أمه بما جرى، ينقل إليها حديث أهل مكة الذين اتخذوا من حرم الله وأمنه مكاناً يربّون فيه الفتنة ويغذّونها، ليطلقوها نحو بلاد الله مسعورة تفتش عن فريسة، وليس فريستها إلا الحق وأهله، . . . وهيهات أن تمسّ الحق شائبة وفي عروق المؤمنين عرق ينبض!

وكأني بالعباس، إذ يصل في حديثه إلى نصرة الحق، تحمرّ وجنتاه وتشتعل عيناه النجلاوان ناراً، ويشدّ قامته المتطاولة وهو يهب واقفاً، . . . نظرت إليه أم البنين، فالتهب فؤادها، رأته شبلاً قد بلغ مبلغ الليوث، يزأر كإياهم، ويبلغ بصدى كلماته الصادحة مداهم، إنه على حداثة سنه ليبلغ في طول القامة وعلو الهامة وارتفاع المنكبين ما يوحي بضعفي عمره، أو على الأقل ضعف ونصف!

لعلها أمسكت بيده تستوقف غضبه، وإذا قبضته مشدودة بعزم لم تلمسه إلا في يد أبيه، فتبسمت ثلِجة الفؤاد وهي تعيذه برب الفلق، من شر ما خلق، وهتفت كأنها تختبره:

ـ رويدك يا بني، لئن كانت الحرب بالمرصاد، فلعلك لست في سن تخوّلك خوض لجتها والغوص في غمارها!

لعل العباس انتفض مستنكراً، ثم لم يلبث أن خفض هامته حياءً أن لا تكون انتفاضته قد ساءت أمه، أو أظهرته أمامها كالغاضب لقولها، ونكّس طرفه قائلاً بلين، وربما بحزن دفين:

ـ أماه، ومتى كان خوض الحروب حكراً على مؤمن دون آخر، لقد درّبني والدي وأحسن تدريبي، وتعهّدني سيداي الحسنان خير تعهّد، أماه، تالله إن في قلبي لعزماً يشدّ ساعدي وينفخ أوداجي، ويرفعني إلى حيث تنكشف أمامي كل ثغرة يلج منها الشيطان فأسدها، وكل سد يرفعه أمامي فأرديه، . . . أماه، أولم يكن داوود حدثاً حينما قتل جالوت بحجر من مقلعه؟! . . . أولم يكن والدي في مثل عمري حينما كان أول مسلم مؤمن برسول الله، يذود عنه الكبار والصغار، ويبيت في فراشه إذا أحدقت به الأخطار، فيفديه بنفسه، ويحميه ويذبّ عنه أوباش العرب وأنجاسهم، حتى كان له، وهو في ذلك العمر، وصياً ووارثاً وناصراً دون كل المؤمنين؟!

كأني بأم البنين قد غضت الطرف عن ولدها رحمة به، وهي تبدي له الرضا قائلة:

ـ بوركت يا بني، إنما أنت عيني التي ترعى أباك وأولاد الزهراء في غيابي، وقلبي الذي يخفق لهم في حضوري، ودمعتي التي أذرفها حباً لهم، ودمائي التي أقدمها فداء لتراب أقدامهم، . . . بوركت يا بني، بوركت من ناصر لآل محمد، إني هكذا ربيت وهكذا رجوت من ربي، . . . وربما لهذا ولدت أنا نفسي، ونشأت حتى دخلت هذا البيت.

لعل العباس ترك أمه ببسمةٍ أشد صفاءً من بريق عينيه ونقاء محياه، بسمةٍ أودعها كل برّه بها، وبأبيه، وبرّه بالزهراء وأبيها، وبناتها وبنيها، . . . إنه

خلق ليكون ما يرجو أن يكون، أفلا يسعى جهده ليكون كذلك، أو لا يكون؟!

***

ورافقت أم البنين بعلها الإمام المبين وأبناءه الميامين، وولدها الأمين(*)، وكل من سار في ركبه لقتال الناكثين... رافقتهم ببصرها، بعبراتها المنسجمة، وهي تضم زينب بيمينها وأم كلثوم بيسارها، وقد تعلق بذيل ثوبها صغيرها عبد الله، فيما راحت بنتا الزهراء تنظران إلى أبيهما وإخوتهما وزوجيهما، وهم يغادرون ديار الأحبة، وتستعبران، وتطلقان زفراتهما الحرى، خوفاً على أحبتهما، وفوق ذلك، أسفاً لهذه الفتنة التي كشّرت عن أنيابها لتمزق أوصال الإسلام وهي تدّعي حماية حياضه!

إن أمير المؤمنين قد شمر عن ساعده، لينقذ ما أبقاه المنافقون من الإسلام وسنة الرسول، وها هو يخوض غمار ريح سوداء لا يكاد يستبين منها نور الحق إلا لمن عرف أين وكيف ينظر، وقد غمرت الظلمات وجه البسيطة، وراح الناس يتخبطون على غير هدى، سوى من التحق بركب الرسالة، ذاك الركب الذي طالما ذاد عن الدين ورفع كلمته فوق رؤوس

(*) لم يذكر المؤرّخون في ما علمت إن كان العباس عليه السلام قد حضر موقعة الجمل كما ذكروا أنه حضر موقعة صفّين، ولم يثبت لديّ حضوره هناك، ولكن السّياق التاريخي للأحداث يجعل حضوره في تلك الموقعة مرجّحاً، فقد كان رفيقاً دائماً لأخويه الحسنين عليهما السلام، وخادماً لهما، كما أنه كان في تلك الآونة قد بلغ الحادية عشرة من عمره، أي كان ناشئاً، بل لعل ذلك العمر كان مطلع الشباب لمن كان في مثل عقله وحزمه وفهمه وأدبه، مما لا يمنع حضوره هناك، والله العالم.

العالمين، فكان حقاً له أن يكون هو ركب المتقين، الذين أنعم الله عليهم باتباع الحق وأهله، وبمعرفتهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

... عادت نساء أمير المؤمنين، وعلى رأسهن زينب وأم كلثوم، عدن إلى الدار باكيات جزعات وعادت أم البنين تواسيهما على عادتها، فيواسيانها، وتكفكف دموعهما ودموعها، ويمنين النفس بقرب عودة الأحبة منصورين، فقد وعد أمير المؤمنين بالظفر، وهن له مصدقات وللنصر المؤزر منتظرات.

وكانت أيام طويلات، مضت بطيئة كأوجاع الفراق، حثيثة كخفقات القلوب الوالهات، حتى إذا مضت، وما هدأت النفوس ولا استقرت، وراحت الأخبار تتوافد وتصل، زُرافات ووحدانا، ... وإذا هي تبدأ بأخبار الربذة، حيث عسكر أمير المؤمنين بعد خروجه من المدينة، بذلك [الجيش الذي كان قد جهزه أصلاً لحرب معاوية بن أبي سفيان، فإذا هو يمضي لحرب من حرّضهم معاوية، بعدما بايع الزبير، في كتاب كتبه إليه وحرّضه فيه على الثأر لعثمان، فكان هو رأس الفتنة ومديرها، قد أحكم عرى حيلته وأوثق تدبيرها، فانطلت خديعته على الزبير وطلحة، ومن وراء ذلك على أم المؤمنين عائشة، فخرجوا للطلب بثأرٍ، وهم إنما أرادوا طلب الإمارة لأنفسهم، ونكثوا بيعتهم لأمير المؤمنين، فكانوا هم الناكثين الذين أنبأ النبي الإمام علياً عليه السلام بخبرهم.]

... وإن فكر أم البنين السارح في فضاء أمير المؤمنين، المرفرف في عليائه يبحث ويحاول أن يطمئن، ليتبادر إليه صورة تنسجها أنامل السنين، لذلك المكان الحزين، الربذة، الذي ضم رفات ذاك الصادق الأمين، الذي

وصفه الرسول المختار بذلك الحديث المبين، «ما أقلت الخضراء ولا أظلت السماء أصدق ذي لهجة من أبي ذر»، . . . ذاك المكان الذي نُفي إليه صاحب النبي وصاحب أمير المؤمنين، مظلوماً مقهوراً مغصوباً عليه حقه كمولاه، مستضعفاً كإياه، يحمل معه كنزاً وحيداً لا يحمل سواه، إنه عشق علي، فهو غذاؤه ودواه، وماؤه وكساه، وبه قد استغنى العاشق عن كل ما عداه، حتى لحق ربه، بعدما عرف دربه، وكان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين.

إن أم البنين لتكاد ترصد الدمع في عيني أمير المؤمنين، إذ نزل في ذلك المكان الذي ما لبث صحراء قفراء، حتى استقبل فوق رماله، ثم ضم بين أضلاعه، جثمان ذاك الطاهر الصدّيق، فأثمر القفرَ، وأنطق الحجر، أن هاهنا قد انغرست نبتة ظمئت فرواها حب آل محمد، وجاعت فأطعمها حب آل محمد، وذوت هياماً وتهاوت غراماً فاحتضنها حب آل محمد!

وها هي الربذة اليوم، قد احتشدت فيها الحشود لنصرة أسد الأسود، فإذا الأرض التي توارى فيها ذاك الكوكب الدري، تتألق اليوم درأً وأنواراً، وتسير على خطى ذاك الشهيد، وتنهج دربه فلا تحيد عنه، . . . إيه أبا ذر، ليتك تنظر الساعة إلى حبيبك، إذاً لرأيت ما يسر فؤادك ويحقق مرادك، وإن كان الدرب عسيراً فلطالما كان عسيراً ولكن الهدف يبقى نبيلاً، بل هو الأنبل.

. . . [ومن الربذة، وقبل انطلاق الركب من جديد، أرسل الأمير محمد بن أبي بكر، ربيبه، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، ابن أخيه الطيار، وهما أخوان لأم، أمهما زوجته أسماء بنت عميس، أرسلهما إلى الكوفة

بكتابه يستنهض أهلها لنصرة الحق وإصلاح الأمر، ولكنهما اصطدما بأبي موسى الأشعري، الذي كان واليها من قِبل عثمان، والذي امتنع عن البيعة لأمير المؤمنين، وراح يثبّط الناس عن نصرته!

. . . عاد المحمدان بالخبر إلى الإمام، وهو معسكر بذي قار، فساءه الأمر، وأرسل ولده الحسن السبط عليه السلام، وبصحبته عمار بن ياسر صاحب رسول الله.]

لعل العباس قد شعر بروحه تفارقه، وهويرى مفارقة الحسن له، ولعله لو سمح له أبوه أن يرافقه لفعل، ولكن أنى له ذلك، والحسين حبيبه وسيده وقلبه النابض بين ضلوعه، لا يزال في المكان، إن فؤاده ليتشتت، وإن أنفاسه لتتخبط، وإن خفقاته لتتوزع بين حبيبيه، فكيف يوفق بينهما؟! . . . ولكن الصبر يشد الأزر، وما عليه إلا إطاعة الأمر، . . . إنه خادمٌ للحسين، وذاك قدره الذي هو به مسرور محبور، إذاً، فمع الحسين يبقى، ويرسل مع الحسن عينيه.

[ويبلّغ الأمير أن أبا موسى لم يزل يراوغ، أنه لا يزال يخطب بالناس ويثبّطهم، متذرّعاً لذلك بالأحاديث الكثيرة المستفيضة التي يزجّ بها في غير مواقعها.

ويقلق العباس على سيده وأخيه الحسن، فقد أخّره القوم ولم يستجيبوا لندائه، ولعله ينتظر بفارغ الصبر ما يفعله والده تجاه الأمر، وإذا بالإمام ينتدب للمهمة فارس بني نخع وأميرهم، مالكاً الأشتر.]

لعل نفس العباس هدأت لما علم بخروج الأشتر، ولعل جوارحه ثارت

من جديد يريد أن يتبعه، وخصوصاً إذ لاحظ خروج ولده إبراهيم معه، فإبراهيم تربه، ورفيق طفولته وصباه، وهو شبل مالك، قد ورث عن أبيه شجاعته وبأسه، وقوة إيمانه وجنانه، وها هو يحفّ بأبيه كما يحفّ الدرع بالسيف، لا يتأخر عنه إلا ليلتصق به.

ولكن العباس يبقى، فهو درع للحسين!

[ويخرج مالك، فيصل إلى الكوفة وأبو موسى يخطب في المسجد على عادته، والإمام الحسن وعمار بإزائه، ينازعه عمار، والحسن ينهره بقوله:

ـ اعتزل عملنا لا أم لك، وتنحّ عن منبرنا!

وقد كان الأشتر في طريقه إلى المسجد لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم، فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فأخرج منه غلمان أبي موسى، فخرجوا إلى المسجد وهم يستغيثون به، فسارع أبو موسى إلى القصر فدخله، فأتاه الأشتر صائحاً يقول:

ـ أُخرجْ لا أم لك، أُخرجْ أَخرجَ الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين قديماً!

... وخرج أبو موسى بعد ليلة، واستجاب الناس لنداء أمير المؤمنين، وقد قام فيهم كبراؤهم ورؤساؤهم، أمثال حجر بن عدي الكندي وعدي بن حاتم الطائي وهند بن عمرو، وغيرهم.... وراحوا يدعونهم لنصرة الإمام، حتى اجتمع الناس إلى الحسن عليه السلام ونفروا معه.]

وكأني بالعباس يستمع إلى والده وهو جالس بمحضره، بين يدي أخيه الحسين عليه السلام بانتظار ما يكون من أمر الكوفة، [وإذا بالإمام يشير إلى

أصحابه المنتظرين ما يكون من أمر الكوفة، ويجيبهم بثقته واطمئنانه اللذين لا يفارقانه، وبابتسامته المعهودة:

ـ يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل!]

وتنتقل الثقة والطمأنينة إلى القلوب والوجوه، ويمتلئ قلب العباس بِشراً وهو يرى بسمة الحسين تعلو ثغره، إن شريانه لهو متصل أبداً بشريانه، ونبض فؤاده بفؤاده، كما أن عيناه لا تفارقان أبداً وجهه وعينيه، فيكون محياه مرآة لسروره ورضاه، ، فإذا تألق محيا الحسين واستبشر، كانت تلك هي جنة العباس وغاية مناه.

[ولعل بعض أنصار الإمام أرادوا إثبات مقالته، فقد قعد أحدهم، وهو أبو الطفيل، على نجفة ذي قار، وراح يحصي القادمين من الكوفة، فإذا هم كما قال الإمام عليه السلام، لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون!]

***

ترى، هل نضح جبين أم البنين عرقاً وهي تتذكر، وتتمثل ما يجري في عرض البيداء، وتتصور، . . . وهي التي قد انشغلت بزينب عليها السلام، تارة تعزيها وتخفف عنها لوعة الفراق، وأخرى تنثني إلى أم كلثوم، فتطيب خاطرها، مع ما هي فيه من شدة اللوعة وذروة القلق؟

ربما، . . .

وإن كانت قد أسلمت أمرها لله، ولعلها إذا ازداد بها القلق كانت تتسلى بذلك الضيف الجديد الذي احتل أحشاءها، فيشغلها وجوده وأُنسها به عن همها وقلقها إلى حين، فهو الهبة الثالثة التي حباها بها أمير المؤمنين،

والبذرة الجديدة التي غُرست في مهجتها، فراحت تتغذى من وريدها، وهي في غدٍ تنبت وتزداد بهاءً، وتنتقل من ظلمة الأرحام إلى نور الحياة الوضاء، فتنتشي مسكاً وعطاءً وضياء، كيف لا والري والغذاء عشق آل محمد؟

. . . كما أن عين أم البنين الثاقبة، التي تراقب المكان والزمان، لهي متصلة بعين العباس، الذي يراقب، فيستبشر تارة ويقلق أخرى، ويسجل بحضوره في ذلك المكان ما يجري، وما قد جرى.

. . . كانت الحرب تلوح من خلف البيارق المرفرفة في عرض البيداء، تنتصب فوق الأسنة المرهفة، وبين ظبا السيوف المشرعة، وتحت حوافر الخيل المتراكضة المتنافرة المتآلفة، تعيث فوق الرمال غباراً، وتقدح بين الأرض والسماء ناراً.

[كان أصحاب أمير المؤمنين يتحرقون لإحقاق الحق ورفع الظلامة، لا عن أنفسهم فحسب، بل عن أميرهم ووليهم ومقتداهم، من بطاعته رسول الله أوصاهم، ولكنهم، إذ كانوا بأمره يأتمرون، فلا يعصونه ولا يتقاعسون، وقد أمرهم، وقلوبهم مغتاظة وسيوفهم مشهرة، أن يغمدوا سيوفهم ويسكّنوا غيظ قلوبهم، وأن لا يبدأوا القوم بالقتال.

لقد قال لهم، وقد تواقف الجمعان، يرشدهم ويؤدبهم، ويعرّفهم حدود القتال:

ـ لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وكفكم عنهم حتى يبدأوكم حجة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ولا تكشفوا عورة ولا

تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبّين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول، . . . لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعيّر بها وعقبه من بعده.]

لقد كان العباس يستمع، وينهل من ذلك المعين الزلال، معين علم والده الذي لا ينضب، وأدبه، وهو خير مؤدِّب ومؤدَّب، كان ينظر إلى الجيش، [وقد اصطفت الفرق، فجعل الإمام عبدالله بن عباس، ابن عمه، على الميمنة، وعمر بن أبي سلمة، ابن أم سلمة أم المؤمنين، على الميسرة، وعلى المقدمة أبا ليلى بن عمر بن الجراح، وأعطى الراية ولده محمداً وهو ابن عشرين سنة]. . . . وإن الدماء لتغلي في عروق العباس، ويحاول أن يدخل معترك القتال، عساه يقضي وطراً من الجهاد الذي يعبق مسكاً في كيانه، ويريد أن يفوح، ولكن أباه كان به ضنيناً، وهو ما فتئ يكرر قوله: «بني عباس، إنما أنت ذخر للحسين، إنما أنت ناصر للحسين!».

وكانت تهدّئ ثورته الكلمة، بل الطاعة الواجبة لتلك الكلمة، ولعل يد الحسين كانت تربت على كتفه، وكأنما هو يستمهله ويسترضيه، أن لا تخشَ شيئاً يا أخي، فلن يفوتك من الخير المعدّ لك شيء، إنما أُعِدّ لك هو فوق ما ترجوه الساعة بكثير، رويدك يا عباس، فإن الآتي أشد وقعاً وأعظم أجراً!

. . . [وتنهمر سهام القوم كالمطر، ويُقتل من أصحاب الإمام جماعة، فيسترجع الإمام عليه السلام، ويدعو بدرع رسول الله ذات الفضول فيلبسها، ويحزم وسطه بالعمامة، ويتقلد ذا الفقار]، سيفه الذي طال إغماده لسنوات، وقد آن أوان استلاله، . . . وكأنما تدوي السماء بصرخة جبريل من جديد، «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي».

[ويدفع الإمام رايته السوداء، العقاب، إلى ولده محمد، وهي راية رسول الله، ويخاطب الحسنين عليهما السلام قائلاً:

ـ إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله.]

ولعل العباس إذ ينظر من جديد إلى أبيه، وإلى سيديه وأخويه الحسنين، يرى الحسرة عابقة في وجوههم، فيزداد حسرة، . . . لشد ما تؤلمهم هذه الحرب التي فرضها عليهم هؤلاء الناكثون، ولشد ما توجع قلوبهم هذه الفرقة الدامية بين المسلمين.

[ويرتفع صوت الإمام وهو يطوف بين الصفوف ويتلو:

ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

ثم يقول:

ـ أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وأعزّ لنا ولكم النصر، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر.

ثم يرفع الإمام بيده مصحفاً وينادي برفيع الصوت:

ـ من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة؟!]

وكأني بعيني العباس قد برقتا لتلك الدعوة، وكأني بفؤاده قد خفق وتزلزل حتى كاد يتمزق، وكأني بأنفاسه تتلاحق وقد انشدّ كيانه كله وتحرّق، هي ذي الجنة قاب قوسين أو أدنى، . . . ولكنه لم يتقدم، فهو مرصود لأعظم من هذا المغنم، وهو لو تقدم يكون قد عصى أمر والده وإمامه، وهو أمر ما كان ليفعله، فهو مغرم ما فوقه مغرم.

وكأنما قرأ شوق العباس تِرب له، أو ربما شاب أكبر منه سناً بقليل، . . . أجل، فقد [تقدم نحو الإمام غلام يرتدي قباء أبيض، إنه مسلم بن عبد الله، تقدم كملاك هبط من زُمر الملائكة المحدقين بالمكان، يرصدون نصرة الحق ويتألمون لألم الإمام، وهتف الغلام بقوة، غبطه عليها كل من رآه وسمعه:

ـ أنا آخذه يا أمير المؤمنين!

لسبب ما، لم يجب الإمام على الغلام، وأعاد القول على القوم ثانية، فبرز الغلام من جديد، وقال مقالته الأولى، فأعرض عنه الإمام ثانية، وأعاد القول للقوم ثالثة، فبرز الغلام للمرة الثالثة ملهوفاً يكرر، بلهجة من يشتاق الجنة ولا يشتاق إلاها:

ـ أنا آخذه يا أمير المؤمنين!

وكأني بالإمام ينظر إليه برحمة، وتغرورق عيناه بالدموع، هو الزمان قد

أتى يعرض عليه غصص الأيام، حاضرها وماضيها، ومستقبلها، ورد عليه بقوله:

ـ يا فتى، إن أخذته فإن يدك اليمنى تُقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتُقطع، ثم تُضرب بالسيف حتى تُقتل!

نظر الغلام إلى الإمام، وتبسم، وهتف دون تردد، في حرقة ورجاء:

ـ مولاي يا أمير المؤمنين، إن الذي تذكر في الله قليل!

عندها، دفع الإمام المصحف إلى الغلام]، ولعل غصةً ما علقت بحلقه الشريف، فقد عاين فيه صورة مصغرة لذاك الذي سيكون، ولعله التفت نحو العباس لحظة، . . . كأني بالعباس قد لاحظ نظرته إليه، وفهم مغزاها، فتوقّدت حواسه، المتوقّدة أصلاً، وراح يراقب بقلبه اللاهف مسلم بن عبد الله، الذي حمل المصحف ودخل في صفوف الناكثين.

. . . [لقد وقف الفتى يخطب فيهم، على حداثة سنه، ويدعوهم إلى كتاب الله، فضربوه على يده اليمنى فقطعوها، ولكنه لم يهن ولم ينكل ولم يستسلم لألمه، بل التقط الكتاب بيسراه، آنفاً أن يتركه للسقوط، وقد تمثّل له قول الإمام فتقوى به على ما به، ورفع صوته يدعوهم ثانية، فضربوه على يده اليسرى فقطعوها، فانحنى يلتقطه بأسنانه، ودموعه تنساب، ودماؤه تنساب، فتحوّل بياض قبائه أحمراً، . . . ثم إنهم احتوشوه ومزّقوه بأسيافهم، ومزّقوا كتاب الله وداسوه تحت أقدامهم!

. . . كان أصحاب الإمام ينظرون ويتلوون، وينتظرون أمر الإمام، حتى

إذا رأوا ورأى الإمام ما صُنع بمسلم، رفع الإمام صوته متضرعاً إلى الله معلناً لهم الأمر:

ـ أللهم فاشهد، أللهم فاشهد، الآن حلّ قتالهم!

والتحم الجيشان، أصحاب الإمام يحيطون بقادتهم، بلوائهم لواء رسول الله، ويذبون عن حياض الدين ويقمعون الفتنة التي تريد أن تقطع دابر المسلمين، وأصحاب عائشة والزبير وطلحة، قد اتخذوا من الجمل الأحمر عسكر، الذي تركبه عائشة، لواءً لهم، وصاروا يقاتلون دونه.]

ولعل أم البنين لو قُدر لها أن تحضر في ذلك المكان لرأت ما لا يُرى، ولشهدت ما لم يكن له قط نظير في حروب المسلمين، ذلك أن كل حرب خاضها المسلمون، حتى تلك الحظة، كانت ضد المشركين أو المرتدّين، ينطق المسلمون بالقرآن ويهلّلون ويكبّرون، وينطق الآخرون بغير ذلك، أما في هذه الحرب فقد كان كلا الفريقان يكبّر، وكلاهما يهلّل وينطق بالقرآن، . . . ولكن من استطاع أن يدوس القرآن وحامله، وأن يرفض قبل ذلك القرآن الناطق إذ أتى يسائله، كان يقول ما لا يعلم، ويتكلم بما لا يفهم، كان يركب مركب الضلالة والغواية، وهويتظاهر بأنه من أصحاب الإيمان والهداية.

كان الأمرصعباً، أن تحارب من يدعي أنه أخ لك في الدين، وأن تشهر السيف في وجه من يصلي كإياك لله رب العالمين، ولكنه ظالم لك، قد شهر سيفه قبل سيفك عليك، واتهمك بما أنت منه براء، ولم يرضَ بسوى دمك لدائه دواء، وما كان داؤه إلا السعي إلى جاه الدنيا وعَرَضها، فكان لا

بد من تقويم ما اعوجّ والدفاع عما فيه صالح المسلمين، فقد دخل الإيمان على يدي هؤلاء مرحلة الخطر الأكبر، فهو قد أضحى على لسانهم كلاماً بلا محتوى، وقولاً بلا فعل وحجة بلا أصل، بل كلاماً وقولاً وحججاً تحتوي أهواءهم، . . . لقد صار سلاحاً في يد من كانوا بالأمس ألد أعدائه، حتى إذا وجدوه السلاح الأمثل، بعدما انتصر به أهله وأضحى هو الأول، أرادوا أن يستخدموه لهم تبعاً، ويطوّعوه لغاياتهم ودنياهم، فالتبس الأمر على الضعفاء والبسطاء والجبناء، فأضحوا هم الضحايا التعساء على الأرض وفي السماء.

***

[واشتد القتال، من الصبح إلى الزوال.]

وشهد ذلك اليوم مشاهد عجيبة، سجلتها ذاكرة من حضر الواقعة، ولا بد أن العباس سجلها في عمق أعماقه.

[هوذا زيد بن صوحان، صاحب رسول الله وأمير المؤمنين، هوذا أخوه سيحان، هاهما يُقتلان بين يدي الأمير، بعدما يجاهدان جهاد الأبطال، وإنهما لراضيان مسروران بالحق الذي يجاهدان دونه، وها هو أخوهما صعصعة يقع جريحاً ويشرف على الموت.

هوذا عمار بن ياسر، صاحب رسول الله وأمير المؤمنين، يقاتل وهوابن تسعين، فيضرب قاتل زيد ويكاد يجهز عليه.

هوذا مالك الأشتر، صاحب رسول الله وأمير المؤمنين، يقاتل قتال الأبطال، وهو شيخ عالي السن، وقد بات طاوياً ثلاثة أيام كما كانت عادته

في الحرب، فإذا برز إليه عبدالله بن الزبير، وهو شاب، ضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً، وضربه عبد الله ضربة خفيفة، واعتنق كل منهما صاحبه وسقطا إلى الأرض يعتركان، حتى أتى أصحابهما فخلصوهما.

هوذا عدي بن حاتم الطائي، صاحب رسول الله وأمير المؤمنين، يحمل على الجمل وقائده، فيجاهد ويقتل جماعة، ثم يُصاب فتُفقأ عينه، فيحتسبها في سبيل الله، ويستعيض عنها بعين واحدة يرى فيها الحق واحداً ويبصر فيها ببصيرة نافذة، تتصل بالقلب والروح، فلا تضل بهما أبدا.

وها هو عبد الله بن أبزي، من أصحاب الجمل، قد أخذ بخطام الجمل الذي قتل على خطامه قبله جمع غفير، ها هو يقاتل مستميتاً متحدّياً حتفه بغروره فيقول:

أضربهم ولا أرى أبا حسنْ ها إن هذا حزَن من الحزَنْ

وها هو أمير المؤمنين يشد عليه لما يسمع رجزه، فيطعنه برمحه فيقتله وهو يقول:

ـ قد رأيت أبا حسن فكيف رأيته؟!

ولما اشتد القتال حول الجمل، استدار كما تدور الرحى وتكاثفت الرجال حوله واشتدّ رغاؤه، فزحف أمير المؤمنين بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد، ولعل العباس كان بينهم، فدفع الراية إلى محمد وقال له:

ـ أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل، ولا تقفن دونه!

فتقدم محمد، وفيما القتال على أشده رصدت عين العباس توقف أخيه عن الهجوم، وقد فاجأته رشقات السهام المنهمرة من كل صوب، وصار يقول لأصحابه:

ـ رويداً حتى تنفد سهامهم، فلم يبقَ إلا رشقة أو رشقتين.

فأنفذ إليه الإمام يحثه ويأمره بالمناجزة، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه، فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن، وقال له:

ـ أقدم لا أم لك!

فتأثر محمد، الذي ما عرفه العباس وبنو هاشم إلا جسوراً مقداماً، وأجاب:

ـ يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر؟

فدفعه الإمام في صدره قائلاً:

ـ أدركك عِرْقٌ من أمك!]

لعل العباس توقف طويلاً عند تلك الكلمة، واعتملت في صدره عوامل شتى، إنه ليحب أخاه محمداً حباً عظيماً، لا يفوقه إلا حبه لسيديه وأخويه الحسن والحسين، فحبه لهما لا يماثله حب، بل هو فوق الحب، هو تقديس وإكبار، ولكن الكلمة التي وقعت على قلب أخيه محمد وقعت في قلبه، وهو يعلم أن والده لا يقول إلا الحق، ولعله سأل نفسه: «ترى، لو كنت مكان محمد، ما كنت لأصنع؟ وهل كنت لأنتظر توقف السهام قبل أن أُقدِم؟ أم أُقدِم وأخوض غمارها بلا اكتراث ولا اهتمام لغزارة

هطولها؟!... ولعل العباس تبسم وهو يصل في تفكيره إلى تلك النقطة، فقد كان يتفجر شوقاً لموقف مشابه، ... ولعله تذكر أمه!

إن العباس لموقن أنه، لو أدركه منها عرق يوماً، فلن يكون إلا عرق البطولة والإقدام الذي ورثته عن آبائها وأجدادها، وصفاء العقيدة وخلوص النية، إنها تلك الأم التي علمته ولا تزال، كيف يكون طوع أمر أبيه وأخويه، بل إماميه وسيديه، تلك الأم التي نشأ بين يديها ولا يزال، وهو يرى كيف تفضّل أبناء الزهراء عليه، فيهنأ بتفضيلها ذاك بدل أن يغتاظ، ويسرّ باهتمامها بهم بدل أن يغار، فهو يعلم أن حبها لهم، إن فاق حبها له، فلأن فيهم ما ليس فيه، فيهم رائحة الزهراء، رائحة النبي المختار.

... على أنه بذلك هانئ قرير، بل إن كل ما يعنيه ويرضيه، أن يكون ساعداً لأمه في خدمة أبيه وأخويه وأختيه، ولئن استطاع أن يفعل، فهو قد نال درجة الرضا، ولا يحتاج المزيد.

وإن ما تفعله أمه، وما لا تزال تفعله في كل حين، ليذكّره بجدته [فاطمة بنت أسد، أم أبيه أمير المؤمنين، التي كانت ترعى رسول الله وتفضله على أولادها وقد يبيت أولادها شعثاً غبراً والنبي أدهن كحيلاً]، ... وها هو والده قد حمل على عاتقه هم الرسالة منذ ولدت، وكان لصاحب الرسالة العضد والسند، وها هو يقاتل الساعة على التأويل، كما قاتل مع النبي على التنزيل، فبذلك قد أخبره الرسول، وذاك ما سمعه العباس منه ومن سيديه الحسنين ومن أمه أم البنين، ... وإن قصص أجداده وجداته الأبرار وعِبرهم وآثارهم، لا تزال تكرّ بين بصيرته وسريرته، تغذيه بها أمه كلما

سنحت لها الفرصة، وكل ما كان لها إلى غذائه بها سبيل.

***

ولعل العباس ليعجب ويزيده تنبهاً لما هو فيه، أن يرى نفسه وارثاً لأبيه، لصفاته وشمائله الشريفة، التي يعلم علم اليقين أن ليس هناك من يستطيع بها أن يضاهيه، سوى ابن عمه الرسول الأكرم ﷺ.

[ولعل بصر العباس انشد من جديد نحو أبيه، وهو يأخذ الراية من أخيه محمد، وقد أدركته الرحمة به، فيحملها بيساره، وذو الفقار بيمينه، وينشد:

اطعن بها طعن أبيك تُحمذ لا خير في الحرب إذا لم توقَذ
بالمشرفيّ والقنا المسدّذ

... ثم إن الإمام حمل، وحمل الناس خلفه، فطحن أصحاب الجمل!

ولعل في القوم من أراد أن يوغر قلب محمد، فسأله:

ـ أي محمد، لِمَ يغرّر أبوك بك ولا يغرّر بالحسن والحسين؟]

ولعل العباس إذ سمع القول، ولاحظ ما بين الكلمات، علم ان محمداً لن يخفى عليه غرض السائل، فهو اللبيب الفصيح، الصادق العقيدة والإيمان، ... ولم يخب ظن العباس إذ سمع أخاه يرد بقوله في ثقة واطمئنان، مفحماً صاحب السؤال:

ـ [إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه!

ثم إن الإمام عاد إلى محمد، فدفع إليه الراية قائلاً يحثه:

ـ امحُ الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك!

وضمّ الإمام إلى ولده خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، في جمع كبير من الأنصار من أهل بدر، فحمل محمد حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً، فأقبل خزيمة إلى الإمام يقول مثنياً على محمد مزهواً به:

ـ أما إنه لو كان غير محمد لافتضح، ولئن كنتَ قد خفتَ عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر، لما خفناه عليه، وإن كنتَ أردت أن تعلّمه الطعان، فطالما علمتهَ الرجال![1]

وقرّت عين أمير المؤمنين وعينا الحسن والحسين، وعين العباس التي تراقب وتسجل، قرّت أعينهم جميعاً بمحمد وما صنع.

[ثم إن بعض الأنصار ازدادوا زهواً فأقبلوا إلى أمير المؤمنين يقولون:

ـ يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين، ما قدمنا على محمد أحداً من العرب!

فكان جواب أمير المؤمنين لهم، وهو يستدرجهم إلى المستقبل المكنون، الذي ترتسم على صفحاته شجون وشجون:

ـ أين النجم من الشمس والقمر، أما إنه قد أغنى وأبلى وله فضله![2]

أجل، لقد أشرقت الأنوار العلوية في سماء داجية الظلمات، كان بنو علي هم شموسها وأقمارها ونجومها، وكان المؤمنون يستضيئون بهم في تلك الظلمات الحالكة وبأنوارهم يهتدون.

[. . . ولما رأى الإمام كثرة القتلى وتقطع الأوصال، واستماتة أصحاب الجمل على الخطام المشؤوم، وهم دونه كالجبال، كلما خف قوم جاء أضعافهم، نادى برفيع صوته:

ـ ويلكم، اعقروا الجمل، فإنه شيطان، . . . اعقروه وإلا فنيت العرب!

ثم إنه خاض الغمار بنفسه، ثم رجع.

ولعل العباس الذي كان يراقب أباه بقلبه وروحه، لا بعينيه فحسب، رآه وقد انحنى سيفه أثناء القتال، فأقامه بركبته، ثم غاص في العمق من جديد!

. . . كان الإمام يمضي بالسيف قدماً والرجال تفر بين يديه وتنحازعنه يمنة ويسرة، وهو يشد عليهم فينكشفون، فاعصوصب به أصحابه وقد احتبست أنفاسهم قلقاً وخوفاً عليه، وهتفوا يناشدونه الله في نفسه وفي الإسلام قائلين:

ـ أمسك يا أمير المؤمنين، أمسك ونحن نكفيك، إنك إن تُصَب يذهب الدين!

ولكن الأمير لم يلقِ بالاً إليهم بل أجابهم بقوله:

ـ ما أريد بما ترَون إلا الله والدار الآخرة.

ثم إنه التفت إلى ولده محمداً قائلاً:

ـ هكذا تصنع يا ابن الحنفية!

فقال الناس:

ـ من يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين؟!

. . ولم يزل أصحاب الإمام يكرّون حتى استطاعوا عقر الجمل، فعقروه، فوقع لجنبه وعجّ عجيجاً لم يُسمع بمثله، فلما سقط كانت الهزيمة، وفرت الرجال عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب.

. . . وانتهت المعركة، وأمر أمير المؤمنين محمد بن أبي بكر، وهو أخو عائشة، وعمار بن ياسر فقطعا الأنساع من الهودج واحتملاه، ثم أمر بالجمل أن يحرق ثم يذرى في الريح، وقال:

ـ لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل!، ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

. . . تنفس المؤمنون الصعداء، ووقف أمير المؤمنين يعاين ساحة المعركة، فيتنهد ويرفع نجواه إلى عنان السماء، . . . لقد قاتل الناكثين وانتصر عليهم، كذا وعده رسول الله، وإنه لمقاتل بعدهم القاسطين والمارقين، وإن قلبه العظيم ليتفطر أسفاً لحال المسلمين، الذين يتلاعب بهم وبمصيرهم حفنة من المنافقين، وها هو ينشد بحزن وأنين، مناجياً رب العالمين، ولعل العباس كان يستمع لنجواه، وتدمع عيناه:

إليك أشكو عجري وبجري ومعشراً أغشوا عليّ بصري
قتلت منهم مضري بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري]

. . . لعل أشد ما كان يؤلم نفس الأمير ويؤسي فؤاده، أنه، وبعدما أرسى دعائم الدين وأقام عمده، وقدّم والمؤمنين ما قدّموا من نفوس

وأرواح، رخصت في سبيل إحياء الدين ونشر راية الإسلام، وبعدما سكت عن حقه المغصوب قهراً، وازدرد ظلامته وظلامة الزهراء دهراً، ولم يألُ في سبيل المحافظة على بيضة الدين صبراً، وإذا به يواجَه بهذا السيل الجرار من الكارهين له وللحق الذي يمثله، الحاقدين عليه وعلى ما ينهجه من تقوى وإيمان، وإذا بهؤلاء المغررين الأغرار، بل المنافقين الذين لم يعرفوا للدين ذمار، قد أحدثوا في الدين ما أحدثوا، حتى أعشَوا أبصار المؤمنين أو كادوا، فكان لا بد مما ليس منه بد، . . . وكان القتال، . . . ولكن، في القلب حرقة وفي العين دمعة، . . . على أنها درب ذات الشوكة، تخِز وتُدمي، وتبقى الدماء الجارية في سبيل الله هي العزاء، وإذ يرضى الله، لا يبالي الإمام إن رضي أو غضب سواه!

الفصل الثالث عشر:

حرب القاسطين

الزمان: سنة ست وثلاثين للهجرة.

المكان: مدينة الكوفة.

تنفتح أبواب الكوفة، وتشرئب أعناق أهلها متطلعين إلى الآتي...

وتقبل سحائب الغيث وتهطل برحمة واسعة، وتمتد نخلات باسقات على مدخل المدينة، تمتد نحو السماء، ربما أكثر من ذي قبل، ... هي أذرع تتوّجها أيدٍ رفعها الطيّبون شكراً للمولى على هذه النعمة الجليلة، أن يحلّ أمير المؤمنين بين ظهرانيهم.

ولعل النخلات الباسقات لما لاحت لركب الأمير، وبين أصوات التهليل والتكبير احتفاء بقدومه وبالنصر الكبير، لعل نظر الأمير كان يلاحق نخلاته بالمدينة، ويرفّ قلبه إذ يتذكرها، فهناك، بين ضلوع الينابيع التي استولدتها يداه الرحيمتان، كانت قلوب الزرع تنبض مشتاقة إليه، وكان النبات يستصرخ صدى صوته الرنّان بين الربوع، صدى أذانه وصلاته بين البرايا والجموع، ولكن النبات هاهنا كان صوته مدوّياً أكثر، ولذا فقد كان عليه أن يجيب النداء، إلى حيث أمره الله وشاء.

... [ودخل الإمام الكوفة، فاستقبله كبراؤها، وهنّأوه بالنصر المبين، ... ثم إنه نهج صوب المسجد الأعظم، فدخله وصلى ركعتين، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ وقال:

ـ أما بعد يا أهل الكوفة، فإن لكم في الإسلام فضلاً، ما لم تبدّلوا وتغيّروا دعوتكم إلى الحق، . . . . إلا أن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، . . . اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، الحمد لله الذي نصر وليه وخذل عدوه، وأعزّ أنصار الحق وأذلّ الناكث المبطل، عليكم بتقوى الله، وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم، . . .

ثم إن أشراف الكوفة وقرّاءها أقبلوا عليه يسألونه متوددين:

ـ يا أمير المؤمنين، أين تنزل؟ . . . أتنزل القصر؟!

كان أصحابه يحيطون به، وكانوا يعلمون رده، ولذا فهو لم يفاجئهم، وإن فاجأ الآخرين إذ قال بكل هدوء وتؤدة:

ـ قصر الخبال لا تنزلونيه!

ونزل على جعدة بن هبيرة المخزومي، ابن أخته أم هانئ، ولبث عنده أمداً.]

لقد رفض الأمير أن ينزل قصر الإمارة، ففي ذلك القصر نزل قبله أهل الدنيا، وعاثوا في الأرض فساداً، . . . كانت نظرته إليه، لا كنظرة أحدهم، . . . لم يرَ بنياناً، بل رأى خراباً، . . . ولم يرَ شموخ الجدران وفخامة الأركان، بل رأى ضآلة الإنسان الذي غرّته ضخامة المكان، حتى ظنّ أنه به يكبر، وبه يستعلي على البشر، فإذا هو صغيرٌ صغير، لا يكاد يُرى منه إلا عملُه، وفقيرٌ فقير، لا يغنيه حتى أملُه.

أنِف الإمام أن يأوي إلى قصر الفساد ذاك، وهو المصلح الأكبر، . . . أولم يكن بينه وبين ابن عمه عبد الله بن عباس ذاك الحديث، [يوم كان لا يزال في الربذة يجمع أنصاره للخروج لتأديب الناكثين بالبصرة؟ . . . لقد اجتمع يومها آخر الحاج ليسمعوا كلامه، فدخل ابن عباس إليه وهو في خبائه يخبره بخبرهم، فوجده يخصف نعله، فقال له:

ـ يا أمير المؤمنين، نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصلح!

فلم يجبه الأمير يومئذٍ بحرف حتى فرغ من نعله، فضمها إلى صاحبتها وقال لابن عباس:

ـ قوّمهما!

فأجابه:

ـ ليس لهما قيمة!

فقال:

ـ على ذاك!

فرد ابن عباس:

ـ كسر درهم!

فقال أمير المؤمنين يجيبه على مقالته الأولى:

ـ والله لهما أحب إلي من أمركم هذا، إلا ان أقيم حقاً أو أدفع باطلاً!]

. . . تلك كانت الإمارة للإمام، وما القصر إلا أدنى منها، لأنه ملجأ من

أراد الرياسة من أهل السياسة، والإمام ما أراد الرياسة ولا السياسة، بل أراد وجه الله، ومن يرد وجه الله فأولئك هم المفلحون!

***

. . . رفعت أم البنين وجهها إلى السماء، . . .

كانت ليلة قمراء، ذكرتها بليلة الرؤيا، ليلة خطبها أمير المؤمنين، فأنبأتها الرؤيا بقدومه قبل قدومه، وكانت لها البشارة بقمر ونجوم تهبط في حجرها فتكون لها ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيدا، وكانت فيها أيضاً رعشة كتلك الرعشة، واضطراب ووجوم، . . . واستردت نظرتها عابقة بالدموع وهي تستشعر ألم الشوق ولوعة الفراق!

رباه، . . . إن حبها لهؤلاء الأحبة ليزداد يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، . . . وإن شوقها إلى أمير المؤمنين والحسنين، وهي معهم، ليزيد على شوقها لبكرها العباس، ذاك الحبيب الذي أودعت كل آمالها وأحلامها في ثنايا قلبه الصغير، الكبير بما امتلأ من عشق آل محمد، وفي أعماق عينيه الواسعتين، اللتين غاصت فيهما كل آفاق الحنين لآل محمد، . . .

حتى حبها للعباس، فهو لا يتعاظم ويزداد في فؤادها، إلا متى تمثّلته يغدو ويروح بين يدي سيديه الحسنين، يخدمهما ويرعى شأنيهما، ويذب عنهما كل سوء ما استطاع.

إنها تشتاق إليهم وهي بينهم، فكيف بها الآن وقد غابوا عنها كل هذه الشهور، . . . إن حياتها لفارغة، فهي لا تمتلئ إلا بأشخاصهم، ولولا وجودها إلى جانب زينب وأم كلثوم، إذاً لقضت عليها لوعة الفراق!

ولعل خاطرة تجول في فكرها، فتحملها إلى صورة تقلق بالها وتثير بلبالها، . . . لقد سمعت من بعض نساء المدينة قصة ذلك [النسر الذي حلّق في الفضاء قبل يوم ومرّ بماء حول المدينة، فسقط منه كف فيه خاتم، نقشه عبد الرحمان بن عتاب]!

[ولقد تناقل أهل المدينة قصصاً أخرى مشابهة، لنسور حملت أذرعاً وأكفاً وأقداماً]. . . ، وعلموا أن وقعة ما قد جرت في تلك البيداء الممتدة هاهناك، . . . وقعة دامية أهون ما يُقال فيها تطاير الأطراف، وقد وجلت قلوب أهل المدينة، وراحوا ينتظرون بفارغ الصبر الأيام القادمة التي تحمل لهم الخبر اليقين.

أما أم البنين، وزينب وأم كلثوم، وسائر الهاشميات اللواتي سمعن حديث أمير المؤمنين قبل الرحيل وآمنّ به، فقد علمن أن ذلك هو ثمن النصر الذي بشّرهن به، وما أهوله من ثمن، ولكن، على قدر عظم المطلب يكون المغرم.

على أن القلق ما فتئ يخيّم على الوجوه، فيشارك الناس مأكلهم ومشربهم، إن كان لهم إلى المأكل والمشرب سبيل، حتى أطلّ الركب العائد من ذاك السبيل(*).

(*) لم أجد في الكتب المعتبرة التي استندتُ إليها ما يشير إلى كيفية مجيء عيال أمير المؤمنين من المدينة إلى الكوفة لما أرسل في طلبهم، ولا من أرسل ليحضرهم، ولكن واقع الحال والمنطق الإمامي يشير إلى أنه لا بد أن يكون قد أرسل ولديه الحسنين لإحضارهم، فهو ما كان ليأمن قدومهم في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر إثر تلك الحرب الضروس دون هكذا حماة. وعلى هذا استندتُ هنا. والله أعلم.

لقد عاد المنتصرون بالنصر، ورفرفت بيارق القلوب على أجنحة الغروب، وبزغ في حلكة الظلام بدران ساطعا الضياء، . . . ولكن قلب أم البنين، الخافق فرحا لرؤية الحسنين، والعباس ينهج أثرهما كالخادم الأمين، استفقد خفقته العظمى برؤية أمير المؤمنين.

. . . هل نظرت حولها؟ . . . وهل كانت زينب وأم كلثوم تنظران كإياها، وتطرحان بنظرتهما المتطايرة سؤالاً عصياً كإياها؟ . . .

ربما، ولعل البسمة التي علت وجه الحسنين، والطمأنينةالتي كست ملامحهما، كانت تقرّب الفكرة، . . . أن أمير المؤمنين بخير، وأن غيابه وعدم عودته لا يعنيان إلا الخير، وإن كان قد زاد من أمد الغياب حتى حين!

وكأني بأم البنين تسأل ولدها سؤالها الحبيس، بعدما ذرفت كل حبيس دمعها فوق أثوابه، وأطلقت كل مكنون آهاتها وزفراتها في فضاء قبلاتها التي غمرته بها حالما أطلّ، . . . ولما استمهلها ليسلّم على أختيه، وليلثم يد زينب مسترضياً لها عن طول غيابه، . . . لم تستطع أن لا تهتف بلهفة:

ـ بني عباس، هل فعلت ما وعدتني به؟!

وكأني بالعباس يصمت هنيهة، ثم يغمغم بصوت حزين، وهو يخفض رأسه:

ـ أماه، إن والدي أمير المؤمنين منعني من القتال، فلم يكن بمقدوري مخالفته، لقد تحرّقت للطعان ومنازلة الأقران، واختنقت بعبرتي غير مرة، وأنا أكبح جماح نفسي التواقة للذود عن سيدي الحسين، ولكن إطاعة أمر والدي كانت تقف بيني وبين ما رمت من جهاد!

. . . ولعل نبرته اشتدت وهو يتابع سرده لبعض ما مر في تلك الحرب

من عبر، ويصف لها ما مر على المؤمنين من خطر، ودمعت عينه، وهو يتذكر ذلك الفتى، مسلم بن عبد الله، الذي قُطعت يمينه وشماله، ومزقته أسياف أهل البصرة لما دعاهم إلى كتاب الله!

لعل العباس راح يصف، وتقاطعه الدمعة واللوعة معاً، شدة لهفة مسلم على الشهادة، برغم كل ما لاقاه، حتى نالها وزيادة!

. . . وكأني بالحسين تدخل عند تلك النقطة، مطيباً خاطره، مؤكداً له أن له مكرمة تفوق هذه، بل مكارم!

ولعل أم البنين ردت على الحسين برجاء:

ـ سيدي أبا عبد الله، أتضمن له ذلك؟!

ولعل الحسين أجابها بالإيجاب، فتنهدت مرتاحة، ولكن متحسرة تقول بغصة، وهي تعود فتلتفت إلى العباس:

ـ لله در ذلك الفتى يا ولدي! . . . لو كان لي ولداً لأنشأت في موقفه ذاك شعرا!

ولعل العباس تبسم من قولها، ورد يقول:

ـ إن أمه لم تقصّر يا أماه، فهي [قد سُمعت تقول بعد استشهاده:

يا رب إن مسلماً أتاهم بمصحفٍ أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه ظباهم وأمهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغي لا تنهاهم]

لعل أم البنين بكت، وبكت بنات الزهراء إذ راح العباس يصف لهن ما رأى وعاين، من مقتل مسلم إلى مصارع غيره من خيرة المؤمنين، ثم إنهن مسحن الدموع، وقمن يجمعن الأذيال استجابة لأمر أمير المؤمنين، ويتهيأن للرحيل.

لقد كان ذلك النصر مجبولاً بالحسرة، وبالبسمة تخالطها العبرة، ولكن كان لا بد للكي من أن يداوي ما عجز عن شفائه الدواء.

ورثى أهل المدينة شهداءهم، كما ارتجزوا فرحاً بالنصر، فلم يُرَ يوم اختلط فيه السرور بالأسى والفرح بالترح كذلك اليوم، . . . ولكن يبقى التسليم لأمر الله هو الأساس، وعليه يكون للحزن والفرح القياس!

***

لم تتأخر الهاشميات في التهيؤ للمسير، فالشوق يتعاظم، ويدفعهن إلى الأمام، وإن كان الحنين إلى المدينة لا يوصف بالكلام، ففي المدينة مرقد جدهن الرسول، وأمهن البتول، وعمهن حمزة أسد الله وأسد رسوله، . . . في المدينة الوطن، والطيور تنوح لارتحالهن على كل فنن، ولكن لا بد من تنفيذ أمر الإمام، فهو الذي يرى بعين الله، ويأمرهن وما عليهن إلا السمع والطاعة والالتزام.

وتأتي أم سلمة، أم المؤمنين، لتودع زينباً وأم كلثوم وأم البنين، وهي ما عرفنها، قد [حملت ميراث الرسول وودائعه، فكانت خير مستودع له، . . . هي التي كانت لفاطمة الزهراء أماً وصدراً حنوناً يسند رأسها عند الملمات، وهي بشهادة سائر أمهات المؤمنين، حتى عائشة نفسها، كبراهن

وعظماهن، خلا خديجة، وكان الرسول يحب الاستقرار في بيتها ويفضّله على سائر بيوت نسائه]، ولكن عدالته كانت تقتضي منه المساواة بينهن، فكان لا بد له من مغادرة ذلك المأوى الأمين الحنون حتى حين.

. . . أقبلت أم سلمة تودّع ودائع الر سالة، وتحمّلهن السلام إلى أمير المؤمنين، وهي دامعة العين والهة الفؤاد، أوليس [قد وقفت بالأمس قبل خروجه من المدينة، تشيّعه بقولها:

ـ يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله وأنك لا تقبله مني، لخرجت معك، وهذا ابني عمر، وهو والله أعز عليّ من نفسي، يخرج معك، ويشهد مشاهدك!

لقد خرج عمر بن أبي سلمة معه، وكان على ميمنة جيشه في حرب الناكثين، فجاهد بين يديه وأبلى بلاءً حسناً، وفاز معه بإحدى الحسنيين، النصر لا الشهادة.]

وها هي أم سلمة تحمّل أم البنين سلامها لأمير المؤمنين، وتستحي أن تعرّج بالسلام على ولدها، . . . ومن ولدها؟! . . . أوليس خادماً لعليّ؟! . . . أوليس فداءً لعليّ وحق عليّ، وأبناء فاطمة وعليّ؟! . . .

ولعل أم البنين بكت لبكاء أم سلمة عند الوداع، فقد كانت أم سلمة أماً لها أيضاً، كما كانت لسواها من نساء الرسالة، بل من نساء المؤمنين أجمعين، وكان فراقها لها صعباً، ولكن كتاب الله أمرها أن تقرّ في بيتها، فلم يكن لها سبيل إلى الخروج معهن، فاكتفت بأن حمّلتهن من دموعها وأنينها الشوق والسلام إلى أمير المؤمنين، وكانت لهم خلفاً في المدينة،

وعيناً تبكي مشاهد أحبتهم، وقلباً يخفق على أعتاب مودتهم، وينبض بالحنين لرؤيتهم، حنيناً أشبه بحنين النبي، الذي كانت له أم سلمة بحق، زوجة مطيعة بارة، تودّ من يودّه ويودّ أهل بيته، وتبغض من يبغضه ويبغضهم، كانت للمؤمنين أماً حقاً كما كان هو لهم أباً عن جدارة.

. . . وتهلّلت الكوفة بقدوم ركب الإمام من جديد، وتجدّدت فرحة اللقاء، . . .

ها هي زينب، التي تركت في المدينة ضياعها وأموالها، قد أقبلت إلى الكوفة قاصدة والدها، مرافقة أخويها، وهي التي اشترطت في عقد زواجها، على زوجها وابن عمها عبد الله بن جعفر، أن لا يمنعها من الخروج مع أخيها الحسين متى خرج إلى أي مكان، وها هي اليوم ترافقه حيث يحلّ، . . . ليس هي فحسب، بل إن زوجها أيضاً لا يتركه، وهو لها مواكب، وله موالٍ ومؤاخٍ وصديق.

ها هما معاً، يتركان الدنيا وأهلها، ويلحقان بالآخرة وأهلها، ولهما حيث يحلان رزقٌ واسعٌ وخيرٌ جزيل، مصداقاً لقول الرسول [حين دعا لعبد الله بقوله: «أللهم بارك له في صفقته»، كما دعا لأولاد جعفر بعد استشهاده بقوله: «أللهم إن جعفراً قد قدم إليك أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته»].

وها هي أم كلثوم، قد أتت أيضاً توافي زوجها مسلم بن عقيل، وتعيش وإياه مع من رزقهما الله من ذرية طيبة، في حمى والدها الظليل.

وها هي أم البنين، تصل إلى واحة أمير المؤمنين، وهي إذ تلاقيه،

بالدمع والبسمات توافيه، وبفيض القلب تستقبله، وإن كانت هي القادمة وهو المقيم... بل لعلها تستقبله بخير تحية، إنه وليدها الثالث، الذي توشك أن تضعه، ويبدو أن هذا النجم المقبل قد أبى إلا أن يكون له شرف البزوغ في سماء الكوفة، بين يدي والده الحبيب، الذي رسم لتلك الأمة درب الهداية، وكان من الطبيعي أن يرسم لبنيه أيضاً درب الولاية، بعدما زرعهم في رحم المحبة والرعاية، فخرجوا إلى الدنيا تتلقاهم أنوار آل محمد.

أجل، فلا بد أنه قد كان لأم البنين، من طول المسير ووعثاء السفر، وشدة التوق حتى نهاية الأثر، ما حرّك في كيانها، مع ارتواء الغليل برؤية الحبيب الذي ليس له في الكون مثيل، ... وإذا آلام الوضع تفاجئها، وإذا قصة الولادة تتكرر وتُستعاد، مع فوارق عدة، منها المكان، فها هنا الكوفة لا المدينة، [والمنزل رحبة الكوفة، التي نزلها الإمام بعد وصول رحله، بعد مكوثه أمداً في بيت ابن أخته، حتى إذا وصلوا، اتخذ من الرحبة مسكناً، فضّله على القصر المنيف.]

ومنها الزمان، فالسنة تقف على بعد سنتين من سابقتها، ... ومنها تواتر الحدثان، فاليوم قد بويع الإمام بإمارة المؤمنين، للمرة الثانية بعد بيعة الغدير، فأضحى باعتراف الأولين والآخرين، خليفة رسول رب العالمين، ... وها هي الخلافة التي حُرم منها أمداً تأتيه طائعة، ولكنها محفوفة بالأنظار الطامعة، والشائعات الذائعة، والأيدي الرافعة، ... منها ما يهدد ويتوعد، ومنها ما ينصر، وبه العهد يتجدد.

إن الأمر كما قال أمير المؤمنين يوم بويع للخلافة، «له وجوه وألوان، لا

تقوم له القلوب ولا تثبت العقول»، ولذا فإن قلوباً كثيرة لم تقم، وعقولاً أكثر لم تثبت وضاع عنها الحلم، وغشّاها الجهل، عن قصد أو عن غير قصد، وولدت الفتنة من رحم الفساد والطمع، وإنما طمع الآخرون بما طمع به الأولون، ولو استقامت لأولي الأمر في البداية، وكانت لهم بعد النبوة الولاية، لما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه من سوء عاقبة وغاية.

لقد أسس للفتنة من بدأ مخالفة النص بادئ الأمر، واستقلّ بالرأي مقابل رأي صاحب الأمر، وعليه يقع أول الوزر وآخر الوزر منذ البداية وحتى آخر العمر.

ومنها، أن الوليد الجديد، كان هو الثالث لأم البنين، وعلى ذلك فقد أتى إلى الدنيا ليجد إلى جانب زينب وأم كلثوم والحسن والحسين، سادته ومواليه، خادمهم الأمين، أخاً شقيقاً رؤوفاً رقيقاً، يكبره بعشر سنين، وأخاً شقيقاً ثانياً، هو طفل نشِط النماء، ذا محياً يتهلّل بالضياء، شأنه شأن إخوته من أشقاء وغير أشقاء، فأولئك أبناء أمير المؤمنين من الزهراء، وهذين ابني أمير المؤمنين من جاريتها، التي عُجنت طينتها بالحب لها والوفاء.

وتتململ أحشاء أم البنين، لا لتأثر وانفعال وشوق وحنين هذه المرة، بل لحركة مفاجئة، أضحت تعرفها، وتعرف أنها أول بادرة من بوادرالنهاية والبداية، نهاية احتضان كنزها الثالث، وبداية بزوغ ذلك النجم الجديد في الأفق العلوي، هناك، . . . عند تلك القبة السماوية، حيث تشرق شمس الإمام، يحيط بها بدران ساطعان، وقمر بديع التكوين والضياء، ونجم تلاه، ونجم آخر يتأهب ليطل على عالم الزمان والمكان، زمان ومكان آل بيت محمد.

. . . ويصرخ الطفل صرخة الولادة، يستقبل بها الدنيا، شاهداً على أن الحياة تبدأ بالألم، وتنتهي بالألم، تبدأ بصرخة وتنتهي بحشرجة، تبدأ بآهة وتنتهي بزفرة، وما بين الآهة والزفرة قصة وعبرة.

وكما تلقّت زينب أخويها، العباس وعبد الله، ولدي أم البنين، وكانت لهما أماً ثانية، كان لا بد لها من أن تتلقى أخاها الثالث، أن ترفعه بنفس الكفين اللتين رفعت بهما أخويه، وأن تقبل به إلى والدها بنفس النظرة الراضية، وأن تقدمه إليه، ليقيم عليه مراسم الولادة.

وكان لا بد من أن يكون العباس شاهداً من جديد على ذلك الأمر العتيد، لا بد أنه وقف إلى جانب والده، يراقب ويستقبل معه تلك الريحانة المكنونة، التي تفتحت عنها جنة المرتضى.

ولكن العباس اليوم لم يعد غلاماً حدثاً، بل غلاماً يقف على أعتاب الشباب، قد أسرع النماء في نباته حتى كاد يزهر، وأسرعت البراعم في زهره حتى كاد يثمر، فإذا هو غلام في السن شاب في الهيئة والمنظر والفعل.

ولعل أمير المؤمنين بعدما أذّن وأقام في أذني طفله، نظر حوله ليجد العباس ينظر إليه وينتظره، وبقربه شقيقه الأصغرعبد الله، . . .

ترى، إلام كان العباس ينظر وماذا كان ينتظر؟!

هل كان ينظر إلى والده ويتأمل في إقباله على أخيه، معنى أن يؤذن الوصي في أذن ولده، ثم يقيم، وإذا بحي على خير العمل، تنطلق من قلب خير العمل، وإذا الشهادة بولاية الأمير تنبعث من أعماق أعماق

الأمير، ليلقنها لهذا الوليد الجديد، فينشرح لسماع صوت والده صدره، وتتطلّق لمرأى طلّته البهية طلّته، فيزداد على بهائه بهاءً، وعلى جماله حسناً وجمالاً.

لا بد أن الأمر كان كذلك، ولعل العباس كان ينتظر دوره ليأتي أخاه، ليستلمه من أخته الكبرى، أمه الأخرى، زينب، فيحمله بين يديه، ويُقبل بسطوع بدره عليه، فيبثّه بعض ذاك السطوع، ويرسم له بكلمات هادئة ومناجاة وادعة، بداية الدرب.

ولعل أم البنين، مثلما نظرت في وجه العباس عند ولادة عبد الله، وخاطبته إذذاك بذلك النداء وتلك المناجاة، لعلها نظرت من جديد إلى العباس، ثم انحدرت ببصرها إلى عبد الله، وهتفت، ربما بلا كلام:

ـ وماذا الآن يا عباس؟!... أولا تريد ناصراً آخر يعينك في نصرة الحسين؟!

ولعل العباس نظر إلى أمه بدوره، فاغرورقت عيناه رحمة بها، وضم أخاه الجديد إلى صدره.

ولعل عبد الله تحركت فيه عاطفة ما، فالتصق بشقيقه الأكبر، فالتفت إليه، وأقبل هو والطفل عليه، وراح يردد نظره بينهما، وكأنما يخاطبهما معاً خطاباً واحداً، ثم يبتسم، ويهمس لهما من القلب إلى القلب، بطمأنينة وهناء:

ـ أهلاً بكما في نصرة مولانا الحسين!

وكأني بأمير المؤمنين يرمق أولاده، ويفهم قصد العباس ويدرك مراده،

ويبادل ابنته زينب نظرة رضىً، وحزن لا يفترقان، . . . ويرد على سؤالٍ يُطرح عادة في هذا الموقف والمكان، أن ماذا يريد أن يسميه،

. . . [ويسميه عثمان، ويتابع بقوله:

ـ إنما سميته عثمان، ليكون سمياً لأخي عثمان بن مظعون!]

ولعل أم البنين تتبسم، رغم عنائها وتعب الولادة الذي لم تزل تعانيه، . . . إن أمير المؤمنين ليختار لأبنائه خير أسماء تدل على خير أعمال، فها هو العباس، سميّ العباس بن عبد المطلب، عمه وأحب أهله إلى قلبه، إسم لا يتسمى به إلا من كان عباساً في الحرب، ضرغاماً في الطعن والضرب، . . . وها هو عبد الله، سميّ والد رسول الله، يتوسم فيه الإمام العبودية الحقة لله عزوجل، . . . وها هو الآن عثمان، سميّ [عثمان ذي المكارم، الذي بلغ من حسن خُلُقه قبل الإسلام، أن حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية، وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، حتى إذا توفي في المدينة بعد الهجرة بسنتين، جاء رسول الله إلى بيته يرثيه ويقول:

ـ رحمك الله أبا سائب!

ثم انحنى عليه فقبّله ميتاً، وصلى عليه ودفنه في البقيع، إلى جانب أحبته، كفاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين، ثم بلغ من شدة حب النبي وحزنه عليه، أن وضع حجراً على قبره وجعل يزوره، وكان إذا مات من أخبائه أحد ذكره، فقال لابراهيم ولده بعد موته:

ـ إلحق يا بني بفرطنا عثمان بن مظعون.

وقال لربيبته زينب لما توفيت:

- إلحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون.]

... هو ذاك عثمان، وهو ذا عثمان، وعسى أن يكون لعثمان في سلفه خير قدوة، وفي من ولدته وترضعه وتربيه، ومن تناغيه وتكاغيه، ومن يزرع بذرة الهدى ويتعهدها فيه، خير ما يكفيه، ... ليكون كما أراد أمير المؤمنين، وكما أرادت أم البنين، وكما أراد العباس، ... ناصراً جديداً للحسين!

***

هي ذي أيام الصيام تتصرم، ترتقي أهلّتها لتكتمل بدوراً في سماء ترصعها نجوم وشهب، فتحول دجى لياليها إلى نور باهر، يعشي الأبصار، فإذا الليل يتألق فوق ما يتألق النهار.

هي أيام الصيام من رجب شهر أمير المؤمنين، إلى شعبان، شهر سيد المرسلين، إلى رمضان تاج الشهور وحديقة النور، ومصدر البركات ومثوى التحيات، من رب الأرضين والسماوات، إلى البشر الصائمين، القانتين الزاهدين، في المدائن والفلوات.

ولكن، حتى الصيام الذي لم يزل يطهر النفس من أدرانها، ويحررها من قيدها وسجّانها، هو لم يكن للجميع صياماً، ... وحتى القيام الذي تخضع به الجوارح لباريها، وتنخفض الهامات وتتمرغ الأنوف في تذلل السجدات، حتى الصيام والقيام لم يعودا دلالة على سلامة الدين والإيمان، فكم من قائم ليس له من قيامه إلا التعب والعناء، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا العطش والجوع!

... لقد استمرت الرزية، وكانت المعاناة تلوح في وجوه المؤمنين، معاناة تعودوها، بدأت باغتصاب الحق وظلم ذوي القربى، ثم إذا هي في كل عهد تأخذ قالباً جديداً، وها هي اليوم تبلغ مداها، حيث يُتهم صاحب الحق نفسه باغتصاب الحق!

كانت أم البنين تراقب ما يجري بحسرة ولوعة، ترى محاولات أمير المؤمنين الجاهدة لحقن دماء المسلمين، ترى مراسلته لذاك الطاغية اللعين، معاوية بن حرب، وهو يدعوه إلى التزام الطاعة تارة، ولزوم الجماعة تارة أخرى، ... ولكن الثعلب الذي سال من شدقيه لعاب الطمع، قد رتع في قصر ورياض وذاق حلاوة المرتع، فما عاد بمقدوره أن يتخلى عن ذلك المهجع، ... كما وجد من يطيعه في بغيه، ويعينه في دناءة سعيه، فسقط عنه عذار الحياء، وراح يواجه أمير البلغاء والفصحاء بعيّه، ويتهمه بما هو أصلاً من فعله!

كان ما يجري هو الدليل الأعظم على حقارة هذه الدنيا، التي قال فيها أمير المؤمنين: «يا دنيا غري غيري»، وقال عنها: «إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه»، فكان فيها ومعاوية، لا كفرسي رهان، بل كبُراقٍ يعرج بمن يسوقهم إلى الجنة، وكلبة تجرّ لاحقيها إلى دمنة خضراء، تلوح منها ملامح الربيع، ولكنها إذا خاضها الخائض تفوح منها روائح العفن الفظيع!

وكذا قال أمير المؤمنين: «وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية!»

[. . . لقد ذهبت مراسلات امير المؤمنين لذاك الطامع سدى، وكانت حجة عليه لا أكثر، ولذا فقد باشر الأمير يعدّ العدة لتأديبه، ولإخضاعه للحق ولو بقوة السيف.

لقد كان معاوية عازماً على الحرب منذ البداية، فهو لم يرضخ لأمر إمام المسلمين، ولكنه كان يماطل لكسب الوقت، ولم يكن ذلك خافياً على أمير المؤمنين، ولكن، كان لزاماً أن يستنفد كل حجة ضده، فلما فعل، صار لزاماً أن يسعى لحربه جهده، فدعا لتعبئة الجيوش، وجمع قادة عسكره، وعقد لكلٍّ لواءه، ثم سيّرهم في خطة منظمة، لحرب القاسطين.

وفي النخيلة، تجمعت عساكر الكوفة، والتحقت بها سائر العساكر، وكان آخرها عسكر البصرة، بقيادة ابن عباس.]

وإذا النخلات الباسقات التي استقبلت بالأمس بأذرعها المتعانقة إمام الأمة، إذا بها اليوم تودعه بأوراقها المتأرجحة كالأكف المشرعة تلوّح له، وترتفع نحو السماء بالدعاء.

لقد شيّعت أم البنين بعلها، إمام المتقين، وولديه الحسن والحسين، وولدها أبا الفضل العباس، الذي انضمّ إلى زمرة المجاهدين، عساه يحقق حلمه، ويخوض غمار الجهاد بين يدي والده أمير المؤمنين، كما خاضها والده بين يدي سيد المرسلين، عساه يكون ذائداً عن الدين، وناصراً بحق للحسين، . . . لقد كان تشييعها لأحبابها اليوم، مشابهاً لتشييعها لهم في المرة الماضية، ومختلفاً أيضاً.

كان مشابهاً له في أمور، منها الشوق واللهفة والقلق والتسليم، وتلك

أمور لا تتخلى عنها أم البنين، ومنها حضور زينب وأم كلثوم، ترعاهما وترعيانها، تمسح دموعهما وتمسحان دموعها، تواسيهما وتواسيانها، . . .

وكان مختلفاً عنه في أمور، منها أنها الحرب الثانية التي يخوضها المسلمون ضد المسلمين، . . . فكانت الحرقة أكبر، واللوعة أعظم، . . . ومنها بل أهمها، أن العباس قد خرج اليوم فارساً، قد اعتلى صهوة جواده، ومضى في ركب والده وأخويه، غلاماً في إهاب شاب، وفتىً ملء أعطافه الرجولة، قد أعطاه الباري فوق وسامته وشهامته، وسمو أخلاقه وكرامته، بسطة في العلم والجسم والقوام، وجمالاً فائقاً في التكوين وقوة ومتانة في البنيان، فكان بسنيّه الثلاث عشرة، يوازي في هيئته وطلته، وقامته وقيافته، ابن عشرين، . . . وكان الإمام قد تعهده بالتمرين، ورعاه بالتدريب على القتال ومواجهة الأقران، مثلما رعاه بالتدريب على مواجهة الحياة وتذليل الصعاب، لقد تتلمذ في الحرب على أسد الحروب، كما تتلمذ في الحكمة على سيد الحكماء، وتتلمذ في الإيمان والتقوى على إمام المتقين، . . . وكان أرضاً خصبة مترعة بالحنين، ولذا فقد أثمرت وأينعت، وفاضت بالجنى قبل الأوان.

. . . لقد شيّعت أم البنين أحبتها، بل شيعت فؤادها ومهجتها، . . . أما فؤادها فقد رحل في ركابهم، تنطق خفقاته بذاك النداء الذي تطلقه تلك الحلقة المعلقة على باب الجنة، التي تخاطب من يقرع الباب بذلك النغم الرنان: «علي، علي»، وأما مهجتها فقد تجسدت طيراً يرفرف فوق رؤوسهم يتنشق عطر أنفاسهم، ويحولها روحاً، . . . حياة لا تستمر إلا باستمرارهم، ولا تعرف الوجود إلا منبعثاً من ألق وجودهم.

ومضَوا، حملوا معهم ذاك الفؤاد الخفاق وتلك المهجة الحرى، . . . وعادت أم البنين إلى الدار الخالية، كما عادت في المرة الماضية، تتسلى بخدمة بنتي الزهراء عن غياب ابنيها الحسنين، وبرعاية عبدالله ومناغاة عثمان عن غياب شقيقهما العباس، أما غياب أمير المؤمنين فلم يكن ليسليها عنه أحد، أللهم إلا طيف الزهراء يلوح لها في كل حين، تتمثلها أمامها عند كل زاوية وفوق كل باب، فتناجيها وتبثها همها، فتجد في نجواها وبثها ما يسليها.

وكما في المرة الماضية، كانت عين أم البنين هناك، ترافق أحبتها، ترصد وقع خطاهم وتعد أنفاسهم وتحلق فوق رؤوسهم، تحرسهم وتحيطهم بالحب والحنان، . . . كانت عين أم البنين تتألق وتستشرف المكان والزمان، عبر نظرة العباس الذي كان وكيلها في تلك المهمة، مهمة الحفاظ على سبطي رسول الله وديعتها لديه، لقد أوصته بهما كما في كل مرة، وأعادت الوصية كرة بعد كرة، حتى صارت تلك الوصية روحه التي يحيا بها، وأنفاسه التي يعدها، وأحلامه التي يراها في اليقظة قبل المنام، . . .

[وقبل الخروج من النخيلة، رأى العباس أباه ينظر ملياً إلى قبر عظيم قد اتخذه اليهود مزاراً، وراحوا يدفنون موتاهم حوله، ويسأل:

ـ ما يقول الناس في هذا القبر؟

فيجيبه الحسن عليه السلام ينقل إليه جوابهم:

ـ يقولون أنه قبر هود نبي الله، لما عصاه قومه جاء فمات هنا.

فيرد الإمام موجهاً حديثه إلى جنده المجتمعين:

ـ كذبوا، لأنا أعلم به منهم! . . . هذا قبر يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بكر يعقوب!

نظر الناس إلى بعضهم متعجبين، وربما متسائلين، . . . وهل يعقل أن يكون هذا قبر كبير إخوة يوسف، الذي ألّب عليه وكاد له إلى حين، حتى كان من أمرهم وأمره ما كان، فرمَوه في الجب وأتَوا على قميصه بدم كذب، وادّعَوا أن الذئب قد أكله، إلى آخر تلك المكيدة التي فضحت دخيلة النفوس المريضة، والحقد الدفين الذي يأكل النفوس كما تأكل النار الحطب؟! . .

وهل يعقل أن يكون هذا القبر العظيم لذلك الحقير، وقد ادّعى اليهود أنه قبر نبي صدّيق، حتى دفنوا حوله موتاهم، وصاروا به يتبركون؟! . . . إذاً أين يكون قبر نبي الله هود؟! . . . وأتى جواب الإمام على سؤالهم، وقد قرأ في تعجبهم تمام مقالهم، وإذا به يسأل من جديد:

ـ هل هنا أحد من مهرة؟

فانبرى شيخ كبير، فسأله الإمام:

ـ أين منزلك؟

فرد الشيخ:

ـ على شاطئ البحر.

فعاد الإمام يسأل:

ـ أين هو من الجبل الأحمر؟

ـ قريب منه.

ـ وما يقول قومك فيه؟

نظر الشيخ إلى الإمام وهو يسأله عن مكان بدا له وكأنه قد رآه من قبل، وأجاب:

ـ يقولون هو قبر ساحر.

فرد الإمام مصوّباً حديثه إلى مسامع الجميع:

ـ كذبوا، ذاك قبر هود، وهذا قبر يهوذا بن يعقوب!]

كانت الحادثة رسالة فهمها من كان له من الفهم حظ ومن سعة الأفق نصيب، . . . كان الإمام يريد أن يذكر الناس بأساطير الأولين وخرافات السابقين، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، . . . أوليس هو القرآن الناطق؟ . . . لقد أراد أن ينشر لهم ماخفي عنهم علمه، وأراد أن يعطيهم العبرة، بأن ليس كل ما يُلقى إليهم من خبر صحيح، وإن انتشر وازدهر، بل إن عليهم التحقق والتأكد، فكم من قوم اجتمعوا على الباطل وكرموه، وتفرقوا عن الحق وهجروه، وألبسوا الباطل لبوس الحق حتى ضيّعوه، وهل أكثر من هذه الحادثة دليل، أن يُستبدل قبر نبي طاهر بقبر منافق ساحر؟!

لقد أراد الإمام أن يعلّم جنده، كيف يستقون العلم ومن أي منهل ينهلون، وأن ليس كل ما بدا حقاً فهو حق، إلا ما أفصح عنه العاقلون الناصحون.

أما العباس، فلعله غاص أيضاً في عمق آخر، إذ تمثل له إخوة يوسف، أولئك الفتية الذين ساقهم الحقد والحسد على ما فضل به الله أخاهم، فكادوا له حتى كادوا يقتلونه، لولا أن مكر الله بهم وهو خير الماكرين، . . . واعتملت في صدر العباس عوامل شتى، وأسئلة، . . . أن كيف يكون للإنسان أخ نبي، هو عليه ولي، فيكون له حاسداً وعليه حاقداً، بدل أن يفتخر به ويسمو بسموه ويرتقي برقيه، فيكون له عدواً كائداً لا صديقا خادماً، . . . إنه الشيطان حين يغوي الإنسان ويملك عليه إحساسه، ويجري في عروقه مجرى الدم، فينسيه حتى حق ذلك الدم، ويزين للمبطل أعماله، فيخرجه من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

. . . ويتنفس العباس الصعداء، وهو يجول ببصره حوله فيرى أخويه، بل سيديه الحسنين، إنهما أحب الخلق إليه، وإنه ليود أن يفديهما بنفسه التي بين جنبيه، ويرى مع هذا أنه مقصر بحقهما عليه، فالحمدلله الذي فتح عليه أبواب الهداية وأغلق عنه سبل الغواية، والحمد لله الذي وصل به إلى هذه الغاية التي دونها كل غاية، إن ربه كان به حفيا، إذ جعله عن الباطل قصيا، وبالحق راضياً مرضيا.

[. . . ومضى الإمام، مضى بجنده خارجاً من النخيلة، ميمّماً شطر بلاد الشام، تاركاً في الكوفة صاحب شرطته مالك بن حبيب في حشر الرجال.

وشهد العباس مالك بن حبيب يلحق بركب الإمام ملهوف الفؤاد، فيمسك بعنان دابة الأمير سائلاً بحرقة:

وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾؟! . . . إن هؤلاء كانوا وارثين فاصبحوا موروثين، . . . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة، فسُلبوا دنياهم بالمعصية.

ثم توجه إلى أصحابه والمحيطين به منبهاً بقوله:

- إياكم وكفر النعم، لا تحل بكم النقم.]

كانت العبر تتوالى لمن اعتبر، وكانت صحبة الأمير كافية لتزيد بصيرة من استنار بهديه واستبصر.

***

[. . . وفي مرج صفين التقى الجمعان.

وسبق معاوية إلى سهول الأرض وسعة المنزل وشريعة الماء، وكما كانت عادة أسلافه المشركين من أهل بدر، فقد منع أصحاب الإمام من الماء.]

. . . لم يكن الأمر مفاجئاً للإمام، ولا للحسنين ولا حتى للعباس، فقد علم سابقاً ما تنطوي عليه تلك النفوس اللئيمة، التي لم تتورع يوماً عن منع السقاية عن الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه يوم بدر، حتى استسقى لهم الإمام، ولا عن منع الماء في أي موضع ترى أن مثل ذلك المنع يضعف قوة الخصم عن المواجهة.

. . . وفات معاوية وصحبه، أنهم بفعلهم ذاك قد قدحوا زناد الحرب، وأوقدوا ناراً لم تكن خامدة، ولكنهم نفثوا عنها الرماد وأحيَوها، لتصلاهم بحرها قبل حر جهنم يوم المعاد.

وكذا كان، [فبعد يوم وليلة من منع الماء، اغتمّ الإمام لعطش أصحابه، ودعا ولده الحسين عليه السلام، ومعه العباس، ودعا مالكاً الأشتر النخعي، ليخرجوا بالرجال صبحاً يستسقون... وأتى الصباح، فخرج الحسين، وخرج معه مالك برجاله، وخرج العباس في ركاب الحسين، فقاتلوا وجاهدوا حتى غلبوا على الماء، واحتلوا شريعة الماء!]

وكأني بالعباس يومها يريد أن يستسقي للحسين، كما هي عادته، . . . وكأني به يحمل إليه الماء في قربة ملأها من الفرات، حتى إذا قدمه إليه، نظر إليه الحسين برحمته المعهودة، وبعطف لا يُحد، وسأله:

ـ أشربت يا أخي؟ . . . ألست ظمآناً؟!

وكأني بالعباس يبتسم بسمته المعهودة أيضاً، ويخفض ناظريه خجلاً واحتراماً له وهو يجيب:

ـ سيدي أبا عبد الله، لا أشرب حتى تشرب!

لعل الحسين، وبعدما يشرب، يقبل نحو العباس، فيقبله بين عينيه، في موضع السجود الذي بدأت تتكون عليه سيماء المتقين، ثم يسقيه بيده المباركة وحنانه العظيم، أن اشرب يا أبا الفضل، فإن المتقين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، . . .

ولعل العباس يرتعد بين يديه، مستكثراً على نفسه أن يضمه إليه، وأن يطمح إلى ما فضله به الله عليه، ولعله يجهش بالبكاء فرحاً بما آتاه الله، وشوقاً لما سيؤتيه، وهو حتى لو لم يؤته كل هذا قانع بما يأتيه، هانئ به، وبما يريد وجه الله فيه!

. . . وكما هو صنع الكرام، [فإن الإمام لم يكافئ أصحاب معاوية بمثل ما صنعوا، وأباح لهم الماء، وإن كانوا هم له قد منعوا، وبعث إلى معاوية: «إنا لا نكافيك بصنعك، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء»، فأخذ كل منهما بالشريعة مما يليه، وقال الإمام لأصحابه:

ـ إن الخطب أعظم من منع الماء!]

***

أخبار صفين تتوالى، وعقيلات الرسالة والإمامة يرصدن الأخبار، متوكلات على العزيز الجبار، ينتظرن ما يرجين من الانتصار، بلهفة وقلق، ودمع وأرق، ينتظرن مسلمات أمورهن للباري فلا يسأمن الانتظار.

وبالمدينة يبقى بنو عقيل بن أبي طالب، حسب أمر الإمام، لكي يكونوا له عيوناً وآذاناً وقلوباً، وألسنة تنطق في الناس بالحق، . . . وفي المدينة أيضاً أم المؤمنين أم سلمة، تقوم على أمر نساء المسلمين، تعلمهن وتفقّههن بأحكام الدين، كما كان شأنها من قبل، ويبقى بيت النبوة بحضورها نبراساً للمهتدين، لكي لا يُغرر بالمؤمنين.

وفي الكوفة، تقوم بالدور نفسه بنتا الزهراء، تعضدهما في ذلك أم البنين، لا خدمة ورعاية فحسب، بل هي من معينهما تنهل، ثم تفيض على من حولها، لا رقة وعطفاً وحناناً وأمومة فقط، بل علماً وهداية، وفهماً ودراية، إنها تربّت على يد ثمامة وحزام، ثم تتلمذت في مدرسة الإمام، وعايشت الحسنين والزينبين، تنفست عبق النبوة والإمامة، وانتعشت بذلك العبير الفواح، وتغذت من شهده، فإذا هي تزداد علماً وفقهاً وإيماناً

وتقوى، وإذا هي تعلّم وتفقّه وتغذّي وتربّي، لا أبناءها فحسب، بل كل من كان منها بسبيل، وكل من قصدها واهتدى سواء السبيل.

[وفي صفين، تلاحقت الأحداث، وتناوش الجيشان مراراً، . . . كان تعداد كل منهما لا يقاس بالألوف، بل بعشرات الألوف، وكان الإمام يسعى جهده ليحمل معاوية على التراجع عن غيه والتسليم لأمره، حقناً لدماء المسلمين، ولكن معاوية أبى، حتى إذا وجد من بعض من حوله ميلاً إلى صف الإمام، وخصوصاً ممن تبين لهم خداع معاوية ونفاقه، وتلبسه القيام للأخذ بثأر عثمان، وهو من ذلك الثأر براء، علم معاوية أن لا سبيل له بعد الخداع والنفاق إلا الحيلة، فقد كان جيش الإمام يضم أعداداً هائلة من المقاتلين، ولكنهم لم يكونوا جميعاً في كلمتهم، ولم يكونوا ثابتين على ملتهم، وخالصين في نيتهم، . . . كان فيهم الطامع المغتر، وفيهم اللاحق لمن يظنه سينتصر، وفيهم من يرى في الإمام قائداً حاكماً أكثر مما يراه إماماً قائماً، ولذا فهو يأتمر بأمره ولكنه لا يسلّم له، بل قد يقدم رأيه على رأيه، إن رأى في رأيه السلامة.

لقد علم معاوية كل ذلك، فكاد لجيش الإمام، واحتال عليهم حيلة لا تخطر إلا ببال شيطان كإياه، أو كصفيه ومساعده ويمينه، عمرو بن العاص السهمي.

. . . كان الوقت نهاراً، وكان عسكر الإمام قد استقروا وأخذوا مواقعهم في سهل صفين بجوار الفرات، حيث احتلوا المكان بعدما غلبوا على الماء، . . . وإذا بسهم يقع بين الناس، مصدره معسكر معاوية، وإذا في

السهم رقعة كتب عليها: «من عبد الله الناصح، فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم، فخذوا حذركم!»

اضطرب العسكر، وتداول الرجال السهم والرقعة، حتى أوصلوها إلى أمير المؤمنين، . . . لم تنطلِ الخدعة على الأمير، فقد كان يعرف معاوية ودهاءه، فنظر إلى القوم مغضباً مشفقاً في آن وقد رأى اضطرابهم، وسمع منهم من يقول:

ـ هذا رجل ناصح، كتب يخبركم بما أراد معاوية.

وزاد القوم اضطراباً إذ حملت إليهم أجنحة الهواء وذرات الأديم، وقع ضربات عميقة تهز الأرض وتجلجل في الفضاء، فأيقنوا أن الأمر ما يقول صاحبهم، فهاجوا وماجوا، ولم يبقَ منهم أحد إلا انطلت عليه المكيدة، ومن لم تنطلِ عليه تماماً فهو أضحى في شك، عدا القلة القليلة من أصحاب الإمام وخلصائه، الذين راحوا يهدئون الناس، عساهم يستمعون لمقال الإمام، الذي هب فيهم مؤنباً يقول:

ـ ويحكم يا أهل العراق، إن الذي يحاول معاوية لا يستقيم له، وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم!

. . . لم يصغِ القوم لنداء الإمام، . . . كان يقف بينهم وقد أحاط به الحسنان والعباس ومحمد وسائر أولاده وأصحابه وهم ينظرون بأسف شديد إلى هؤلاء الهمج الرعاع الذين يتبعون كل ناعق، ويلحقون بكل لاحق، لا يفهمون ولا يعقلون، ولا يعون معنى أن يقول الإمام وأن يكون عليهم التصديق لقوله والتسليم.

وتزلزل الجند عن مواقعهم، وحملوا قادتهم على التحرك بهم، حتى من كان من أولئك القادة مخلصاً عارفاً بحق الإمام، فهو لم يكن ليستطيع إرغام قومه على البقاء والامتثال لأمره، فكان لا بد له من التحرك فيمن تحرك، بعد إذ صار القوم يتسابقون للهرب مرددين:

ـ هم والله يحفرون الساعة، ألا تسمعون؟!

وارتفع نداءالإمام من جديد يكشف لهم عن المكيدة فيقول:

ـ يا أهل العراق لا تكونوا ضعفى، ويحكم لا تغلبوني على رأيي!

لكن القوم تملك منهم الرعب، ولم يكن لهم من الإيمان ما يعصمهم عن الانزلاق في الهاوية، فخالفوا الإمام، بل إن بعضهم ممن انساق لهواه وأطاع شيطانه وشيطان ضعفه وشر نفسه، لم يتورع أن يرد على الإمام بالقول في صلافة وقحة:

ـ والله لنرتحلن، فإن شئت فارتحل وإن شئت فأقِم!]

وكأني بقلب العباس يتفطر لمرأى سيول البشر الهائجين، الذين كشفت المكيدة ضعفهم وانقيادهم للهوى، فكانت لهم حداً فاصلاً بين من يعبد هواه، ومن يعبد رباً بعث إليه رسولاً ونصب عليه إماماً وبطاعته أوصاه، فأطاعه وتولاه.

كانت نظرات الأصحاب تتلاقى على الإمام الذي وقف في ذلك الجمع يخطب ويبين، ولكن دون جدوى، أما الحسنان، فقد فاق حزنهما كل أحد، وفاقت خيبتهما بهذا الارتداد الشنيع على أمر الإمام كل حد، ووقف العباس بإزائهما وهو لا يملك نفسه من الأسى، ولعله حاول فيمن كان

يحاول من المقربين للإمام، أن يساهم في استبقاء الناس، بترديد نداء والده تارة وبمحاولة إقناعهم تارة أخرى، ولكن جهوده ذهبت سدى، لقد كان صوت المعاول وقرعها في الأسماع والقلوب أقوى من صوت الحق، فغلب عليه، وكان الضعف غالباً على القلوب والعقول والنفوس، فأحرز ذاك التخاذل السبق في النهاية.

. . . لم يكن العباس ليفكر، شأنه شأن سائر تلك القلة القليلة التي آمنت بالإمام وصدّقت قوله، بلا دليل، ولم يكن يخطر لها أن ترد عليه رأيه، لم يكن ليفكر أو يخطر له على بال، أن ما هو سر تلك الأصوات، وكيف تكون الشائعة كذبة وفي المحيط ما يؤكدها؟! . . . كان صوت الحق مدوياً في سمعه، لا يسمع سواه، طالما أنه يعلم حقاً ولا يشك طرفة عين، أن ما يقوله والده وإمامه هو الحق، وأن لا حق يعلو عليه، ولا حقيقة إلاه!

. . . وارتحل الناس، . . . وكأني بعيون العباس تدمع وهو يلاحظ ما علا وجه والده وسيديه الحسنين من أسف عميق، [وارتحل الإمام مع أولاده آخر الناس، وهو يقول بحرقة ولوعة:

ولو أني أطعت عصبت قومي إلى ركن اليمامة أو شآمِ
ولكني إذا أبرمت أمراً منيت بخلف آراء طغامِ

. . . وما إن تم ارتحال عسكر علي عليه السلام، حتى انكشفت الخديعة، فقد أقبل معاوية بعسكره، حتى نزل حيث كانوا، واحتل موقعهم.]

. . . عض عسكر الإمام على النواجذ آسفين نادمين، ونظروا حولهم خائبين، . . . لم تكن مكيدة معاوية هي الغالبة، بل كان ضعفهم، ولو لم

يكن الأمر كذلك لما انطلت عليهم الحيلة والإمام يكشف لهم ستارها، ولكن، ما نفع أن يدرك المرء خطأه بعدما استفحل الجرم وصارت كلفة التكفير باهظة، لا تكتفي بأقل من حرب ضروس ضارية يتم فيها استرداد الموقع، بدل أن تكون تلك الحرب ثمناً لنصر يُرتجى تحقيقه، بتجريد ذلك الباغي من دروعه البشرية التي كان يحتمي وراءها احتماء الصياد خلف طريدته.

[لقد أدرك عسكر الإمام خطأهم، فراحوا يحاولون تصحيحه، . . . وأقبل الأشعث الكندي، وكان من طلائع المنسحبين المتقاعسين عن الإصغاء لنصح الإمام، مظهراً الندم وهو يقول:

ـ أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوي ما أفسدت!

وصار عسكر الإمام يهجم على عسكر معاوية في مجموعات متفرقة حسب أمر الإمام، فيتواجه مع مجموعات أخرى متفرقة من عسكر الشام.]

. . . لم يأمر الإمام بالزحف الشامل، فهو لم يكن يلمس في عسكره القوة المرجوة، ولا التكاتف والتعاون المطلوبين، [لقد اكتفى حتى حين بالهجمات المنفردة التي كان يقودها قادة جيشه، الأشتر أو حجر بن عدي أو زياد بن النضر الحارثي أو سعيد بن قيس الهمداني أو شبث بن ربعي التميمي أو خالد بن معمر السدوسي أو قيس بن سعد بن عبادة، . . . وكان أكثرهم خروجاً الأشتر، وقد أبلى بلاءً حسنا.]

ولعل العباس كان بصحبة تربه ابراهيم بن الأشتر، خلال إحدى الحملات، ولعل ابراهيم التحق بأبيه، وخف العباس للمبارزة. كان قد حارب مرات عدة تحت راية أبيه منذ بدأت الحرب، ولكنه لم يشفِ

صدره، فقد كان الإمام يصونه ويرعاه ويذود عنه ولا يفسح له المجال في خوض لجة الحرب على راحته، . . . ولعل العباس حاول غير مرة أن يقوم بدوره على أكمل وجه، فحالت دونه ودون ذلك رقابة والده عليه، التي كانت تستوقفه حين يحمى الوطيس، . . . لم يكن العباس ليستنكف عن الخضوع لسلطة أبيه، فذاك ما لم يكن ليفكر قط فيه، ولكنه أراد أن يأخذ حصته من الجهاد، وأن يشفي غليله من أولئك المنافقين الأوغاد. . .

[وبرز من جند الشام رجل طويل القامة عظيم الهيئة، عرفه أهل الشام والعراق بسهم بن أبي العيزار، فلم يبرز إليه أحد خوفاً منه، ولعل العباس أراد أن يبرز، ولكن الأشتر سبقه، فهب نحوه فاختلفا ضربتين ثم ضربه الأشتر فقضى عليه.]

وارتفع التكبير من معسكر الإمام، ، وكأني بالعباس وإبراهيم تبادلا نظرة رضى واندفاع، ولعل العباس قرر أمرا، . . .

لم يمضِ وقت طويل، حتى [برز من صفوف عسكر الإمام فارس ملثم طويل القامة بعيد المنكبين، وراح يجول بين الصفوف،]. . . لم يعرفه أحد، ولكن ما جرى بعد هنيهات جعل كل الأنظار تنصب عليه وعلى هيئة القوة والصلابة المنبثقة من عينين نجلاوين تنمان عن فتوة ساطعة، ويرتسم بينهما فوق الجبهة المرتفعة الناصعة أثر سجدة طويلة خاشعة!

[. . . لقد برز الفارس، وراح يدعو للقتال بصوت عال، بدت فيه نبرة رجولة يافعة، . . . ولفت النداء نظر العديد من جنود معاوية، ولكنهم تجاهلوه، فقد كان بادي البطولة حتى استهابوه!

وأشار معاوية إلى أبي الشعثاء الكندي، وكان من أشد فرسانه، أن يبارز الفتى.

نظر أبو الشعثاء إلى الفتى فرأى حداثة سنه رغم استواء قامته وقوة بنيته، فأنف من مبارزته، ورد على معاوية بقوله:

ـ إن أهل الشام يعدونني بألف فارس، فلا يليق بي أن أخرج إليه، ولكن سأبعث إليه بأحد أولادي.

وأشار أبو الشعثاء إلى أصغر أولاده، وكان فارساً معدوداً، أن يبارز الفتى.

برز الولد للفارس الملثم، فما كانت إلا جولة، وإذا بابن أبي الشعثاء يسقط قتيلاً مضرجاً بدمائه!

غضب أبو الشعثاء، وأرسل للفارس ولده الآخر، فلقي ما لقي أخوه!

ازداد غضب الرجل، وارتفع اللغط من عسكر الشام إذ رأَوا ما رأَوه، وراحوا يتساءلون عمن يكون ذلك الفارس.

وأرسل أبو الشعثاء ولده الثالث، ليبارز قاتل أخويه، ولكن حظه لم يكن أوفر من حظيهما، فلقي ما لقياه بأهون سبيل!

. . . ولم يزل أبو الشعثاء يزداد غضباً فيرسل أولاده الواحد تلو الآخر لمبارزة الشاب الفارس، حتى أرسلهم جميعاً، وكانوا سبعة فرسان، ولقي الجميع حتفهم على يد الفارس المجهول!

استشاط أبو الشعثاء غضباً وحزناً على أولاده، إذ كيف يستطيع شاب

حدث السن كهذا أن يقتل سبعة فرسان أشداء من أكبر فرسان أهل الشام؟!

كان لا بد لأبي الشعثاء من أن يشفي غليله، وأن يطفئ نار حقده التي أشعلها ذلك الفتى، وأن يطفئ أيضاً ما اشتعل وارتفع من تكبير وتهليل في معسكر الإمام لما جرى، فقد وقف الجند من الجانبين ينظرون ويتعجبون، ويتساءلون عن الفارس البطل، من تراه يكون؟!]

وكأني بأمير المؤمنين ينظر إلى الفارس، ثم يتبادل نظرة ذات معنى مع الحسن والحسين ولديه، ولعله يعود فينظر إلى محمد ولده، يسأله، وربما يعاتبه!

[واتجهت أنظار الجميع، محبين وقالين، إلى الفارس الواقف في مقدمة الجمع بين الصفين، وسيفه يقطر دماً، وقد تقدم نحوه ذاك الوالد المفجوع بأولاده السبعة، وهو يدمدم بصوت كالرعد:

ـ تالله لأثكلن به أباه!]

ترى، هل دمعت عينا أمير المؤمنين؟... هل خفق قلبه العظيم بقوة، لا خوفاً وقلقاً، بل حباً وتعلقاً؟... وهل راح لسانه الكريم يتمتم بكلمات خافتات، فيما راحت أنفاسه تتوالى مسبّحات؟

... وتصدى الفارس لأبي الشعثاء،]... كانت صورة ما تلوح أمامه، سوى صورة الشيطان المقبل نحوه يريد اصطياده، ... وبنفس القوة والطمأنينة التي كان يواجه بها كل ما يعترضه من مهاوي، وقف الفارس ينظر إلى السيل الهادر المتدفق صوبه، ويلاحظ، وينتظر الفرصة للمباغتة.

كان حديث عهد بالحرب، ولكنه كان قد تدرب طويلاً، ولذا فقد كان

ينتظر مثل تلك اللحظة طويلاً وطويلاً جداً، كان يحارب، لابيده فحسب، بل بقلبه ووجدانه، وكل كيانه!

. . . ولعل قلب أم البنين خفق في تلك اللحظة خفقة مفاجئة، وهي في مجلسها تجالس زينب، ولعل زينب نظرت إليها وجلة، وقد خالجها مثل ما خالجها، ولعل كلتاهما رفعتا إلى السماء نجواهما غارقة في الدموع، وقد راودتهما فكرة واحدة.

لعل أم البنين راحت تلهج بأدعيتها، ما علمها أمير المؤمنين أن تقوله للحفظ وحال التوتر والاضطراب، . . . ولعل نظرتها استُردت ببسمة دامعة!

[لقد اقترب أبو الشعثاء من الفارس، ومر بمحاذاته حتى كاد يلاصقه، وسدد إليه ضربة ماهرة خفيفة، ولكن الفارس كان قد راغ من أمامه في خفة الفهد، ليبادره بضربة واحدة، أسقطته أرضاً جثة هامدة.

ارتفع التكبير من جديد من معسكر الإمام، كما ارتفعت صيحات الحنق من معسكر معاوية، وأقبل أصحاب الإمام على الفارس يستكشفون هويته، ولكنه رفض إزاحة اللثام، حتى إذا استدعاه الإمام إليه، لم يكن بمقدوره الرفض، فأتاه]، مزهواً شامخ الرأس، ولكن خافض البصر.

لم يفهم الجميع سبب ذلك، سوى أمير المؤمنين والحسنين، الذين عرفوه!

. . . [وأقبل نحو الأمير، مد الأمير يده مزيحاً اللثام عن وجهه، وإذا بالبدر يسطع فجأة ويتألق، وارتفعت أصوات الأصحاب مهللين يقولون:

ـ لله درك يا قمر بني هاشم، لله درك يا أبا الفضل، أيها الضيغم الهمام، إنك ابن أمير المؤمنين حقاً، فطوبى لك!]

لم يكن بمقدور العباس أن يرفع ناظريه في وجه أبيه ووجهي الحسنين، لقد سره بلا شك ما فعله من حسن جهاد، ولكن، لعله خشي أن تكون تلك الكلمات التي أُطلقت نحوه أكثر مما يستحق، وكان ينتظر حكم والده، . . .

[. . . وتبسم أمير المؤمنين، وتبسم الحسنان، ورفع وجه العباس إليه، ليطبع على جبهته الأبية قبلة أب ملهوف، وإمام رؤوف، وهو يقول:

ـ أحسنت يا ولدي، . . . بوركت يا أبا الفضل!

ثم استطرد يهمس في أذنه:

ـ ولكن، لا تعد لمثلها، فإني أدخرك لنصرة أخيك الحسين!

. . . ثم إنه ضمه واعتنقه طويلاً]،

. . . أدرك العباس ربما أكثر من أي وقت مضى، أي ذخر ينتظره، وأي مسؤولية، . . . علم أن والده يحميه ويأنف أن يرمي به في تلك اللجج الغامرة، لا ضنّاً به على الجهاد والاستشهاد، بل لأنه يعده لما هو أكرم، ويدخره لما هو أدهى وأعظم.

وكأني بالحسنين في تلك اللحظة، وقد أقبلا على العباس يهنئانه، ويضمانه ويقبلانه، ولعل الحسين ختم ضمته بيد استقرت على عاتقه تشده إليه، تخاطبه وتناجيه، وتقول له:

ـ إليّ يا عباس، إليّ ولا تبالي، فإنك عائد إلي دون سائر

الرجالِ، . . . إليّ يا عباس، ففي كفيك أدّخر المعالي، وفي كفيك آفاق وأشواق، وأجوبة ترد على متاهات السؤالِ!

***

ـ لا يكن هؤلاء بأولى بالجد في ضلالتهم منكم في حقكم!

كان صوت الإمام يتردد ملء الآفاق، يعلو على صهيل الجياد وقرقعة السلاح، وتسيغه القلوب قبل الأسماع، يبهر الألباب كما يبهر شعاع البرق الأبصار.

[. . . وكان شهر المحرم شهر هدنة جبرية، فقد توقف الإمام عن القتال مراعاة للشهر الحرام، واستغل الفترة لمعاودة الكرّة، بمحاولة حقن دماء المسلمين من جديد، ولكن معاوية أبى إلا أن يسترسل في غيه، ويمضي في إراقة الدماء إلى آخر المطاف!

ولما انقضى الشهر، نادى منادي الإمام «أن يا أهل الشام، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد استنبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين».

. . . فثار الناس وتعبأت الجيوش وتهيأت، ووقف أمير المؤمنين يخطب في عسكره ويوصيهم بوصاياه، ويعقد الألوية ويعبئ الكتائب، ودفع اللواء الأعظم إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، المرقال، وكان من خيرة أصحابه، وكانت علامة أهل العراق الصوف الأبيض على الرؤوس

والأكتاف وشعارهم «يا الله يا أحد يا صمد يا رب محمد يا رحمن يا رحيم»، أما علامة أهل الشام فكانت خرقاً بيضاً على الرؤوس والأكتاف وشعارهم «نحن عباد الله حقاً حقاً يا لثارات عثمان».]

. . . واحتدمت الحرب، وبلغ غبارها وعجيجها إلى عنان السماء، كما بلغت الأصوات الهادرة أرجاء الأرض، . . .

ولعل نساء الكوفة العلويات، وعلى رأسهن زينب وأم كلثوم، وأم البنين وسائر نساء أمير المؤمنين، ونساء الحسنين وغيرهما من الهاشميين، ، قد وقفوا ونظروا صوب تلك البقعة في البعيد البعيد، لرأوا عجباً، لرأوا بطولاتٍ تشيب لها رؤوس الرضّع وأهوالاً تذهل لها عقول الراشدين!

ولو انكشف الغطاء في تلك الساعة لتوقفت قلوب النساء الرقيقة الملهوفة، لما بلغ من اشتداد الأمر.

. . . ولعل خولة الحنفية، زوجة أمير المؤمنين أم ولده محمد، لو رأت ما كان يصنع ولدها وما كان يواجه، لما كان لها إلى الصبر سبيل، لقد كان يقاتل ويناوش ويبلي بلاء حسناً، ولكنه إذ[برز صبيحة ذلك اليوم على رأس جمع عظيم، ليواجه عبيد الله بن عمر وجمعه، كان الأمر جللاً فقد طلب ابن عمر محمداً للبراز، . . . ورأى الإمام عن بعد رجلين يتهيآن للبراز، فسأل أصحابه:

ـ من هذان المتبارزان؟

فقيل له:

ـ هما محمد ولدك، وابن عمر.

فتحرك الإمام عليه السلام بدابته واقترب، ثم إنه ترجل عنها ودعا ولده محمداً، فوقف له، وطلب منه أن يمسك بعنان الدابة فأمسكها، ثم مشى إلى ابن عمر قائلاً:

ـ أنا أبارزك.

فرد ابن عمر وقد ارتعد فرَقاً:

ـ ليس لي في مبارزتك حاجة.

وانسحب إلى عسكره، وعاد الإمام إلى ولده، فاستعتبه محمد بقوله متحسراً:

ـ يا أمير المؤمنين، منعتني من مبارزته، والله لو تركتني لرجوت أن أقتله!

فرد الإمام بقوله في رحمة:

ـ يابني لو بارزتُه أنا لقتلته، ولو بارزته أنت لرجوتُ أن تقتله، وما كنت آمن أن يقتلك!]

. . . لعل خولة لو عاينت ما جرى لذاب فؤادها خوفاً على ولدها، ثم لأشرق وجهها إذ عاينت سلامته، ولعل أم البنين كانت لتقف وسط الهاشميات تعظهن وتقوي عزيمتهن، وترسم لهن شعاعاً مدوياً يمتد من نظرتها القوية الساطعة، إلى عيونهن المتطلعة نحوها، وآذانهن السامعة، فيتقوّين بقوّتها ويشتد عزمهن بصلابتها، ولعل بعضاً من نساء الكوفة كن يلمنها، أن أرسلت ولدها إلى الحرب، وهو لما يزل فتى يافعاً لا خبرة له

بالحروب ولا مراس، فإذا هي تجيب بقوة في القلب والروح والنظرة والنبرة:

- إن من تعلّم كيف يواجه شياطين الإنس والجان، لقادر على مواجهتهم بكل سبيل مهما كان، وإن ولدي ومن حملت الغبراء وأظلت السماء، فداء لحق علي والزهراء!

وقد تتابع لنفسها، وهي تضع يمناها فوق فؤادها، أن هل كان لها إلى منعه عن الخروج سبيل، وهي إنما ربته على هذا السبيل، وأطلقته حارساً للحسين، يذب عنه ويقيه، وهي بخروجه مسرورة محبورة، أن قد استطاعت أن تدفع بجزء من نفسها لا من قلبها فحسب، ليلحق بأمير المؤمنين والحسنين، ليكون لهم ملازماً دائماً، لا يحول عن صحبتهم ولا يزول.

... كانت أم البنين تنشر حولها، كيفما اتجهت، وأينما حلت، عبقاً فواح الطيب من التقى والورع والقوة والعزيمة، تماماً كما تنشر الزهرة الندية عطرها على كل من يطلبه، ومن لا يطلبه أيضاً، فهو في الجو ينتقل بين ذراته، وفي الفضاء يمتطي صهواته، تماماً كما يمتطي العباس صهوة جواده، ويخوض غمار الحرب الضروس، مرسلاً إليها مع النسيم المتطاير، لا بل مع العباب والنجيع المتناثر من ضرب سيفه وقناته، سلاماً لا مثيل له في تحيات البشر، ولا يفوقه سلام في صفاته!

***

[كانت الرجال تصطرع، والأسنة تتكسر، وجفون السيوف تتهشم، وقد

وطن القوم أنفسهم على القتل أو النصر، يحفّز عسكر معاوية طمعهم بأموال العراق، وربما اغترار بعض جهلائه بما لفقه معاوية وعمرو لهم من خدائع واختلاق، حول ثأر عثمان وما إليه، . . . على أن أولئك الجهلة لم يلبثوا أن أدركوا الحق، فالشمس الساطعة لا يمكن أن يخفى نورها على من يبحث عن النهار، فما كان منهم إلا أن التحقوا بعسكر الإمام، وبقي الطامعون القاسطون المغترون، الذين هم في كل وادٍ يهيمون.

وراح الإمام يحفز جيشه بالنداء، وهو أمامهم يقودهم بنفسه، متغلغلاً في صفوف الأعداء:

ـ «وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة، واستعينوا بالصدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر»]

. . . كان النداء جلياً، يرفع لواء الصبر فوق كل لواء، وما كان أحوج أولئك المهاجمين إلى الصبر، . . . لا الصبر على القضاء فحسب، ولا على مجاهدة الأعداء فقط، بل الصبر على نوازع النفس ومغريات الهوى، وذاك كان أكبر هم الإمام!

[وعلى غرار ما نهج الإمام في حرب الجمل، من إثبات الحجة على القوم في رفضهم حكم الله، دعاهم، بعدما دعاهم مراراً، إلى كتاب الله.

وقف الإمام بين الصفوف، في الجولة الثانية من الحرب، . . . كانت عيون أحبته تحيط به، فتنسج له من العشق دثاراً، ورفع في يده مصحفاً وهو ينادي:

ـ من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى ما فيه؟!]

توقفت أنفاس الجند، كانوا موطنين أنفسهم على الجهاد والاستشهاد، ولكن منظر المصحف ونداء الإمام، ذكّرهم بموقف مشابه في حرب الجمل، وتذكّروا، وتذكّر الحسنان والعباس ومحمد، وابراهيم بن الأشتر، وكل فتيان الجيش، مسلم بن عبدالله، شهيد القرآن، الذي ذهب ضحية تلك الحجة البالغة، بعدما طاحت يمينه وشماله وتمزق أشلاء على أرض ذاك الميدان الدامي!

لعل العباس تململ ثانية، كما لا بد أنه فعل في المرة السابقة، لعله أراد أن يتقدم، ولكن، لعل نظرة واحدة منه إلى سيده الحسين، كما كان من عادته أن يفعل، إذ يستشيره في كل قراراته، بالسؤال مرة، وبالنظرة مرات، . . . لعل الإجابة أتته في عيني أبي عبدالله اللتين لاحت فيهما أشباح دموع، وابتسامة، كانت كافية لتذكره، فيفهم وهو لم يكن ناسياً، بل لقد كان يعلم، أن ليس هاهنا ميدان تضحيته، أن له يوماً غير هذا اليوم!

ترى، هل نظر العباس، وبعدما أيس من فرصته، إلى إبراهيم يستطلع نيته؟ . . . هل رآه وهو يتقدم؟ . . . ربما، ولكن أحداً ما قد سبقه، [لقد كان سعيد بن قيس، فتى في مثل عمرهما، أو أكبر سناً بقليل، لقد توجه نحو الإمام بقوله في جرأة وإقدام:

ـ أنا صاحبه يا أمير المؤمنين!

وكما في المرة الماضية، سكت الإمام، . . . لم يعطِ المصحف لسعيد، وأعاد الكلام، . . . فأعاد سعيد كلامه أيضاً، بجرأة وإقدام أكبر وأعظم، وبإصرار لا يتراجع ولا يتزلزل، . . . عندها نظر الإمام إليه]، لعله تذكر

مسلم بن عبد الله، لعله استرجع وهو يراه، ولعل فؤاده تفطر أيضاً لما سيلقاه، [ودفع المصحف إليه قائلاً يبارك مسعاه:

ـ دونك كتاب الله!

فاستلم سعيد ضالته، وأزهر وجهه ورفع هامته، وهو يتقدم صوب معسكر معاوية بخطى ثابتة، رافعاً المصحف بيده، . . . ووقف قبالة فسطاطه، ورفع صوته يدعو القوم إلى كتاب الله وما فيه.

ارتفعت الأصوات في معسكر معاوية، وكاد القوم يختلفون، فأشار معاوية إلى رجاله بإسكات نداء الحق، فهبطت سيوف الضلالة على سعيد من كل صوب، ومزقت جسمه المطهر، كما مزقت المصحف الطاهر الذي كان يحمله!]

وكأني بالعباس يزدرد غصته، وقد تمزق فؤاده، وراح يصول ويجول بين الصفوف، لعله حاول استنقاذه، ولكن الفتى كان بمعزل عن أصحابه، غارقاً في صفوف القاسطين، ولعله لم يكن بوسع العباس أن يخوض أكثر، بل لعله لم يكن مسموحاً له أن يتقدم أكثر، كان عليه أن يقف عند حد ما وينتظر، ولشد ما كان صعباً عليه، أن يرى الفتى وهو يتمزق إرباً إرباً بأسياف الطغاة، وهو يريد أن يفدي كتاب الله الصامت بنفسه، كما أراد أن يفدي كتاب الله الناطق بنفسه أيضاً.

إيه يا سعيد، إنك لسعيد في الدنيا وسعيد في الآخرة، وكيف لا يكون سعيداً من ذهب فداء لكتاب الله، وامتزجت دماؤه بكلمات الله، وأشلاؤه بآياته؟!

ولكن، لعل ما كان يوجع العباس ويؤلم نفسه حقاً، أن سعيداً لم يتمكن من افتداء كتاب الله بنفسه، لقد ضحى في سبيل إثبات الحجة على هؤلاء الطغاة اللئام، ولكنه لم يستنقذ كتاب الله من أيديهم، بل كان الكتاب لهم ضحية أخرى، وإثباتاً أكبر للحجة عليهم، لمن أراد أن يناله الريب في كلمة الحق، ليوم يبعثون!

***

لم تنتهِ بطولات عسكر الإمام مع استشهاد سعيد، بل لعلها بدأت، ولم تنتهِ مواقف الخزي في عسكر معاوية مع ذلك الموقف الذي تصيّدت فيه ذئابهم كلمات الله حتى داسوها تحت أقدامهم، بل كانت الساعات والأيام اللاحقة عليهم شاهدة.

. . . كانت مراجل الحرب تغلي وتفور، وكذلك كانت مراجل القلق في صدور الهاشميات، وكانت أم البنين تواسي هذه وتلك، تخفف عنهن ما اعتراهن، وتبعث في قلوبهن الصبر والسلوان، لما هو كائن ولما سيكون، ولما قد كان.

ومرة أخرى، رصدت الأرواح ذلك المكان، وشهدت قلوب الأهل في الأوطان وإن لم تشهد العيون ذلك الغليان.

وإذا أم البنين ترى بعين فؤادها، بعين عباسها، كل ما يجري على أرض الميدان.

هي ترى، إذ يرى العباس، مصرع الفرسان ومبارزة الأقران، . . .

هي ترى [عبد الله بن بديل الخزاعي، ذاك البطل الهمام، إذ يضرب

الناس بسيفه قدماً وعليه سيفان ودرعان، ولا يزال يضرب حتى ينتهي إلى معاوية، ويتقدم أكثر برجاله، ثم يتقدم، حتى لا يبقى معه إلا نحو مئة من القراء، ثم يتقدم حتى لا يبقى معه أحد، فيصل إلى معاوية، ويذعر معاوية ويدخل الخباء، فيترجل عن فرسه ويلحق به، وقد وضع نصب عينيه قطع رأس الفتنة، ويدخل وراءه، فيطلع معاوية من الخباء فيطلع عبد الله في إثره، فيشتد ذعر معاوية وهو يصرخ بأصحابه الذين أحاطوا بعبدالله بأسيافهم:

ـ ويحكم، إن السيوف لم يؤذن لها في هذا، ولولا ذلك لم يصل إلينا، . . . عليكم بالحجارة!

فرضخه أصحاب معاوية بالحجارة حتى أثخنوه، فقتل عبد الله بعدما استمات في سبيل إحقاق الحق، فمضى وله أجره!]

وهي ترى [استشهاد ستة إخوة تحت راية أمير المؤمنين، هم أبناء شريح، وثلاثة إخوة آخرين، هم أبناء زيد، ثم أخوان هما ابنا بشر،]. . . وتتنهد أم البنين بأنفاس ولدها، وترتسم في خيالها خيالاته، خيالات ذلك اليوم المقبل، يوم تقدم أولادها، من ولدت ومن لم تلد بعد، فداء لأبي عبد الله الحسين.

وتنظر إلى بقعة أخرى من أرض المعركة، [وإذا برجل من أهل العراق يبرز إليه آخر من اهل الشام، فيقتتلان اقتتالاً شديداً، ثم إن العراقي يعتنق الشامي فيقعان جميعاً بين قوائم فرسيهما، فيجلس العراقي على صدر الشامي ويكشف المغفر عنه يريد ذبحه، فإذا هو أخوه لأبيه!

يصعق العراقي ولا يدري ما يفعل، فيصيح به أصحابه جاهلين الحقيقة، أن أجهز عليه، فيخبرهم بأنه أخوه، فيشيرون عليه بتركه، فيقول:

ـ لا أفعل، حتى يأذن لي أمير المؤمنين!

فلا يزال رابضاً عليه حتى يأتيه أمر الأمير أن دعه، فيتركه.]

وكذا تعتمل في القلب عوامل شتى، . . . هو التسليم لأمر الإمام، . . . هو عشق الولي، لا يفسح في القلب مكاناً لعشق سواه، . . . هي القربى من رسول الله، ومودة القربى لا تغلبها ولا تدانيها مودة، وتذوب في ثناياها كل قربى ومودة.

ثم ها هي أم البنين تنظر ثانية، وها هي عين العباس وقلبه، ووعيه وبصيرته، تسجل لها المشهد، . . . [كيف يقسم معاوية الحرب بين أصحابه، وقد غشيه ما غشيه من هول القتال وأيقن بسوء المنقلب، في العاجلة قبل الآجلة، وإذا هو يعبئ لكل رجل من أصحاب الإمام رجلاً من أصحابه، فيخص نفسه بسعيد بن قيس الهمداني، ويخص عمراً بهاشم المرقال، وبسر بن أرطأة بقيس بن عبادة، وعبيد الله بن عمر بمالك الأشتر، وعبد الرحمان بن خالد بن الوليد بعدي بن حاتم الطائي، ويجعلها نوَباً في خمسة أيام.

. . . لم يُجدِ معاوية ما فعله، فهو قد خرج من تلك الأيام الخمسة كما دخل، بل أسوأ مما دخل، فقد انتهت معركته مع سعيد بشرّ هزيمة، وفرّ ركضاً، ولم يكن حظ عمرو مع هاشم أفضل منه، ولا حظّ بسر مع قيس، ومثل ذلك كان مصير عبيد الله مع الأشتر، وعبد الرحمان مع عدي بن حاتم.]

ولعل حادثة جرت على مرأى من العباس، حركت فؤاده وهاجت مشاعره، فوصلت إلى فؤاد أمه، . . . إنها دعوة عبيد الله بن عمر للحسن عليه السلام ليلقاه، لا بد أن العباس كان شاهداً لتلك الحادثة، فهو لم يكن ليفارق الحسنين، وبذا يكون كل ما مرا به من أحداث في تلك الحرب بمشهد منه ومسمع، . . .

[لقد دعا عبيد الله بن عمر الإمام الحسن عليه السلام للقائه، وإذا هو يراوغه، ولعل تلك الدعوة ماكانت إلا واحدة من أواخر ما في جعبة معاوية من مكائد، لقد خاطب عبيدالله الحسن متملقاً بقوله:

ـ . . . إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنئوه، فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر؟

وكأني بالحسن ينظر شزراً إلى الرجل، ولعل الغيظ لوقاحته غلب على الهزء من صلافته، فهتف يخاطبه مستنكراً:

ـ كلا، والله لا يكون ذلك!

ثم عطف عليه بقوله، وهو يغادره في موقفه مخزياً خائباً يقلب كفيه:

ـ لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك، أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك، حتى أخرجك مخلّقاً بالخلوق، تري نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً!]

. . . لم تتأخر نبوءة الإمام الحسن عليه السلام حتى تحققت، [وإذا بعبيدالله بن عمر لا يمسي حتى يقتل، يقتله حريث بن جابر الحنفي، وكان ساقي معسكر الإمام، قد ضرب له بين العسكرين قبة حمراء وراح يمد الناس عند

القتال بالشراب من اللبن والسويق والماء،]. . . هي فضيلة أخرى لساقٍ آخر، تضاف إلى فضائل الساقين، وترفعهم درجة عن الباقين.

إيه أيها الساقي، إيه يا يوم السقي الموعود، غداً ستبر بالعهود، . . . غدا تبلغ الروح التراقي ويكون الصعود.

[. . . ومرت ليلة ظلماء، اختلطت فيها الرايات وتبدلت، حتى أذان الفجر، . . . واستفقد الإمامَ أصحابُه، وراحت قلوبهم وعيونهم تبحث عنه في نواحي المعسكر، فقد تداخلت الجموع حتى ما عاد يعرف واحدهم أين يقف وفي من قد بات ومع من قد أصبح.]

. . . وكأني بالعباس ملازماً للحسين، يبحث معه عن الإمام، [وإذا بصوت الإمام يرتفع بعد الأذان قائلاً:

يا مرحباً بالقائلين عدلا وبالصلاة مرحباً وأهلا

ويدلهم صوته عليه]، لا بل نوره الساطع في مشكاة الفجر الطالع، أسطع من نور الشمس وأروع.

[وإذا الإمام قد بات ليلته ما بين الميسرة والقلب، وهو أصلاً في المقدمة، فهتف يسأل من حوله من يكونون، فأجابوه مفتخرين:

ـ ربيعة، وقد بتّ فيهم البارحة!

فردّ الإمام مبتسماً بقوله:

ـ فخر طويل لك يا ربيعة.

. . . لم تكن تلك الحادثة الوحيدة في صفين، التي خاض فيها أمير

المؤمنين لجة عسكره، فدخل من مكان وخرج في آخر، فهو لم يكن للجيش قائداً يأمر وينهى فحسب، بل كان هو الجيش نفسه، تجده تارة في المقدمة، وأخرى في القلب، يغوص بين الكتائب فيفلّها، ويبارز الفرسان فيجندلهم، ويقلب ظهر الحرب لبطنها وهو في كل هذا لا يكل ولا يمل.]

... ولعل العباس لا يني يتنهد متحسراً، فهو قد كان ولا يزال للجهاد مشمراً، ولكن والده يأبى عليه أن يخرج إلا حيث يأمره، هو يعلم ما وراء هذا الحصار، ولكنه لا يستطيع إلا أن يتحسر على ما يفوته.

[وها هي الحرب تشتد من جديد، ويتمادى الناس في القتال، وتضطرب السيوف حتى تتقطع وتصير كالمناجل، ويتطاعن القوم بالرماح حتى تتكسر، ثم يجثون على الركب، يتحاثَون التراب، ويتعانقون ويتكادمون، ويترامَون بالصخر والحجارة.]

ولعل أم البنين في مجلسها في دارها بالكوفة تواسي الهاشميات وتصبرهن، وهي لا تني تفكر في بعلها وإمامها، كما تفكر في ولديها وسيديها الحسنين، وولدها العباس، ولعل تفكيرها في سيد الوصيين كان أكبر، ولعل دموعها التي كانت تذرفها في وحدتها قلقاً ووحشة لغيابه كانت أغزر، فهي تعلم علم اليقين ما قاسى وما يقاسي الآن، من وحشة الدرب وقلة الناصر، رغم العدد الكثير المتكاثر، وهي على الإمام قلقة، تخشى عليه بعض من يدّعون صحبته، أكثر مما تخشى عليه أعداءه.

أجل، فقد كانت مخاوف أم البنين في محلها، [فها هو خالد بن معمر السدوسي، وهو من قادة جيش الإمام، لا يكاد يصل إلى معسكر معاوية،

وقد بايعه أصحابه على الموت أو يقتلون معاوية، حتى إذا دخل سرادق معاوية أرسل إليه أنك قد ظفرت، ولك إمرة خراسان إن لم تتم، فطمع خالد، وغلب حب الدنيا على قلبه، فانسحب ولم يتم.

وها هو الأشعث بن قيس، يظهر للإمام المودة، ويبطن الشر، ويقول في كل موقع كلاماً ظاهره النصح وباطنه الذعر والكيد، وإذا هو يحارب لهوىً في نفسه، لا لهوىً في دينه، وإذا هو يختم مواقفه بموقف يشهد له بإحباط عمله.]

وشتان ما بين هذين، وغيرهما كثير، وبين تلك القلة القليلة من الخلص الأتقياء من أصحاب الإمام، الذين شرَوا انفسهم لله.

[فهذا عبد العزيز بن الحارث الجعفي، قد برز على فرس أدهم مقنعاً بالحديد لا يرى منه إلا عيناه، ها هو يستجيب لأمير المؤمنين، إذ ينادي في الناس وقد حوصر هو وأصحابه:

ـ ألا رجل يشري نفسه لله؟!

فيجيبه الجعفي:

ـ يا أمير المؤمنين، مرني بأمرك، فوالله ما تأمرني بشيء إلا صنعته!

فيقول له الإمام ممتدحاً تسليمه ويقينه:

«سمحت بأمر لا يُطاق حفيظةً وصدقاً وإخوان الحفاظ قليلُ
جزاك إله الناس خيراً فقد وفت يداك بفضلٍ ما هناك جزيلُ

أبا الحارث شدّ الله ركنك، احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك،

فتقول لهم أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول، هللوا وكبروا من ناحيتكم، ونهلل نحن ونكبر من ناحيتنا، احملوا من جانبكم ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام».

كانت خطة عسكرية ارتجلها الإمام في ذلك الحصار فاستوعبها الجعفي فوراً، فضرب فرسه حتى إذا قام على السنابك، حمل على أهل الشام المحيطين بالإمام فطاعنهم حتى انفرجوا له، وأتى أصحابه فنقل إليهم رسالة الإمام، ففعلوا ما أشار به الإمام، فارتفع التهليل والتكبير من كل جانب، وهجموا على أهل الشام، فوجد أهل الشام أنه أحيط بهم فهرعوا ينسحبون مذعورين، وخرج أصحاب الإمام وما أصيب منهم رجل واحد، وقتل من فرسان الشام زهاء سبعمئة رجل، وسرّ الإمام بما فعله الجعفي، فهتف يسأل أصحابه:

ـ من أعظم الناس غَناءً؟

نظر بعضهم إلى بعض مستغربين سؤاله، وأجابوا:

ـ أنت يا أمير المؤمنين.

علم الأمير أنهم لم يفهموا قصده، فتبسم وهو يقول:

ـ كلا، ولكنه الجعفي!]

لقد حاز الرجل غَناء الآخرة، إذ استغنى عن نفسه في سبيل الحق، لقد بلغ غاية المجهود، فبلغ به رضا العبد والمعبود!

ومن تلك الفئة القليلة من الأوفياء، كان هاشم المرقال، وعمار بن ياسر، وعدي بن حاتم، والأشتر النخعي، وآخرون.

أما هاشم، فقد كان صاحب اللواء، كان قد فقد إحدى عينيه في حرب الناكثين، فاستغنى عنها بالأخرى ليرى بنظرة ثاقبة أحقية أمير المؤمنين في حرب القاسطين.

ولعله كان يطيب للعباس وهو يجول بين العساكر مع تربه إبراهيم بن الأشتر، أن يستمعا إلى ما كان [عمار يمازح به هاشماً وهما يتهيآن للهجوم على معسكر الأعداء، وقد رفع هاشم الراية وراح يهزها، فجعل عمار يتناوله بالرمح قائلاً:

ـ أقدم يا أعور!

ثم يلتفت إلى الناس بقوله:

ـ صبراً عباد الله، الجنة تحت ظلال البيض.

ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال، وزحف هاشم بالراية يرقل بها إرقالاً، ومنها تسميته بالمرقال.]

لا بد أن عيني العباس كانتا تلاحقان الراية، وقد تعلق قلبه بها، [وكان هاشم عالماً بالحرب، فكان يتقدم فيركز الراية حتى يزحف الناس، ثم يتقدم مرة أخرى فيركزها، حتى حمي الوطيس وخشي أهل الشام من الفناء.

على أن الراية توقفت فجأة، ولم تعد تتقدم، . . .]

ترى، هل استشعر قلب العباس الشر؟ . . . هل تبادل وإبراهيم نظرة قلقة؟ . . . ربما، ولعلهما تقدما صوب المعركة يحاربان ويغوصان في ذلك اليم المتلاطم من البشر المتعاركين.

وكأني بالعباس إذ وصل إلى مقربة من هاشم، [يسمع منادياً يناديه:

ـ يا هاشم، إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقدّم لواءك.]

ولعل العباس راعه [التفات هاشم إلى المنادي وهو مرتكز على رايته، ليكشف له عن جرح في بطنه عميق غائر!]

رباه، . . . لقد صُرع هاشم، وهو لما يزل متمسكاً بلوائه، . . .

لا بد أن نفس العباس تلهفت على اللواء، وودّ من صميم فؤاده أن يهرع إليه فيستلمه، ولكنه لم يكن مأموراً بذلك، فأحجم، ويده المتشوقة الملهوفة ترتجف.

وكأنما لاح له وجه الحسين في المدى يدعوه، فهب نحوه ملبياً وقد تراءى له في ندائه جوهر النداء، أن رويدك يا صاحب اللواء، ففي غدٍ سوف تحمل اللواء، سوف ترفعه عالياً شامخاً نحو السماء، هو نفس هذا، لواء الحمد، لواء رسول الله، لواء الحق الذي به أوصاه، وستبذل النفس والروح في سبيله، لا في أي سبيل سواه!

[أما لواء هاشم، فقد هب ولده عبد الله يستلمه منه، ليسقط البطل في مكان اللواء، شهيداً، فيخطب عبد الله راثياً أباه:

ـ أيها الناس، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله، فدعاه الله ربه الذي لا يُعصى فأجابه، فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى.

أما عمار، فقد قاتل قتال الأبطال، وهو يومئذٍ شيخ كبير]، ولعل

العباس كان ينظر معجباً إلى شدة بأسه على كبر سنه، وإلى حماسه في القتال، [فقد كان يصول ويجول كابن عشرين، وهو قد نيّف على الثمانين، ويرتجز قائلاً:

نحن ضربناكم على تنزيله والـيوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم إنه استسقى وقد اشتد ظمأه، فأتاه غلام بضياح من لبن،]... ولو تسنى للعباس أن يتأمل عماراً ساعة وضع اللبن على شفتيه الملتهبتين، لرأى دموعاً تسح من مقلتيه، ولو استطاع أن يسمعه، لسمعه [يقول:

ـ كذا أخبرني حبيبي رسول الله، ... «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية»، «يا عمار، آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن»!

ثم إنه احتسى اللبن بعدما مزجه بدموعه، وشدّ ليعود إلى الميدان، وقد وضع الموت نصب عينيه، لقد قرأ الناظرون إليه في نظرته كل أشواق السنين، وهو يهتف بملء فؤاده:

ـ الجنة تحت الأسنة، ... اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه، ... والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أننا على الحق وأنهم على باطل!

... وما هي إلا جولة أو جولتان، حتى سقط أبو اليقظان شهيداً، وذِكر محمد لا يغادر شفتيه، وصورة الجنة مطبوعة أمام ناظريه.] .

ولعل الإمام لما بلغه قتل عمار، تأسف واستعبر، وطأطأ رأسه حزناً لفراقه، وتذكر، . . .

ولعل أولاده وأصحابه لم يكونوا أقل منه تأثراً وأسفاً، ولعل العباس لا ينسى ما عاش ذلك الحديث الذي تناقله الناس في تلك اللحظات الأليمة، في حق ذلك الصاحب الحقيق، والشهيد الصدّيق، الذي قال فيه رسول الله ﷺ:

ـ أولعت قريش بعمار، . . . ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار.

[وأما عدي بن حاتم، الذي فقد إحدى عينيه أيضاً في حرب الجمل، وما كان بأقل استبصاراً من هاشم المرقال، بعينه السليمة، وبصيرته العظيمة، فقد أقبل نحو الإمام يتعثر بالقتلى بعد وقعة الخميس، . . . وما أدراك ما وقعة الخميس، . . . يوم مشهود، بل ثلاثة أيام بلياليها لم يتوقف خلالها القتال، ثلاثة ايام كانت الصلاة فيها تكبيرا(*)، . . . قد تكسرت خلالها الرماح ونفدت السهام وتثلّمت السيوف، حتى إذا كان نصف الليل الأخير، بلغ الأمر بالمقاتلين أن ضعفوا حتى عن القيام بعضهم إلى بعض للقتال، فانسحب أصحاب معاوية، وغلب أصحاب الإمام على القتلى، . . . . كانت وقعة هائلة، قتل فيها خزيمة بن ثابت، ذو الشهادتين، وجمع غفير من أصحاب رسول الله.

(*) أي أن وقت الصلاة كان يحين وينقضي دون أن يستطيع المقاتلون أن يتوقفوا ليقيموا الصلاة فيكتفون بالتكبير عوضاً عنها، وهو حكم شرعي للصلاة في مثل هذه الظروف.

. . . لقد أقبل عدي بن حاتم بعد الواقعة يلتمس الإمام، حتى إذا وصله، هتف به ملهوفاً وقد رأى ما آل إليه أمر أصحاب معاوية من الضعف والتخاذل، وما آل إليه أمر جند الإمام من الكف عن القتال:

ـ يا أمير المؤمنين، ألا نقوم حتى نموت؟!

فناداه الإمام بأسف أن يدنو منه، حتى إذا دنا همس له بقوله:

ـ ويحك يا عدي، . . . إن عامة من معي يعصيني، وإن معاوية في من يطيعه ولا يعصيه!

وتنهد الإمام وهو يتابع قائلاً، ولعله كان يناجي ربه، ويخاطب أخاه ونفسه رسول الله صلى الله عليه وآله، شاكياً ما مني به من أصحابه قبل أعدائه:

ـ وانفساه، أيُطاع معاوية وأُعصى؟! . . . ما قاتلت أمة قط أهل بيت نبيها وهي مقرّة بنبيها، إلا هذه الأمة!]

لا بد أن العباس سمع قول أبيه، وفكر طويلاً فيه، وتأمل في مغازيه ومعانيه، . . . إي والله، هو ابتلاء قد ابتلاه الله به، وهو في غدٍ أيضاً مبتليه، لابهذه الحرب فحسب، ولا بهذه الأمة المجتمعة على عصيانه فقط، بل بما سوف يجري أيضاً على بنيه!

وتنهد العباس، . . . كان قد وصلته أخبار وأخبار، من والده الكرار عن النبي المختار، بما تحمله الأقدار، لأبيه، لسيديه الحسنين وله، من الأهوال والأسرار.

إيه يا أبتاه، إن من كان مع الحق لا يبالي، كذا قد علّمتنا، وكذا علمك

رسول الله، وإن للحق حلاوة لا يعرف عذوبتها إلا من اختاره الله، ومن أرشده وهداه، وقرّبه وأدناه، حتى أضحى لا يعدل بالحق سواه.

. . . أما الأشتر، فذاك هو الموت الأحمر، فقد كان فارس صفين بلا منازع، . . . رجل في نحو الستين من العمر، قد عُجنت طينته بأنوار الولاية، وبلغ من الزهد والتقى والورع الغاية، يدافع بنفسه لا بترسه، ويقاتل بروحه لا بسيفه، قد وضع حب الإمام ونصرته نصب عينيه، فما كان يزيله عن مكانه إن تقدم شيء، . . .

أجل، لقد رأى العباس في صفين، صنفين متباينين من الرجال في عسكر أبيه، فقوم ضعفاء الرأي يتقوون على القتال بعصبياتهم، يؤمنون برأيهم ورأي قادتهم أكثر مما يؤمنون برأي الإمام، وأولئك هم الأكثرون، . . . وقوم راسخون كالجبال، لا تزيحهم عن مواقفهم حتى أعتى الأهوال، يقاتلون بأرواحهم ويفدون الحق ولا يترددون، وهم بالإمامة والولاية مؤمنون، يفقهون ما يفعلون، وهم بأمر أمير المؤمنين مؤتمرون، لا يسألونه عما يفعل، وهم يُسألون، وأولئك كانوا قلة في العدد، وبهم كانت الغلبة في حرب الجمل، ولكن صفين كانت أكثر هولاً، وكان الخصم فيها أدهى وألعن، حتى قال فيه أمير المؤمنين:

ـ ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر!

[ولعل من أبرز ما احتال به معاوية في صفين، سوى حيلته إذ أرسل عبيد الله بن عمر إلى الحسن عليه السلام حتى جرى بينهما ما جرى، حيلتان أخريان، أولهما كانت إيعازه إلى عمرو بن العاص بإرسال كتاب إلى عبد الله بن عباس يقول له فيه:

ـ . . . أنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر في ما بقي ودع ما مضى، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع، او مؤتمن مشاور وهو أنت».

ثم كتب له أبيات في أسفل الكتاب يمتدحه فيها ويرفع من شأنه ويحبب إليه السلم، بل الاستسلام.

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام فضحك وقال:

ـ قاتل الله ابن العاص، ما أغراه بك يا ابن عباس؟

ثم عطف عليه بقوله:

ـ أجبه على كتابه، وليردّ عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر.

فكتب ابن عباس إلى عمرو:

ـ أما بعد فإني لا أعلم في العرب رجلاً هو أقل حياء منك، إنه مال بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير، وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلي، ابتدأها علي بالحق وانتهى بها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى بها إلى السرف، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم، وبايع معاويةَ أهل الشام وهم خير منه، وليس أنا وأنتَ فيها بسواء، أردتُ الله وأردتَ مصر، فإن ترد شراً لا نسبقك إليه، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه.

ثم قال لأخيه الفضل:

ـ يا ابن أمّ، أجب عمراً.

فنظم الفضل شعراً رد به على عمرو فأفحمه.

ولكن معاوية لم ييأس، فكتب إلى ابن عباس بنفسه، وقد ظن أنه إن أطمعه بالخلافة نال منه مراده، كما فعل بالزبير حين بايعه فأوقعه في شركه، وشجعه على المضي قدماً في نكثه لبيعة الإمام ومن ثم في حربه، حتى لقي ما لقي. وختم معاوية كتابه إلى ابن عباس بآخر سهم في جعبته:

ـ وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع.

فلما انتهى الكتاب إلى ابن عباس أسخطه، ورد عليه رداً غليظاً حتى وصل إلى قوله:

ـ . . . وقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله ويخاف ما بعده، وأما قولك أنه لوبايع لي الناس لاستقامت لي، فقد بايع الناس لعلي وهو خير مني فلم يستقيموا له، وما أنت يا معاوية والخلافة، وأنت طليق وابن طليق؟!

وكان ذلك آخر المطاف بينهما، إذ علم معاوية أن الرجل لا يُخدع.

وأما الحيلة الأخرى، فكانت إيعاز معاوية إلى أخيه عتبة أن يلقى جعدة بن هبيرة المخزومي، ابن أخت الإمام، أم هانئ بنت أبي طالب، . . . وكان لجعدة في قريش شرف عظيم وكلمة مسموعة، وكان من أحب الناس إلى الإمام، فغدا عليه عتبة فناداه، فاستأذن الإمام بالخروج إليه فأذن له، فجعل عتبة يخاطبه والناس يسمعون، وكان مما قاله:

ـ يا جعدة، إنه والله ما أخرجك علينا إلا حب خالك علي وعمك أبي

سلمة، . . . فوالله ما بالشام رجل به طرف إلا وهو أجد من معاوية في القتال، وما بالعراق من له مثل جد علي بالقتال، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبك.

فرد عليه جعدة بقوله:

ـ أما حبي لخالي فوالله لوكان لك خال مثله لنسيت أباك، وأما عمي فلم يصب أعظم من قدره، وأما قولك أنه ليس بالشام من رجل إلا وهو أجد من معاوية وليس بالعراق لرجل مثل جد علي، فهكذا ينبغي أن تكون، . . . مضى بعلي يقينه وقصّر بمعاوية شكه، وقصد أهل الحق خير من جهد أهل الباطل، وأما قولك نحن أطوع لمعاوية منكم لعلي، فوالله لا نسأله إن سكت، ولا نرد عليه إن قال، وأما قتل العرب، فإن الله كتب القتال، فمن قتله الحق فإلى الله!

فغضب عتبة وفحش على جعدة، فلم يجبه، وجمع كل منهما رجاله فاقتتلا، وباشر جعدة القتال بنفسه، بينما جزع عتبة فأسلم خيله وهرب، وحظي جعدة بها عند الإمام.]

. . . كان ذلك دأب معاوية، أن يحاول تأليب أصحاب الإمام عليه وأن يشتت كلمتهم، بالإغراء تارة وبالتهويل تارة أخرى، وبالمكر والخديعة في كل الأحوال، ولكن الخلص من أصحاب الإمام لم تكن تنطلي عليهم حيله وألاعيبه، فكان أمره يفتضح، ويعود عليه مسعاه بالخزي والهوان.

***

لم تكن نذالة معاوية وجبنه ليقفا عند حد، لا في خداعه وتزييفه الحق

ونفاقه فحسب، بل في قلة مروءته أيضاً، ولعل خير شاهد على جبنه وتضعضع نفسه ووضاعتها، أمام شجاعة الإمام وسموّ نفسه وعلوّ همّته، حادثة جرت على أرض المعركة بصفين، محورها [دعوة الإمام لمعاوية إلى النزال بقوله وهو يناديه بين الصفين:

ـ ويحك يا معاوية، علامَ يقتتل الناس بيني وبينك، أبرز إليّ فأينا قتل صاحبه كان الأمر له!

لم يتجرأ معاوية على التجاوب مع تلك الدعوة، رغم أنه استنصح مستشاره عمرو بن العاص، الذي أجابه:

ـ لقد أنصفك الرجل، واعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي.

ولكن معاوية رد بقوله:

ـ يا عمرو ليس مثلي يُخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه!

. . . وانسحب معاوية إلى آخر الصفوف]، غير مبالٍ بصورته المهلهلة المتهاوية التي عكستها صفائح السيوف في ذلك اليوم الأغبر، فقد كانت عنده السلامة هي الأهم.

. . . لا بد أن العباس رأى موقف معاوية ذاك، ورأى كيف ينضح الإناء بما فيه، إن جبناً فجبناً وإن شجاعةً فشجاعة، ولا بد أنه أيضاً رأى كيف يشهد حتى العدو ببطولة أبيه الضرغام، وكيف لا يفعل، ولا يختلف على بطولة الإمام وشدة بأسه اثنان؟!

أما عمرو بن العاص، فكان مثالاً آخر على الجبن لم يشهد مثله التاريخ ولا شهد العباس كذلك، ولقد ذهب فعله حين واجه الإمام للقتال مذهب الأمثال.

[لقد تعرض عمرو للإمام إبان الحرب وظن أنه ينال منه غرة فيصيبه، فحمل عليه الإمام، ولما كان قاب قوسين أوأدنى من شفرة ذي الفقار المرهفة التي كادت تزهق روحه، كشف عن سوأته، فصرف الأمير وجهه عنه فولّى هارباً ينجو بنفسه.]

تالله يا عمرو، لئن نجوت بنفسك في تلك اللحظة من حد سيف الحق، فلقد أغرقت نفسك أكثر فأكثر في يم الضلالة، ولقد حاربت بسلاحك، فبئس الحرب والمحارب والسلاح، وبئس الوعد الموعود!

***

... كان يوماً غريباً، وكانت ليلة أغرب.

لم يكن ذلك لأن الحرب كانت طاحنة هدّارة، لا تبقي ولا تذر، فكل أيام تلك الحرب كانت كذلك، وإن كان ذلك اليوم هو أشدها، ... ولكنه كان غريباً فحسب، حتى دعاه الناس بيوم الهرير، ودعَوا ليلته بليلة الهرير.

... [كان يوماً من أيام الشعرى طويلاً شديد الحرارة،]...

ولعل أم البنين وقفت إلى جانب زينب في ذلك اليوم، تنظر في وجهها القلق الذابل، فيزداد قلقها وذبولها، وتسألها:

ـ سيدتي زينب، أترين إلى هذا اليوم الشاحب المصفرّ، أترينه يأتينا بخير؟

ولعل زينب إذ تنظر إليها، تطأطئ رأسها لتخفي دمعتها وتجيب:

ـ أماه، يا أم البنين، . . . ليس لنا إلا أن نتفاءل بالخير، ولن يصيبنا ما دمنا على الحق إلا الخير!

ولعل عجاج المعركة، لولا بعد المسافة والشقة، كان ليصل إلى أسماعهما، . . . ولعل غبارها المتلبد كان ليصل إلى أبصارهما، فقد كان يوماً عظيماً، . . . ولعل أم البنين مدت يمناها مفتوحة مشرعة صوب السماء، ووضعت يسراها على بطنها، الذي كان يضم كنزاً آخر من كنوز آل محمد، . . . وتوسلت إلى الباري، . . . وكأني بها تذرف الدمع سخيناً وهي تتوسل، ثم تسترد نظرتها السابحة في ذلك الفضاء الأربد، وتلتفت حولها وهي تشعر بجذبة ما!

هل كان صغيرها عثمان يمسك بذيلها، بينما جلس عبد الله على مقربة يراقبها، وقد جمدت نظرتهما الصافية على وجهها، وراحت دموعهما تنسكب على وقع دموعها؟!

هل طار قلبها شعاعاً، فأكبّت على ولديها تضمهما وتقبلهما، تتنشق في عبير أنفاسهما أنفاس الغائبين، . . . لشد ما يمضّها الشوق إليهم، ولشد ما ينقبض فؤادها إذا عاينت من حولها من نساء الكوفة والأنصار، إذ ترى في حديثهن مرآة لحديث رجالهن، من جند الإمام، . . . لقد كانت بعضهن تتذمر لطول الحرب وبعد الأحبة، وربما خطر لإحداهن أن تسِرّ إلى الأخرى بحديث طويل، قد لا تسمعه الهاشميات ولكنهن يعرفن فحواه، . . . لقد تراخت العزائم، وتهاوى الصبر عند الكثيرين.

تُرى، هل سيكون المحافظون على صبرهم والراسخون في عقيدتهم قادرون على المتابعة؟! بل هل سيكون للإمام من هؤلاء عدد كافٍ يستطيع به مجابهة الباطل، الذي لم يكن يحاربه في صورة جند معاوية فحسب، بل كان يتغلغل في أوساط جنده أيضاً، تغلغل النار في الهشيم، أو كما يدخل السوس في الحب فيتلفه ويفنيه؟!

كان الجواب هناك، بين كثبان تلك الصحراء المتلاطمة رملاً وبشراً، وبين ثنايا تلك الحرب الضروس التي أكلت العرب ولا تزال، وبين ساعات ذلك النهار القائظ الطويل، والليلة التي تليه، . . .

[كانت المعركة قد بدأت بعيد صلاة الفجر، بدأها الإمام بتسوية صفوف جيشه، فكان الأشتر على الميمنة، وابن عباس على الميسرة، وهو يصول في القلب ويجول، ويذهل بصولاته وجولاته القلوب والعقول.

وتشابك الجيشان، وترامیا بالنبل حتى فنيت النبال، وتطاعنا بالرماح حتى تقصفت واندقت، ثم كان الهجوم بعمد الحديد والسيوف، وقد كسر المقاتلون جفونها، فلم يعد السامع يسمع إلا تغمغم القوم وتكادم الأفواه وصليل السيوف في الهام ووقع الحديد بعضه على بعض.

. . . وزاد من هول الموقف أن الشمس انكسفت، وثار القتام وضلت الألوية والرايات، فاجتلد الجند بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى منتصف الليل، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يُسجَد لله فيهن سجدة ولم يُصلى لله صلاة إلا تكبيرا.

ثم استمر القتال من منتصف الليل إلى ارتفاع الضحى.

ثم افترق الجيشان على عدد هائل من القتلى لم يُسمع بمثله من قبل.]

. . . ولا بد أن العباس في تلك المعركة كان يشد أزر والده وسيديه الحسنين، ويحارب في ظلهما، يجندل الأبطال ويبلي بلاءً حسنا.

على أن نداءً ما كان يتردد في صفوف الجيشين إبان المعركة، نداء، لعله لفت انتباه العباس وملك عليه مشاعره، وربما دمعت له عيناه، رغم أن الموقف كان موقف حرب وقتال وجهاد عصيب، أبعد ما يكون عن التأثر والدموع.

لم يكن النداء نفسه هو ما أثر في العباس إلى ذلك الحد، رغم كونه مؤثراً، . . . ولكن، لعل الدموع التي لا بد اغرورقت بها عيون الحسنين أيضاً، وعينا أمير المؤمنين، كانت هي السبب، . . . [لقد نادى المقاتلون في تلك الغمرات:

ـ يا معشر العرب، الله الله في الحرمات من النساء والبنات! . . .]

كان مشهد ما يطل من آفاق المستقبل، مشهد كالح دام، هو أشد كلوحة ودموية وإيلاماً من مشهد هذه الحرب، . . . وكانت الأحداث تخاطب وجدان الحسنين وأبيهما، والعباس أيضاً، وربما تحملهم جميعاً على ذرف الدموع.

[على أن الحرب المستعرة على أرض صفين كانت تزداد استعاراً، وكان أمير المؤمنين قد قاتل قتاله المعروف، منذ الفجر حتى الظهيرة، لا يهدأ ولا يستكين، . . . كان يدخل بسيفه ذي الفقار بين الصفوف فلا يخرج به إلا منحنياً فيقول:

ـ معذرة إلى الله وإليكم من هذا، لقد هممت أن أفلقه، ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيراً «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار»، وأنا أقاتل به دونه.

وكان يدفعه إلى أصحابه فيقوّمونه، ثم يتناوله من أيديهم فيقتحم به الصفوف من جديد، حتى كان ما أصابه بسيفه في ذلك اليوم أكثر من أن يعده العادّون!

. . . ولما ارتفعت الشمس في كبد السماء، وقام قائم الظهيرة، التفت الإمام إلى جنده محفّزاً إياهم على مناجزة الأعداء، وقد رأى من بعضهم تقاعساً وتهاوناً، وهتف يقول:

ـ حتى متى نخلي بين هذين الحيين قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون إليهم؟! . . . أما تخافون مقت الله؟!

ثم إنه توجه إلى القبلة ورفع يديه نحو السماء منادياً بصوت خشعت له قلوب المؤمنين وارتعدت له قلوب المنافقين:

ـ يا الله يا رحمن يا أحد يا صمد يا الله يا إله محمد، أللهم إليك نُقلت الأقدام، وأفضت القلوب ورُفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطُلبت الحوائج، إنا نشكو إليك فقد نبينا ﷺ، وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا، . . . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

. . . واستمر القتال إلى منتصف الليل، لا يهدأ ولا يستكين.]

لكن العباس رأى من أبيه في ذلك اليوم عجباً، . . . لم يكن العجب في

شدة بأسه وبطولاته التي لا يقاس بها أحد من البشر، لا ماضياً ولا حاضراً ولا في قابل الأيام والدهور، . . . ولا في شدة صبره وحكمته، حتى استطاع أن يقود ذلك الجيش المتفكك الأوصال المتشتت الأهواء إلى ما أحرزه على أرض الميدان، حتى كان قاب قوسين أو أدنى من النصر!

لم يكن العجب في أي من خصال الإمام التي تدعو إلى العجب كل العجب، فقد كانت صفاته هو بالذات، صفات علي بن ابي طالب أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم!

ولكن العجب العجاب، كان في [وقوف الإمام، في جوف تلك الليلة الظلماء المجلببة بالدماء، العابقة بعجيج الحرب الشعواء، . . . أن يُقام له نطع بين الصفين، ليصلي!! . . .

نظر جند الإمام مذهولين إليه، وتحلق بعض من مخلصي شيعته حواليه، يذبون عنه السهام المنهمرة من كل حدب وصوب، تمر قربه وتكاد تلامس شخصه الكريم، فلا يطرف له جفن، ويؤدي نافلته عن آخرها، حتى إذا ختم صلاته، التفت عن عبادته لباريه، إلى عبادته الأخرى، ذلك الجهاد الذي حمل به الموت الزؤام، إلى كل من سولت له نفسه التعرض لسيفه]، فقد كانت شفرتا ذي الفقار بمثل رهافة الحق الذي تدعوان إليه ولذا فقد كان لا بد لكل من كاد لذلك الحق وخالفه وناصبه العداء، أن يحتكم لحكم السيف الذي لا يفوقه عدلاً إلا عدالة صاحبه!

[. . . وانقضت ليلة الهرير، وأصبح الصبح وقد خاض الأشتر الحرب حتى ناصيته.

ولعل الأشتر كان من أكثرأصحاب الإمام بلاء في تلك الحرب، كان يقاتل على فرس له، وفي يده صفيحة يمانية فإذا طأطأها خلت الماء فيها منصباً، وإذا رفعها يغشى البصر شعاعها، وكان يزحف برايته ورجاله نحو أهل الشام زحفاً ما رأت العرب مثله، فيرمي رمحه وينادي:

ـ ازحفوا قيد رمحي!

فإذا فعلوا رمى نبله ونادى فيهم:

ـ ازحفوا قاب قوسي!

... ثم يعيدها كرة أخرى، حتى وصل بأصحابه بعيد الصبح إلى معسكر معاوية.

ولما رأى الإمام الظفر قد جاء من قبل الأشتر، أخذ يمده بالرجال.

أما معاوية، فهو قد رأى الهزيمة مقبلة بين سيف الأشتر ورمحه وقوسه، فلجأ إلى مشورة ابن العاص مستنجداً، فأشار عليه ذاك الأخير بحيلة لا يفكر فيها إلا من باع نفسه للشيطان، لقد رد عمرو على معاوية بقوله، وكان محقاً:

ـ يا معاوية، إن رجالك لا يقومون لرجال علي ولست مثله، فهو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم، ولكن، ألقِ إليهم أمراً، إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا!

أخذ معاوية بمشورة شيطانه، وإذا بأصحاب الإمام يصبحون من ليلة الهرير وقد برزت عليهم فلول جيش معاوية وقد جملوا أشباه الرايات!

فلما أسفر الصبح إذا هي المصاحف قد رُبطت على أطراف الرماح، . . . كانت خمسمئة مصحف، مئة في الوسط، ومئتان في كل مجنبة، ومصحف المسجد الأعظم قد ربط بثلاثة رماح وأمسكه عشرة رهط!

ونادى أصحاب معاوية:

ـ يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

نظر أصحاب الإمام بعضهم إلى بعض وهم متحيرون، واختلفوا في الرأي، فطائفة أرادت متابعة القتال، وأخرى أرادت المحاكمة إلى الكتاب.

أما الإمام، فقد رمق السماء مناجياً ربه وقد رأى اختلاف أصحابه، وعلم أنها حيلة احتالها معاوية وعمرو، وانطلت على أهل العراق.]

ترى، هل كانت صورة سعيد بن قيس تتراءى، وتتداخل في صورة مسلم بن عبد الله، وتتلألآن في لوحة واحدة تقطر دماً، فوق تلك المصاحف التي تحملها أسنة لم تجف عليها بعد دماء المؤمنين؟!

[وهتف الإمام يقول مبيناً الحق لأصحابه:

ـ أللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين.

وأقبل عدي بن حاتم نحو الإمام وهويقول:

- يا أمير المؤمنين، لقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب، فناجز القوم.

فيما قام الأشعث بن قيس مغضباً ليقول:

- يا أمير المؤمنين، أجب القوم إلى كتاب الله، فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال.

كان ذاك أسوأ ما قاله الأشعث، من كلام ظاهره النصح وباطنه الكيد للمؤمنين، وهو من عرف بمثل ذلك قبلاً، ولا شك في أن معاوية استمالة قبل ذلك حتى كان له نصيراً وعضداً يفل في عضد جيش الإمام، ويحملهم على التخاذل والعصيان.

... علم الإمام أن جيشه قد تهاوى، إذ لم يقل بقول عدي إلا القليلون، ومال معظم الناس إلى رأي الأشعث، فرد الإمام بقوله غضبان أسفا:

- إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، إني كنت بالأمس أمير المؤمنين فأصبحت مأموراً.

ثم إنه مال إلى أهل العراق ناطقاً بحكمه:

- عباد الله، أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله، إنها كلمة حق يراد بها باطل، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يُقطع دابر الذين ظلموا.

.. نظر أولئك القلة المخلصون من أصحاب الإمام، ونظر الحسنان

والعباس حولهم، فما راعهم إلا جمع غفير من جند الإمام، ما يناهز العشرين ألفاً، مقنعين بالحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم، قد اسودت جباههم من السجود، وقد ارتدّوا من الحرب باتجاه الإمام، وهم ينادونه باسمه دون إمرة المؤمنين، ويقولون بنبرة خشنة:

ـ يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله، إذ دُعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم![

لا بد أن أولاد الإمام، وأصحابه الخلص، تلك الفئة القليلة التي تعرف حق إمامته، لا بد أنهم غضبوا أشد الغضب لاستباحة حرمة الإمام، لا بد أنهم تهيأوا للرد وللقتال دفاعاً عنه ضد أولئك المارقين المنافقين، ولكن، لا بد أن الإمام ردعهم، وإن كان قد تزايد غضبه على أولئك الجاحدين، [فهتف بهم مبيناً لهم ما اختُلف فيه من الحق:

ـ ويحكم، أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون!

. . . لم يعتبر القوم بنصح الإمام، ولم يزالوا به حتى سألوه أن يبعث إلى الأشتر ليأتيه.

علم الإمام أن الفتنة قد وقعت، وأن الأمر قد قضي، ولا مجال للإستمرار، فأرسل يزيد ابن هانئ إلى الأشتر، فأتاه فبلّغه.

ذهل الأشتر، وربما ظن أن الأمر ليس أمر الإمام، بل لعله كان موقناً من ذلك، فأشار إلى يزيد بالعودة إلى الإمام وإخباره أن الفتح قد صار قاب قوسين أو أدنى.

ولما عاد يزيد إلى الإمام بذلك الخبر، اشتد الأمر على المارقين من جنده وقام قائمهم يخاطب الإمام بكل وقاحة وصلافة:

ـ والله ما نراك إلا أمرته بالقتال.

غضب الإمام على أولئك الجاحدين لتكذيبهم إياه وهو صنو الصادق الأمين، وهتف بهم:

ـ رأيتموني سارت رسولي؟!... أليس إنما كلمته علانية على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟!

فرد القوم بقولهم في إصرار لا يريم، على التراجع والنكوص:

ـ فابعث إليه فليأتك، وإلا فوالله اعتزلناك وأسلمناك!

فقال الإمام ليزيد، وقد امتلأ غيظاً وحنقاً على أولئك السفهاء:

ـ ويحك يا يزيد، قل له أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت!

وما أسرع ما أطاع يزيد أمر إمامه،...]

وما أشد ما كانت تلك اللحظات على الإمامين الهمامين، وعلى أخيهما وخادمهما العباس، وعلى جميع أولاد الإمام، والخلص من الهاشميين والأصحاب.

لقد رأوا بأم العين والقلب، كيف يصل الشراب العذب إلى فم الظامئ اللاهب، بعدما بذل في سبيل الوصول إليه النفس والروح والدم، وإذا بيد الغدر والطمع والهوى تزيح الشراب جانباً، بل تريقه أرضاً وتدوسه، وإذا كل ما بُذل وأُريق من مهج ودماء قد ذهب هباءً منثورا.

كان أمراً مؤلماً أشد الإيلام أن تُخاض حرب بمثل تلك الضخامة وذلك الهول، وأن تتوقف وتتكبل بسلاسل النفاق والغرور، هكذا، وبلا سبب، سوى تمسك أهل الجهل بقشور الإيمان ومظاهره دون لبه وجوهره، وتمسك أهل البغي ببغيهم وخديعتهم لمن هم دونهم.

لقد ترك أولئك المغترون الجهلة، قرآنهم الناطق، ولحقوا بما أراده لهم ابن العاص.

لقد عصَوا أمر إمامهم، ولو علموا حقه عليهم لما عصَوه، . . . لو عرفوا أن رأيه أبلغ من رأيهم، وأن عليهم التسليم لحكمه، لما زالوا عن مواقعهم ولما التبس عليهم الأمر ولما انطلت عليهم الحيلة.

لقد تمكن ضعف الإيمان والنفوس من أولئك المارقين، فجنح بهم عن الصراط المستقيم، فضلوا السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

[أما الأشتر، فقد وصله يزيد وهو يشرف على عسكر معاوية، لم يبقَ بينه وبين الفتح إلا كمثل عدو الفرس!

نقل يزيد إلى الأشتر رسالة الإمام وأمره، فارتاع الأشتر، . . . ارتاع لما يُراد بإمامه، وارتاع للنصر الذي هلت بشائره، وكادت ثماره تُجنى شهية مستساغة، وإذا بذلك الأمر يقف حائلاً بينه وبين ما يريد!

تململ الأشتر وقد مزقه تخاذل القوم ووهنهم في اللحظة الأخيرة وهتف يصيح بهم:

ـ يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم فظنوا أنهم لكم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! . . . قد والله تركوا ما أمر

الله فيها، وسنّة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم، . . . أمهلوني فواقاً فإني قد أحسست الفتح!

ولكن القوم رفضوا، فهتف بإصرار يقول:

ـ إذاً فأمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر!

لم يغيّر إصرار الأشتر على الحق من إصرار القوم على باطلهم، فكان جوابهم له:

ـ إذاً ندخل معك في خطيئتك!!]

تهاوى فؤاد الأشتر، ولولا أن يُقال أنه انهزم لتهاوى معه، . . . لقد علم أي هاوية سقط فيها الإسلام على يد أمثال هؤلاء، الذين لا يفهمون من الإسلام إلا ما مثّلت لهم أهواؤهم وأوهامهم.

وانسحب يجرر أذياله، يثقل خطاه الوهن من هول المصاب، إذ تراجع وهو قيد شعرة من النصر، ويخف به شوقه إلى إمامه وقلقه أن يغدر به أخصامه.

[كانت الجموع الصاخبة تنتظر عودة الأشتر، حتى إذا أطل وقد لطّخت ثوبه وعمامته ووجهه ودرعه دماء المنافقين،] وراح يجول بعينين دامعتين حنقاً وغيظاً وأسفاً وأسى بين الحشود، يبحث عن الإمام وأهل بيته، وهو إن رآهم سالمين لم تعد تعنيه حتى سلامته، ولما رأى الإمام، قد وقف بين الحشود، شمساً تغالب الظلام، ونوراً متألقاً فتاناً لا تراه عيون العميان، [رفع عقيرته مخاطباً أولئك المنهزمين قسراً]، الذين شرَوا الهزيمة بلا بيان ولا برهان، . . . كان صوته يشق أجواز الفضاء، يعنف ويؤنب، فيكاد

يحمل في شراراته المضطرمة نيران قلبه المتأججة، وشظايا فؤاده الممزق:

ـ [إيه يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلّالة، ما أنتم رائين بعدها عزاً أبدا، فأبعدوا كما بعد الظالمون.

ورد القوم على الأشتر يشتمونه، وكادوا يلتحمون، ولكن الإمام صاح بهم أن يكفّوا، فكفّوا!]

. . . ولم يبقَ بعد ازدراد الطعم المسموم إلا إساغته، ليكتمل سريان السم في جسم الأمة، ويتم بعد ذلك سحب أحشائها وتفريغها من كل جوهرها، لتصبح ظاهراً بلا باطن، . . . ألا ساء ما يفترون.

وبعد أخذ وردّ، خُتمت المكيدة باتفاق هو أسوأ من الاختلاف، [لقد رأى قراء أهل العراق أن يعينوا حكَماً لهم، هو أبو موسى الأشعري، ورأى قراء أهل الشام أن يعينوا حكمهم عمرو بن العاص.

. . . لم يرضَ الإمام بأبي موسى، لسابقته في تخذيل الناس عنه وتأليبهم عليه، ولأسباب أخرى، وأراد لهم عبد الله بن عباس، فعصى القوم إرادة الإمام مجدداً، وأصروا على أبي موسى، فاقترح عليهم الأشتر، فرفضوه أشد من رفضهم لابن عباس، فتطوع الأحنف بن قيس، فوافق عليه الإمام، ولكن الأشعث الكندي وأصحابه لم يوافقوا إلا على أبي موسى.]

علم أصحاب الإمام وأهل بيته، كما علم الإمام، أن المكيدة تُحاك خيوطها بكل مهارة، من أولئك المغترين الذين تسلموا زمام أمر ليسوا على

قدره، وقد راح معاوية وشيطانه عمرو يحركون الأحداث بأصابعهم الخفية على عيون البسطاء، الظاهرة لعيون من كان له بصيرةٌ وحجىً وقلب سليم.

قرأ العارفون حول الإمام ما جاء في صفحته، وعلموا ان الأمر سيستقر على ما يريده الظالمون، . . . لقد حاولوا جاهدين أن يوضحوا ملابسات القضية لمن حولهم، ولكن سدى، فقد أعشى ذهب معاوية من ناحية، ولقلقة لسان ابن العاص من ناحية أخرى، ولقلقات ألسنة المدعين «الحكم لله» من كل النواحي، أعشت عيون الناظرين وأصمَّت أسماع السامعين، فلم يكن من الكلام منفعة، حتى يبرهن الزمن الوقائع والأحداث التي تتمخض عنها الفتنة، وهو إن فعل، وسيفعل، وكان الندم، وسيندمون، فلات ساعة مندمِ.

***

. . . كانت الدرب إلى الكوفة صفراء شاحبة، تلوح على جنباتها بقايا نخل ذابل وطلع معروق.

حتى السماء بدت صفراء في ذلك اليوم، يملأ أجواءها عبق ولا يتغلغل في أوساطها شبه شعاع!

كان النور خفياً خلف سجف سميكة من غبار وصديد، وقد خيّم على المكان صمت كئيب، . . . حتى قافلة أمير المؤمنين التي كانت تضمه وصحبه وأولاده، كانت تمشي بهم الهوينا وتخط آثارهم على الرمال كآثار قيود وأغلال، ولكن هيهات، ما كان للإمام أن تقيده أو تغله كل قيود الدنيا ولو اجتمعت، ولكن، هي الخيانة تجري في عروق الخائنين، فتدفعهم إلى

حيث يتنكرون للإيمان والمؤمنين، ويتبعون زيف أهوائهم، فيدفعون الأثمان باهظة بعد حين!

أجل، لقد خرج الإمام من الكوفة محفوفاً بالرجال، قد تهيأوا للجهاد والقتال، يتنافسون لإرضائه ويبذلون النفس والمال، قد وضعوا النصر نصب أعينهم عند النزال، ولكنه عاد إليها بعد زهاء ثلاثة شهور، يجر فلول رجاله وخيبة آماله، لا لهزيمة مني بها، بل لخذلان وكفران، وكان ذلك أسوأ من أي هزيمة.

. . . ولعل العباس بكى مراراً أثناء الطريق، بكى لرؤية وجه أبيه المتكدر ونظرته المتطايرة هنا وهناك بين الأرض والسماء، يرى ضلالة من حوله وانتقاض البنيان، الذي يسعى جاهداً لإعماره، . . . يرى كيف يأمر فلا يطاع، ويُعصى ويهان، وهو أمير الحق وصاحب الرأي والبرهان، . . . كان صعباً على العباس أن يسيغ تلك الأحداث الجسام، وأن يتقبل مرأى والده، بل سيده ومولاه وإمامه، بل كل سادته ومواليه، على تلك الحال، وهم من هُضمت حقوقهم على مر السنين، حتى إذا كاد يبلغ الحق مقطعه، وحصحص، وكاد يُسترد بعضه، كشرت الدنيا عن أنيابها، وبذلت من نتن لعابها الشراب لطلابها، فأقبلوا يرتشفونه بنهم لا يريم.

. . . كان العباس يعلم أن «حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان في قلب واحد» كما قال رسول الله ﷺ، و«أن حب الدنيا أصل كل خطيئة وأول كل ذنب»، وأنه «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة لما أعطى الكافر منها شيئاً».

كان العباس يعرف كل ذلك ويتخذه نهجاً تربى على هداه، . . . ولكنه كان يعرف أيضاً أن أباه ما كان يريد الدنيا حين خرج، أن الدنيا ما كانت تساوي عنده «كسر درهم»، «إلا أن يحق حقاً أو يبطل باطلاً»، أن أباه قد «طلق الدنيا ثلاثاً»، وخاطبها بملء وجوده الملكوتي «يا دنيا غري غيري!»

إذاً، فالعباس ما كان ليبكي خسارة أبيه أو هزيمته، فعليٌّ ما هزمه أحد قط، وسيفه في يمينه، «إن علا قدّ وإن اعترض قطّ»، وعلي ما خسر إذ تراجع جيشه، بل هو جيشه، هم المسلمون أجمعون، قد خسروا ولا زالوا يخسرون، ما كادوا يربحونه لو تبعوه!

وكان الخسران المبين من نصيب أولئك المارقين، الذين أمروا أميرهم وعصَوا إمامهم، وأرادوا أن يُملوا عليه شروط ذلك الاتفاق الذليل!

. . . كان الإمام يعلم مسبقاً أن التحكيم المزعوم هو شكل وادعاء، للوصول بالحكم إلى ما أراد معاوية وشاء، ولذا فقد كانت الحسرة أعظم في قلوب الحسنين والعباس، وقلب الأمير، أن كيف يُحرم المؤمنون ما كادوا يحوزون، وكان ما يزيد الحسرة عمقاً أن الإمام يدرك كل هذا، وينبئ به، ولكن القوم لا يسمعون ولا يفقهون.

لقد نهج الإمام في طريق العودة غير طريق الذهاب، فقد كانت طريق الذهاب ذهاباً نحو إحقاق الحق وإبطال الباطل، أما طريق العودة فكانت عودة من نصر كاد يتحقق، إلى خذلان ليس يُصدق، . . . أما الحق فلم يسمح أهل الباطل له بأن يتحقق، وكانت النتيجة أن النفاق في القلوب تعمق، حتى لبس لبوس الإيمان وتزيى بزيه وتمنطق، وتشابهت الأمور

وكادت تلتبس على أهل الحجى، لولا أن يتمسك المؤمن بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، فيعتصم به من الزلل والشبهات، ويفهم العبرة مما مضى، ويستقبل ما هو آت، بالصبر والثبات.

وعندما وصل الإمام إلى الكوفة، كان ذكر الله لا يبرح لسانه مذ خرج، واستقبله نوح النساء بدل إنشادهن حين خرج، . . . فقد كانت العيون عبرى والأكباد حرى، بعد قتل الرجال والبنين، . . . ولكن عيون نساء بني هاشم، عيون بنات الزهراء وأم البنين، التي اكتحلت بمرأى طلة الأحباب بعد طول غياب، كانت تذرف الدموع، . . . لم تكن دموع فرحة، فلم يعد للفرح في القلوب نصيب، بل دموع أسف ولوعة، أن كيف كانت العودة على غير ما يأملون، . . . لقد سقط الشهداء وترملت النساء وأُيتم الأطفال، . . . وذهب كل ذلك مع الهباء، بل ما هو أقل انعداماً من الهباء، فقد كان الخذلان يحز النفوس، مثلما احتزت سيوف آل أبي سفيان، الأجسام والضمائر والرؤوس!

ولكن، يبقى ظل الحق ظليلاً وارفاً تأوي إليه الأرواح، وتلتجئ إليه وترتاح، . . . ورب ظل هو نور يستضيء به الضالون في بحر الظلمات، وهو نفسه شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا بالنور والشجرة والظل تندمج جميعاً، ليكون ذاك الحق الحقيق، والفاروق الصدّيق، الذي «لم يترك له الحق أي صديق».

[لقد وصل أمير المؤمنين إلى الكوفة متجهم القسمات مكفهر النظرات، وقد تجهم لتجهمه البشر والحجر والنبات، واكفهرت لاكفهراره الأرضون والسماوات، . . . وأبناؤه الميامين يحفون به كالكواكب إذ تحيط بالشمس،

إلى يمينه الحسن وإلى يساره الحسين، وخلفه العباس ومحمد وسائر الهاشميين والأصحاب، حتى إذا سمع من بعض من حوله، من أهل الكوفة المقيمين، أو ممن التقى بهم على الطريق، من يلومه ويعتب عليه كفّه عن القتال، وينسب إليه سوء التدبير، وأنه قد هدم وفرق، وأنه كان عليه أن يمضي بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه، كان ذلك أوجع لقلبه الكبير، وقلوب أحبته، وكان جوابه المقرح المفحم في آن، المفعم بالحسرة على كر الزمان:

ـ أنا هدمت أم هم هدموا؟! . . . وأنا فرّقت أم هم فرّقوا؟! . . . وأما قولهم «لو أنه مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه»، فوالله إن كنت سخي النفس بالدنيا طيب النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام، فنظرت إلى هذين قد استقدماني، . . .

وأشار إلى الحسن والحسين عليهما السلام ثم تابع:

ـ فعلمت أنهما إن هلكا انقطع نسل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة!

كانت تلك مرة من المرات العديدة التي عض فيها الإمام على الجرح النازف، وابتلي بالصبر في سبيل حفظ الدين، واضطر إلى إغماد السيف قمعاً لفتنة يُرجى بها محو الإسلام الذي بذل مهجته في سبيله، . . . كان أهل الكوفة، عدا الخارجين عليه، رجلان، رجل يقول كما قال من رد عليهم آنفاً، وأولئك الأكثرية، ورجل يقول كما قال الأشتر، حينما دُعي ليشهد كتاب الصلح، الذي كُتب بين الإمام ومعاوية، بعدما أُكره الإمام عليه إكراهاً، حتى لم يكن من القبول به بد، لقد قال الأشتر:

ـ أولست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي؟! . . . أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور، . . . ولكن رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين، ودخلت في ما دخل فيه وخرجت مما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في هدىً وصواب!] .

كان ذلك التسليم المطلق من الأشتر للإمام، نادراً في أصحاب الإمام، ولكنه كان موجوداً.

. . . لقد كان العباس يدرك ويزداد إدراكاً، يوماً بعد يوم، أن الحسنين هما نسل محمدﷺ، والبقية الباقية من آل محمد، وأن بهما بعد أبيهما استمرار الرسالة والولاية والإمامة، وأن حفظهما حفظ للوديعة الأحمدية على الأرض، ولذا فقد كان حفظهما عنده أغلى من روحه التي بين جنبيه، بل إن روحه كانت تستمد الضياء والسمو والاستمرار من روحهما الملكوتية، ولذا، فقد كانت شعاعاً من ضيائهما، لا وجود لها إلا بهما، وهي تنبثق عنهما، تشتعل فناءً في سبيل بقائهما، وبقاء تلك الولاية، فتشعّ وتشعّ حتى النفحة الأخيرة.

الفصل الرابع عشر:

مأساة التحكيم، وحرب المارقين

الزمان: سنة سبع وثلاثين، وثمان وثلاثين للهجرة

المكان: مدينة الكوفة

المكان يغلي، وكذلك الزمان.

والبشر راقدون في ذلك القعر العميق كحبيبات من الرمل في قعر إناء فيه ماء، أكثرهم لا يحركه ولا يفنيه في الماء حتى الغليان، وبعضهم يتأرجح، يصعد ويهبط، ولكن، عبثاً فهو لا يلبث أن يرقد كغيره، ولا يتغير حاله بل يبقى كما هو جامداً أو متأرجحاً، لا يستقر إلا على الجمود والخمود.

كذلك كان حال الناس في كوفان، لم تعد تعنيهم نصرة الحق وإحقاقه، ولا خذلان الباطل وإزهاقه، ولا هم استطاعوا أن يذوبوا في عمق معرفة الإمام.

كانت الحرب قد أكلت منهم وأبقت، ولكن ما بقي منهم لم يكن كافياً في جوهره ليستجمع فلول القوة ويعيد الكرة.

وأتت خدعة التحكيم لتخدر النفوس والعقول، باقتراح حل ليس حلاً، بل مرحلة أخرى من مراحل المأساة، بل مهزلة انتهت بمأساة.

كانت نفوس آل المرتضى تتلوع، وكانت أم البنين في حركتها وسكونها، داخل منزلها بين أحبتها وأولادها، ومع بعلها وإمامها، تنظر وتتألم، تلاحظ ما يعيشه أمير المؤمنين من حسرة لا تقاس، ولوعة تعتصر

الأنفاس، ترى كيف ينفضّ من حوله الأنصار، ويتخاذل عنه أصحاب البلدان والأمصار، وتتأوه لتأوهه في الصميم، وتذرف الدمع ساخناً لا يريم، وهي تستمع لصوته يقول شاكياً، لربه إذ لا يشكو لأحد سواه:

ـ ما أبقى لي الحق صاحباً!

إيه يا أمير المؤمنين، هي الدنيا لا تقوم إلا بطلابها، ولا تستقيم إلا لمن وقف على أبوابها، فباع دينه بالأبخس من أسلابها، واستبدل سندس الجنان بالمهلهل الفاني من أثوابها، وكوثر الفردوس وزنجبيلها بالعتيق الآسن من حميم شرابها.

. . . وتبقى الدموع، ينابيع الحياة، تنبثق من سويداء القلوب العاشقة للحق وأهله، فتحيي القلوب بعذوبة ذلك الحزن الخالد الذي هو قديم قدم مظلومية الحق على مدى العصور والأزمان.

وإذا هي الدموع، من القلب وإليه، يحييها وتحييه، وتتغلغل في سماء عشق الأحبة وتذوب في نظرة عميقة واحدة، عميقة شاهدة، تنطوي على كل الجوى وتبديه!

. . . وكان الحزن مخيماً، لا يخفف منه سوى ما زرعه الإمام في نفوس من حوله، وما عاشوه ورضَوه في ظله وتحت رعايته، من الصبر والشكر، في السراء والضراء والشدة والرخاء، ومن البسمة المتألقة الصافية التي تحكي تألق نفسه وصفائها، وتنعكس نوراً وصفاءً بلا حدود على كل من حوله، وبالخصوص على أهل بيته، نسائه وأولاده، وعلى أم البنين، . . . وعلى ذلك الضيف المقبل بعد حين.

أما فخر أم البنين بولدها العباس، فقد كان غريباً لا يشبه الفخر، لقد حدثهاً عنه كل من شهد صفين، حدثها عن ذلك الغلام الذي حير عقول الأبطال والفرسان ولم يتهيب الحرب والنزال، فكانت تنظر بهدوء، وترى صدى تلك الأخبار في عيني أمير المؤمنين، في نظرته التي لم تزل كما تعودتها، حالما يأتي ذكر العباس أو حينما ينظر إليه فيتأوه ويتنهد.

. . . وتخال أم البنين أحشاء الإمام تتقطع، ولما ترى نظرته تخشع وعينه تدمع، يتلوى كيانها، ويخشع قلبها وتدمع عينها، ويختلط فخرها بحزن عميق.

إيه يا أمير المؤمنين، ماذا تخبئ الأقدار لولدي، من بسمات وعبرات، وعزة أرى صداها في نظرتك الراضية إليه، وحسرة تتصاعد مع زفرات أنفاسك المترقرقة وجداً عليه؟! أي فرح وأي حزن يتداخلان، وأي أمر عظيم يكتنفه الزمان، ويتمخض عن هذا الهم العظيم!

***

. . . الظلمات تتلبد أكثر، والهم يتكدس ويتراكم على فؤاد الأمة وفؤاد الإمام أكثر فأكثر.

ها هي خدعة التحكيم تسفر عن مهزلة حذّر منها الإمام، فلم يصغِ لتحذيره الجاهلون، واغتروا بما ظنوا أنهم به يكسبون، فوقع المحذور، وحكم الحكمان بما نضح به إناؤهما.

[أما أبو موسى فقد خلع الإمام متخاذلاً عن نصرته، متجاهلاً حقه، متحامقاً لظنه أن عمرو سيخلع صاحبه أيضاً، ولم يكن تخاذله وحمقه

مستغربَين، فقد كان ذلك ديدنه، وقد ظنه أهل الرأي واقعاً قبل وقوعه.

وأما عمرو بن العاص فقد ثبّت صاحبه، فثبّت جذور الفتنة التي زرعها يوم أوعز إلى معاوية برفع المصاحف، وبذا استكمل بيعه لدينه بدنياه، وللجنة بمصر،]... وما أدراك ما مصر!

لقد أوجع حديث مصر قلب الإمام وجعاً لا يطيقه إلا من كان له صبره وحزمه وتحمله لشدائد الأمور.

ولقد كان لأم البنين أيام وليالي سهدتها آلام الأمير، فراحت تبكي وجعه ووحدته وقلة ناصره، ... هو يصبر على ما يصيبه به الدهر وعلى ما يكيله له أبناء الدهر من الغدر والعهر، هو أبو الصابرين وأيوبهم، بل إن ما عاناه أيوب لا يقاس بما يعانيه الإمام، فأيوب صبر على نقص الأموال والأنفس والثمرات، أما الإمام فصبر على ما أوذي به رسول الله، وأوذيت به الأمة في شخصه وأشخاص أحبته، فكانت معاناتهم في سبيل حبه أوجع لقلبه من أي معاناة، وقد عرفوه رحيماً حتى بعدوّه، عادلاً حتى مع ظالميه، محسناً حتى إلى شانئيه، فكيف به مع أصحابه وأحبته وبنيه؟!

[وما مصر؟!... مطمع ابن العاص من الدنيا، وجائزة معاوية الموعودة على كيده وبغيه، وهي أيضاً قطر أفرد له أمير المؤمنين من أصحابه من رآه حسن السياسة والرأي ليحمل أهله على الطاعة ولزوم الجماعة، بعد إذ ظهر له منه ما يخشى معه أن تقع فتنة.

وكان أول من أرسله الإمام للحكم، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ثم تغيرت الأحوال، فارتأى إرسال ربيبه محمد بن أبي بكر، ولما اشتد

الأمر، وبعدما انفض جمع صفين، سيّر الإمام إلى مصر صفوة أصحابه، مالكاً الأشتر، وقد رأى أن أمر مصر لا يستقيم إلا على يديه.

كان الأمير محقاً بلا ريب، ومتى لا يكون الحق على حق.

. . . ولكن، وفي يوم من أيام الكوفة المكفهرة، رأت أم البنين في وجه بعلها من الهم والحزن ما زادها حيرةً وحزنا.

هي تعلم أن أمور البلاد تزداد سوءاً، فهي لا تكاد تستقيم من ناحية حتى تضطرب في أخرى، إذ يرسل معاوية من زبانيته من يعتدي على الأموال والأنفس والحرمات، وينكل بكل من يوالي ولي الله، ويعادي أعداءه، لا لذنب إلا ولاءه!]

ولكن، ما بال الأمير قد فاض الحزن على معالم وجهه الهادئة، وحوّل بسمته المتألقة التي ما فارقته قط إلا في الملمات؟!

أهي ملمة قد رصدها علمه، قد لاحت في أفق غير منظور إلا لمن كان له علمه؟!

واشتد القلق بأم البنين، وهي تقرأ اشتداد الأمر على وجه الإمام، . . . وبلغ القلق ذروته، بل الحزن العاصف، وهي تستمع إلى أصوات النحيب الصادرة من المسجد في ذلك اليوم، . . . وانتشر الخبر، وهل لمثل ذلك الخبر أن لا ينتشر؟!

. . . وعلمت أم البنين [أن مالكاً قد قتل! . . . قتل وهو يجد السير إلى مصر ليؤدب عصاتها، وإذا به يُغتال بالسم وهو صائم، في شربة عسل دسها له معاوية على يد أحد صنائعه.

لقد هاجت الكوفة وماجت، وبكى رجال الكوفة قبل نسائها لاستشهاد مالك، وكيف لايبكون وأمير المؤمنين قد بكاه، ورفع صوته مسترجعاً ونعاه، فقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، مالك وما مالك، وهل موجود مثل ذلك، لو كان من حديد لكان فندا، أو من حجر لكان صلدا، على مثله فلتبكِ البواكي!]

أجل، لقد أبكى مصاب مالك أمير المؤمنين، وأبكى الحسنين والعباس، وأبكى قلوب الأمة على رجل نصح لإمامه، وأفنى عمره في صيامه وقيامه، وسقط بين يدي الحق صائماً محتسبا، وهو يحمل في ثنايا ثوبه، قرب قلبه، عهداً من الأمير إليه، لم يتسنَّ له أن يفي به، فيه من آداب الحكم وضروب السياسة ما تشيب له النواصي، حتى لكأنه كان مقدراً له أن لا يُحرم من لمسة أخيرة ونظرة أثيرة، من معشوقه الأوحد، فإذا حرم من وجوده إلى جانبه لحظة فارق الدنيا، فهو لم يحرم من كلماته النورانية تضيء أنحاء وجوده، وتنبض فوق قلبه، لا في قلبه فحسب!

ولعل دمعة من عيون العباس كانت لتسيل في ذلك اليوم، لا حزناً على فقد مالك فحسب، بل حزناً لحزن تربه إبراهيم، وإن العباس ليستشعر مرارة اليتم الذي مني به صديقه، إنه ليتم مضاعف، فمالك لم يكن لولده أباً فحسب، بل كان مناراً يهتدي به، وإن فقده له، لا بد قد زرع في نفسه بذرة النقمة والحسرة التي سيرويها بدمعه، فتثمر إذذاك أشهى ثمرة، أن ينال ثأره ممن قتله، وما ثأره إلا ثأر الحق ضد الباطل الذي وتره.

. . . لم يكد دمع الهواشم يرقأ، . . . لم يكد الإمام يبرأ من جرح فقدان صفيه، حتى طعنته الأيام بجرح آخر، إن لم يكن أعمق من سابقه، إلا أنه لم يكن أقل منه وقعاً!

كما لم يكن قد مضى وقت طويل على تلك الفرحة التي دخلت دار الإمام والحسنين بعدما أطالت الأحزان المكوث، فرحة مثل كل أفراح أهل البيت، تخالطها حسرة، وبسمة تمتزج بدمعة، . . . لقد ولد للحسين ولد ملأ آفاق بيت الإمام حبوراً، . . . إنه الولد الثاني للحسين، ليس ذلك فحسب، بل إنه الطفل الموعود، الذي سيكون أباً لتلك الذرية الطاهرة، أئمة أهل بيت النبوة، . . . إنه الحجة بعد أبيه، وأبو الحجج الأطهار من بنيه.

ولكن الفرحة اختلطت بدمعتين، الأولى ذرفها أهل البيت على السيدة الطاهرة شاهزنان بنت يزدجرد، أم علي الأصغر، التي قضت متأثرة بنفاسها، لتترك رضيعها بين يدي أبيه وجده، يتيماً لم يجاوز من العمر أياماً، والدمعة الثانية، ذرفها أهل البيت أيضاً على ربيب أمير المؤمنين، من كان له بمثابة ولد وللحسنين بمثابة أخ عزيز، إنه محمد بن أبي بكر.

لقد حملت طلائع الظلمات المطلة من بلاد الشام، تريد أن تخيم على الأمة بقترة إجرامها، خبراً جديداً، . . . شؤماً آخر من صنع معاوية وشيطانه، . . . [لقد قتل عمرو بن العاص محمد بن أبي بكر، بعدما غزا مصر وفتحها!

ولو أن ابن العاص قتل محمداً فقط لهان الأمر، وإن كان صعباً عسيراً،

ولكنه لم يكتف بقتله، بل هو مثّل به، فوضعه في جيفة حمار وأحرقه!

لقد تألم الأمير أشد الألم لما صنع بمحمد، فقد كان له ولداً، حتى قال فيه: «عند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً»].

[لقد تربى في حجره واهتدى بهديه وتأدب بأدبه، حتى بلغ من حزنه ساعة علم بمقتله وبما فُعل به، وبسرور معاوية لكل ذلك، أن أظهر عليه غاية الحزن وقال متأسفاً:

ـ أما والله إن كان كما علمت لممن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء. ويبغض شكل الفاجر ويحب هدي المؤمن.]

ترى، هل وقفت أم البنين تواسي الحسين في زوجته وأم طفله، أم تواسي الإمام في ربيبه الحبيب، بكلامها العذب الحنون، بعدما تزامنت الولادة والوفاة والاستشهاد في آنٍ واحد؟! وهل انكفأت نحو زينب تواسيها في زوجة أخيها، أم في عم أولادها، بعدما كان محمد أخا عبد الله بن جعفر من أمه؟! بل هل توجهت نحو أسماء بنت عميس نفسها، التي كان مصابها بولدها قد كاد يفقدها رشدها، وهي المرأة العالمة الفاهمة الصالحة العابدة، الصابرة على ما مناها به الدهر من رزايا، منذ فقدان زوجها الأول جعفر الطيار وهي أم لأطفال يافعين، حتى فجيعتها في الزهراء التي استشهدت تحت ناظريها وبين ذراعيها، ومواكبتها لأحزان أهل البيت، حتى كان لها من الشرف أن أصبحت جزءاً من هذا البيت الأطهر، وقدمت أكثر من ولد من أولادها شهداءعلى مذبح فدائه، بدءاً بولدها عون بن

جعفر الذي استشهد في صفين، وصولاً إلى محمد؟!

رباه، هل وقفت أم البنين تمسح دمع أسماء، التي بلغ من حزنها أن لم تكن كل دموعها المنهمرة كافية لتعبر عنه، حتى [صار صدرها يشخب دماً]؟!

هل استطاعت أم البنين أن تداوي جرح أسماء وأن تبلسم داءها، الذي لم يكن له في الطب دواء؟... ربما، وإن كان جرح أسماء الغائر ذاك قد أعاد إلى ذهنها، بل إلى خيالها الذي لا تغادره قط كلمات الأمير في حق ولدها، «إنه سيفقد يديه في نصرة الحسين!»

ترى، هل ستدرك ذاك الأمر، بل ما سيكون فعلها حين تدرك ذاك الأمر؟ هل ستستطيع الصبر مثلما أسماء، أم أكثر أم أقل؟

لم يكن لديها الجواب، بل كان في طيات الغيب، ولكنها كانت تعلم، ولا تشك طرفة عين، أن سلامة أمير المؤمنين والحسنين هي أكبر همها من الوجود، وأن كل ما عداهم، مهما بلغ من وطيد الصلة بها، يُقدم رخيصاً بين يديهم، بلا أسف ولا منة!... أما الحزن، فلا يعلم مقداره إلا خالقه، وذاك متروك للأقدار حتى تحققه!

... لقد فقد الأمير غير من فقد في صفين من خيرة أصحابه، فقد لواءين من أرفع ألويته وأكثرها سمواً وبهاءً، ولكنه في الوقت عينه استقبل أول الأئمة من ولد الحسين، وكأنما كان ذلك ليؤكد أن الفقد لا يعني سوى الانتقال من حال إلى حال، وأن الانتقال الحقيقي، هو في الوصول إلى جنة المأوى، وذلك هو الخير المطلق لكل من استشهد على تلك الحال!

... وبقي للإمام من بقية العترة الطاهرة من يعزيه، فإن له في رسول الله

أسوة حسنة، إذ قدم صفوة أهل بيته وأصحابه في بدر وأحد، وها هو الأمير يذود عن الدين مثلما ذاد في ذلك القرار المكين، . . . لقد قتل الناكثين في الجمل فهزمهم، وقتل القاسطين في صفين فكاد يهزمهم لولا مخالفة المخالفين، الذين رفعوا صوتهم فوق صوته، وسدوا مسامعهم عن نصحه، حتى إذا وقع المحذور تراجعوا، وهم في ظنهم قد تابوا، ولكن، . . . لو كانت توبة قابيل لتنفعه بعد قتله هابيل، إذا لنفعتهم توبتهم، [فقد أرادوا أن يشركوا أمير المؤمنين في خطيئتهم، وينزلوه منزلتهم، ويطالبوه بالتوبة!]

وأنى للإمام أن يتوب وهو المعصوم عن الزلل والذنوب، ولكنهم ناوؤوه ومرقوا عليه، فكانوا أضل من قوم هود وعاد وثمود، لقد عقروا ناقة الحق وهم ينظرون، فكانوا هم الضالون المضلون المارقون.

. . . ولكن، لعل أم البنين ذرفت مع ذلك دموعاً سخية، عند تلك العشية، . . . لم يكن ما بها ألم أو تعب شديد جراء حملها الجديد، فهي ما بكت يوماً لألم أو معاناة تعض جسمها، فهي لا ترى الألم ألماً إلا حين يعض النفس، ولا المعاناة معاناة إلا حين تنهش القلب، وما كان لتلك النفس الطاهرة وذلك القلب الذائب في فلك سيد الوصيين وإمام المتقين، أن يتألم قط إلا لألمه، ولم يكن يبعث الدموع إلى عينيها، إلا ما كان يبعث الأرق إلى عينيه، . . . إنه العصيان والطغيان، وبلوغ القمة في التعدي على الإسلام والعدوان، من قوم هم أعداء الإسلام والإيمان، وإذا بهم يدّعون حماية الإسلام،

وممن يحمونه؟! . . . من حاميه وراعيه والذائد عنه الفادي له بنفسه وبنيه؟! . . . إنه لأمر يفطر الفؤاد، وإنه لابتلاء ما فوقه ابتلاء!

[. . . وشهدت الكوفة، كما شهدت نساؤها، والهاشميات خصوصاً، تعبئة جديدة للجيوش، لمقارعة الباطل من جديد.]

لم تكن جراح صفين قد برئت بعد، ولا ذيولها قد لملمت، . . . لم تكن دماء الشهداء قد جفت بعد على ذلك السهل الفسيح، حين دعا الإمام الحشود من شتى البلاد لخوض المعركة الحاسمة التي سترفع نير الظلم عن رقاب العباد، وستنشر العدل الإلهي حيث قد عم الفساد.

[واجتمع في النخيلة ثمانية وستون ألف رجل، وأراد الإمام أن يسير بهم لحرب معاوية.

ولكن القوم، على عهده بهم، لم تكن كلمتهم واحدة، فمنهم من سلّم له الأمروارتضى منه ما رضيه له، وهم قلة، ومنهم من أبى إلا البدء بقتال المارقين الخوارج، متذرعين أنهم إذا تركوهم خلفهم لا يأمنون ما يأتون به، بعدما كان قد سبق لهم أن قتلوا ونكلوا بالمسلمين الذين يخالفونهم الرأي، واتهموهم بالكفر!]

كانت المشكلة القائمة لا تزال قائمة، أن في جيش الإمام قوماً يؤمنون به قائداً لا إماماً مفترض الطاعة، ولذا فقد كان لا بد لهم من تفرق الكلمة في كل آونة، وكان ذلك هو أهم أسباب ضعفهم وتخاذلهم بين الحين والحين.

[كان الإمام يصر على السير إلى حرب القاسطين أولاً فيقول:

ـ سيروا إلى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أرباباً ويتخذون عباد الله خوَلاً ومالهم دوَلاً.

ولكن تلك الفئة الكثيرة أصرت على البدء بالخوارج، وأتى في تلك الأثناء خبر مقتل عبد الله بن خباب صاحب رسول الله وعامل أمير المؤمنين على المدائن، وبقر بطن امرأته الحامل، وقتل نساء غيرها، كل ذلك على يد الخوارج، فأرسل الإمام الحارث بن مرة العبدي لينظر في ما بلغه منهم، فقتلوه.

فعظم الأمر على القوم، وزاد إصرارهم على الخروج لقتال الخوارج، . . . عندها رأى الإمام أن لا بد مما ليس منه بد، وكان ذلك الخروج.]

وإن العباس الذي كان ملازماً لأبيه لا يفارقه، كان يشهد في كل حين كيف يسوق والده الأمور بحكمته وحزمه، كيف يعالج البلاء، من تخاذل الأنصار وتشتت الآراء، فيرفع ما يضعون، ويصلح في كل حين ما يفسدون.

[وللمرة الأولى يدفع الإمام بالعباس إلى ذلك المعترك، بل هو يرسله على رأس مجموعة من فرسانه إلى القنطرة، ذلك الجسر الذي يقوم فوق نهر الفرات، حيث كان الخوارج قد اجتمعوا، يريدون أن يعبروه هرباً من جيش الإمام.]

خرج العباس في مهمته مرفوع الهامة شامخ القامة، يرفل بين فرسان هو أصغرهم سناً وأعلاهم همة، قد انتصب بينهم كالطود الشاهق، وزرع من إقدامه وبطولته في صدورهم الإقدام والبطولة، فأضحوا منه خجلون، وهم يرَونْ تقدمه عليهم في قدره دون عمره، . . . [وقف العباس بكتيبته عند النهر، يحرس الجسر ويمنع الأعداء من الدنو منه.]

. . . كان العباس يعلم أن والده قد انتدبه هو بالذات لتلك المهمة لحاجة ما، فكان لا بد له من القيام بمهمته الشاقة خير قيام، فلم يهن ولم ينكل، ولم يزل يذود الأعداء عن الجسر بمن معه من رجال، لا تروعه كثرة القوم ولا تزاحمهم عليه واضطرابهم بين يديه.

كان قد وضع نصب عينيه أن يتقن عمله، وأن يطيع إمامه، وهل هناك أرفع من الجهاد عملاً إذا أُتقن؟! وكأني بالعباس يتمثل تدريباته المتنوعة التي تلقاها على يدي والده وأخويه، مذ فتح عينيه على معنى الحياة، ومعنى الحرب والجهاد، . . . وكأني به يستعرضها أمامه في شريط زاخر بالحركة والحيوية، ويروح ينتخب منها ما يوافق الحال، . . . وكأني به يتوقف هنيهات عند ذلك التدريب الغريب الذي كان هو مبتكره، مذ علم ما يهيئه له أبوه من صنوف البطولات التي لا تقهر، بطولات الروح فضلاً عن بطولات السيف والرمح. إنه قد تدرّب وتفنّن طويلاً في التقاط سيفه عن الأرض وهو ممتطٍ صهوة جواده، وكانت تعينه على تلك الحركات المتناسقة المتلاحقة، قامة شامخة ولين في القدّ وخفّة في الحركات، وكان يتناول سيفه تارةً بيمناه وأُخرى بيسراه، ويحارب بكلتيهما، . . . وكان يبلغ ذروة العجب من كل من رآه، حين يلتقطه بفمه عن الأرض، . . . ويبارز به ويصول ويجول، . . . كان الأمر مدعاةً للتساؤل والعجب عند الجميع، خلا الإمام والحسنين، فقد كان لهم مدعاة للتأوّه تارةً، والدموع أُخرى، وللنّظر نحو السماء، في دعاء صامت وحزين.

[. . . ولعل في جيش الإمام من رأى تكاثر الخوارج على الجسر، وهاب كثرتهم، فظنوا أن الكتيبة العباسية لن تكون قادرة على ردعهم عن

العبور، فراحوا يتواترون على الإمام، كلٌّ يخبره على حدة، بأن القوم قد عبروا.

... ولقد وصل أحدهم إلى الإمام فوجده يتوضأ، فهتف به يخبره بزعمه:

ـ يا أمير المؤمنين، لقد عبر القوم!

لم يرفع الإمام رأسه إلى القائل، ولم يلتفت إليه، ... كان يعرف أي سد منيع قد أرسل في وجه ذلك الجحفل، وكان مطمئناً، ... فلما كرر الرجل مقالته، أجاب الإمام بثقة لا تهتز:

ـ إنهم ما عبروا ولا يعبرونه، ولا يفلت منهم إلا دون العشرة، ولا يقتل منكم إلا دون العشرة!

... تعجب القوم لشدة وثوق الإمام بكلمته، بينما تابع هو مؤكداً:

ـ والله ما كذبت ولا كُذّبت!

... ولعل في الناس من كان على ريبة من أمره، فهتف يقول لأصحابه:

ـ إن صح ما قال، فلا أحتاج إلى دليل غيره!

... لم يتأخر الجواب، وإن هي إلا لحظات حتى أقبل فارس آخر بالخبر اليقين يرفع صوته مستبشراً:

ـ يا أمير المؤمنين، القوم على ما ذكرت، لم يعبروا القنطرة!

اندفع الناس يهللون ويكبّرون، ولم يكن بينهم وبين القوم إلا صلاة

الظهر، صلوها بإمامة الإمام، ثم ساروا إلى الخوارج وهم دون القنطرة، وحملوا عليهم حملة رجل واحد.]

... لعل أم البنين كانت في تلك الأثناء تراقب الأفق من بعيد، على عادتها، وتسأل نفسها تارة، وزينب أخرى، أن ماذا يخبئ ذلك المدى الملتهب من الرمال، أي حرب ضروس سيخوضها المؤمنون هذه المرة؟!... لقد نكث قوم فقاتلوهم، وقسط آخرون مدّعين ثأراً ليس لهم، فقاتلوهم، وها هم الآن يقاتلون من كانوا بالأمس عبّاداً زاهدين، حتى التحفوا بمسوح الحق مبطنين جذوة الباطل، فحق عليهم العذاب، إذ رفعوا كلمة حق يراد بها باطل، فكانوا أكثر ضلالاً وإضلالاً من سواهم، لأن ظاهرهم أمر فيه صلاح، وباطنهم فساد لا شك فيه.

كان قلب أم البنين يفر، وتتلاطم في أعماقها أمواج القلق، وتعصف بفؤادها عواصفه، وكأنما المعركة التي كان يخوضها العباس كانت تصل إليها وتعتمل في داخلها، ... ولكن صوت زينب كان يهدئها، وكانت تستمد من صلابتها ما تزداد به صلابة، فإذا هما في تلك المعمعة تساند إحداهما الأخرى، كما تتوكأ الأشجار المثقلة بالجنى بعضها على بعض، ... كانتا كسيف ودرع تواجهان نفس العدو فتتكاملان معاً لصده وإبعاده، ... وكان عدوهما هو القلق، ولكن الإيمان واليقين بالنصر، كان يختبئ خلف ذلك السلاح القاهر، فكان يضمن لهما النصر الحقيقي في النهاية.

ولعل في أعماق أم البنين، كان ذلك الكنز الجديد، يعوّضها في كل آونة كما الكنوز السابقة، عما تعانيه من ألم الفراق، فراق الأحبة، حتى حين.

. . . لقد امتلأ بيتك يا أم الأشبال بهذه الذرية الصالحة، وها هو كيانك اليوم قد امتلأ بهذا النور الساطع العتيد، فليكن لك العزاء، وليكن عبد الله وعثمان، اللذان يتألقان بين يديك أمانة وأمناً لفؤادك الملهوف، تتمة عدة النجوم الزواهر التي وُعدتِ بها في ذلك اليوم الغابر، إن النجم الأخير يزهر الآن في جنبات روح عاشقة، وهي تنتظر رؤيته انتظار الهائم الولهان رؤية محبوبه النائي، . . . إنها إذ تحتضن في كل مرة شبلاً من أشبال علي، لتشعر بالقوة والبطولة تسري في داخلها سريان الماء في التربة الظمأى، ولئن لم تكن تربتها تفتقر لذلك الري الزلال، فهي ريانة روية منذ البداية، إلا أن ذاك الري لا يماثله ري، وبه تكون أكثر الأنوار ضياءً ذابلة حيية، وأكثر الزهور عطراً تشتاق لفوح عبيره الملكوتي الذي لا فوح كفوحه إلا فوح الجنان.

***

بالنصر عادوا، نصر العقيدة قبل السيف، ، ولكن النصر الذي قرع أبواب الكوفة عند تلك العشية، كان مجلبباً بجلباب من عتمة باردة.

لم تكن عتمة الصحراء ولا بردها، هي وحدها المتسللة من معسكر النخيلة الحاشد بالرجال نحو المدينة الصامتة، ولم يكن الليل الداجي ليخفي ظلمة أشباحهم وهم ينسحبون نحو البيوت، حتى أقفر المعسكر إلا من القليل.

. . . لقد دخل الضعف والتخاذل القلوب، ومرت عليها ريح سموم، فتظايرت بقايا العزم والبطولة، وتبددت مظاهر الإيمان ليحل محلها جبن وتسويف وعصيان لأمر الإمام، . . .

ويح العصيان ما أقبحه لأي قائد، فكيف بعصيان قائد الحق إلى الهدى، وويح الخيانة إذ تزحف فوق الجذوع الراسخة فتزلزل الجذور وتهز الأوراق وتعتصر الزهر والجنى، وتترك الأشجار معروقة مهزولة، لا ترجو رياً ولا يُرجى منها ثمر، وإذا السم قد تسلل في عروقها وانتشر، فتركها تندب مآثر الماضي وتتحسر على مكاسب المستقبل.

... هو الحاضر، وما كان ليخيب قوم أخذوا عِبَر الماضي سلاحاً للحاضر ليحموا به المستقبل، مستقبل دنياهم ليحصّنوها من كيد الظلمة الفجرة، ومستقبل آخرتهم ليفتحوا بها أبواب الجنان ويتنشقوا أنسامها العطرة.

... ولكن، هيهات لمن مات قلبه عن عشق الحق أن يهتدي إليه، فالحق لا يدرَك بالعقل فحسب، ولا يُرتجى بالمنطق والبرهان فحسب، بل هو يُستبان بالحس الخفي، بالتعلق الروحي، بحديث القلب إذ ينجذب نحو الشعاع القدسي ويتغلغل في المدى الملكوتي، ليصل إلى مبتغاه من الإيمان، ... وهيهات الوصول إلى النعيم، إلا لمن أتى الله بقلب سليم!

... وتبدد الجمع، ... علم من كان يرتجي العلم، سبب إصرار الإمام على حرب القاسطين قبل المارقين.

[لقد تحقق النصر على الخوارج المارقين، واستأصل الأمير شأفتهم، وصدقت فيهم مقالته: «لا يفلت منهم إلا دون العشرة ولا يقتل منكم إلا دون العشرة».

لقد كانت حصيلة الشهداء من جند الإمام تسعة أنفار، وحصيلة الناجين

الذين فروا من أرض المعركة، من أولئك الخارجين على الحق، تسعة أنفار أيضاً،]. . . فروا، ربما لينضموا إلى ثلة المفسدين في الأرض، وربما ليتحقق قدر ما، قدر كان مكتوباً في أم الكتاب، قدر مشؤوم تتزلزل لهوله القلوب وتتحير الألباب!

[وعاد الأمير إلى الكوفة، بعدما تفرق جنده عاصين لأمره، كان قد أوصاهم بعدم دخول المدينة، وأن يقِلوا زيارة أبنائهم ونسائهم، لئلا يفتنهم حب الدنيا ويقعدهم عن الجهاد، . . . كانوا قد تذرعوا بالرغبة في الاستعداد للمسير إلى أهل الشام، وعصَوا أمر الأمير الذي أرادهم أن يتوجهوا من فورهم لقتالهم، فعاد بهم إلى النخيلة ليستعدوا للجهاد، وإذا بهم يتقاعسون ويتلكأون، ويدخلون المدينة ويعلقون، فلايخرجون إلى معسكرهم من جديد،]. . . لقد غلبهم حب الدنيا على الآخرة واستهانوا بالخطر المحدق، وما علموا عاقبة من عصى إمامه، فحاق بهم الخزي، وانكفأ أصحاب الإمام مخذولين، ينظرون حولهم فلا يرَون رجالاً بل أشباه رجال.

لقد امتلأ قلب أم البنين فخراً بولدها يوم علمت بحسن بلائه في النهروان، وسرّها وأثلج فؤادها ذلك [اللقب الذي ما فتئ أهل البيت وأصحاب الإمام وأتراب العباس يطلقونه عليه بعد تلك الواقعة، . . . «سبع القنطرة»، . . .]

. . . لقد ضمته إلى فؤادها لحظة أطل عليها عند عودته من الميدان، ولكن، لعلها خشيت أن تُظهر فرحةٍ، بل هي خجلت أن تستشعر تلك الفرحة، فقد طمست كل فرحة تلك الأخبار المخزية، حول تخاذل أنصار الإمام وعودتهم إلى دورهم وبلادهم، بدل الخروج إلى حرب عدوهم

ليستكملوا نصرهم، . . . بل لعل أم البنين ما كانت لتفرح ببطولة ولدها بحد ذاته، فهي لم تكن تراه إلا خادماً لأولاد الزهراء وناصراً للحسين، وأكرم بها من صفات لا يتحلى بها إلا من كان في مصاف المتقين.

لم تكن أم البنين لتفرح ببطولة ولدها، لم تكنْ لتزدهي بشجاعته، إلا لأنها كانت تراقب مطلع البدر، فإذا هي رأت شعاعه اطمأنت، وكان الشعاع دليلاً على اكتمال السطوع، وكذا كانت بطولة العباس وفتوته وشجاعته دليلاً على ما سيأتي، على ما سيرقى إليه يوماً في نصرة أخيه، . . . وعلى ما سيستأهله بعد حين في خدمة الحسين. . . . ولذا، فقد اختلطت الفرحة بالحسرة، كما في كل مرة، والبسمة بالعبرة.

أجل، وكيف تبتسم أم البنين وأمير المؤمنين مهموم محزون، لا يرى حوله إلا عبيد الدنيا، يتهافتون على حطامها، وهم حتى لو أرادوا التملص من أغلالها عاجزون، لأن فيهم ضعفاً لا يشتد وجبناً لا ينفد، قد فاتهم جوهر الإيمان، ولذا فقد رثّت عليهم مسوحه، وتخرقت حتى غدت أسمالاً بالية لا تقيهم برد الروح ولا تبلغ بالكيان حرارة الإيمان.

. . . ولعل العباس في جلسته تلك بين أبيه وإخوته، بل سادته، لعله نظر مراراً في وجه والده، الذي لايحب شيئاً كما يحب النظر إليه، ولعله استحضر صوراً شتى لما مر عليه في الأيام الماضية.

إن الهمّ لهمّ والده يضنيه، ولكن بسمته لا تملك أن تتألق فجأة على شفتيه حالما تلتقي عيناه بعينيه، فيغض البصر حياء منه ومن بسمته، الغارقة في الدموع، تخاطب وجدانه، وتملأ بعبق الجنان جنانه، . . . إنه إذ يرى الرضى في تلك الطلعة المشرقة بكل أنوار الملكوت، يتطلع إلى المزيد،

إلى أمر ما يلوح في نظرته، كطيف مقبل من بعيد، . . . ويتحرك كيانه، ويتزلزل، وتهب يده لتمسك بقائم سيفه!

أبتاه، إنني مستعد يا أبتاه، . . . أنا ملك يمينك ورهن إشارتك، بل رهن طرفة عينك وخفقة فؤادك، نفسي لك الوقا، وروحي لأرواح أحبتك الفدى والحمى!

أبتاه، مرني بأمرك، فإن قلتَ كن بأمر الله أكون، وإن قلتَ مت بأمر الله أموت، أو قلتَ عش بأمر الله أعيش!

ويطأطئ العباس رأسه، ويرخي يده عن قائم سيفه، إنه يعلم أن أبا يدّخره للآتي، ليس لهذه المعركة اللائحة في أفق قريب، ولكن، لمعركة ما، ربما لملحمة لا تشبهها المعارك والملاحم، في أفق لم يره بعد، ولكن الزمان سيتمخض عنه، وسيكون له في ذلك الأفق شروق، . . . وأفول، . . . وشروق بلا أفول!

. . . ولعل خاطرة جالت في ذهن العباس في تلك اللحظات، وتتابعت على لسانه كلمات الحمد والشكر، ولعل نظرة منه لاحت نحو أمه، نظرة قرأتها على الفور، أتبعتها ببسمة أشرق لها فؤادها، . . . هل كان يشكرها؟! . . . ولكن، علامَ . . . ؟!

. . . لو علمت أم البنين ماجال في خاطر ولدها في تلك اللحظة، لأدركت سبب تلك النظرة وذلك الشكر.

لقد تذكر العباس صورة من الحرب العتيدة، النهروان، . . . إنها صورة ذلك الوالد المفجوع، الذي ارتسمت فجيعته أمام عيون أصحاب الإمام

بدموع ونجيع، فقد كانت فجيعة مضاعفة، . . . أجل، [إنه عدي بن حاتم، . . . أحد الخلص من اصحاب الإمام، . . . لقد أفجعه الدهر في دنيا ولده في تلك الحرب، ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان، ولكنه أفجعه في آخرته أيضاً، وهي لعمري أقسى الفواجع!

كان عدي بن حاتم قد قدم عدة من أولاده قرابين على مذبح الإمامة في الحروب الماضية، ولكن ولده هذا الذي فقده هذه المرة، كان بخلاف إخوته، غريراً غرته المهاوي فأفسدت عليه أمر دينه ودنياه، وها هو عدي يحتمل ولده طرفة، وقد كان في صفوف الخوارج، يحتمله ميتاً، فيغسله بدمعه أسفاً وحزناً، لا على شبابه الغض، بل على ضلاله وسوء عاقبته، إذ انقلب من بعد إيمانه إلى الجحود والعصيان لإمام زمانه، . . . ورمّل عدي ولده بذنوبه، ودفنه،]. . . دفن معه آماله فيه فختم بذلك مرحلة من حياته، امتزجت فيها الخيبة بالرجاء، وانتهت بالخيبة! وقام عدي عن قبر ولده، وهو يجرر أذياله خزياً وحسرة على فلذة من كبده قطعها عنه الشيطان، وأوداها في هاوية لا قرار لها، فإذا هو بولده قد خسر الدنيا والآخرة معاً، ولعمري فإن ذلك هو الخسران المبين!

ولعل في أصحاب الإمام من ذكّره بابن نوح النبي، وواساه به، ولكن اللوعة التي كانت تطل من عين الرجل وكل قسماته الشاحبة، كانت كافية لتترجم ما هو فيه من أسى كامن لا ينفع في مواساته شيء، . . . لقد سوّد ولده صحيفة أعماله، كما سوّد وجهه أمام الإمام، وهو الذي ما برح يبيّض صحيفة أعماله، ويجاهد بين يدي الإمام جهاده المشهود، ويقدم الفداء تلو الفداء، . . . فلا حول ولا قوة إلا بالله!

. . . إن من المؤسف حقاً، وربما لا شيء يؤسف في الكون أكثر من رؤية المرء ولده الذي يحيا في الحياة بصداه، ويمتد في المستقبل بمداه، قد خرج من صلبه فاكتمل طفلاً فرباه، وكان يهيئه لذخر مذخور في آخرته قبل دنياه، وإذا به يختار لنفسه سبيلاً سواه، فيضل بعد هداه، ويعود الأب خائباً من مسعاه، وهو يرى أنه الأكثر بؤساً في الكون وأن لا خاسر إلاه، فقد خسر ولده مرتين، مرة في الدنيا وأخرى في الآخرة، ولكن، لا بد في النهاية من أن يتعزى الرجل بعزاء الصالحين، إذ يتذكر الآيتين الكريمتين: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» و«لا تهدِ من أحببت إن الله يهدي من يشاء».

لقد أسف العباس لحال عدي، ولكنه، وكما في كل ما يمر به من أحداث يقرأ سفرها المكنون، إنه ليهنأ ويزداد يقيناً يوماً بعد يوم، لا بصواب نهجه، فذاك ما لم يشك فيه قط، ولكن باشتداد عضده وساعده، . . . إن فؤاده الذي خفق منذ اللحظة الأولى بعشق آل محمد، قد استمد من دم تلك الأم الفياض بذلك العشق، حرارة الدماء المتوهجة في عروقه، ومن لهيب أنفاسها المتحرقة هياماً بالزهراء وبنيها، كل لهيب أنفاسه، . . . إنه لم يرث من أمه بنياناً وطيداً وحسناً فريداً فحسب، بل قلباً سديداً وكياناً شديداً، فهو نخلة من نخيل البادية، أصلها بذرة علوية طاهرة، نبتت في تربة مضمخة بالطهر ملتفّة بالضياء، فكان لها الري عشق علي، والنور عشق فاطمة، فنمت ما بينهما، حتى غدت نخلة سامقة في الفضاء، طلعها عشق الحسنين والزينبين، ووجهتها شمس لا تغيب ولا ينالها الكسوف، . . . إنها شمس الحسين!

الفصل الخامس عشر:

«... تدكدكت واللّه أركان الهدى»

الزمان: من سنة ثمان وثلاثين للهجرة إلى سنة أربعين للهجرة

المكان: مدينة الكوفة

. . . اكتملت عدة النجوم، وسقط النجم الثالث في حجر أم البنين، في تلك الليلة القمراء، بعد بدر ونجمين سبقوه، فكان رابع الأشبال في ذلك العرين.

ولعل أم البنين إذ تلقت وليدها من تلك اليد الحنون التي طالما ألِفتها، تواكبها في كل حين، وتحمل أولادها لتقدمهم إلى أبيهم أبي الحسنين، . . . لعل أم البنين إذ تلقت الرضيع من يد حبيبتها زينب، بعدما استُقبل كسابقيه من إخوته وأبيه، نظرت إليه، وضاعت نظرتها في معانيه.

كان فيه أمر ما يختلف عن إخوته، لم يكن أجملهم، وإن كان فتّان الجمال، فقد كانوا جميعاً في الجمال آية ومثال، والعباس أوسمهم وأبهاهم طلة، حتى لقبه أبوه بقمر بني هاشم، ولقبه بنو كلاب بقمر العشيرة، فكان لبني هاشم وبني كلاب قمراً مكتمل الصفات تفتخر به العرب بدوها وحضرها، ويهتدون بألق نوره في ظلمات الصحراء المدلهمة.

. . . لم يكن الوليد أجمل إخوته، ولكن، لعل أمراً فيه شدّ فؤاد أم البنين إليه، وجعلها تحنو فجأة عليه، وتستشعر الحزن العميق بدل السرور

بالنظر إليه، حتى لكأني بها تنكب فتطبع قبلة حرى على وجنتيه، وتغسل بدموع عينيها وجهه الغض البض.

ولعل عثماناً رآها، وهو الذي لا يتجاوز عمره السنتين، فدسّ رأسه تحت جناحها، ليطل على أخيه الجديد، فيتوسم في طلعته ما حدا بأمه إلى البكاء، . . . لم يرَ إلا ما يحمل على السرور، فالطفل وسيم القسمات بسام الثغر مشرق الملامح، وها هو ينظر إليه فيتعلق قلبه به من النظرة الأولى، ولكن، تدمع عينه لعين أمه، وينظر من موقعه تحت ذراعها، إلى أخيه عبدالله تارة، وإلى أخيه العباس أخرى، وهما واقفين على مقربة.

وكأني بالعباس يطرح السؤال الذي لم يطرحه أيهما، وقد كسر قلبه بكاؤها:

ـ أماه، ما يبكيك؟!

ولكنها لا تحير جواباً، فهي نفسها لا تعلم ما يبكيها، أهو الاسم الذي أطلقه أمير المؤمنين على طفله الجديد، اسم هاج شجونها وشجون زينب، وشجونه هو؟! . . . أم لعله ما يرمز إليه ذلك الاسم بالنسبة لها؟!

لقد أسماه جعفراً، . . . وما أدراك من جعفر!

شهيد مؤتة، الطيار في الجنة بجناحين أخضرين، الذي بكاه رسول الله وبكته الزهراء وبكاه أمير المؤمنين.

[جعفر، الذي ندبته الزهراء بأمر من أبيها، فكانت تبكيه وتنادي: «واعماه!»]، تواسي ببكائها بعلها بأخيه، وأباها بابن عمه، وأسماء بنت عميس صفيتها، بزوجها وأبي أولادها، . . . [إنه جعفر، الذي أبلغ

الرسول باستشهاده قبل وصول خبره، وكتم الخبر عن أخيه علي خشية حزنه، ثم ما لبث أن بكاه على منبره وواسى زوجته بقوله:

ـ إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألا إن جعفراً قد استشهد، وجعل الله له جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة.

وكان يبكيه حتى تقطر لحيته ويقول:

ـ أللهم إن جعفراً قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلّفت أحداً من عبادك في ذريته.]

هوذاك جعفر، وهو ذا جعفر، وهذين عثمان وعبدالله، وذا أبو الفضل!

وكأني بصور الماضي تختلط بصور المستقبل في ذهن أم البنين، وإذا الذكريات تمتزج بالأخبار، وجعفر بالعباس!!

رباه، . . . ما خطبها؟! . . . هي تربط الأحداث تليدها بجديدها، وما حدث بما لم يحدث بعد، . . . ولعلها أدركت فجأة سبب حزنها.

أجل، هو الاسم قد بعث في ذاكرتها كلمات بعلها في بكرها العباس يوم ولادته، إنه جعفر، الذي ولد اليوم، ليبعث في كيانها ذاك الحنين القديم الجديد، والحزن المتجدد في كل يوم، لذلك اليوم الموعود، . . . يومٌ تفتخر به، وتُفجع به، وتحمل به ثقل السماء وعطاء الأرض، وما لم يخطر على قلب إنسان.

***

وتمضي أيام وشهور وسنون، ويترعرع العباس وإخوته في ظل أب لا

كالآباء، وإخوة لا كالإخوان، ويتقلب أبناء أم البنين في رياض الجنان، بين المرتضى والمجتبى، وبين الحسين وزينب، بين انهار جارية من علم آل محمد، وقطوف دانية من فقه آل محمد، فإذا هم من سلسبيلهم يرتوون، ومن أعنابهم يترعون، يتعلمون ويتأدبون، عدلاً وعلماً وحلماً، ثم هم متى شبوا واشتد عودهم يتدربون ويتسلحون، على يد سيد الأبطال وأسد الرجال، وعلى يدي ابنيه سيدي شباب أهل الجنة، فيتخرجون أشبالاً من العرين العلوي، وأبطالاً لا يشق لهم غبار، وكماة ليس كمثلهم كمي.

... على أن أبناء أم البنين لم يكونوا قد بلغوا جميعاً مبلغ الصبا ولا الشباب، في ذلك العام المشؤوم من العقد الرابع للهجرة، ... بل إن العباس وحده هو من كان قد بلغ مبلغ الصبا لا الشباب فقد كان في الخامسة عشرة، وأما عبدالله فلم يكن قد تجاوز السادسة من عمره، بينما لم يتجاوز عثمان الرابعة، وجعفر كان ليتمّ عامه الثاني بعد شهور.

لقد كانت سنتان مشؤومتان، وإن كان التشاؤم ليس من صفات المؤمنين، أو كما أُثر عن أمير المؤمنين قوله: «أللهم لا طير إلا طيرك ولا ضير إلا ضيرك، ولا إله غيرك».

ولكن، ما يقال في عامين حملا إلى المسلمين عدالة الأولين والآخرين، وحملا في الوقت عينه الويلات، ورميا ديارهم بالآفات والنكبات؟... [لقد غزا الطلقاء وأنصارهم البلاد الآمنة، وسطَوا على الأموال والثروات، واستباحوا من المسلمين الحرمات، لا لعذر إلا أنهم يرَون مال كل من يخالفهم حلالاً لهم، ولا يخالفهم إلا من والى ولي الله

وعادى عدوه، أي المسلمون أجمعون، من سمعوا ووعَوا، أو بلغهم الحق ممن سمعوا ووعَوا.

لقد جند معاوية كل جبار عنيد ليعيث في الأرض فساداً، فإذا هو تارة يرسل سفيان بن عوف مغيراً على الأنبار مرعباً سكانها، وأخرى يبعث يزيد بن شجرة إلى مكة لينازع الإمام طاعة أهلها.

أجل، فحتى الحجاز بحرميها لم تسلم من زبانية معاوية، وها هو بسر بن أرطأة يغزو المدينة ويطرد عامل أمير المؤمنين عليها، أبا أيوب الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، وينهب ويحرق ويهدد ويتوعد ويدعو أنصار المدينة باليهود والعبيد.

ثم ها هو ينثني إلى مكة فيدخلها عنوة، ويطرد منها عامل الأميرأيضاً، القثم بن العباس ابن عمه، ويفعل بها ما فعله بالمدينة، ثم ها هو يصل إلى اليمن فيكرر مجازره ويضرب ويقتل، حتى يبلغ عدد من قتل في تلك المواقع الآمنة ما يزيد على الثلاثين ألفاً من الأبرياء، ثم ها هو يذيّل مجازره الدامية بقتله لطفلين صغيرين لعبيد الله بن العباس أمير اليمن من قبل علي عليه السلام، فينتزعهما من حضن أمهما ويقتلهما شر قتلة أمام عينيها، فتذهب المأساة بعقلها!]

إنها لأهوال تشيب لها رؤوس الأطفال، وتتزلزل لها قلوب الأبطال، وتهيب بالأسود والأشبال أن يهبوا للقتال والنزال، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ورفع الظلم والجور عن رقاب العباد.

[وها إن الأخبار لتصل إلى أمير المؤمنين تبرق وترعد، فيجند الجنود

ويحشد الحشود، وهو ما فتئ يهيب بأصحابه أن يقوموا إلى الجهاد، واجتثاث الفساد مرة بعد مرة، ولكن دون جدوى، حتى جرى ما جرى.

وأهاب الأمير برجاله أن يهبوا لاستنقاذ أم القرى، فاجتمع له من الرجال ألفا رجل، فوجههم إلى بسر بقيادة جارية بن قدامة السعدي، وهو من خيرة أصحابه، فأتى جارية اليمن فهرب منه بسر، وظل يلاحقه حتى أخرجه من مكة والمدينة، ومن كل المدن الأخرى التي دخلها، . . . ثم ها هو جارية يأخذ البيعة لأمير المؤمنين حيث يحل، حتى إذا حل مكة وخرج يأخذ البيعة، بلغه المصاب الجلل الذي لم يكن في الحسبان، على الأقل في تلك الآونة من الزمان!]

***

. . . طأطأ الكون هامته، . . . غارت نجوم السماءفي تلك الليلة الظلماء من ليالي شهر رمضان سنة أربعين للهجرة، واشتدت الظلمة رغم أن الهلال لم يكن قد تهاوى محاقاً بعد، فهي الليلة التاسعة عشرة من الشهر، ولكنه اختبأ خلف سجوف الزمن المكفهر، ودموع الساعات المتلاحقات المقبلات حثيثات الخطى من الغروب إلى الفجر، ينكفئن على وجوههن بين لحظة ولحظة، وهن يرصدن بكل آهة ولوعة، الزمان الماضي والآتي حتى تلك اللحظة.

لعل فؤاد أم البنين كان منقبضاً أشد الانقباض، بل لعل كيانها كان متزلزلاً كما لم يكن من قبل!

كلا، لم يكن افتقادها أمير المؤمنين في تلك الليلة هوالسبب، ولا إفطارها وحدها، فهي لم تكن قط وحدها، وإن غاب أنيس روحها، فعبق وجوده لا يغادر المكان وإن غادره، وهي بين أولادها إذ تطعمهم بيدها وتسقيهم، تستطعم من وجودهم حولها طوباه، وتستسقي كوثره، . . . إذاً لم يكن غيابه عنها في تلك الليلة مبعث ما عم أنحاء وجودها من قلق واضطراب لم تشهد له من قبل مثيل، أللهم إلا في ذلك اليوم الغابر، الذي ما فتئ يحيى في اعماق فؤادها منذ طفولتها حتى الساعة، يوم استشهدت الزهراء، . . . يوم علمت باستشهادها، . . . لعل أم البنين تعوّذت بالله من تلك الفكرة وهاتيك المقارنة، فهي ترجو من الله ما عاشت أن لا تعيش تلك اللحظة مرة ثانية!

. . . [إن إفطار أمير المؤمنين الليلة كان عند أم كلثوم، فهو قد جعل لكل واحد من أبناء وبنات الزهراء يوماً يفطر فيه عنده في هذا الشهر الكريم.]

ولعل العباس الذي فرغ من صلاته قبل هنيهات، وجلس إلى الإفطار قرب أمه، قد استشعر شيئاً مما تشعر به، فقد كان يعاني مثلما تعاني.

لعل إفطارهما مضى بصمت، خوفاً من تهدج الأصوات، ولولا بعض ما كان يأتي به جعفر وعثمان من حركة وما يتناغيان به من حديث، لكان الصمت مسيطراً.

أما عبد الله، فقد كان يراقب ما يجري، بصمت أيضاً، ويقرأ الوجوه، ويكاد يسأل عما هناك.

ولعله يحجم فلا يسأل، فالدمعة المتأرجحة في عين أمه، والزفرة المتصعّدة من صدر أخيه، كانتا تغنيان عن السؤال!

. . . لعل الإفطار لم ينقص إلا قليلاً، فهما لم يكونا يشتهيان الإدام، رغم جوع الصيام، فقد كان لهما عن الطعام شغل شاغل.

ولعل العباس استأذن أمه بالخروج لتفقد أبيه!

. . . ولامس طلبه وجدانها، فردت ملهوفة بالإيجاب، عساه يذهب ويعود، ويسكن ما بها من قلق لا تدري مأتاه.

. . . ولعل العباس تأخر، فازداد انشغال أم البنين، ثم إنها قامت تردد أدعيتها، ثم تهيء أسباب الرقاد لصغارها كيما تتفرغ لنوافلها ومناجاتها.

ولعل عبد الله، وبعدما غفا أخواه، جافاه المنام فقام إليها، يواكب بسنيه الست بعض أذكارها، ويردد بعض ما يحفظه، ما تعلمه ووعاه، منها، من أبيه أمير المؤمنين، من أخويه الحسنين، من أختيه زينب وأم كلثوم، ومن أخيه العباس!

لله دره من بيت معلموه سادة المعلمين، وأبناؤه خير الأبناء، ونساؤه خير النساء.

وإن أم البنين لما ترى طفلها ينتحي زاوية ليصلي ويدعو، وهي قد تعودت ما تراه، لا تجد في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب، فأطفالها هكذا يترعرعون وينشأون، وهكذا يتفقهون ويعبدون ويتعبدون.

وإنها لترى في عبد الله صورة مصغرة من أخيه العباس، وتتنهد إذ تتذكر مقولة الإمام في العباس: «إن ابني هذا قد زُقّ العلم زقّا».

أجل، وكيف لا يُزقّ العلم من جرى رضاب أمير المؤمنين وسيد العلماء في فيه ساعة ولادته؟!

إنها لتهنأ بالفكرة، وتعلم أن أولادها الباقين، يتربَّوْن بهدي أمير المؤمنين، ولكن العباس له شأن يعدوهم، شأن قد أنبأها به إمام المتقين، علماً وفقهاً وتقىً وجهاداً.

ولكن الفكرة لا تهدئها، بل تلح عليها بمخاوفها اكثر، وتستعيذ مراراً، ويضيق صدرها على غير عادتها، فهي متى استعاذت بردت حمى قلقها، أما الساعة، فيبدو أن تلك الحمى تتغذى من حر فؤادها ودمائها، كما لم تفعل قط من قبل.

. . . ولعل وقع خطوات في الخارج يستخفها لتخف في صلاتها وتنظر، . . . هي تعرف تلك الخطوات، إنه العباس، . . . ولكن ما له لا يلج المنزل تواً؟! . . . بل لكأنه ينتظر في الخارج هنيهات، حتى خطواته، كادت على معرفتها لها تنكرها، فهي الساعة بطيئة متباطئة، تتقدم وتتأخر، وهي ما تعودت من بكرها أن يتأخر قط، مهما كان الخطب!

. . . وكأني بها قد هبت إلى بابها تقف خلفه وتسأل بصوت خفيض:

ـ عباس، أهو أنت يا بني؟!

. . . لم يكن صوته الذي أجاب بل أنفاس متلاحقة تتصارع، ثم نبرة تغالب غصة مكبوتة، تهتف بصوت لا يكاد يُسمع، وكأني بالعباس يجيب:

ـ بلى يا أماه، ألا تفتحين؟!

وكأني بها تفتح، تغالب دمعة تفاجئها، وتغلبها الدمعة وهي ترى تقلب نظراته، وشحوب محياه الوضاء، فتسأل متهدجة النبرات:

ـ بني، هل تفقدت أباك؟!

لعله يهز برأسه وهو يتلافى الحديث، ولكن عبد الله يهب نحوه ليخترق جدار الصمت قائلاً بلهفة:

ـ أخي عباس، هل لا زال والدنا عند سيدتنا أم كلثوم؟

. . . وكأني بالعباس يمد يده، فيمسح بها على رأس أخيه، ثم يتنبه فجأة لحركته تلك، فيرخي يده، ويرفع بصره إلى أمه، فيرى ألماً يعبق في وجهها، رباه، . . . هل آلمها مسحه على رأس أخيه؟! . . . هل استشعرت مثل ما يستشعر؟!

كان لا بد من أن يرد على أسئلتها المتلاحقة دمعاً من عينيها، تزدرد بعضه في أعماقها ويغلبها بعضه فتكفكفه قبل النزول، . . . وكأني به أجاب، بعدما أخذ مجلسه قرب الباب:

ـ أماه، . . . [إنه لا يزال هناك،]. . . وقد رأيته يصلي، . . . [إنه ما برح يركع ويسجد، ويناجي ويدعو]، مذ دخلت الدار حتى غادرتها، [لم يتوقف إلا قليلاً.]

. . . لعل أم البنين تحاملت على قلقها لتهدئ أواره، وأقبلت نحو ولدها وهي ترى جلوسه قرب الباب، وسألته أن يقوم إلى وسط المكان، بينما سأل عبد الله:

ـ ألم يفطر والدنا بعد يا أخي؟ . . . هل لا زال مشتغلاً بالعبادة؟

لعل العباس اغتصب من فؤاده المقروح بسمة وهو يجيب أخاه:

ـ بل هو أفطر يا أخي، ولم يتجاوز قرصيه!

ثم تابع وهو يسرد لأمه قائلاً:

ـ [لقد أرادت سيدتي أم كلثوم أن تزيد في إفطاره إداماً، قصعة فيها لبن وملح، ولكنه لما رآها بكى بكاءً شديداً وقال: «يا بنية، أتقدمين إلى أبيك إدامين في طبق واحد؟! . . . أتريدين أن يطول وقوفي غداً بين يدي الله يوم القيامة؟!»]

كأني بأم البنين تبكي بصمت، ويذرف العباس دمعاً هتوناً، فلا يستوقفه إلا صوت أمه تقول:

ـ هو أمير المؤمنين يا ولدي، أولم تسمعه يقول: «لأروّضن نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص، وتقنع بالقرص مطعوماً وبالملح مأدوماً!»

لعل العباس هز برأسه ثانية وهو يمسح دمعه، وراح يتابع سرده:

ـ أماه، [لقد أفطر بالخبز والملح كعادته، ولما فرغ قام إلى الصلاة كعادته، . . .]

هل تنفست أم البنين الصعداء وهي تحاول أن تقنع نفسها أن ما تستشعره من قلق لا مبرر له؟! وهل همست تسأل:

ـ إذاً، . . . لم تلاحظ عليه أي تغير؟

وهل أجهش العباس فجأة بالبكاء وقد أعياه إخفاء أمره وهو يقول:

ـ أماه، [إنه كان يكثر من الدخول والخروج، وينظر إلى السماء ويقول: «هي هي والله، الليلة التي وعدنيها حبيبي رسول الله!»]

هل أجهشت أم البنين بالبكاء بدورها، وقد فاض بها المكيل، ، وهل كاد صوتها يرتفع، لولا أن التصق بها عبد الله، فضمته بشدة، وراحوا جميعاً يبكون؟!

ربما، وربما استطاعت الهدوء بعد لأي، وسألت:

ـ وكيف تركته يا ولدي؟

لعل العباس مسح دموعه الجارية وهو يحدق في البعيد وكأنما يستقرئ الآتي، ويجيب:

ـ تركته يريد الرقاد، وعدت إليك.

وكأني بالعباس إذ وصل إلى تلك المرحلة من الحديث، قام يريد النافلة، وقامت أمه أسوة به، بعدما هدّأت عبد الله وطلبت منه أن يخلد إلى الراحة قليلاً، وأن يقرأ سورة القدر ما شاء من المرات، ثم عكفت على صلاتها.

. . . وحانت من أم البنين التفاتة إلى خارج الدار، عبر كوة في أعلى الجدار، وإذا بها ترى ظلمة الليل تزداد، . . . رباه، أهي تنظر إلى السماء أم إلى قلبها الذي لا تظن انه عايش سواداً كالذي يعايشه الساعة؟! . . . ولكن نظرة واحدة إلى زاوية الدار كانت تبعث في ذلك السواد نوراً، إنه

نور زهراء الذي لم يغادره قط، . . . ولكن، حتى ذلك النور النفّاذ الذي ما فتئ يملأ آفاق كيانها مذ عرفته، كان شاحباً محمراً، لا لنفاذ ضوئه، فهو متصل بمشكاة رب العالمين، ولكن، لعله كان مظللاً بسحابة حزن قاتمة لايشبهها سحاب، وبضباب من نجيع لا تدري مأتاه!

. . . ولعل أم البنين ما قامت ليلة بمثل ذلك الطول، هي ليلة قدر، لها أعمالها وأذكارها وأدعيتها وتلاوتها، وقد جلست بين ولديها العباس وعبد الله يصلون ويدعون، بل لعل عثمان انضم إليهم أيضاً، بعدما كانت أم البنين حريصة كل الحرص أن توقظ أولادها لإحياء مثل هذه الليلة منذ نعومة أظفارهم.

ولعلها كانت ترى العباس يتململ بين الفينة والفينة، في سجود طويل، وقنوت أطول، وبكاء قد يرتفع أحياناً.

هي تعرف عبادته، فهي ما علمته إلا عابداً زاهداً مقتدياً بأبيه وأخويه الحسنين، ولكن، لعله الليلة كان أكثر تأثراً وأغزر دمعاً!

وعلام تتعجب منه، وهي لا تقل عنه لوعة، وطول سجود وقنوت، وحنيناً وأنيناً؟!

إنها لتستشعر في فؤادها ناراً لا تستكين، بل يزداد اضطرامها مع تقدم الليل، وهي لا تدري إلى أي حد ستزداد، وإلى متى! . . . وهل سيتحول كيانها بعد ساعة إلى رماد يحترق، أم لعل معجزة ما ستطفئه وتحيله برداً وسلاما؟!

ولعلها تذكرت إذذاك معجزة إبراهيم!

إن الله قد جعل النار عليه برداً وسلاماً لما توسل بمحمد وآل محمد، وها هي اليوم تصطلي بنار عشق محمد وآل محمد، وإن نار فؤادها لتتقد أكثر إذ يغذيها عشق محمد وآل محمد، فأنى لهذه الكلمة أن تطفئ اليوم ما يزداد بها اشتعالا؟!

وكأني بالعباس قد تحرك فجأة عند السحر، . . .

لعل أم البنين هبت لتأتيه بشربة ماء وبضع تمرات يتسحر بها، فخرجت ولم تجده!

وكأني بها قد وقفت عند الباب تنتظره وتبتهل.

هي تعلم أنه لا يخرج هكذا، إلا إن اعتراه طارئ لا قبل له به، . . . لم تدرِ كم وقفت، فليلها طويل، طال بها الوقوف أم لم يطل، ولكنها علمت أن العباس عندما عاد كان بادي الوهن يجر خطاه جراً، . . . وطار قلبها المشتعل لينثر عليه بعض شراراته، فيقابلها بمثلها، ويجيب بصوت لم يعد يملك أن يجعله منخفضاً:

ـ أماه، . . . إن سيدتي أم كلثوم في دارها تبكي، وقد اشتد بكاؤها!

تهافت عمق أعماقها وهي تسأل بصوت مبحوح:

ـ هل حدث مكروه؟!

لعله استدار حتى واجهها، ولعلها قرأت في ملامح وجهه الصبوح اكفهراراً لم تعهده، وفي شفتيه شحوباً وجفافاً وارتعاشاً، وفي عينيه النجلاوين المحمرتين نظرة تتطاير ودموعاً تترنح وهو يجيب:

ـ ليس بعد، ولكن [والدي قد خرج إلى المسجد، وقد أتت سيدتي أم كلثوم إلى مولاي الحسن فحدّثته بحديث، فهب يتبعه حتى لحقه قبل أن يدخله، ولكنه أقسم عليه بحقه أن يعود إلى الدار، فعاد مرغماً!]

وكأني بأم البنين وقد اضطربت، وراحت تجول في الدار والهة، . . . إن أمير المؤمنين في المسجد وحده، هي لا تخشى عليه غيلة الغائلين، فإن أحداً لا يكاد يجرؤ على الدنو منه لهيبته، ولو كان من أصحابه، فكيف يجرؤ على ذلك أعداؤه؟!

لعلها أرادت أن تلجأ إلى صلاتها من جديد، ولكن، إن منظر العباس استوقفها، وهو يستقبل القبلة من جديد ويبدأ صلاته.

هل تمثلت فيه صورة أبيه؟! . . . هل تذكرت قول الزهراء عليها السلام فيه: «إنها الغشية التي تأخذه حال الصلاة!»

هل صعق فؤادها وهي تتمثل كل ذلك؟! . . . وهل تزايد قلقها؟!

أكبر الظن أن ذلك قد جرى، ولعلها هتفت بالعباس إذذاك وهي تهيب به أن يلحق بأبيه إلى المسجد، . . . ولكن العباس نظر إليها بطرف منكسر، وأنبأها برفض أبيه أن يرافقه أحد!

أسقط في يد أم البنين، ولم تعد تجد أمامها سوى نجوى الله ملجأ وسوى الزهراء أنيسة ومواسية، . . . فراحت تبثها همها، ولعل هدوءاً ما اكتنفها فجأة.

. . . [وملأ الأسماع في تلك اللحظة صوت علوي، لا تدانيه تسابيح

الملائكة وتهاليلهم، . . . لقد كان صوت الأمير يرتفع فوق مئذنة مسجد الكوفة، بأذان الفجر!]

. . . تبادلت أم البنين وولدها نظرة والهة، فيها من الطمأنينة مثل ما فيها من الخشوع، . . . كان صوت الأمير يجلجل في الفضاء، فيخترق القلوب قبل الأسماع، ويصل إلى الأرواح فيشع في أنحائها، ويملأ الكيان طهراً وتقىً وضياء.

وإذا بالعباس قد هب يستعد للخروج بعد أن لم يعد يطيق المكوث. فسألته أمه:

ـ ألم تقل أنه ناشدكم عدم اللحاق به؟

وتبادر إلى ذهنها جوابه قبل أن ينطق به:

ـ سأذهب إلى سيدي الحسين!

. . . وذهب، . . . وأقفرت الدار من ظله، فتملكتها وحشة لم تتملكها من قبل، فلاذت بطيف الزهراء تنشد الطمأنينة والهدوء.

ثم إنها وقفت بعدئذ تصلي الفريضة، وتغالب ما اعتمل في سويدائها من تعاظم القلق، حتى بلغ الذروة.

لعل أم البنين كانت قد أنهت صلاتها للتو، ولعلها سجدت سجدة طويلة وهي تبتهل، . . . فغابت عن الوجود في خضم ما تعاني، ولم يكن ليوقظها إلا وقع خطوات متسارعة قلقة في الخارج، خطوات تعرفها جيداً، وتتصل ضرباتها بضربات قلبها، فتتحرك بخطى سريعة إلى الباب لتفتحه!

[إنهما بنتا الزهراء، زينب وأم كلثوم، وقد قصدتا الساعة إلى دارها، دار أبيهما، لحاجة ما!

لقد دخلتا، والتقت العيون بالعيون، وانسكبت الدموع فوق الدموع، واختلطت الزفرات بالزفرات، ولعل أم البنين لم تكد تسأل، حتى كانت أم كلثوم أسرع في بث همها والكلام:

ـ أماه، . . . يا أم البنين، إن أبي قد نعى نفسه الليلة، . . .

وتلاحقت أنفاسهن، وهن يستمعن إليها تصف ما جرى، . . . كيف انتبه الإمام من نومه بعد رقدة قصيرة، وهو يمسح وجهه بثوبه، ونهض قائماً على قدميه، وهو يقول: «أللهم بارك لي في لقائك!» ثم يحوقل ويحوقل، ثم يسبغ ضوءه، ويعود إلى صلاته فلا ينام بعد ذلك قط، حتى إذا سألته أم كلثوم عما اعتراه أجاب:

ـ بنية، قرب الأجل وانقطع الأمل!

فبكت فحنا عليها يقول:

ـ يا بنية، لا تبكي، فإني لم أقل ذلك إلا بما عهد إليّ النبي، . . . إني رأيت الساعة رسول الله في منامي وهو يقول: «يا أبا الحسن، إنك قادم إلينا عن قريب!»]

. . . لعل أم كلثوم غصت، فلم تعد تستطيع أن تتابع، ولكنها، أصرت على المتابعة، رغم تزايد البكاء ممن حولها، من أختها زينب، من أم البنين، ومن عبد الله الذي انتحى زاوية يلهج ويدعو!

ـ [لقد أسبغ الوضوء، ثم لبس ثوبه ونزل إلى الدار، كان في الدار إوز أُهدي إلى أخي الحسن، فلما نزل صحن في وجهه ورفرفن، فقال: «لا إله إلا الله، صوائح تتبعها نوائح، وفي غداة غدٍ يظهر القضاء»، ثم إنه وصل إلى الباب فعالجه ليفتحه، فتعلق الباب بمئزره، فانحل مئزره، فأخذه وشده وهو يقول:

«اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكَ
ولا تجزع من الموت إذا حل بناديكَ
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكَ]

تزايد بكاء أم البنين، حتى أحست بروحها تكاد تزهق، وكذا زينب وأم كلثوم.

لم تعد أم البنين تدري ما تصنع، أتكفكف دموعها التي تكاد تعمي بصرها، وتمسك بآهاتها التي تكاد تخنقها، أم تنثني إلى بنتي الزهراء لتواسيهما وتمسح دمعيهما، وذلك أدنى إلى رضى مولاتها ومولاها؟!...
ولكن، تالله، فبِمَ تواسيهما، وهو أمير المؤمنين، البقية الباقية لهما من أمهما الزهراء، وقد نعى نفسه وتهيأ للموت، فكان ذلك عليهما أشد من سكرات الموت نفسها؟!

لم تكن قد حظيت بجواب بعد على تساؤلاتها... كانت الأمور مختلطة أمامها كما لم تكن قط من قبل، هي لم تشعر بالخوف يوماً، ولكنها في تلك اللحظة بالذات ارتعدت، تزلزل كيانها، حتى بلغ الزلزلة العظمى مع [صيحة عظمى ارتفعت فجأة... كان صوتاً، نداءً، ملأ

الخافقين، كادت السماء تطبق على الأرض وهو يدوي، في ثنايا ريح هبت فجأة مع هبوبه، سوداء عاصفة غضوب، . . . وجلجل النداء، بين الأرض والسماء، فدخل عمق القلوب والأسماع:

ـ «تهدمت والله أركان الهدى، . . . انطمست والله أعلام الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قتل ابن عم المصطفى، قتل الوصي المجتبى، قتل علي المرتضى، قتل والله سيد الأوصياء، قتله أشقى الأشقياء!»]

لم يكن ما جرى عقيب النداء أمراً يوصف، بل إن الوجوه التي غسلتها الدموع قبل ساعة، والعيون التي لم تفتأ تمطر وتمطر دون توقف، والصدور التي ما برحت تعلو وتهبط بأنفاس متلاحقة وحشرجات لا تهدأ، كل ذلك قبل أن تقع الواقعة، لم يكن هناك وصف يكفي ليشرح ما جرى عقيب الواقعة، . . . هل بلغت أرواحهن الحلقوم؟! . . . هل تراءت لهن أهوال يوم القيامة؟! هل انطلقت أصواتهن التي لم ترتفع قط من قبل لتشق أجواز الفضاء، فتصطفق مع صفعات الرياح، صدى لذلك النداء السماوي الذي انطلق قبل هنيهات؟!

[إنه جبريل]، قد ألقى آخر آهاته في سماء الدنيا، وارتحل! . . . لقد ختم بندائه الأخير حلقات المناجاة الإلهية لأهل الأرض، . . . [هو لم ينعَ أحداً من قبل، ولن ينعى أحداً من بعد، سوى علي وصي محمد!]

. . . واختلط عويل بنات الزهراء وأم البنين، بصرخات الأطفال، عبد الله، وجعفر وعثمان، اللذَين أيقظتهما الصرخة والعويل، وراحوا يلوذون بعضهم ببعض.

وارتفع العويل من كل دار، وهبّت نساء أمير المؤمنين، ونساء بني هاشم إلى دار أم البنين، فيما هب الرجال إلى المسجد حيث لم يزل صدى أذان الأمير، ورنين صوته الملكوتي، يتردد في أنحاء المكان والزمان، والقلوب والأرواح.

إيه يا أمير المؤمنين، إيه يا سيد المتقين الصابرين المظلومين، لقد انهدمت حقاً أركان الهدى، وانفصمت حقاً العروة الوثقى، . . . لقد ناداك العلي الأعلى فأجبته، وأضناك الشوق إلى معشوقك الأبدي فانجذبت إليه، . . . لقد أتعبتك الدنيا فاعتزلتها، وناجاك أهل الآخرة فارتقيت إليهم. وتركت وراءك أيتاماً وأيامى، تركت وراءك حشود الأيتام تستصرخ أبوّتك الحانية، فواهاً لها من خسارة ما أفدحها، . . .

مولاي، لا خسارة كخسارتك، . . . حتى خسارة رسول الله عوّضها وجودك، أما فقدانك فبِمن يُعوّض؟! . . .

. . . لقد وصل الإمام الحسن عليه السلام إلى المسجد بعيد النداء، ووصل الحسين والعباس، وسائر أولاد الإمام، . . . لقد حال بينهم وبينك سهم القضاء، الذي قضاه الله كما قدر وشاء، ولم يكن للهروب منه سبيل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

لو أن تلك الداهية العظمى لم تكن جريمة عظمى لهان الأمر، وما كان ليهون!

ولو أن ذلك الخطب الأكبر لم يكن قتلاً واغتيالاً للحق الحقيق، وليد البيت العتيق، الصادق الصدّيق، لكان الرضى بالقضاء هو الملجأ

والمرتجى، يخفف من غلواء العذاب الذي تصلاه القلوب لفقده، ولكن، كيف يكون العزاء وقد جرى ما جرى؟!

. . . لقد تهاوى صرح الهدى بيد أشقى الأشقياء، الملعون في الارض والسماء، من باع روحه للشيطان، وشرى حظه بالأوكس الأدنى، . . . لقد غدر أشقى الآخرين بإمام المتقين، علم أنه لا يأخذه إلا غدراً، ذلك أن يقظة الإمام وتنبهه لا يفارقانه، في كل حال من حرب أو سلم، إلا في حال واحدة!

. . . لقد علم الملعون أنه لا ينال الإمام إلا في تلك اللحظات التي يلتفت فيها بكله عما حوله، فيذوب في الباري، ويتغلغل في عمق العشق الإلهي، وينسكب ألقاً في فضاء النور الملكوتي، . . . عندها، يغيب الإمام عن هذا الوجود الفاني، وينتقل إلى جوار القدس، وتصيبه غشية، وغيبة عن المكان والزمان، ولسان حاله يردد «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك، . . . إلهي اجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، . .»(*).

مولاي، لقد وهبك الله كمال الانقطاع إليه، وأنار بصر قلبك المستنير أصلا، بضياء نظرك إليه، فخرق بصر قلبك حجب النور، ووصل إلى معدن العظمة!

(*) من المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين عليه السلام.

مولاي، لقد أخذك الشقي غدراً في تلك اللحظة الخالدة، التي تعلقت فيها روحك بعز قدس الله، إذ ناداك فأجبته، ولاحظك فصعقت لجلاله، . . .

لقد تمكن ذاك الغدار الملعون من إمام الساجدين، فضربه حال سجوده، . . . واخترقت ضربته حاجز المكان والزمان اللذان كانا يفصلان الإمام عن الانتقال إلى ذلك البعد الخالد، حيث لا مكان ولا زمان، إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام، . . . ولذا، فإن الضربة حين لامست هامة الأمير، التي لم تسجد لصنم قط، وفجّرت ذاك الدم المقدس الذي لم ينسكب على أرض قط، على كثرة ما حارب وجاهد وخاض غمرات المعارك، . . . [إن تلك الضربة التي هزّت أركان العرش، بعد إذ غاصت في رأس الإمام وهو يستقيم من السجدة الأخيرة، في الركعة الأخيرة، . . . من تلك الصلاة الأخيرة، . . . أكبت الإمام على وجهه الكريم وأطلقت لسانه بذاك النداء، الذي احتبس في أعماقه منذ فجر الزمان، حتى اخترق في تلك اللحظة أسماع الملائكة والإنس والجان:

ـ باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، . . . فزت ورب الكعبة!!!

لقد أقبل الحسنان نحو أبيهما، . . . كان المسجد قد ضجت جوانبه بالصراخ والعويل، وقد راح المصلون يتهافتون ويتسابقون للظفر بالمجرمين، الذين مالأوا على قتل أمير المؤمنين، وهم يكادون يمزقونهم إرباً ويضرسونهم بأنيابهم الحانقة، ويمسكون بتلابيبهم بقبضاتهم وزفراتهم الخانقة!

. . . وظفروا به، ذاك اللعين في الأولين والآخرين، وأتوا به إلى الإمام، الذي كان مستنداً في مصلاه، يمسح الدم عن وجهه بيده، . . . لعل الإمام نظر إلى ارتعاد اللعين فرقاً، فالتفت إلى أصحابه يوصيهم بالرفق به، حتى يقضي الله ما هو قاضٍ!

تعجب الناس، وتميّزوا لشدة الغيظ، أن كيف يرفق الإمام بهذا اللعين الألعن، . . . ولكنه حلمه وعدله، . . . هو أمير المؤمنين، كان ولا يزال أميراً للمؤمنين!

. . . وصل الحسنان إلى الإمام باكيان منتحبان، والعباس في إثرهما تكاد تزهق روحه حزناً وبكاءً وتألماً، أن كيف جرى ما جرى، كيف انتهكت حرمة الإسلام، وتهاوت دعائم الدين، واغتيلت آيات القرآن!]

رباه، أنى يكون له الصبر بعد هذا الخطب المهول الذي لا يندرج الصبر في جملة عتقائه؟!

[. . . كان جعدة بن هبيرة، ابن أخت الإمام، قد قام مع جماعة من المصلين يشدون جرح الإمام ويبكون.

فلما وقع بصر الإمام على ولده الحسن عليه السلام أمره أن يصلي بالناس.]

كان صعباً على كل أحد، أن يلتف بمثل تلك السرعة على ألم بمثل ذلك العمق، ويستطيع أن يمتثل للوقوف للصلاة بتلك الجموع المنتحبة!

. . . وكأني بالعباس ينظر إلى سيده الحسن، وإلى سيده الحسين، وهما يلتقطان زفراتهما الملتهبة ويمسحان دموعهما المنسكبة، . . . فيرى الصبر بأجلى معالمه؛ . . . إن الصبر هو ديدن آل محمد، وهما،

الحسنان، سبطا الرسول، وابنا حيدر والبتول، بالأمس مضيا خلف أبيهما بعدما قُيّد وسحب على وجهه في أزقة المدينة، كيما تُنتزع منه البيعة غصباً، . . . بالأمس شاهدا أمهما الزهراء منطرحة خلف الباب تنزف دماؤها وقد كُسر ضلعها وأُسقط جنينها، بالأمس عاينا هضم حقها واغتصاب إرثها، واشتداد مرضها وحزنها وبكائها بعدما لاقته من هضم وعذاب، حتى التحقت بربها، . . . بالأمس مضيا خلف جنازتها يسند أحدهما الآخر، ويستندان إلى أبيهما الثاكل، يكتمان عويلهما، وهما ابنا ثمان وسبع ويواكبان سرها إلى ذلك المثوى الأخير، ليبقى السر سراً إلى أن يشاء الباري ويفعل!

[وإذا الحسن إمام الصابرين، قد امتثل لأمر أبيه وإمامه، فمسح دمعه والتقط آهاته، ووقف يؤم المصلين في صلاة لم تشهد مثلها الكوفة يوماً بكاءً وأنيناً وتعفير جبين، لا خشوعاً فحسب، بل حزناً وفجيعة.

وقف الحسن حيث كان أبوه عند المحراب الذي ارتوى أديمه بدماء الأمير، أول أرض تتلقى أول قطرة دم يذرفها أول جرح لأول القوم إسلاماً وأقدمهم إيمانا، . . . إنه الجرح الأول، . . . والأخير.

. . . . وصلى الأمير بإيماء من جلوس، وهو يمسح الدم عن وجهه وكريمته المباركة، ويميل تارة ويسكن أخرى!]

مولاي يا أمير المؤمنين، . . . فيمَ كانت افكارك النورانية وخواطرك الملكوتية تجول في تلك اللحظات الصعبة العصيبة؟!

هل كان الألم يشغلك وحرارة الجرح تطغى على حواسك؟!

كلا وحاشَ، فما كان لألم مهما كان قدره ولا لجرح مهما كان غدره أن يشغل أمير المؤمنين عن مناجاة بارئه والذوبان في ربه وإلهه، ولعل تلك المناجاة الصامتة التي كانت تدور بين الأمير ورب الأكوان، كانت هي الأبلغ والأعمق منذ كان، فعندما يقترب العبد من معبوده، وهو في الأصل منه قريب، . . . حين يبلغ غاية القرب ومنتهى التواصل، حين تتقطع أسباب العلاقة مع هذه الدنيا، وهي في الأصل متقطعة واهية، وحين تبدأ رحلة العروج نحو عالم الخلود، بتلك اللحظة التي تفصل الحياة عن الموت، بل الحياة الفانية عن الحياة الباقية، حينها، يكون العبد قد بلغ سدرة المنتهى وصار قاب قوسين أو أدنى من المعبود، ولم تبقَ إلا خطوة واحدة، ليعانق الحبيب حبيبه في عناق أبدي لا انفصال بعده!

. . . ولعل أمير المؤمنين، وهو يطالع وقوف ولده وبكره يؤم الجموع في تلك اللحظات، كان يستذكر الماضي ويتمثّل الحاضر ويستحضر المستقبل، ويرى بأم العين ما يجري عليه بعد حين، ولعله إذ يتململ تململ السليم، ويتأمل الحسين وهو يصلي جنح أخيه، والعباس وهو يقف في ظله يواكبه ويحميه، كان يستحضر أيضاً كل ما سيأتيه، من مآسٍ ليس أولها مأساة أبيه، ولن يكون آخرها فجيعته فيه، . . . إن الزمن قد كشر عن أنيابه وشمر عن زنديه، ليبطش بعترة المصطفى ويدفن شريعة محمد في دياجيه، ولكن، هيهات، إن ربك لبالمرصاد، وإن كل قطرة دم يذرفها الإمام وتتلطخ بها دموع الغمام، إن كل زفرة تقطر من فؤاده المكلوم بكل طعنات الأيام، ستكون ينبوعاً هداراً لا ينضب، يروي كل ظامئ للحق فيعبّ منه ويعبّ، ويبقى له من الينبوع ما يزيد ويزيد، حتى منتهى ما يشاء الخالق ويريد.

ولعل العباس إذ كان يصلي، كان يرتعد ويرتعد، لا فرقاً وخوفاً، بل انسكاباً وانصهاراً في الرب المعبود، ودعاءً ونجوى، أن يلطف المولى بوالده المظلوم، بأحب العالمين إلى فؤاده المكلوم، بل بأحب العالمين إلى الله بعد محمد، بل أن يخفف عنه ما يراه من ألم الضربة المجرمة التي تركته منطرحاً على الأديم يناجي ربه كما لم يناجه قط.

كان العباس يرى أباه للمرة الأولى جريحاً، . . . للمرة الأولى طريحاً، . . . للمرة الأولى ينزف دماً سفيحاً، وهو الجبار الذي ما أضعفه شيء من قبل، والطود الذي ما هدّه شرخ من قبل، والصرح الذي ما سما لما سما إليه أحد من قبل!

إن الموت الذي يلوح في عرض الأفق يريد أن يسلبه حبيبه، لهو الدليل البيّن أن الخلود لا يكون إلا لله القدير، وأما من سواه، فهو يستمد من خلود الله معناه!

. . . [ثم إن الصلاة تمت، فحُمل أمير المؤمنين إلى الدار!]

رباه، . . . لم يكن بوسع الناظرين أن ينظروا، وأن يتحملوا المنظر. فازداد البكاء وارتفع العويل، وتصاعدت الحسرة ؛ . . . أمير المؤمنين. حامل راية النبي في بدر وأحد وحنين، رافع باب خيبر وفاتح الحصون الأكبر، قاهر الناكثين والقاسطين والمارقين، يُحمل على الأكتاف، وما حمله حتى الساعة إلا التراب، وهو أبو تراب؟!!

إنه لمصاب دونه كل مصاب!

[وتقدم الموكب، . . . كان صوت عويل النساء يلف الأرجاء، كل امرأة وطفل وكهل وشاب، قد نبههم النداء.]

ومضى العباس خلف الحسنين، لعله شارك الحسنين في حمل الإمام، ولعله شعر في خضم الهول الذي كان غارقاً فيه، بثقل الإمامة، فهو ثقل تنوء به الجبال، ولا يحمله إلا إمام!

[ولما قارب الموكب الهادر دار الأمير، راعهم صوت ضعيف يصدر عنه، بعدما أعياه النزف وعمق الإصابة، . . . والتفتوا، وإذا الإمام يشير إليهم أن، ينزلوه!

تصارخوا جميعاً:

ـ ولِمَ يا أمير المؤمنين؟! . . . إنك لا تطيق السير على قدميك!

فأجابهم، . . . ربما لم تدمع عينه إلا في تلك اللحظة، رغم كل ما كان يعانيه من ألم فظيع، ومن ذكريات وهمّ لما هو آتٍ مريع:

ـ أخشى أن تراني زينب وأم كلثوم بهذه الحال، فتجزعان!]

ويحي لقلبك الكبير يا مولاي، ولهمك الكبير، . . . ويحي لعطائك الوفير، . . . ويحي لدمعتك المنسكبة على وجنتك المختضبة، يا ملهم كل كبير وصغير، . . . إيه يا مولاي!

هي ذي زينب، . . . هي ذي أم كلثوم، . . . ها هن بنات الزهراء يقفن بباب الدار ينتظرن قدومك كما عودتهن على الدوام، وهل يطيق فؤادك الرؤوم نظرة اللوعة في عيونهن لرؤية تهاويك أمام ضربة، لن تستطيع قط أن ترميك؟!

وكأني بالعباس قد وقف في تلك اللحظة يتأمل المنظر، فأعجزه الدمع

المتساكب من مقلتيه أن يتأمل، ولكنه استطاع أن يرى كيف [ترجل أبوه، وتحامل على نفسه حتى قام ومضى قدماً نحو داره، مضى مشياً!]

كانت تلك الخطوات تلامس أديم الأرض، فيسبح الحصى لوقعها وينتشي التراب، وكيف لا يفعل، وهي خطوات سيد الأوصياء، تهتز بحركتها نجوم السماء لا تراب الأرض فقط، وهي ليست خطواته فحسب، بل لعلها آخر خطوات يخطوها على هذه الأرض، فهي إذن تنسكب عشقاً وحنيناً تعانق الأثر، وتتغلغل ذرات التراب متهافتة على بعضها فتعتصر الحجر، وتودع للمرة الأخيرة خطى وصي سيد البشر.

[كان النحيب المتقدم نحو دار الإمام كفيلاً بإخراج بنات الزهراء. وإخراج أم البنين وسائر الهاشميات من الدار، ليقفن جميعاً على الباب يرمقن الدرب المؤدي إلى المكان وينتظرن إطلالة الشمس التي أبت أن تشرق هذا الصباح، واعتراها الكسوف!

وأطل الأمير، يمشي الهوينا مستنداً إلى الحسنين، يتبعهم العباس ومحمد وسائر أولاده.

نظرت زينب وأم كلثوم إلى أبيهما مشقوق الرأس معصباً بعصابة... حمراء!... لا بل عصابة لا يُعرف لونها لكثرة ما تضمخت بدم الإمام فغدت حمراء!

هو يمشي متخاذلاً كما لم يمشِ من قبل، ذاك الجبل الراسخ الذي لم يعرف الضعف والتخاذل!

وارتفع منهن الصراخ والنحيب أكثر من ذي قبل.]

أما أم البنين، فهي لم تدرِ ما تصنع، بعدما رأت بعلها وإمامها، كهفها وحصنها، رقّها وعتقها، عشقها وغرامها، كل دنياها وكل آخرتها، يتقدم نحو داره بخطىً واسعة نحو الآخرة!

هل كانت تروح وتجيء، وتتململ وتتقلب، . . . وتصرخ تارة وتلطم أخرى؟! . . . أم لعلها كانت تسارع إلى زينب وأم كلثوم تضمهما وتهدئهما، ولا تجد من نفسها ما يهدئها! . . .

[ووصل الأمير إلى داره، . . . وصل الليث الجريح إلى عرينه، . . . فدخل حجرته، وأحاط به كباره وصغاره، . . . ثم هدأ العويل شيئاً ما، . . .]

ربما لاح لأهل البيت بريق من أمل، أن الإمام لا يزال بينهم، لا يزال فيهم، . . . ولعل القدر يسمح لهم بالتزود منه بعد، قبل أن يسلبه منهم ويغيبه عنهم إلى يوم يبعثون.

***

. . . هل انكفأ الكون يوماً يحشد كل غماماته الربداء لتغطي وجه الشمس، كما فعل في ذلك النهار الكئيب؟!

هل لوّن الزمان بريشته السوداء يوماً ليلاً بهذا الطول؟!

هل أقفرت سماء الأرض منذ بدء التكوين من كل شمس وقمر ونجم، كما أقفرت في ذلك النهار وتلك الليلة؟!

كان كل شيء فارغاً حتى الحياة نفسها، رغم عجيجها وضجيجها، كانت فارغة كطبل أجوف، ولم يكن بمقدور أم البنين أن تتحامل على

نفسها أكثر، . . . لقد تمثلت لها كل أيام آل الرسول، كل أيامها في ظل وصي الرسول، تمثلت لها دفعة واحدة، وراحت تقف عند كل لحظة وتتأمل كل مشهد، وترثيه!

ولكنها كانت تعلم أن مهمتها قد بدأت، . . .

إن كل ما عاشته حتى الساعة، تتهيأ وتهيء أولادها لخدمة آل مصطفى، هو رهن بما تأتيه من الآن حتى النهاية.

ولكن، أي نهاية؟!

إن الحسنان حزينان، والزينبان حزينتان، بل إن الحزن كلمة لا تنطق بالخبر، إنهم يتنفسون أباهم مع الهواء، ويرتوون به مع الماء ويتغذّون به قبل الغذاء، فكيف يكون الحال إذا انقطع عنهم الماء والهواء والغذاء؟!

. . . وارتعدت أم البنين فوق ارتعادها، إن الموت يكون لها أقل نتيجة إن جرى هذا، إن كان إلى أكثر من الموت سبيل.

إن عليها إذاً أن ترش الملح على جرحها ليلتئم، بل ليحجم عن النزف المتواصل الغزير، وأن تقوم، أن تساند أولاد الزهراء، أن تواسيهم ما استطاعت إلى المواساة سبيلاً، وإن كانت تعلم أن المواساة عسيرة، إذ كيف تخفف عن سواها ألماً يعبق في حناياها، . . . ولكن، لا بد مما ليس منه بد، إن عليها أن تستدعي ولدها، أن تشد أزره، وأن تعصب قلبه النازف الملهوف، ليستطيع التحامل على نفسه والوقوف، ومساندة أخويه في مواجهة هذا الخطب المهول الذي لا يماثله خطب، إلا فقد الرسول والبتول، بل إنه بعد هذين الخطبين أكثر إيلاماً، لأنهما كانا به يعيشان، فإن

مضى الآن مضيا معه، وكان فقده فقداً لكلهم، فقداً لا يعوضه عزاء!

. . . ترى، هل مضى على البيت العلوي يوم صيام كهذا اليوم، وإفطار كهذه الليلة؟!

. . . ربما قام بعض الأصحاب بإعداد الطعام لآل البيت، ولكن، من ذا الذي ينظر إلى الطعام في يوم كهذا، فضلاً عن تذوّقه، وفي البيت يحتضر الإمام!

. . . أجل، [لقد كان الإمام يحتضر، فهذا أثير بن عمرو الجراح، أشهر أطباء العرب، قد رآه بعدما رآه سواه، وفحصه، ثم تلجلج في الجواب، . . . ثم التفت إلى أمير المؤمنين وقال له مطاطئاً رأسه متأثراً:

ـ يا أمير المؤمنين، إعهد عهدك، وأوصِ وصيتك، فإن عدو الله قد وصلت ضربته المسمومة إلى أم رأسك، وقد سرى السم في بدنك!]

لقد تململ البيت وتزعزع، وارتفعت الأصوات التي كانت لا تزال تغالب اليأس بالرجاء، أما الأمير فهو لم يزدد إلا هدوءاً، . . . كان يعلم أكثر من الطبيب أن أجله قد دنا، وكان ينتظر وصول تلك اللحظة المختبئة منذ زمن طويل خلف المنحنى!

. . . وأما أم البنين، فكأني بها قد روضت نفسها على الصبر، وقد علمت أن اليوم هو أوان الصبر، وأن كل ما مضى من عمرها هو رهن بهذا الصبر، والصبر الذي يليه، كأني بها وقد راحت تنتقل بين الفاطميات تهدئهن وتمسح جراحهن ببلسم العزاء، تشاطرهن الدمعة واللوعة، ولكن، تكون الأسبق دائماً إلى كفكفة الدمعة.

ولعله إذ حان وقت الإفطار، أرادت أم البنين حمل أهل البيت على الإفطار، بدعوتهم ولو إلى شق تمرة، ولكن، أنى لها ولهم ذلك، وقرصا أمير المؤمنين يلوحان أمامها في وسط المائدة الزاهدة.

لعلها مدت يدها المرتجفة إليهما، . . . لعل دمعة من عينها سقطت عليهما، ولعلها رغبت كما لم ترغب قط أن تتذوق طعمهما المجبول هذه المرة بملح دموعها.

[ولكن، ما كان أمير المؤمنين الليلة ليفطر على قرصيه، فقد أوصاه الطبيب باللبن لإطفاء حر السم!]

إيه يا أمير المؤمنين، . . . هل ضننت على نفسك البارحة بقدح لبن من يد ابنتك الحبيبة أم كلثوم، وترفعت ان تملأ بطنك من مأكل أو مشرب قد تكون فيه نكهة تستلذ وتستطاب، ليأتيك هذا القدح الساعة، لا يُستلذ ولا يُستطاب؟!

لم يكن ذلك هو الأمر فحسب، [ولكن حشود الأيتام قد اصطفت على باب الأمير، كلاً يحمل له قدحاً من لبن، ويرجو ان يكون لبنه هو غذاؤه الأثير!]

مولاي، هل ترقرق الدمع في عينك رحمة بهم، أم شوقاً إليهم، وأنت تعلم أنك أبوهم، وأن اليتم المضاعف سيكون مصيرهم بعد حين، وإنما أنت وأخوك النبي أبوا هذه الأمة؟!

. . . هل تذكرت قول الله تعالى: «وأما اليتيم فلا تقهر»، فرجوت أن لا ترد يداً خائبة بما أتت به؟!

على أن اللبن لم يكن ليرد عن أمير المؤمنين غائلة السم الذي راح يجري في عروقه الشريفة مجرى الماء في جذور الشجر.

[أجل، فلم تكن قوة الضربة اللعينة التي أصابت هامة الأمير هي وحدها القاضية، بل كان السم الزعاف الذي سقاه ابن اليهودية لسيفه ونقعه به أربعين صباحاً، فهو لو كان له أن ينجو من الضربة ما كان لينجو من السم]، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

. . . [لقد اجتمع أبناء الأمير وبناته في غرفته في تلك الليلة، وراح يوصيهم بوصاياه، ويعزيهم بنفسه ويخبرهم بأمره، إلى طلوع الفجر.]

***

هي الساعات تجري، والسم في بدن الإمام يسري. . .

هي الساعات تجري، وقلوب الوالهين ودموعهم تجري،

هي الساعات تجري، ويراع الحقيقة ينغمس في مداد النجيع ويجري، وعلى قرطاس الولاء يتلوى ويجري، ويستمد من الفكرة نوراً، يخطها ويطويها عصوراً، . . . ويتسلل النور من الفكرة إلى القرطاس إلى اليراع إلى الأنامل، إلى القلب، . . . ويسري!

أجل، فبدء يوم جديد في بيت الإمام لم يكن يعني طلوع الفجر، بل التغلغل في الغياب، وبزوغ الشمس الكاسفة الباردة خلف سحب من صديد، لم تكن تعني سطوع السناء بل كانت ترثي سقوط السماء.

ومع تحرك الحياة في الكائنات، وتحرك الحج إلى بيت الإمام، [كان المؤمنون يأتون، يريدون أن يتزودوا، . . .]

ولكن، هيهات، . . . وهل تستطيع نظرة أن تلمّ بامتداد النظر؟! . . . أم هل تستطيع فكرة أن تحيط بعالم الفكَر؟! وهل تكفي لمحة من العطاء لتعوض عن عمر من الحرمان؟! . . .

. . . [ها هم أصحاب الإمام يأتون ويرحلون، يودّعون ولا يكتفون،] . . .

[ها هو صعصعة بن صوحان يستأذن على الإمام، ولكن الإمام يعالج سكرات الموت، فهو يغشى عليه مرة بعد مرة، ويهيب بولده الحسن عند ذلك أن يصرف الناس، وأن لا يُدخِل عليه أحداً بعد، . . .

وينقل الحسن أمر الإمام إلى أصحابه، فينظر إليه صعصعة وقد غلبته العبرة فيقول:

ـ يا ابن رسول الله، ألا تبلغ عني أمير المؤمنين هذه الرسالة؟

ولما يلتفت إليه الحسن متسائلاً يتابع، وهو يزدرد غصته، إن كان لمثل تلك الغصة الخانقة أن تُزدرد:

ـ قل له: «يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً، لقد كان الله في صدرك عظيماً، ولقد كنت بذات الله عليماً».

. . . وأبلغ الحسن أباه بالرسالة، فكان رد الإمام، ولعله رغم هول ما به غلبه الابتسام:

ـ قل له: «وأنت يرحمك الله، فلقد كنت خفيف المؤونة كثير المعونة!»]

. . . ولعل العباس الذي لم يكن ليفارق الدار قط إلا لضرورة، ولا ينفك يتردد بين غرفة أبيه وغرفتي أخويه الحسنين، وغرفتي أختيه، يعزيهم ويخفف عنهم ما استطاع، لعله في تلك اللحظات سمع رسالة صعصعة وسمع جوابها، . . . لعله أطرق برأسه مفكراً في معناها، ومتنهداً مدركاً فحواها، فما أعظم أن يكون المرء خفيف المؤونة كثير المعونة، إنها لمن صفات المؤمن حقا، الذي ينصح للحق ولا يرضى عنه بدلا.

. . . [على أن الأصبغ بن نباتة رفض أن ينصرف، لقد أخذ مجلسه قرب باب الدار، وثوى على الأعتاب كالسائل الفقير، حتى إذا تناهى إليه من داخل المنزل بكاء، لم يتمالك أن بكى، فخرج إليه الحسن، فلما وجده ابتدره يقول مترفقاً:

ـ ألم أقل لكم انصرفوا؟!

خفض الأصبغ ناظريه وهو يجيب متأثراً لا يمهله البكاء:

ـ لا والله يا ابن رسول، ما تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين.

. . . فعاد الحسن إلى الدار، فغاب هنيهات، ثم خرج ليدعو الأصبغ للدخول.

دخل الأصبغ على أمير المؤمنين متعثراً بأذياله، لا يكاد يبصر طريقه لشدة شوقه ولهفة سؤاله، وما إن رآه حتى تهاوى أمامه مجهشاً بالبكاء من جديد.]

لهفي عليك يا أمير المؤمنين، لهفي على وجهك الشاحب المصفرّ، لا يُدرى أهو أشد صفرة أم العصابة الصفراء التي عُصب بها رأسك، . . .

مولاي، أين حمرة لونك وتألق الورد على وجنتيك؟! . . . أين بسمتك وبشاشة محياك وصفاء خديك؟!

[انكب الأصبغ على الأمير يقبله ويزداد بكاؤه.]

إيه يا أصبغ، في أي ناحية من هذا الجسم الطاهر قد طبعت قبلة الوداع والوفاء، والشوق والولاء؟!

أعلى جبهته العلوية وقد خشيت أن تؤلم جرحه؟!

أم على وجنته الملكوتية وقد بلغت من الحق صرحه؟!

أم على يده الكريمة وقد تمددت واهنة متخاذلة، تلك اليد التي طالما قبضت على ذي الفقار، وقبضت به أرواح المشركين والمنافقين والكفار؟

أم على قدمه المقدسة التي استكانت بعد طول الهجرة والمسير، من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى ذاك المعراج الذي بوجوده يستنير، وهي في كل مكان تطؤه يتدفق الخير، في قلب الأرض وقلوب البشر، وكيف لا تفعل، ومسك الجنان عطر الكيان إذا تحرك في المكان انتشر؟

. . . [وتململ الأمير ناظراً إلى خله الوفي]، لعل ابتسامة ما لاحت في عينيه ولم تكد تبلغ شفتيه، المشغولتين بذكر لا يفتر، [وهمس له مواسياً:

ـ لا تبكِ يا أصبغ، فإنها والله الجنة!

ارتفع نحيب الأصبغ، ولما تمالك نفسه كان لا بد من الرد، فهتف يناجيه:

ـ جُعلتُ فداك يا أمير المؤمنين، إني أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، ولكن، إنما أبكي لفقداني إياك!]

أجل أيها الخل الوفي، وهل هناك شك في الجنة لقسيم النار والجنة؟ وهل بكى كل من بكى إلا لفقدان الملجإ والمشتكى، وفقدان هذه الجنة؟!

***

[وارتفع من الدار البكاء من جديد]، . . . لقد غلب الحزن على بنات الزهراء، ولعل أم البنين كانت قرب أم كلثوم تمسح دمعها، ولكن لتذرفه من جديد، . . .

[وردّ أمير المؤمنين يواسي ابنته، ويطالبها بالصبر، ويذكّرها بعظيم الأجر:

ـ لا تؤذيني يا أم كلثوم، فإنك لو ترين ما أرى. . . . !

صمتت أم كلثوم تواً وصمتوا، . . . والتفتت إليه، والتفتوا إليه جميعاً يتساءلون، . . . وتابع الأمير وقد علقت عيناه بمدىً غير منظور:

ـ إن الملائكة من السموات السبع بعضهم خلف بعض، والنبيين يقولون: «انطلق يا علي، فما أمامك خير مما أنت فيه!»]

أجل، إن الباكين صمتوا، وكيف تبكين سيدتي وقد آذنك الأمير أن بكاءك يؤذيه؟! . . .

وهل يكون لك أيتها الطاهرة أن ترضَي بإزعاج هذا الوالد الرؤوم والإمام الرحوم، فضلاً عن إيذائه؟!

لعمري إن الموت كان إليك أقرب، ولذا فقد عاينت ما يشبه الموت صبراً لكي تستطيعي ازدراد غصتك.

ولعل أم البنين التي لا بد أسندت رأسك واحتضنت آهاتك المكتومة، كانت تعالج زفراتها هي الأخرى، لكي لا تؤذيك وتزيد كربك، ولا تؤذي أمير المؤمنين.

إيه يا زهراء، ها هي ابنتك تعاين البلاء إثر البلاء، ها قد عم البلاء وبرح الخفاء، وضاقت بها الأرض ومنعت السماء، وكاد فقدك في المدى يتجدد، ففي علي كانت الزهراء تتجسد، وفيه أيضاً كان النبي محمد.

مولاتي يا زهراء، هي ذي خادمتك أم البنين، هي ذي تقدم بين يدي أولادك الأضاحي والقرابين، وهي تكبت الألم وتحبس الأنين، وقد شدّت الأزر متهيئة للمزيد!

الليل يتقدم، والصمت في بيت الإمام يتلوى ويتألم،

أجل، لا تبكوا يا أبناء أمير المؤمنين، لا تبكين يا بنات الزهراء، فذلك أدنى أن لا تؤذوا قلب الإمام بعدما بلغت روحه التراقي ولم يبق بينه وبين العروج إلا كمثل طرفة عين!

[إنه السم قد بلغ موضعه، وها هو الإمام يتململ، فيرفع قدماً ويضع أخرى، . . . أي ألم كان يعانيه الإمام حتى بلغ حد التململ، وهو الذي لا صبر كصبره؟! . . . حتى إذا عُرض عليه اللبن من جديد أبى، . . . لقد أدرك أن الموعد قد دنا، . . .

لم يعد للغذاء أي دور في تقوية بدن الإمام، أو تبريد جوفه الملتهب

بحرارة السم، بل لم يعد لهذا الهيكل المقدس المطهر أي حاجة للغذاء أو الدواء، فالروح قد تهيأت لتنطلق مشتاقة متهادية نحو رب السماء!

ولكن، هي بضع وصايا، يعيدها الإمام ويكررها لأولاده، فيبدأ بقاتله، ويوصي ولده الحسن عليه السلام به:

ـ بني بحقي عليكم، إلا طيبتم مطعمه ومشربه، وارفقوا به إلى حين موتي!]

مولاي، واهاً لقلبك الكبير وحلمك العظيم، حتى قاتلك، حتى من أوردك وأورد أحبابك هذا المورد المهول، توصي به!!

[ثم ها هو الإمام يدعو ولديه الحسنين، ويقربهما منه ويخصهما بالحديث، فيسن لهما سنّته:

ـ أي ولديّ، أوصيكما بتقرى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زُوي عنكما منها، وقولا الحق وارحما اليتيم، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم ها هو يلتفت حوله، فينظر إليه أولاده متسائلين عمن يريد، فلما يقع بصره على ولده محمد، يستقر ويخاطبه بقوله:

ـ أي محمد، هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟

فيهز محمد برأسه وقد اختنق صوته تأثراً، ثم يجيب:

ـ نعم يا أمير المؤمنين.

فيزيده الإمام بقوله:

ـ فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، العظيم حقهما عليك، ولا تقطع من دونهما أمراً.

ثم عاد يلتفت إلى الحسنين ليقول:

ـ أوصيكما به، فإنه ابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه.]

عادت العيون الدامعة تدمع، والقلوب الخاشعة تزداد خشوعاً، فها هو الإمام يربط بين أولاده بوصايا المحبة والتراحم والمودة، كما كان يفعل في حياته وأكثر.

ولعل العباس الذي كان متأثراً، قد تأثر أكثر، وزاد حبه وتقديره لأخيه محمد، الذي طالما أحبه وقدّره، أكثر فأكثر.

[ثم ها هي زينب]، تتدخل في الحديث وقد لجمت بكاءها، ولعل أم البنين كانت وراءها، . . . ها هي تعالج سؤالاً قد آن أوان طرحه، ولعلها خشيت إن لم تفعل أن لا تفعل قط، وطاف في عينيها مع الحزن العظيم هم جسيم وهي [تقول:

ـ يا أبه، حدثتني أم أيمن بحديث كربلاء، وقد أحببت أن أسمعه منك!]

كادت الحناجر تتمزق لهول ما تقول، وهل يُراد لكل ظلمة الكون أن تجتمع على الشمس ساعة الأفول؟!

[ولكن الإمام أجاب:

ـ يا بنية، الحديث ما حدثتك أم أيمن، . . . ولكن، ألا أزيدك؟]

كادت القلوب تتوقف، . . . وهل فوق ذلك الحديث مزيد؟ . . . هل فوق أن يُقتل ابن حيدر والزهراء على رمضاء كربلاء بلا ستر ولا ماء، هل فوق ذلك مزيد؟!

لعل الحسن كان يعالج البكاء، إذ ينظر إلى والده، إلى أخيه الحسين، وإلى أخته زينب، وربما إلى العباس!

ولعل الحسين كان ينظر إلى والده، متزوداً مما كاد يخمد من ضياء، ثم يرفع بصره إلى السماء، فيرى المزيد!

ولعل العباس كان ينقل بصره بينهم جميعاً ويمسح وجهه تارة وعينيه أخرى، . . . ويسأل نفسه وهو يجاهد أن يتقوى، وهل يستطيع هو ما يستطيعه أبناء وبنات الزهراء من الصبر الذي لا يخمد، والعطاء الذي لا ينفد، بل هو بهم أبداً ودائماً يتجدد؟ بل إنه منهم يتعلم، وبهم يتقوى، ومن زادهم يتزود.

[وينطق الأمير بكلمته المنتظرة، ولعله إذ يتابع ينقل نظره بين الحسين وزينب، . . . والعباس:

ـ كأني بك يا بنتاه، وبنساء أهلك سبايا بهذا البلد، خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس، فصبراً صبرا!

وتقاطع الإمام غشية أخرى،]. . . تستوقف الخبر،

ولكن، هل أطبقت السماء على الأرض لعظم ذاك الخبر؟!، وهل يكون مثل هذا البلاء بين بني البشر؟!

أن يُقتل الإمام، أن يقتل الإمام ابن الإمام ظلم وهول وديجور وظلام. ولكن، أن تُسبى بنات الإمام، أن تؤسر نساء خير الأنام، على أيدي قوم يدّعون الإسلام، فذاك هول ما بعده هول، وظلام أحلك من كل ظلام!

هل تمنى العباس أن تُشقّ هذه الأرض لتبتلع كل هذه الدنيا وما فيها لشدة حنقه؟! . . . أن تسقط السماء كسفاً فترمي كل باغٍ وطاغ بِحممها وسجيلها وتمطر عليهم حميماً وغساقاً؟!

إن كل ذلك قليل إن جرى ما جاء في الخبر.

ولعل العباس تساءل، بل سأل نفسه: «وهل يكون ذلك وأنا أنظر؟!»

لعل كيانه اشتعل ناراً، حتى هب من موضعه وصار يذرع المكان جيئة وذهاباً!

ولعل الأمير عاينه، إن لم يكن بعينه فبقلبه، بعدما [أفاق من جديد، ورنا إليهم، وتكلم من جديد، وصار يدعو أولاده واحداً واحداً إليه، فيودعهم، ويبكون.]

ولعله لما وصل إلى العباس، [التفت إليهم جميعاً، وأشار إليهم، «إنه يريد أن يختلي بأولاد الزهراء!»

نظر بعضهم إلى بعض، وهبوا يستبقون الباب،]. . . لعل أولهم كان العباس! . . . لقد تزلزل كيانه لوقع اسم الزهراء، وتصاغر قدر نفسه في عينه، فوق ما كان متصاغراً، ورأى نفسه أول الخارجين، [ولكن الأمير رفع صوته، . . . يستبقيه!]

تجمد العباس في مكانه، مطيعاً لأمر والده، ولكن، مذهولاً، . . . ومن يكون هو ليبقى؟! فحتى محمد لم يبقَ!

[لقد أطاع العباس الأمر]، وكأني به انتحى زاوية الغرفة خجلاً وهو يرى خلوّها، إلا من أمير المؤمنين، والحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم، . . . ومنه هو!

كأني به وقد قبع في تلك الزاوية خافضاً بصره مطأطئاً هامته، . . . وأين هو من هذه الأرواح القدسية والصروح العلية؟ . . . وانكمش في زاويته يرتعد ارتعاداً!

[التفت أمير المؤمنين حوله، وإذا الحسن عند رأسه، والحسين عن يمينه، وزينب وأم كلثوم عند قدميه]، وهم جميعاً ينظرون إليه ويزفرون، ويرمقون كل حياتهم، ماضياً وحاضراً في ظله الوارف، ويستعبرون، ولكنهم لا ينطقون!

هل تمثل أمهم الزهراء، واشتد به الحنين؟ . . . هل دمعت عينه وتصاعد من أعماقه الأنين؟!

هل زفر زفرة حرى وهو [يهتف:

ـ أين ولدي العباس؟!]

هل أقبل العباس إليه وقد تزايد ارتعاده؟ هل تقدم نحوه متباطئاً كما لم يكن قط، وقد أبطأ به شعوره بالخجل الذي كان طاغياً؟[فعاد الأمير يحثه بقوله ملهوفاً:

- بني عباس، إليّ إليّ!]

هل تزايدت لهفة العباس للوصول وتلبية النداء، حتى طغت على خجله، ودنا؟...

لعل الحسين أفسح له بجانبه ودعاه إليه، ...

[والتفت الأمير إلى زينب يقول:

- بنية زينب، ... إليّ إلي آ]

واقتربت زينب، وقد تصاعدت زفرتها أكثر، ... كان الخبر الذي طرق سمعها من والدها قبل هنيهات قد زاد همها وغمها، ولكن شوقها لنداء والدها الساعة كان أكبر!

[مدّ الإمام يده، ونظر إليهما، إلى العباس وزينب، امتدت يمين العباس إليه، فعاينها، ... لعل عينه دمعت من جديد، ... وامتدت يمين زينب إليه، ...

أخذ الإمام يمين زينب، وضعها في يمين العباس، والتفت إليه يقول، وكأني به قد أثبت نظره عليه:

- بني عباس، هذه وديعتي عندك!]

تطاير فؤاد العباس كما تساقطت دموعه، وكأني به أهوى على يد أبيه يقبلها، وعلى يد زينب يلثمها، ....

هل كانت الزهراء قائمة عند رأسه تباركه وتحنو عليه؟!

هل أحس بثقل على كتفيه وبنور يشرق بين يديه؟

وكأني به استقام، . . . إن ما حمّله أبوه من شرف سيكون له شرفاً ما عاش، وما مات أيضاً!

وهل فوق هذا شرف؟! . . . أن تكون زينب، سيدته زينب، أمه الأخرى، أخته الكبرى، بنت الزهراء والمرتضى، بنت رسول الله، أن تكون وديعة والده لديه!!

رفع العباس رأسه إلى أبيه، وكأني به قد أجاب، حالما استطاع أن يجد الجواب:

ـ أبتاه، والله لأنعمنك عينا، ولأفينّ بحق هذه الوديعة، ولأبذلن النفس والروح في حفظها، وهذا لعمري بحقها قليل!

ولعله أراد أن يضيف:

ـ فقط لي إليك رجاء يا أبه! . . . أفلا تقرئ مولاتي الزهراء مني السلام؟ أفلا تعتذر لي منها، أنا ابن خادمتها الذي تجرأ أن يكون بين أولادها في هذا المقام!

وكأني بالإمام يجيب وفي القلب يتحرك آخر الوجيب:

ـ بني عباس، أنت عين الزهراء يا ولدي، ولأنت عليها عزيز، وإلى فؤادها قريب!

ولعل العباس في تلك اللحظة عاد يستحضر ما أخبر به والده قبل لحظات، مما يجري على زينب وأخوات زينب، وعاد يسأل نفس السؤال: «وهل يكون ذلك وأنا أنظر؟!»

على أن الجواب الذي لم يسعفه حينها أسعفه الآن، إذ رفع وجهه لينظر إلى وجه زينب الثاكل وعينيها الدامعتين فطار قلبه شعاعاً والتياعاً، ولعله راح يناجي نفسه فيقول: «لا يكون، ما بقي فيّ عرق ينبض ونفس يصعد وقلب يخفق، . . . لا يكون إلا أن لا أكون!»

. . . [ثم إن الأمير اختلى من جديد، بولديه الحسن والحسين عليهما السلام، هذه المرة، . . . فالتفت إلى الحسن قائلاً:

ـ يا أبا محمد، أوصيك بأبي عبدالله خيراً، فأنتما مني وأنا منكما!]

. . . ثم إنه صمت ملياً يلتقط أنفاسه، وربما يزيح ستار المستقبل عن الغيب المكنون الذي أطلعه عليه حبيبه المصطفى، عن الله عزوجل، . . . ولعله استعبر قبل أن يقول:

ـ [ولدي حسن، وكأني بك وقد مُنعت حقك، . . . كأني بك تقذف كبدك قطعة بعد قطعة].

. . . لعل الحسين تأوه باكياً، وقد كبر عليه ما يُفعل بأخيه، فالتفت إليه الإمام ليزيده، وقد ازداد تأثره، وفاضت عبرته أكثر:

ـ [أما أنت يا حسين، فكأني بك قد خرجت من مدينة جدك، . . . كأني بالحجر يصك جبينك، كأني بالسهم المثلث يقع في صدرك، . . . كأني بالشمر وقد علا صدرك، وأوغل سيفه في نحرك!]. . .

ربما لم يعد بالملائكة الحافين بالمكان طاقة على تحمل المزيد، فتوقف الأمير، . . . ومضت فترة من صمت كانت العبرات فيها تنسجم، والحسنان

فوق جثمان أبيهما يبكيان، تارة لتلك الأخبار التي تنبئ بالشر، لا لهما فحسب، بل للأمة بعدهما، وذلك هو الأمرّ، . . . وطوراً لما يلوح في أفق اللحظات المقبلة، من احمرار يؤذن بغياب الشمس، خلف بحر من نجيع ودموع، خلف كثيب من رمال، طاف فيها طائف منَ ريح حمراء في ذهاب بلا رجوع!

مولاي، يا أبا الحسنين، . . . واهاً لألمك الذي يحرق الفؤاد، واهاً لعبرتك التي تمحل الدموع، . . . أتتأسف وتتلوع لما يجري على ولديك وحبيبيك، ولا نتأسف ونتلوع لما يجري عليك؟!

ترى، ألم يبك الحسن لمنعك حقك، وللسم الذي راح يسري في بدنك الشريف، وإذا به يذيبه ويضنيه، كما بكيت أنت لما يُفعل به؟أولم يبك الحسين للضربة المجرمة القاصمة التي ضربك بها ابن ملجم اللعين حتى وصل بها إلى أم رأسك كما بكيت أنت لما يصيبه؟!

مولاي، لئن كانت مصيبة الحسن أوجع، ومصيبة الحسين أفجع، فإن مصيبتك يا أبا الحسنين هي الأوجع والأفجع والأفظع، فقد اجتمع لك السيف والسم في آن، وهو ما لم يجتمع لأحد، فكنت بحق فريداً في كل شيء، حتى في مصيبتك، ومن بعد ذلك شهادتك!

[ثم إن أمير المؤمنين أقبل على ولده الحسن عليه السلام، يسارّه ويناجيه، . . . لقد كان ذلك هو الغيث الأخير الذي يمطره سحاب الخير قبل الهجوع، . . . لقد كان يودعه أسرار الإمامة، ويحمّله الأمانة، ويوصيه بوصاياه الأخيرة، وصايا الإمام إذ تنتقل إلى الإمام.

كان قد مضى من الليل ثلثه، حين أغمي على أمير المؤمنين مرة أخرى، ثم أفاق.

. . . عاد أهل بيته جميعاً يدخلون عليه، . . .]

كانت أنياط القلوب تتقطع، وكان الدخول عليه يعني الدخول إلى تلك الجنة التي وُعد بها المتقون، ولكن الفرق بينها وبين جنة الآخرة أن تلك دار مقام، أما هذه فدار مقام ترتحل إلى ذلك المقام، ولذا فإن بدء الرحيل كان يعني خلو المكان من تلك الجنة الزهراء، التي عرضها الأرض وارتفاعها السماء.

ولكن الحسنين، سيدي شباب أهل الجنة، كانا ملاذاً تتعلق به أهداب تلك الجنة، ينازعانها البقاء وتنازعهما الرحيل، حتى بلغ الأمير نزعه الأخير!

[حتى في تلك اللحظة، أراد الأمير أن ينقل لهم الخبر الأخير، وهو يطوف بناظريه في البعد الأخير:

ـ هذا رسول الله، وعمي حمزة، وأخي جعفر، والنبيون والملائكة، وكلهم يقولون: «عجل قدومك علينا، فإنا لك مشتاقون!»

ثم إنه أدار عينيه في أهل بيته كلهم، وقال وهو يحبس حشرجة النزع:

ـ أستودعكم الله، الله خليفتي عليكم وكفى بالله خليفة!

ثم عاد ينظر إلى ذلك البعد اللامنظور ثانية ويقول:

ـ وعليكم السلام يا رسل الله، . . . «لمثل هذا فليعمل العاملون»، «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».]

. . . مولاي، يا سيد العاملين، يا إمام المتقين والمحسنين، . . . أفلا تنتظر هنيهات؟! . . . ما لك قد تعجلت الرحيل، ولما يتزود المؤمنون منك ما يكفي بعد؟! . . . مولاي، وهل في الزاد مهما ازداد كفاية؟! . . . بل إنك الأنفاس التي تتصاعد في صدور عاشقيك، والدم الذي يجري من قلوبهم إلى العروق، . . . ومع ذلك، لا يكتفون منك! . . . أما الرحيل، فذاك أمر الله، وهي سنة الحياة والموت، قد مضت من قبلك في الصالحين الميامين، ومضت في أخيك النبي الأمين، كما مضت في حليلتك الصدّيقة الطاهرة سيدة نساء العالمين، وها هي الساعة تتهيأ وتتعبأ لتمضي قدماً، في سيد الوصيين!

مولاي، . . . ما أخسأ الدنيا وما أحقرها، . . . هي بحق لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وإلا لما أعطى الكافر منها شيئاً، ولما حرم المؤمن منها شيئاً، فكيف بأمير كل المؤمنين؟!

مولاي، ما باء بالخسران إلانا إذ خسرناك، ولكن، نرجو أن لا يكون خسراناً مبيناً، وأن نلتحق بك في الآخرين، بعد إذ حُرمناك في الأولين.

مولاي، ها هم أيتامك، من وَلَدت ومن لم تلد، . . . أولست أباً كل يتيم؟!

ها هن أياماك، من تزوجت ومن لم تتزوج، أولست حمى الأيامى؟!

ها هم جيرانك، من جاورت ومن لم تجاور، أولست جار المساكين؟!

ها هم المؤمنون، يتطلعون إلى أميرهم ويتأوهون، . . . وها أنت، تغمض عينيك الناظرتين إلى عليين، عن هذه الدنيا التي لم تغرك قط، ولم

تكن لك قط إلا مزرعة الآخرة، ويتردد على شفتيك اللاهجتين دائماً وأبداً بذكر رب العالمين، يتردد الذكر الحكيم.

... [وينطق القرآن الناطق بآخر آياته، ... يختم تلاوته المباركة بالشهادتين، ثم يستقبل القبلة، ... عند رأسه يجلس الحسن والحسين، يحملان أثقال الأمة، ويذرفان الدمع على إمام الأمة أبي الأئمة.

... ثم إنه يمدد رجليه، ويسبل يديه، وإذ تبلغ روحه الحلقوم، لتنطلق بعدئذٍ إلى عالم الملكوت، ترتشف شفتاه آخر كلمة عاش عشقها في هذه الدنيا، وعاش عذابات ذلك العشق حتى الثمالة:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

... وسكن اللسان، وصمت البيان، ... وانتقل الإمام إلى جنة الرضوان!]

هل نظر الحسنان أحدهما إلى الآخر، وارتفع صوتهما بالنحيب.

وهل نظرت زينب إلى أخويها، وأدركت ما هناك، ثم إلى أختها ام كلثوم التي تكاد تزهق روحها من شدة البكاء بلا صوت ولا أنين؟

... وارتفع صوت زينب، ذاك الصوت الذي لم يسمعه قط إنسان، ... نادت بملء الجوارح، والقلب والروح والوجدان، ... لعلها كانت تتوسل بأمها الزهراء وهي تنادي، لتعينها وتسندها في هذا البلاء:

ـ واأبتاه، ... واعلياه!

هل رفعت أم كلثوم ناظريها إلى أختها؟ . . . هل أرادت أن تنبهها بأن لا ترفع صوتها بالنحيب خشية أن تؤذي أباها؟!

. . . ولكن، مهلاً يا بنت الزهراء، إن أباك قد رحل إلى حيث لم يعد يؤذيه شيء، . . . لقد ترك الدنيا بهمها وغمها، وارتحل إلى أعلى مقام عند ذي العرش مكين!

علمت أم كلثوم أن الأمر قد قضي، . . . فأطلقت مكنون فؤادها الذي فاض بما فيه، وتفجرت براكين حزنها ودموعها، وتعالى نحيبها.

أما الحسنان، فقد زاد بهما الحزن على أبيهما حتى فاق كل حد، وارتفع نحيبهما أيضاً كما لم يرتفع منذ زمن بعيد، ربما منذ كانا طفلين، يوم فقدا جدهما الرسول، ومن بعده أمهما البتول.

. . . هل عشتما يا سيديّ تلك اللحظات المرة من جديد؟ . . . هل تذوقتما علقمها الذي زاده مرارة توالي الأيام والسنين، بل زاده مرارة أن فقدكما لإمام المتقين، هو فقد الزهراء وفقد الرسول الأمين، . . . أن فقده هو فقد كل السابقين!

ولكن نشر المسك قد عبق في أرجاء المكان، إنه الروح والريحان، وزاد تنشق العبق من عمق الحزن ولوعة الفقدان.

ووقفت أم البنين بين الصارخات النائحات، . . . نقلت بصرها زائغاً بينهن، . . . امتلأ كيانها بأكثر من الامتلاء حزناً، . . . لقد قبضت على حلقومها غصة لا تفارقه، منذ ليلة الجرح إلى هذه الليلة، إنها لتكاد تختنق، . . . وإنها لتتمثل لحظة لا تزال تعايشها منذ تسع وعشرين سنة،

وقد بُعثت اليوم، لحظة علمت باستشهاد الزهراء، . . . لقد تداخل الماضي بالحاضر، واتصلت أواصر اللوعة الكامنة، رافداً يغذي بحور الوجدان، بل بحراً يصب في بحر، مرج البحرين يلتقيان.

. . . ترى، هل سقطت أم البنين بين النائحات، هل نظرت إلى الحياة، فوجدتها خلواً من كل حياة، فتمنت أن لا تتنفس بعد، هذا الهواء الذي لم يعد يشاطرها فيه عنوان الحياة؟!

. . . ربما، وربما كان لها مع المعاناة وجه آخر، . . . لقد رأت عروج الروح الحبيبة في فلك السموات، ورافقت بقلبها وبصيرتها رحلة تلك الحياة القدسية ورحلة الممات، وأدركت وهي في ذلك المكان تحيط بها الثكالى صائحات مولولات، أن كل ما ادخرته مدى عمرها من حياة، كل ما لفّت عليه كيانها من صفات، كل ما تعلمته في طفولتها من ثمامة وحزام، وفي شبابها من علوم الزهراء والإمام، . . . كل من ربت من أولادها، كل ما ربت من رأيها وسدادها، كل ما أخذت ثم أعطت، لن يكون شيئاً إن لم تقم الساعة بمهمتها خير قيام!

وكأني بأم البنين تمسح على قلبها بذلك البلسم الذي أعارها إياه أمير المؤمنين، وتربط جرح أعماقها النازف بكلماته التي لا تنفك تتردد في حناياه، وترفع وجهها، رأسها، كلها، لتنظر في قوة وعزم، هما بعض ما وهبها إياه، ولتنكبّ على بنات الزهراء، فتواسيهن بالبكاء تارة، والعزاء، ولتلتفت إلى بكرها، ترى شدة لوعته وغزارة دمعته، فترفع إليها وجهه، وتمسح دمعه، وتهيب به أن يقوم قائلة، بقوة وإيمان:

ـ بني عباس، قم وواسِ أولاد الزهراء!

. . . وكما أم البنين، كذلك العباس، كان قرب الحسنين، يضمهما باليدين، ويبكي فوق عاتقهما، . . . ينصرهما، ويكفكف دمعهما بالكفين، . . . لم يدر العباس، بل لعله درى، لماذا كان الحسنان إذا مسح دمعيهما، ونظرا إلى يديه الحانيتين عليهما، يزدادان لوعة وبكاء، حتى لكأنهما يتذكران به، ما يحول بينهما وبين العزاء!

[وارتفع العويل من كل ناحية، ليملأ الأرجاء،

اهتزت أركان الكوفة، وضج نساؤها ورجالها وأطفالها بالنحيب]، . . . وكيف لا يفعلون، وقد قضى الحبيب، قضى الطبيب، العليم اللبيب، الذي به حُفظت الأمة من الفتنة، وبفقده قد تعالى أوار الفتنة.

لقد مضى سيد الأوصياء والعلماء، ولما يزل صدى ندائه يتردد بين الأرض والسماء:

ـ سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماء فإني اعلم بها من طرق الأرض!

مولاي، حق لك أن تكون الأعلم بطرق السماء، وأنت علي، والمدى السماوي مداك، وحق لنا أن نضيع في غياهب السؤال ونحن أهل الأرض، ملتصقون بأديمها الترابي، لا تتصل وضاعتنا بعلاك، إلا متى امتلأ الفؤاد من هواك، وسما نحو العلى ينشد في العشق سماك!

مولاي، من ذا نسأل الآن يا حبيب السائلين؟!

ومن ذا يجيب سؤال الثاكلين الفاقدين؟!

من ذا يغيث الملهوفين ويطعم المساكين، يا سيد الزاهدين؟!

أي نخلة نهز لتساقط علينا رطباً جنياً وقد امتلأ المدى قحطاً وجفافاً؟!

من ذا ينظر إلى الدنيا كنظرتك إليها، ويتحسر على جهل الجاهلين كحسرتك عليهم؟!

من ذا يرى الصفراء والبيضاء فلا يرى إلا حجراً دون الحصى والتراب؟!

ومن ذا يرمق تلال الأموال المكدسة بتلك النظرة الزاهدة، يلاحظ وحشتها قبل أن يرى كثرتها، ويبادر إلى تفريقها دون أن يلتفت أدنى التفاتة إلى بريقها؟!

إنه أمير المؤمنين، إمام الزاهدين، [من كان يكنس بيت المال ليصلي فيه، ليشهد أنه قضى بقضاء الله فيه، . . . من خصف نعله حتى تقطعت، ورقع ثوبه حتى استحيى من راقعه، وغاب عن هذه الدنيا فلم يخلف وراءه صفراء ولا بيضاء سوى سبعمئة درهم كان يدخرها ليشتري خادماً لأهله]، وهو إمام المسلمين، الحفيظ العليم على خزائن الأرض أجمعين!

مولاي، لقد مضيت إلى خير جوار، بعدما زرعت نبات عشقك في كل دار، ورويته من دمعك ودمك، فأنبت نباتاً حسنا، وامتدت جذوره إلى أعمق قرار.

مولاي، طوبى لهذا التراب الذي يتهلل عرساً ليستقبل بدنك الطاهر، . . .

مولاي، يا أبا تراب، ليتني ذرة من ذلك التراب الذي يتهيأ ليتضمخ بطيب طيبك، ويرتوي من جود وجودك، . . . إن في طيبك يا مولاي أكثر من الكفاية، وفي وجودك ما يفوق كل غاية، ويحمل القلب والروح والكيان، إلى ما ليس له أبداً نهاية!

***

إيه أيها العيد، . . . أي عيد أنت، وما حملت لآل محمد إلا البلاء الجديد!

وهل يبلى بلاء آل محمد؟! . . . هل تذوى ورود دمائهم التي هي أبداً ندية، لأنها تتغذى من معين الحق ومناهله الزكية؟!

إيه أيها العيد، وهل حملت على جنح هلالك الرقيق إلا دمعة السماء تسيل في لسعة من ضياء؟!

أهي بقايا تلك الدماء التي أمطرتها السماء قبل أيام، بعد استشهاد الأمير، لتشهد لأهل الأرض أن حزن أهل السماء أكبر، فإذا كانت دموع أهل الأرض سالت غدراناً لفقد الإمام، فدموع أهل السماء جرت سيولاً، لاستباحة حرمته، واستحلال مهجته، وما حرمته إلا حرمة الله والإسلام، وما مهجته إلا مهجة النبي العدنان؟!

تالله، كيف مرت تلك الليالي العصيبة على دار أم البنين؟! . . . كم من الصقيع اجتاح الأجسام الصغيرة المقرورة التي التصقت بها لتتدفأ، وقد غاب عنها دفء صاحب العرين؟! . . . وكم من العبرات ذرفت وكم من الزفرات، وهي تمسح على رؤوس اطفالها؟! . . . لقد أيتمهم الدهر على

صغر سنهم، وكان يتمهم مضاعفاً، فقد فقدوا الأب والإمام معاً، فكان الحزن مقروناً بما لا يسعه الوجود بأكمله من الفقد والحرمان.

. . . وهل استطاع العباس أن يسد ثغرة في ذلك الثلم المهول، الذي صدّع بنيان عائلته، فضلاً عن بنيان الأمة والعالم بأسره؟!

هل استطاع أن يمسح بحنان أخوته الرؤومة ما يعوض به إخوته الصغار عن ذلك الكنز الأعظم من الحنان، الذي توارى خلف حجب التراب؟!

بل إن العجب العجاب، أن كيف استطاع التراب أن يحتوي ذاك الكنز، كيف استطاع أن يتحمل وهج ذلك النور ولم تتفتت جزيئاته، وكيف استطاع أن يتنشق عبق ذلك الطيب ولم تتناثر حباته تناثر الطيب نفسه في كل الأرجاء؟!

وإن العباس، وهو ينظر إلى البيت حوله، الذي أجدب من ذلك المعين الزلال، ويمسح ما فاض من دمع ما كان ليهدأ بعد، منذ سبع ليالٍ، . . . إنه ليتمثل، ويتلوى إذ يتمثل، كيف شيّع أباه!

كلمة ليس بالمقدور استيعابها، ولا فهم محتواها ولا تصديقه، . . . إن تلك الصورة البادية خلف غلائل الدموع، كما الشمس خلف السحاب، لتهيج أحزانه مراراً، . . . [كيف اصطف أصحاب الإمام حول نعشه عند تلك العشية، . . . كيف وقف الحسنان عند مؤخرة النعش فيما ارتفع مقدمه، يحمله جبرائيل وميكائيل، . . . كيف مضَوا، يكتمون النحيب ويزدردون الدموع، لئلا تلتفت إليهم الجموع، في ذلك الليل البهيم، ويعرفوا أين سيكون الهجوع!

أجل، فقد أوصى الإمام ولده الحسن عليه السلام، أن يدفنه ليلاً وأن يعفي موضع قبره!]

مولاي، أهي سنّة الله في الحق، أن يعيش غريباً ويموت غريباً، ويدفن في التراب غريباً؟!

أم هي مواساتك لحليلتك الزهراء، التي دفنتها ليلاً وسراً في معزل عن عيون الحاقدين وعن علمهم بموقع ذلك الكنز الدفين؟!

بل لعلها المأساة تتكرر، بالأمس استُبيحت حرمة الزهراء في حياتها، واليوم استُبيحت حرمة أمير المؤمنين في حياته، ولم يكن آمناً أن لا تستباح بعد مماته، ولذا فقد كان لزاماً إخفاء موضع القبر وإخفاء سره، لكي لا يعرفه اثنان، قتلهما حب علي بن أبي طالب: مبغضٌ قالٍ قد تسول له نفسه أن ينتهك حرمة الإمام بعد موته، ومحبٌ غالٍ قد تسول له نفسه أيضاً أن ينتهك تلك الحرمة، ولكن لهدف آخر، إذ قد رفض لغلوه فيه، حتى اتخذه إلهاً، أن يعترف بموته!

. . . [لقد مضى الحسنان، ومضى العباس خلفهما يمسح دمعه بكمه، ومضى محمد، وسائر أولاد الإمام والخلص من أصحابه، وسيّر الحسن أربعة نعوش إلى أماكن شتى من بلاد الإسلام، ليتسنى له إخفاء نعش الإمام.

أما النعش الحقيقي الذي حفت به الملائكة، ومضى قدماً ينهج صوب الغري تحت جنح الظلام، فقد كان حرياً بكل من يشاهده أن يعرف أنه نعش الإمام، ولكن الليل كان ستاراً ومشيئة الله دثاراً ليكون ما قدر وشاء.

مضى الحسنان، ومضت الأرض في ركابهما، تُطوى لهما تحت الأقدام، وكيف لا تفعل وقد اشتاقت لذلك الحبيب الأكبر، . . . حتى الجماد بكى وأنّ، وسُمع للجدران نشيج ونحيب، وانثنت الأشجار وانحنت، تسجد احتراماً لذاك الحبيب، حتى بلغ المشيعون موقعاً وقف فيه النعش، ووُضع مقدمه، فوضع الحسنان مؤخره!

واصطفوا خلف الإمام، خلف ولده الحسن، يصلون على الإمام، ويكبّرون، ويمزجون المناجاة الحرى بدمع العيون.

ثم أزاح الحسن والحسين السرير، كما أوصاهما الأمير، وإذا صخرة منقورة ولحد محفور وكتابة بالسريانية جاء فيها:

«هذا ما ادخره نوح النبي للعبد الصالح الطاهر المطهر علي وصي محمد»]

وارتفع النحيب من جديد، لقد اقترب أوان المغيب، إن شمس الإمامة ستتوارى بعد لحظات، ولن يكون للوصول إليها درب قريب.

[ووسد الإمامان والدهما داخل لحده، ثم خرجا، وأُهيل التراب!]

ولعل العباس في تلك اللحظة غاب، . . . لعله لم يعد يقوى على احتمال ذاك العذاب، أن كيف يُهال التراب على وجه أبي تراب، أكرم وجه خلقه المولى من تراب!

أم لعله عض على ألمه، حتى كادت تزهق روحه حزناً، ولكنه صبر، ووقف قرب الحسنين يمسح دمعهما، ودمعه، ويواسيهما بصبره، ويصبر!

ولعله حين عاد إلى الدار، وقد شعر للمرة الأولى بمعنى اليتم الحقيقي، وصلها، فوجد أخته زينب، وديعة والده زينب، وأخته أم كلثوم، فكان لا بد له من الاستمرار في الصبر والمواساة!

. . . ولكن، لعله إذ انفرد وحده، أو ربما إذ جمعه مكان ما بأمه وإخوته، لعله تهاوى بين يديها، وتهاوت، وأخرج كل واحد منهما مكنون لوعته، . . . لعلها بكت على عاتقه مراراً، ولعله ذرف بين يديها كل ما اختزنه من دموع، ولعله أقبل نحو إخوته الصغار، أجلسهم حوله، لعله وضع أخاه جعفراً في حجره، وراح يمسح على رأسه بكفه، ويتابع البكاء.

ولعل أم البنين إذ شاهدت ذلك المنظر، كادت تنطفئ شمعة حياتها، التي ما توهجت إلا بعشق أمير المؤمنين، فكيف يكون لها الآن أن تستمر وتنير، فبمن تستنير وبمن تستجير؟!

وتكاد تتأسى إذ ترى حنو العباس على إخوته، ولكن كفاه اللذان يستقران فوق رأسي أخويه الصغيرين، منظر كفيه يلوعها، وتتذكر، كم مرة قبّل الإمام تينك الكفين، وبكى، . . . كم مرة أخبرها بما يجري عليهما في نصرة الحق؟! . . . ولئن بكى الإمام على تينك الكفين الطاهرتين، أفلا يحق لها هي الآن أن تموت من البكاء؟!

. . . ولكن قدرها أن تعيش، أن تلتف برداء الأمير، وأن تعيش، وتحمل هم الأمير، وتواسي أحبابه، وتصلي وتتهجد في محرابه، وتحتضن وتربي، وتزرع الفهم والتقى والمعرفة والصلاح، في هذا البرعم الصغير الذي لم يتفتح بعد، وفي تينك الزهرتين اللتين لم تنعقدا ثمرتين

بعد، وفي ذلك الغصن العتيد الذي اشتد واستوى وأزهر وأثمر، بأعطر زهر وأينع ثمر.

ولعل أم البنين أدركت في تلك اللحظة، لِمَ استشعرت اللوعة يوم ولد جعفر، فلعل قلبها استشرف إذذاك ما يخبئه له القدر من اليتم المبكر، ولعله انضوى تحت ذلك الشعور وإن لم يفهم فحواه، ولعله اليوم قد ترجم ما وراءه!

وها إن الحسنين يعودان إلى دار أم البنين، والزينبين، فيملأون بوجودهم النوراني ما تركه أبوهم من فراغ، إن لم يكن كله فبعضه، فتتأسى بوجودهم وتتصبر.

بل إن طيف الأمير لا ينى يزورها ويحضر، فينضم بذلك إلى طيف الزهراء التي ملأت حياتها، منذ دخلت هذا البيت، بعطرها الأزخر، إذاً، لقد غاب شخص الإمام وولكن وهج حضوره لا يغيب، فهو تارة يتجسد في أولاده، أولاد الزهراء، إذ يدخلون ويخرجون، ويتعطفون ويتفقدون، وتارة في بكرها العباس، الذي لا يمكن أن تنسى أم البنين أنه كان الهدف الأول الذي من أجله اختارها الإمام لتكون لبؤة في هذا العرين.
وطوراً في طيف أزهري ملكوتي، يحتل لا كل المكان فحسب، بل كل ذرة من ذرات الكيان، ويملأ لا لحظات الزمان فقط، بل عمق أعماق الوجدان، وبذا تستمر الحياة، ولولا ذلك لم يكن بوسعها أن تستمر قط!

... ولعلها إذ تركن إلى مضجعها، يكون أنيسها طيف نوراني وقميص فيه شذى عطر الإمام، تضمه وتشمه، وتمسح به وجهها وتكفكف دموع

لياليها، وتغرق فيه زفراتها الحرى، وتبثه وجدها وشوقها وهمها وتوقها، وربما تغفو على وقع ذلك الشذى يملأ أنفاسها ووجودها، فإذا بالأرج المكنون يطفئ حر الحنين، ويهدهد أوار العشق الدفين، ويعدها بقرب الوصال، هناك، في جنة أُعدت للمتقين السابقين، لا يفصلها عنها إلا بضع سنين، وأمرٍ أُعِدت له، واستعدت، وأعدت البنين، لنصرة الحق المبين.

هو أمر قد قُدر، وهي فيه تتعهد الزرع حتى ينضج الثمر، فإذا آن أوان القطاف، آن لها هي أوان الرحيل، . . . فحتى ذلك الحين ستنتظر وتتسلح بالصبر الجميل.

الفصل السادس عشر:

مع المجتبى، بين البقيع وكربلاء

الزمان: من سنة أربعين إلى سنة خمسين للهجرة.

المكان: الكوفة، ثم عود إلى المدينة.

. . . على وقع أطراف الأسنة والرماح، وقرع السيوف وقعقعة السلاح، وبعد خفوتها شيئاً ما ريثما ارتفع النحيب والصياح، وعلى ضفاف ذاك المحراب المستباح، وقد ارتوى أديمه من فيض ذاك الجرح الذي فاق كل ما سبقه من ألم الجراح، وبعدما تضمخ على مدى أربعة أعوام من زفرات السجود ودمعات عشقٍ ناجى بها المعبود، سيد العابدين وإمام الساجدين، شهيد المحراب أبو تراب، . . . [في ذلك المكان والزمان وعلى مقربة من المحراب، وقف ابن أبي تراب.

صعد المنبر وأراد الخطاب، فغص بالدمع ساعة، فأبكت غصته القلوب والعيون، حتى إذا استطاع الكلام، رفع صوته، وأنصت الناس]، . . . لكأني بصوته قد بلغ مسامع أهل الكوفة أجمعين، من المسجد حتى دار أمير المؤمنين، ومن أسماع المحيطين به، إخوته، أصحابه وسائر الحاضرين، حتى قلوب المحبين له، أخواته، نساء المؤمنين، وأم إخوته العباس وأشقائه، أم البنين.

. . . أجل، لعل قلب أم البنين المتصل بقلب بكرها العباس، ولعل سمعها المتشوق الملهوف لسماع كلام خير الناس، وصلت إليه تلك

الكلمات المنتشرة فوق رؤوس الملأ رقة وحناناً وبلاغة وبياناً، وصدقاً وبرهاناً، . . . [إنه الحسن بن علي، بعدما غلب دمعته وازدرد غصته، ينعى أباه فيقول:

ـ أيها الناس، لقد قُبض في هذه الليلة رجل، لم يسبقه الأولون بعمل، ولم يدركه الآخرون بعمل، . . . لقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ، يوجهه برايته، فيكتنفه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، فلا يرجع حتى يفتح الله على يديه، . . . ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، والتي قُبض فيها يوشع بن نون وصي موسى، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمئة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

ثم خنقته العبرة فبكى، وبكى الحسين عليه السلام له لما بكى، وبكى العباس ومحمد وسائر الناس لبكائهما، ثم عاد يقول:

ـ أيها الناس، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، انا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيت فرض الله مودتهم في كتابه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، فالحسنة مودتنا أهل البيت!

ثم جلس.

. . . عندئذٍ قام عبد الله بن عباس بين يديه، . . . نظر إلى الناس وقد احتبست منهم الأنفاس، ورفع صوته فيهم يقول:

ـ معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه!

نظر الناس بعضهم إلى بعض وهم يتشاورون قائلين:

ـ ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا!

ثم إن الناس بادروا إلى البيعة له بالخلافة.]

مولاي، يا أبا محمد، . . . هل علقت في حلقك الشريف غصة وفي عينك الكريمة عبرة، وأنت تسمع الناس يقبلون نحوك مسلمين عليك الخلافة؟! . . . هل نظرت نحو العلاء وتأملت السماء وأنت تعتذر في قلبك لأبيك، وما فعلت ما يوجب الإعتذار، ولكنها خفقة رقيقة من قلب رقيق، يخاطب بصمت ويناجي أعزّ أب وأوفى صديق، وأقرب شهيد صدّيق؟!

[ولم يقم الحسن عليه السلام من مقامه، حتى رتّب العمال وأمّر الأمراء ونظر في الأمور.]

. . . ولكن، رب قول لم يُستكمل بفعل، ورب مرج يعجبك اخضراره، فلا يثمر إلا الشوك!

كذا كانت بيعة الناس للإمام، ، وهم لو فهموا معنى تلك البيعة لكان شأنهم غير ما كان!

لقد شهدت أم البنين دخول العباس إلى الداركئيباً حزيناً، مرة بعد مرة، وشهدت مرور الحسنين بها بين الحين والحين يتفقدانها وأبناءها ويرعيانهم ويحسنان لها العزاء، حتى إذا كادت تسأل عن سبب ما هم فيه من انشغال وحزن، كان الحوار بينهم يحمل الجواب الشافي، . . . [إن أهل الكوفة وسائر الأمصار متخاذلون عن نصرة الحق، وإنهم لو استقاموا لأمير

المؤمنين لاستقاموا الآن لولده، . . . إنهم قوم ينافقون، يقولون ما لا يفعلون، لا ينصرون الحق ولا هم به ينتصرون.]

إيه يا أم البنين، . . . إن قلبك لينتفض متأوهاً فوق ما به من أنين، إذ يرى الحزن في عيون الحسنين.

ولعلك إذ تنظرين إلى الحسن تغصين، فمحنته مع هؤلاء القوم تبعث إلى الحياة محنة أمير المؤمنين، فها هم يتخاذلون فلا يطيعونه إذ يأمرهم بالجهاد، وهم لعدوه يمالئون.

[وها هو الإمام يخرج إلى الناس بعدما بلغه خبر خروج معاوية إلى العراق يريد الحرب، . . . ها هو يدعو الناس للقتال، فلا يجيبه أحد منهم، ولا يتكلمون.

ويستشيط أصحاب الإمام غيظاً وحنقاً، ويبرز عدي بن حاتم، فيهتف بالناس يعنفهم على سوء ما يفعلون، فيقول:

ـ سبحان الله، ما أقبح هذا المقام، ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله ولا عنتها وعارها؟!

. . . ويتململ البعض، تتحرك فيهم العصبية والحمية، ويجيبون الإمام محاولين أن يصلحوا ما أفسدوا قبل هنيهات:

ـ نحن السامعون المطيعون لك، فمرنا بأمرك يا ابن رسول الله!

فينظر إليهم الإمام، يقرأ على وجوههم ما تخفيه السحنات المكفهرة من

ظلام ويهتف بقوله مقرّعاً مؤنباً:

ـ كذبتم، والله ما وفيتم لمن كان خيراً مني فكيف تفون لي؟!

ثم رأى أن يلقي عليهم الحجة فبادرهم يقول:

ـ إن كنتم صادقين، فموعد ما بيني وبينكم معسكر النخيلة، فوافوا إلى هناك.]

... ومضى الأحبة من جديد، مضى الحسن والحسين والعباس ومحمد وسائر بني هاشم والمخلصون، ... [مضى مع الحسن من أراد الخروج حقاً، وتخلف عنه الكثير.]

كان ذلك ديدنهم، إذا كادت الحرب تلوح في الأفق، قد كشفت لهم عن ناب أزرق، راحوا يطلبون السلامة، ويختبئون في أكوام الرمال كالنعامة، فلا هم على السلامة يحصلون، ولا هم للنصر حائزون، قد خسروا الدنيا والآخرة وما كانوا يفلحون.

... لقد شيعت أم البنين، مع حبيبتيها وسيدتيها زينب وأم كلثوم، شيعوا جميعاً أحبتهم من جديد، إذ خرجوا للحرب، وأي حرب، ... إنها ليست معركة الحق ضد الباطل فحسب، ولا معركة آل محمد وعلي ضد آل أمية وسفيان، بل هي معركة الخير ضد الشر مذ ولد وترعرع في صدر إبليس حتى أغوى البشر، ... هو لم يغوِهم أجمعين، بل تملص من قبضته السوداء النتنة عباد الله المخلصين، ولكنه استأثر بالغالبية العظمى من بني آدم، الذين باعوا الآجلة بالعاجلة، ولم يأخذوا العبرة من الأمم الغابرة.

... إن أم البنين، التي تشعر منذ استشهاد أمير المؤمنين وكأن عشقها له

وحنينها إليه، قد راحا يغذيان عشقها لأولاده، أولاد الزهراء من جهة، وأولادها هي من جهة أخرى، . . . حتى لكأن ذلك العشق قد توزع عليهم وفاض، وذاك الحنين قد لفهم برداء الرجاء، فكانوا لها عن غيابه نعم العزاء.

. . . لقد تضاعف تعلقها بالحسنين والزينبين، إن كان لذلك المقدار من العشق والتعلق أن يتضاعف بعد، أما حنينها لإمام المتقين فهو ماكان لينقص ذرة، بعد إذ توزع وفاض على أولاده البررة، بل كان لديها أشبه بتلك الينابيع التي فجرتها يداه المباركتان في عمق الأرض وأعماق البشر، لا يزداد مع العطاء إلا عمقاً وعطاء.

حتى الماء الزلال الذي لا تفتأ تشربه من تلك البئر التي حفرها في الدار، فهي تجد للماء طعماً ومذاقاً، فيه عذوبة نظرته المترقرقة، وحلاوة بسمته المشرقة، وبرد حبه الذي لا يزيد مع الأيام إلا تدفقا، . . . حتى المرارة الخفية التي تعقب ذاك الطعم العذب، هي أشبه بمرارة الحق الذي كان ولا يزال يذوب فيه، حتى أصبح هو الوجه الآخر لولايته، وإذا المرارة حكم مبرم على كل من يرتضي تلك الولاية، ويتوسلها في الدنيا والآخرة للوصول بها إلى أشرف غاية. أما تعلقها بأولادها، العباس وعبدالله وعثمان وجعفر، فقد كان فوق تعلق الأم، كانت أم البنين أشبه بناقة صالح، وقد راحت تتعهد فصيلها، وتغذيه وترويه، وتتعهد أمانة الله ورسوله ووليه فيه، حتى إذا بلغ أشده كان للناس آية، ومضى للحق لا يتوقف حتى يبلغ النهاية!

***

[لم يزد تجمع الناس في النخيلة من ثقة الإمام بما اجتمع عليه القوم من

الخذلان والنكران، . . . فقد كان تجمعهم مبعثراً، وتقدمهم متأخراً، . . . حتى حين كان الإمام يبعث بالجماعة من جيشه تلو الجماعة، تحت قيادة أحدهم، كان البعث يخلف نقضاً للبيعة، حتى لكأنه كان يلحقهم بمعاوية ليلتحقوا به لا ليواجهوه!]

كان الإمام يرى ضعف الجيش وخيانة قادته فيتألم، ولعله كان يسر بألمه إلى أحبته وصحبه المقربين، وأقربهم إليه شقيقه وتوأم روحه الحسين، ثم إخوته من بعده، العباس ومحمد. . .

وكانوا جميعاً يتألمون لألمه، ويصبرون لصبره ويأتمرون بأمره، ويحتملون في سبيله من الشدة والهول ما لا يحتمل!

[حتى إذا عزم الحسن عليه السلام على الخروج إلى معاوية بمن معه، وكانوا أربعين ألف رجل، بين فارس وراجل، دعا إليه ابن عمه عبيد الله بن العباس، فأمره على اثني عشر ألف رجل، وجعل القيادة من بعده لقيس بن سعد بن عبادة، ثم من بعده لسعيد بن قيس الهمداني، وهما من خلّص أصحاب أمير المؤمنين، وأرسله ليكون مقدمة الجيش في الحرب.

ثم إن الإمام نزل بساباط المدائن، وهناك، وإثر خطبة له أراد أن يمتحن بها أصحابه ويستبرئ بها أحوالهم له في الطاعة، ليتميز أولياؤه من أعدائه، انقلبت عليه الكثرة العظمى منهم، واتهموه بالكفر، ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه، حتى أخذوا مصلاه من تحته، ونزعوا مطرفه عن عاتقه!]

إيه يا مولاي يا أبا محمد، . . . هي الأيام تعيد نفسها بشخوص جديدة وأرواح غير جديدة، . . . أولم يبتلَ والدك بالأمس بأمثال هؤلاء، لا بل

بمن أسس لهم أساس الظلم والجور؟! . . . أولم ينظر إلى حرمة بيته تستباح وإلى حليلته تعتصر بين الحائط والباب، وإلى النار تضطرم عند باب داره؟! . . . أولم يحترق فؤاده ألماً وغيظاً وصبراً وهو يعاين كيف انتُهكت حرمة والدتك الطاهرة، إذ صُفعت حتى تناثر قرطها، وكُسر ضلعها وأُسقط جنينها، وجرى عليه وعليها ما لو أُذن معه للجبال لاندكت وللبحار لهاجت وللرياح لاقتلعت جذور النخيل الراسخة؟! . . . بلى، ولكنه البلاء عليكم اهل البيت، والصبر لكم، والتأسي بما مضى والتهيؤ لما هو آت.

. . . ولوأن الأمر توقف عند ذاك الحد لهان الأمر، وما كان ليهون، . . . [ولكن شيطاناً من شياطين الإنس من زمرة ابن ملجم المرادي، كان يتربص بالإمام، حتى إذا مر بفرسانه في مظلم ساباط، انقضّ عليه مكبّراً، وما كبّر إلا إبليس، وطعنه بخنجر طويل مسموم يريد قتله، فأصابه في فخذه، فشقّه حتى بلغ العظم!

على أن الإمام لم يذره، بل أمسك بعنقه حالما أحس ضربته، وخرّا جميعاً إلى الأرض.]

ويلاه، . . . هل كان الحسين والعباس بجوار أخيهما حين طُعن؟!

أغلب الظن أنهما كانا بجواره، فالحسين ما كان ليترك أخاه وصنو فؤاده وحيداً في أي موقف، والعباس كان دائماً ثالثهما، . . . على أن الحسين كان يلتحق بأخيه الأكبر وإمامه، ولا يتقدم عليه قط، ولا يمشي بين يديه قط، إكباراً له وإجلالاً لقدره، وكذلك كان العباس لهما، بل أكثر، فهما إماماه وسيداه، وهو لهما خادم مطيع.

. . . وأغلب الظن أن صرخة الألم التي أطلقها الحسن عليه السلام فور الطعنةبلغت مسامعهما، بل قلبيهما الملهوفين، . . . ولعل الحسين جلّى كما يجلّي الليث، ولعل العباس تساقطت أعماقه كالغيث، . . . فهرعا معاً يمسكان بتلابيب الزنديق الذي تجرأ على حرمة الإمام، وهاجماه في مقدمة من هاجمه من الأصحاب، ليجداه قد [فارق الحياة، بعدما أرسله الحسن عليه السلام إلى جهنم ليصلاها مذموماً مدحورا، فهو قد دق عنقه من فوره بحركة واحدة، إثر طعنته، وألحقه بسابقه المرادي اللعين، الذي نفذ فيه الحسن أيضاً بعد استشهاد الأمير في ذلك اليوم المشؤوم حكم الدين، وضربه ضربة واحدة ألحقته باللعناء السابقين!]

وكأني بالحسين وقد عاد في تلك اللحظة إلى أبي محمد، ليجد آثار الدماء على أثوابه، فتطير نفسه شعاعاً، ويحتضنه ملهوفاً يستكشف عمق الضربة وموقعها، حتى إذا طمأنه الحسن عليه السلام بأنها لم تصب منه مقتلاً، حمله على عاتقه ولسانه لا يفتر عن الشكر والحمد والذكر، ليضعه فوق محمل ويوصله إلى مأمن يعالج فيه من جرحه، قبل أن يتابع المسير.

وكأني بالعباس يمضي خلفهما يحاول جاهداً أن يهدئ وجيب فؤاده، الذي لا ينتزع منه مثل تلك الخفقات العظام، أي خوف أو وجل، فهو الشجاع المقدام، الذي لا يأبه لأي خطب نزل، ولكن نسمة قد تزعج سيديه وأخويه هي ريح عاصفة لديه، أو شوكة تنبت في أنملهما تكون قد نبتت في عينيه، فما بالك بطعنة من خنجر مسموم نفذت في جسم أحب الخلق إليه؟!

إن العباس لا بد كان يهدئ نفسه ويتحامل على قلبه أن لا يدفع إلى عينيه

دموعاً مصدرها القلق على حبيبه، . . . ثم ها هو يهدأ ويستكين شيئاً فشيئاً لما يرى هدوء مولاه، الذي لعله نظر إليه وإلى أخيه أبي عبد الله، . . . لعله تبسم في وجهيهما مغالباً ألمه مهدئاً روعيهما، مؤكداً لهما أنها ليست ضربته الموعودة، ليس قدره الذي أبلغه به أبوه عن جده عن جبريل عن الله عزوجل، إنه سيتعافى بإذن الله، وبعدها يقضي المولى ما يراه!

إيه يا مولاي يا أبا محمد، أيها الصابر التقي الزكي، . . . هل ذكّرك جرحك بجرح أبيك الذي لم يندمل بعد؟! . . . وهل استصغرت مقدار ما تشعر به من ألم أمام ما استشعره سيد الوصيين؟!

ألا إن كل مصيبة لو قيست بمصيبة أبي الحسنين تتصاغر، خلا مصيبة واحدة، لم يتمخض عنها الزمان، ولكنه يعد لها العدد، ويمدها بالمدد، ويربيها كنبتة خبيثة روتها نار جهنم صديداً وحقدا، فاشتدت ونمت مجبولة بكره آل محمد، . . . إنها تلك الشجرة الخبيثة التي اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وهي في أصل جهنم، ولذا فإنها تجر كل من تعلق بها إلى ذلك الوادي السحيق.

[في تلك الأثناء كان عبيد الله بن عباس قد مضى بمقدمة جيش الإمام، وكان متسلحاً لا بقرابته للإمام وولائه له فحسب، بل بما كان يحمله من حقد ملتهب على معاوية لا يطفئه شيء، بعد أن قتل قائد معاوية، بسر بن أرطأة، ولديه الصغيرين وهما في حجر أمهماعلى درج صنعاء باليمن، يوم كان والياً عليها من قبل أمير المؤمنين، قبل سنوات، فأفجعه فيهما، وفي أمهما المسكينة التي ذهبت المصيبة بعقلها.]

ولكن، عجباً لهذه الدنيا إذ تتزين وتتقلب كما تتزين الدمنة الخضراء لمن يردها من الوحوش، ولئن استطاع حب الدنيا أن يخدر النفوس ويطفئ فيها شعاع التقوى والحكمة، أولا يستطيع أن يستل أيضاً عنصر الغيرة والشهامة؟!

[ها هو عبيد الله بن العباس، رغم ما كان متوقداً بينه وبين معاوية من نار لا تخمد، وثأر قد تجدد، استطاع أن يضرب صفحاً عن سني عمره التي قضاها في خدمة أمير المؤمنين، وعن دم طفليه البريئين اللذين ذهبا ضحية سفّاح اليمن وسفّاح الشام، وعن حق امرأته المظلومة التي دفعت ثمن تلك المأساة باهظاً ولا تزال، وأن يمد لمعاوية يداً غادرة خائنة، وأن ينقاد لشهوة المال والسلطة، فيسيل لعابه طمعاً من أجل ألف ألف درهم أغراه بها معاوية، إن هو انسحب من القتال.

وترك عبيد الله الجيش بلا قائد، وانسلّ تحت جنح الظلام متبعاً هواه مخالفاً أمر مولاه، إلى حيث قاده شيطان الدنيا وأغواه.

كانت تلك ضربة قاصمة للجيش سددها إليه أحد المقربين]، وقد قال الشاعر قديماً:

«وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّدِ»

... وتزايد ألم الإمام، حتى أنساه ألم الجرح، ولكنه لم يستسلم، ... رغم أن [معاوية كان لا ينفك يراسله، فيهدده تارة ويرغّبه أخرى، ويؤكد له أن جيشه غير قادر على مواجهته، وأن القوم قد غدروا به كما غدروا بأبيه، وأن لا مفر له من الصلح.]

وكان أشد ما يؤسف له، أن معاوية، الطليق ابن الطليق، كان على حق في مزاعمه، فجيش الإمام قد تهاوى، نفساً لا جسداً، ولم يعد يملك من الهمة والروح العالية ما يواجه جيش النفاق الجرار المقبل من ناحية الشام، فقد كان جيش معاوية مسلحاً لا بالرجال والعتاد فحسب، بل بالمال والدنيا يبذلها لمن يشاء بغير حساب، وهو إنما يسلبهم إياها بيد ليمدهم بها باليد الأخرى، وقد يعد فيكذب أيضاً وما ذاك عليه ببعيد، وما هو على الغدر بجديد.

[ولكن الإمام الذي كان يعلم كل هذا وأكثر، أراد أن يتابع مسيرة الجهاد، ليلقي الحجة على العباد، ولذا فهو لم ينتظر إلا ريثما برئ جرحه أو كاد، ثم عسكر عشرة أيام، فلم يحضره إلا أربعة آلاف، . . . عندئذ علم الإمام، وهو من قبل عالم، بل علم من حوله أن الأمر قد قضي، وأن لا حرب يمكن أن تُخاض، . . . لا لقلة العدد والناصر فحسب، بل لأمور كثيرة كان الإمام يراها من حيث لا يراها سواه، ويعلم أن في الحرب لو خاضها بتلك الشروط، إبادة لدين الله وأوليائه، حتى لا يبقى للإسلام ذكر على وجه الأرض، وفي ذلك تنفيذ لما أراده هؤلاء المنافقين، الذين كادوا للدين من قبل سراً ثم جهراً، ثم سراً وجهراً معاً إذ فقدوا كل حياء ودين!

. . . عاد الإمام إلى الكوفة، كما عاد والده قبل بضعة أعوام، خالي الوفاض إلا من الحسرة وقلة النصرة، . . . عاد وفي جرحه آثار السم الذي لم يبرأ بعد، وفي قلبه آثار الهم الذي لم يبرأ ولن يبرأ أبدا.]

نظر حوله، نظر إلى الماضي البعيد بعينه الثاقبة التي ترى البعيد والقريب بنظرة واحدة، . . . رأى أباه، بعدما دفن جده النبي وأودعه مثواه، رآه على شفير هاوية يُراد له أن يهوي فيها ودين الله الذي أحياه، فعمل بما نبهه إليه

حبيبه النبي وهداه إليه الله، سكت عن حقه وحق الأمة، إذ وجد أن الخطر الأعظم كان يتهدد كلمة الحق العظمى، . . . وها هو الزمان يعيد نفسه، وها هو الحسن عليه السلام يقف أيضاً على شفير هاوية يراد له أن يهوي فيها ودين الله الذي أحياه جده وأبوه، وعليه وعلى أخيه الحسين والأئمة من ولده يتوقف استمراره، ولذا فقد كان الحسن مخيراً بين أمرين، أحلاهما أمرّهما، ولكن فيه حفظاً لبيضة الدين، وحفاظاً على البقية الباقية من المؤمنين، فالعض على الجرح يزيد الجرح إيلاماً ولكنه يوقف نزفه، [وكتب يرد على معاوية:

ـ أما إني أريد أن أحيي الحق وأميت الباطل، وأجري بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ولكن الناس لا توافقني، والآن فأنا أصالحك على شروط أعلم أنك لن تفي بها، فلا يسرك أن الملك ميسر لك، فسرعان ما ستندم كما ندم من غصبوا الخلافة، ولكن ندمهم لم يعقب نفعا.]

. . . ومرة أخرى استقبلت أم البنين وزينب وأم كلثوم، وسائر الهاشميات، استقبلوا الإمام الحسن والإمام الحسين والعباس وسائر الأحبة، استقبال الموجع، ولعل خبر طعنة الحسن كان قد وصلهم، ولذا فقد كان قلقهم عليه يفوق خيبتهم لعودة العائدين.

ولعل أم البنين وقفت بجوار زينب وأم كلثوم، وهما تضمان أخاهما وتتفقدانه والهتين، ولعلها نطقت ببضع كلمات من شجو حنوها، وهي تنظر آسفة إلى شحوبه واصفراره.

ترى، هل تذكرت أم البنين في تلك اللحظة جرح الأمير، وهل اشتعل

قلبها ناراً إذ قارنت بين الجرحين، وهل أخفت دموعاً فاجأتها للفكرة والذكرى؟

ربما، ولعل العباس وقف بين أمه واختيه، وراح يطمئنهم ويسرد عليهن الخبر، ويؤكد لهن أن الضربة قد عولجت، وإنما هي آثارها، آثار سمها، تحتاج وقتاً أطول، ولكن الإمام الحسن قد نجا بحول الله وقوته، فلا يزال أمامه طريق ليسلكها بأهله وشيعته، لا يزال في العمر بقية، لقد أنعم به الله على من حوله حتى حين، وإن الله هو الذي ينجي الصالحين.

... وترتفع الأكف شكراً للمولى القدير، ويطأطئون الرؤوس هيبة لحضور الحسن عليه السلام، وخشوعاً لله، واستسلاماً لمشيئته التي أمضاها على يد خير خلقه، فكان له عليهم السمع والطاعة، رغم أن ما أتى به كان مخالفاً لما أرادوه، ولكنها طاعة أولي الأمر، الذين يعلمون من الله ما لا نعلم، ويدركون من بواطن الأمورما لا يدركه إلا من خصه الله بذلك الكنز الأعظم، كنز العلم المستقى من قلب محمد صلى الله عليه وآله المأخوذ من باب علي عليه السلام والمتألق في تلك الصدور المنشرحة بتقوى الله، المتألقة بنور الله، الساعية بأمر الله، حتى يقضي الله ما هو قاضٍ وهو خير الحاكمين.

***

... قد آن أوان الرحيل، بل هي العودة بعد الرحيل، العودة إلى دار الأحبة، حيث يسكن نبي الرحمة ومنقذ الأمة من الغمة، وحيث ترقد الحبيبة الزهراء، في موضع لا يعرفه إلا الخلص الأخلاء، ... ولكن مهلاً؛ ففي دار الغربة هذه ما يجعلها دار قربة، إنه مثوى سيد الأحبة، فكيف يكون الرحيل؟!...

كانت نظرات بنات الزهراء وأم البنين، وقلوبهن تتوزع بين القريب والبعيد، بين الكوفة وما بظاهرها من مرقد سيد الوصيين، وبين المدينة وساكنيها الميامين. . . . ترى، هل تستطيعين يا أم البنين أن تفارقي حبيبك الأكبر يرقد ها هنا في تربة الغري، وترحلين؟!

هل كانت أم البنين تخاطب نفسها بهذا ونحوه، وهي تعد العدة للرحيل في ركاب الحسن السبط وإخوته وأخواته، بعدما [أجمع الحسن أمره على العودة برحله إلى مدينةجده]؟. . . هل كانت متوزعة الفؤاد والروح بين أمر إمامها بالرحيل، وبين أمر قلبها بالبقاء؟. . . بل إن قلبها نفسه كان يأمرها أيضاً بالرحيل، وهي التي لا ترى لها حياة إلا في ظل الحسنين والزينبين، فهم قلبها الذي تحيا به، ونبضها الذي يتململ في عروقها، وأنفاسها التي تتراوح في صدرها، بهم تعيش وبهم تموت، وليس لها من دونهم حياة ولا ممات، . . . ثم إنها تحمل همّ الرعاية فوق همّ الولاية، فهي تحمل فلذات كبد الأمير، وهي أمينة على ما استأمنها عليه، ولذا فهي لا يمكن أن تتركهم قط، بل هي كانت ولا تزال لهم خادمة وفية، وإذا بهم يرونها أماً حفية!

كما أن هناك أمراً آخر، فهي قد نذرت نفسها منذ عرفت نفسها، أن تواسي أهل هذا البيت بنفسها، أفلا تواسي سيدتها الزهراء في بعدها عن أمير المؤمنين، وتجاورها هناك، في تلك المدينة الحزينة، وتسليها عن بعد مثواه؟!. . . وهل يكون لها أن تنعم بجوار الأمير، وسيدتها ومولاتها في ذلك المكان القصي، قد أضناها الجوى وبعد المكان؟. . . صحيح أن الأرواح لا بد قد التقت، بل إن الزهراء قد لاقت فعلاً بعلها، هناك في عليين، حيث لا ظلم ولا جور ولا دموع، ولكن، إن مجرد فكرة بقائها

هنا، والزهراء هناك، تجعلها تنكر على نفسها هذا، فحق المواساة لديها هو الحق، ولا حق سواه.

ولعل العباس إذ يرى تأثر أمه وانفعالها، ويعرف ما سر حالها، يدنو منها مواسياً لها أيضاً، وراوياً قصة تهدئ بالها، . . . ويخبرها بذلك الخبر، . . . ذلك أنه [وبعد ما قام وإخوته بدفن والدهم، حجة الله في أرضه، في ذلك اليوم المشؤوم، وقبل أن يهيلوا التراب على وجه أبي تراب، كان لا بد للحسنين من تنفيذ وصية أوصاهما بها، . . . لقد أوصاهما بأن يصليا ركعتين على شفير القبر، وأن ينظرا ما يكون، . . . فلما وضعاه في الضريح المقدس، وفعلا ما أمرهما به، ونظرا، فإذا الضريح مغطى بثوب من السندس، فكشف الحسن عليه السلام الثوب مما يلي وجه أمير المؤمنين، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله وآدم وإبراهيم عليهما السلام يتحدثون مع الأمير، وكشف الحسين عليه السلام الثوب مما يلي رجليه، فوجد الزهراء وحواء ومريم وآسية عليهن السلام ينحن على الأمير ويندبنه!]

لعل العباس لما وصل في حديثه إلى تلك النقطة، كان انفعال أم البنين قد بلغ أوجه، بدل أن يبرد غليلها، فراحت تذرف الدمع منسجماً أكثر مما سلف، ولعل العباس استغفر الله مراراً وهو يتابع حديثه ليصل إلى ما أراده، راح يحدثها برفق وتلطف ولين، كيف أنه [وبعدما أشرجوا اللبن على أمير المؤمنين، أخذوا اللبن من عند رأس الأمير، فإذا ليس في القبر شيء!!]

هل صمتت أم البنين عن البكاء فجأة؟! . . . هل رفعت إلى ولدها نظرة متعجبة متسائلة تستزيده وتستفهمه؟!

ربما، ولعل العباس تابع يذكر، كيف [أن هاتفاً هتف في تلك اللحظة يقول:

«إن أمير المؤمنين كان عبداً صالحاً، فألحقه الله عز وجل بنبيه، وكذلك يُفعل بالأوصياء بعد الأنبياء، حتى لو أن نبياً مات في الشرق، ومات وصيه في الغرب، ألحق الله الوصي بالنبي!»]

لعل أم البنين لم تدرِ بِمَ تعلق، . . . لقد أذهلها الخبر، وانطلق فؤادها يلحق بناظرَيْها اللذَين توجها نحو البعيد، متسائلاً بشوق ما له نظير:

ـ إذاً فلقد سبقتني إلىٰ هناك يا سيدي ومولاي؟! . . . إلى جوار أخيك الرسول وزوجتك البتول، إذاً فأنا الآن لا أفارقك، بل أقصد إليك، أتوجه نحوك وأسعى إلى علاك، هناك، حيث تلتقي الثريا والسماك، وحيث تتألق الافلاك، وحيث أنظر في المدى متوسلة أن أراك، . . . مولاي، . . . هاأنا ذي مرتحلة إليك، عائدة في ركاب كوكبيك، مولاي، لا زال العهد طرياً ونداؤك فينا نديّاً، ولا زلت اليوم كما تركتني بالأمس، أرتجي منك الرضا، ومن مداك أنتهج الفضا، وأحلق وأحلق في سماء عشقك أيها الرضي المرتضى، . . . مولاي، هي أيام نطوي بها هذا المدى من الرمال ونصل إليك، أفلا تقبلني يا مولى المتقين، كما قبلتني قبل سنين، جارية بين يديك؟! فواشوقي إلى تلك البقعة المقدسة التي أضحت الساعة تضم مع أخيك النبي وصفيتك الزهراء، نور سيد اللأوصياء والأولياء، . . . واشوقي إلى مجمع الأنوار ذاك، ووالهفاه إلى لحظة الوصول، . . . إلى حماك!

لم تدرِ أم البنين كم من الزمن مر وانصرم بين الانطلاق والوصول، . . . كانت رحلة العودة مرة عسيرة، تحدوها آلام الفراق ووعثاء السفر، وكانت أيضاً حلوة يسيرة، تترقب لحظة اللقاء وموعد القدر، وما بين المرارة والحلاوة في عسرها ويسرها تنتثر آهات الوجد وتجول المعاني والفِكَر، وتختزن الأعماق حديثاً طويلاً ينتظر أوان البوح، عند مرمى القلب والروح، والبصر.

. . . ومع الوصول، خرجت لاستقبال ركب الرسالة مدينة الرسول، خرجوا يتنازعهم شعوران، فيهما اللوعة وفيهما السرور بالرجعة، واختلطت دموع الأسى بدموع الفرحة، فهاهو ركب الأمير يعود خالياً من الأمير، هاهي أغصان الولاية تتدلى لتحكي الحكاية، حكاية الظلم المكتوب على كل من تشبث بصاحب الراية.

ها هو الركب يطأ أرض المدينة بأقدام تنتقل الهوينا بآهة حزينة، وينهج أولاد الزهراء صوب قبر جدهم، يسلمون عليه بعد طول غياب، ويشكون له ما نزل بهم من مصاب، يذرفون دمع الشوق على الأعتاب، ويقرعون الصدور كما يقرعون الأبواب، عساها تنفتح فتفضي بما اعتلج في أعماقها من ألم وعذاب.

كان الوصول عزيزاً، ولقاء أم البنين بمن توسلت للقائه الأسباب، كان عزيزاً، . . . ولكنه كان مضمخاً بكل ما ارتبطت به تلك العلاقة الملكوتية بين الرسول ووصيه من معانٍ لا يدركها إلاهما وإلا الله، ولذا فقد كان لقاء غريباً، لم يرتوِ ظمؤها بلقياه فحسب، بل ربط ذاك اللقاء على قلبها برباط الصبر، صبر بلا حدود، ولعلها يممت وجهها صوب الغري تستقرئ

الوصية من جديد، وتلهج بما عاهدت عليه وتعيد، ثم تعود إلى بيتها الذي فارقته منذ أمد بعيد، هو بيت أميرها، أمير كل المؤمنين، فتقرّ فيه!

وهي لما تقابل أم المؤمنين أم سلمة، التي تأتي لتعزي زينباً وأم كاثوم وآل علي بفقد وليهم ووليها وولي كل مؤمن ومؤمنة، وهي في مواساتهم تذرف الدمع هتوناً وتصعد الزفرات أتوناً، ما يؤكد أنها إلى المواساة أحوج، . . . وكأني بأم البنين لما تقابل أم سلمة، تجد نفسها تتذكر ما قالته لنساء الأمير بعد استشهاده، فكان حكماً مبرماً ردت به على من أراد أن يطرق أبواب العرين بعدما خلا من حاميه، لقد وجهت حديثها يومئذ إلى نساء الأمير أنفسهن، لتخط لهن درباً إلى ذاك المصير:

ـ إيه يا نساء أمير المؤمنين، ما كان لحليلة أمير المؤمنين أن تحلّ لسواه، ولو حلل لها ذلك كتاب الله، فإن القلب يحرمه عليها، والكيان الذي ذاب يوماً في هواه، إن علياً كان نفس محمد ووصيه وأخاه، ولئن حرم الله على نساء النبي أن يتزوجن بعده، فلا أظن إلا أن علياً في الحكم كإياه، هو ليس حكم الله، ولكنه حكم الولاء لمن تولت ولي الله، واستظلت بفيئه وحماه، فما كان لها أن تنشد ظلاً بعده، حتى تلقى الله وتلقاه!

. . . عادت أم البنين إلى دارها، عادت لتعكف على أشبال العرين، عادت لتحفظ العهد على مر السنين، لتربي وتهذب، لتزرع وتشذب، على خطى أمير المؤمنين، ولتتضمخ بأريج الزهراء في الحين بعد الحين، عبر تلاوة آيات الذكر والولاء بين يدي بناتها والأبناء.

وكان لها من الحسنين والزينبين نعم المُعين على ذلك الحمل الثقيل الثمين، فكانوا بجانبها، يرعَون إخوتهم ويكفلونهم، ويحاولون أن يعوضوهم بشذى عطفهم، شيئاً من عطف والدهم.

وتنظر أم البنين في محيا بكرها العباس، وفي وجوه صغارها، فترى رقة اليتم ولا ترى ضعفه وانكساره، . . . أما العباس، فقد كان له من عمره الذي يفوق به عمر أشقائه، ومن سماحة خلقه وتقواه التي نشأ عليها وبنى عليها بناءه، ومن علمه الذي زقه به أمير المؤمنين مذ ولد كما يزق الطائر أبناءه، كان له من كل ذلك ما جعله أهلاً ليتعهد إخوته بالرعاية والحنان، ويستمد المزيد من قوة الإيمان والجنان، من رعاية أخويه الحسنين له، وحدبهما عليه، فكانا له نبعاً يستسقي منه ما يشاء ويسقي من يشاء.

***

عشر أعوامٍ توالت تزحف فوق بيداء الزمان، رقطاء ملساء مثل أفعى مشقوقة اللسان، . . . عشر أعوام من الظلم والعذاب والتعسف والهوان، . . . عشر أعوام لحقت بما كان سالفاً لها قبل ذلك الأوان، ولكنها فاقت بشدة وطأتها ما سبقها، فقد بلغ الجور حداً لم يبلغه من قبل، فالشر الذي ملأ النفوس، والحقد الذي فاضت به القلوب التي لم تزل تعانق أوثان الجاهلية، . . . كل تلك الطوايا الخبيثة التي لم يطهرها الإيمان من رجسها وكفرها، وحفظت في ما حفظت كل ما مناها به بطل الإسلام من هزائم، وما فجعها به من بطش بالآباء والأبناء، في سبيل إعلاء كلمة الحق، في بدر وأحد وحنين والأحزاب، وغيرها من المواقع التي ارتفعت

فيها راية الحق على يدي صاحب الحق، . . كل ذاك كان لا يزال حبيس النفوس، تجتر على مهل وتنتظر الفرصة للأخذ بالثأر.

. . . و[ها هو معاوية، بعد إذ صالح الإمام الحسن عليه السلام، يضع شروط الصلح عند قدميه، ويصرح بذلك دونما حياء ولا خجل]، . . . وممَّ يخجل وقد أسلمت له الأمة عنانها، وغلب فجّارها وظلّامها على الأبرار والأخيار من أعيانها؟!

لقد عرف كيف يشتري النفوس الضعيفة والضمائر المريضة، وما أكثرها، وراح يعيث في الأرض فساداً، وقد وضع نصب عينيه أن ينتقم، لا من آل علي فحسب، ولا من ذكر علي فقط، بل من آل محمد وذكر محمد، ولولا أن الإسلام لا يقوم إلا بمحمد، ولو استطاع أن يجعل الإسلام خلواً من النبوة كما أخلاه أسلافه من الولاية، لما تردد في سب محمد كما سب علياً على المنابر، ولولا أنه على عاتق الإسلام صعد، ولصهوته امتطى وله توسل للوصول إلى ما وصل إليه، من الملك والسلطان، لكان غنياً عن الإسلام كغناه عمن حماه ورعاه، وثبّت دعائمه وبناه.

كان ما يحزّ في النفوس ويفري الأكباد، ربما أكثر من سيوف بني أمية وسمهم الزعاف الذي راحوا يغتالون به كل من علموا فيه الولاء لأبي تراب، أن من رفع اسم الإسلام عالياً وحارب أعداءه وبذل كل غال ونفيس وصبر وجاهد في الله وأبلى بلاءه، قد أضحى اليوم ملعوناً على لسان تلك الطغمة الضالة من أعداء الإسلام الذين لم يسلموا إلا خوفاً وطمعاً.

أما أولئك الطلقاء، الذين آذوا النبي في حياته، وأسلموا خشية ذي الفقار، فقد أضحوا اليوم يتحدثون باسم الإسلام، ويتقلدون المناصب ويرفعون الأعلام، ويملكون رقاب الأنام، . . . يظهرون الإيمان بالنبي، ويحاربون باليد والقلب واللسان وصي النبي وكل من تولاه.

. . . لقد [علم أهل المعرفة ما أراده الإمام الحسن عليه السلام إذ قال لأهل الكوفة يوم كان يحثهم على الجهاد ويحذرهم مغبة ما أرادوه من التهاون والمهادنة، يوم وقف لهم يدعوهم بعد طعنته، ويرى اجتماع أمرهم على مخالفته، حتى لم يلبّ نداءه يومها إلا أربعة آلاف رجل، وحتى بلغ به الأمر من شدة تفرقهم عنه وكيدهم له، أن صار يستلئم درعه إذا وقف يؤمهم في الصلاة، وقد رمي غير مرة في صلاته فلم ينفذ السهم إليه لوجود الدرع، . . . لقد صعد المنبر يومها وقال لهم مؤنباً:

ـ يا عجباً من قوم لاحياء لهم ولا دين، . . . لو سلّمت له الأمر فأيم الله لا ترَون فرحاً أبداً مع بني أمية، . . . والله ليسومونكم سوء العذاب، . . . ولو وجدت أعواناً ما سلّمت له الأمر، لأنه محرم على بني أمية، فأفٍّ وترحاً يا عبيد الدنيا!]

. . . لقد صدق الإمام، وهو الصادق الزكي، وبان للناس من صدق ما تنبأ لهم به ما زاد وفاض على ذلك الكلام، وها هم قد أصبحوا في دارهم جاثمين نادمين، من سوء ما اقترفوا إذ كانوا عن نصرة الحق متخاذلين، . . . ولكن، ماذا ينفع الندم بعد، وقد تمكن الطلقاء من رقابهم، بما مكنوهم هم به، ولات ساعة مندمٍ؟!

. . . [حتى أولئك القلة الذين لم يتخاذلوا عن نصرة الدين، ولكنهم لم يكونوا على قدر كافٍ من المعرفة بحق الإمام، فلاموه على صلحه مع معاوية، فإنهم قد أدركوا الآن مغزى ما رد به عليهم الإمام في ذلك الحين:

ـ ويحكم ما تدرون ما عملت، . . . والله للذي عملته لشيعتي خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت، أما تعلمون أني إمامكم ومفترض الطاعة عليكم، وأحد سيدي شباب أهل الجنة، بنص من رسول الله ﷺ عليّ؟!

وأجاب موتوراً من شيعته بلغ به الحزن على ما جرى والنقمة على آل أبي سفيان، مقروناً بجهله لحق الإمام، أن دخل عليه حانقاً فسلم يقول:

ـ السلام عليك يا مذل المؤمنين!

فالتفت الإمام إليه بصبره المعهود، وأجابه:

ـ ما أذللتهم، ولكن كرهت أن أفنيهم وأستأصل شأفتهم، ولولا ما أتيت لما تُرك من شيعتنا أحد على وجه الأرض إلا قتل!]

ولعل ما كان يواجهه الإمام من هؤلاء كان أوجع للقلب مما كان يواجهه من أعدائه، ولعل أم البنين إذ كان يبلغها ما يُفعل بالحسن عليه السلام، كانت تتألم أشد الألم، كانت تزداد يقيناً ومعرفة به، حتى تنصرف إلى أولادها، وإلى من حولها من نساء المؤمنين اللواتي كن يقصدنها، كما يقصدن زينباً وأم كلثوم وغيرهن من نساء أهل البيت للتعلم والاستفادة، فتروح تروي لهن ما تعرفه وما تؤمن به من سعة علم الإمام وإحاطته بخفايا الأمور، ما لا يدع مجالاً للشك في صواب ما فعله، فالمؤمن الحق لا يتبع رأيه مخالفاً رأي

إمامه، أوليس الإمام أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟!

ولعلها إذ تذكر ذلك، تستشهد [بقول الحسن نفسه إذ لامه الائمون:

ـ أما علمتم أن الخضر لما خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران عليه السلام، إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمة وصواباً؟!]

لقد كانت أم البنين تعلم وتوقن، مستمدة علمها ويقينها من أهل بيت النبوة ومن معرفتها اليقينية بحقهم، أن ما فعله الإمام الحسن من الصلح كان هو الخير بعينه، والصواب الذي لا صواب غيره، حتى ولو أعقب بعده كل ما أعقب من جور وطغيان بحق الشيعة أجمعين، حتى كانو يقتلون وينكل بهم ويحرمون عطاءهم، فإن ما كان ينتظرهم لو لم يصالح الإمام، كان أدهى وأمر.

وكأني بأم البنين ترتعد ارتعاداً وهي تتمثل بعين بصيرتها الثاقبة، ما كان ليجري لو لم يصالح الحسن، . . . لو قاتل معاوية وجيشه الجرار بالقلة القليلة التي كانت معه، مع ما يحيط به من تخاذل المتخاذلين، وجهل الجاهلين بحقيقة معاوية ورهطه، . . . وهو ما ذكره الحسن في موضع آخر، [إنه كان ليقتل، ولا يقتل هو حتى يقتل الحسين دونه، وما كانا ليقتلان حتى يقتل دونهما كل الهاشميين الموالين لهما، وما كان الهاشميون ليقتلوا حتى يقتل دونهم كل الخلص الأوفياء من الصحابة والتابعين، فيخلو الجو لمعاوية ليعيدها أموية جاهلية، فيقضي على الإسلام، فإن أعجزه ذلك، فهو لا يعجز عن مسخه وتشويهه، فوق ما فعل، ولن يكون هناك

ساعتئذ من يستطيع الرد عليه أو تفنيد مزاعمه، . . . وقد فطن سيد شباب أهل الجنة لذلك، فرد على بعض لائميه بالقول:

ـ إني خشيت أن يُجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناعي!]

ولكن، كان لا بد للحياة من أن تستمر!

***

. . . ترى، هل كانت كل هذه الهموم والبلايا التي تتزلزل لوقعها الجبال الرواسي، لتفسح القلب أمام ذلك القلب الكبير العطوف بالفرحة والحبور؟

. . . ربما، وإن كانت كل فرحة في حياة أم البنين، منذ استشهاد الزهراء، وحتى استشهاد أمير المؤمنين، مشوبة بالحسرة مغمسة بالعبرة، تمسك بحلقها غصة الدموع، وتنثر فوق وردها ذوب الشموع، ويتغلغل في ثنايا المسك مرار، وفي لونه احمرار، وليس ذلك على المسك بعجيب، أوليس أصله من دم الغزلان طيب؟! . . .

أجل، فذاك ما جرى عندما نظرت أم البنين إلى بكرها العباس في ذلك اليوم الحبيب، فرأت تفتح شبابه وسحر جماله واكتمال خلاله، . . . هي أدركت أن عليها أن تجد له من بنات الشرف من تليق بخصاله، ولا بد أنها استشارت حبيبتها زينب، بل لا بد أن الحسنين كان لهما دور في ذلك، بل لعلهما كانا هما صاحبي هذا الأمر، . . . ووقع الاختيار على جوهرة من تاج هاشم، حورية من بنات عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، فلئن كان العباس سمياً لعم أبيه، فلا بأس بأن تكون حليلته من سلالة بنات بنيه.

إنها لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطلب(*)، . . . فتاة مكتملة الصفات والشمائل، خَلقاً وخُلقاً وديناً، قد رباها أبوها حبر أمير المؤمنين، فكانت خير فتاة تليق بشبل أمير المؤمنين وأم البنين، قمر بني هاشم، وخير زوجة جديرة بأن تكون أماً بدورها لأشباله.

هو ذا العباس، قمر العشيرة، . . . قد أضحى في مقتبل العمر وريعان الشباب، يشرق بدراً في سماء المدينة ويضيء قلوب الأحباب، حتى [صار أهل المدينة يضربون بحسنه وكمال صفاته الأمثال، . . . وهم إذا مر في الطريق توقفوا ينظرون إليه، ويمتعون أبصارهم وقلوبهم بسحر طلته البهية، التي لم يكن يماثلها في العرب أحد، سوى أخويه الحسن والحسين، سيدي شباب أهل الجنة.]

[ولعل في بني هاشم من كان يشاطر العباس اهتمام الناس وسحر الروعة والإحساس، إنهما، علي بن الحسين الأكبر، وأخوه، علي بن الحسين الأصغر، الملقب بزين العابدين، . . . فأما الأول فقد كان قرة عيون أهل المدينة، لشدة شبهه برسول الله، حتى كان أصحاب الرسول والحسنان، وسائر من رأى النبي، ينتظرون رؤيته ليرووا بها شوقهم لرسول الله، فقد كان أشبه الناس، خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً به.

. . . وأما زين العابدين، فقد كان عليه السلام فريد زمانه، . . . هو ابن

(*) ورد في بعض المصادر أنها بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأياً يكن، فإنها كانت من فاضلات النساء وخيرهنّ حسباً ونسباً وخَلقاً وخُلقاً وديناً إذ لا يؤخذ الأبناء والبنات بجرائر الآباء.

الحسين من شاهزنان بنت كسرى يزدجرد ملك الفرس، تلك الأميرة الفارسية الكريمة الحسب والنسب والأخلاق، التي اختارت الحسين بعلاً لها دون رجال العرب جميعاً، يوم أُتي بها مسبية مع بنات قومها عند فتح فارس، فأكرمها الحسين وأعتقها وتزوجها، فولدت له علياً]، . . . وما أدراك من علي!!! . . . إنه الحجة من بعد أبيه، وأبو الأئمة المنتظرين من بنيه، وهذا ما لا يعلمه إلا الخواص، ولا ريب أن أم البنين كانت منهم، إذ كانت ترى من تكريم أمير المؤمنين لحفيده هذا، واحتفاءه به، واهتمامه لأمره، ما لم تكن تراه مع سواه من أولاده وأحفاده، على شدة اهتمامه بهم جميعاً، . . . وهذا ما جعل أم البنين تهتم به اهتماماً خاصاً، ولعل اهتمامها ذاك زاد أيضاً، بعدما مني الطفل باليتم منذ طفولته الأولى، ففقد والدته الكريمة، وكان له من حنان أبيه الحسين، وعمته زينب، وربما من حنان زوجة جده أمير المؤمنين، المرأة الطاهرة الحنون، أم البنين، ما عوضه كل التعويض عن حنان الأم الذي فقده، فقد كانت أم البنين أماً لكل من حولها، فكيف لا تكون أماً لولي الله المنتظر الذي فقد أمه؟!

كذا كان حال أهل المدينة مع الأئمة الأطهار ونسلهم الكريم، وكذا كان حالهم مع العباس، حتى كان حلم كل فتاة من بنات الأشراف، لا لحسنه وجماله الباهر فحسب، بل لطيب خصاله وزهده وورعه وعلمه وتقواه، وذاك هو الأهم.

و[زُفت لبابة بنت عبدالله بن العباس لأبي الفضل العباس!]

ولعل أم البنين إذ وقفت، مع زينب وأم كلثوم، لتستقبل عروس ولدها وبكرها الحبيب، ولتنثر على جبينه وجبينها الورد والياسمين، . . . لعلها

تمثلت أمير المؤمنين، واستشعرت وجوده، . . . واستوقفتها القرحة إذ أقبلت نحوها الفرحة، وتألمت أن لا يكون وقوفها معه في عرس ولده وحبيبه، . . .

إيه يا أبا الحسن، . . . هوذا حبيبك العباس، من سرّك بولادته وأشجاك، ورعيته في نشأته، فكان بك باراً وبأولاد الزهراء إخوته، يقتدي بك وبهم في خلقه ودينه وعبادته، . . . هو ذا أبو الفضل يا مولاي، بدر يشرق سيماء السجود في طلعته، كما قد خط المولى على البدر إسمك في رقعته، . . . هو يدخل على زوجته، أفلا تبارك له في نفسه وعرسه؟!

مولاي، هوذا أبو الفضل يمضي، ولا ريب أن وجودك يملأ كيانه. بعدما أفاض عليه بكرك ووصيك الحسن عطفه وحنانه، وبعدما اصطفاه حبيبك الحسين فقربه وأدنى مكانه، . . . إن نعم الله علينا، عليّ وعلى وُلدي بقربك يا مولاي وقرب آل بيتك، لهي أجل مّن أن يحصيها الكلام وبيانه، ولأنت الآن بالقرب، بل في القلب، وإن لم ترك العيون، فقد أطبق عليك النور أجفانه!

***

. . . على أن ما كان يوجع قلب أم البنين حقاً، وربما يكاد يزهق روحها، فتتململ وتتلوى وتكاد تفقد صبرها، هو ذاك النداء الذي كان ينطلق على المنابر عند كل موعد صلاة، . . . تلك البدعة الخبيثة التي ابتدعها ابن هند ليمحو بظنه ذكر علي عليه السلام ويشوه صورته النورانية، . . . [إنه سب علي على المنابر والتبرؤ منه!]

رباه، وهل يعقل هذا؟!... فبدلاً من شهادة أن علياً ولي الله، كان الناس يتسابقون لاشتراء رضى المخلوق السفيه الجبان بسخط الخالق الرحمن، ويتبارَون في التبرؤ من أمير المؤمنين وموالاة الفاسقين، ويسعَون إلى شر العمل لا بالصمت عن خير العمل فحسب، بل بقلب الحقائق ومسخ الخير شراً والشر خيراً!

بل إن الأمور ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد [راح علماء السوء يخترعون الأحاديث وينسبونها للنبيﷺ في فضل معاوية وأسلافه وأزلامه، ويشيعونها بين الناس ويعلمونها صبيانهم وبناتهم، حتى يختلط الحق بالباطل، لا بل يُستبدل به، وتكاد لولا رحمة الله المتمثلة في البقية الباقية من آل البيت أن ينقلب الحق باطلاً والباطل حقاً بتمامه، ولا تقوم ساعتئذ للحق قائمة!]

إن ما كانت تراه أم البنين من المبالغة بالاستهانة بحق أمير المؤمنين، كان رهيباً،... وكانت كلما اشتد الأمر استمدت من شدته شدة على مواجهته، بالقول والفعل واللسان، ولئن استطاع معاوية أن يصمت ألسنة الناس عن النطق بفضائل سيد البيان، وعن تفسير القرآن بما ذُكر في آل البيتعليهم السلام، فلعله لم يستطع أن يصمت الحق إذ كان ينطلق من أعماق سيدة بني كلاب، أم الأربعة الهاشميين أشبال أمير المؤمنين، فإن اللبؤة إذا جُرحت ازدادت قوة، وكلما كان الجرح أعمق، كان استبسالها للدفاع عن العرين أقوى وأصدق.

إن أم البنين ما كانت لتنسى [تلك المواجهة التي قامت بين معاوية وقيس بن سعد بن عبادة، سيد الأنصار وابن سيدهم، ذاك القائد العلوي المخلص

في ولائه وحبه لآل بيت نبيه، والذي امتنع عن بيعة معاوية، حتى أخذت منه البيعة غصباً، . . . لقد تصدى قيس لمعاوية يوم أتى المدينة وراح يسفه أهلها ويهين كبارهم وصغارهم، . . . لم يخش قيس معاوية ورهطه، ولا تهديده ووعيده، بل برز له وراح يروي على مسامعه فضائل علي بن أبي طالب، فلا يترك آية نزلت في حقه إلا رواها وبيّن معناها، حتى وصل الغيظ بمعاوية إلى حد بعث فيه مناديه أن ينادي من أقصى بلاد المسلمين إلى أقصاها، أن قد برئت الذمة ممن روى حديثاً في مناقب علي وفضل أهل بيته!]

. . . وهي أيضاً ما كانت لتنسى ما بلغها من [خبر معاوية إذ مر بنفر من قريش فقاموا له إلا عبد الله بن عباس، فلما عاتبه معاوية في ذلك، وراح ينهاه عن ذكر علي ومناقبه، سأله ابن عباس مستنكراً:

ـ يا معاوية، أتنهانا عن قراءة القرآن؟!

فرد معاوية مفحماً بالنفي، فعاد ابن عباس يسأله:

ـ أفتنهانا عن تأويله؟!

فأجابه معاوية بالإيجاب بكل وقاحة، وتجادلا، فعاد ابن عباس يسأل:

ـ فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟!

وازدادا جدلاً، حتى انتهى ابن عباس للقول وقد بلغ به الاستنكار مداه:

ـ أتنهانا يا معاوية أن نعبد الله بالقرآن، بما فيه من حلال وحرام، فإن لم تسأل الأمة عن ذلك حتى تعلم تهلك وتختلف!

فكان لا بد لمعاوية من الرد بقوله:

ـ اقرأوا القرآن وتأولوه، ولا تروا شيئاً مما أنزل الله فيكم وارووا سوى ذلك.

تنهد ابن عباس وهو يرد عليه:

ـ فإن الله يقول في القرآن: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لقد أراد معاوية أن يطفئ نور الله، ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره، فكان هناك من الشيعة من لم يعبأ بالقتل والتشريد والتعذيب وراح لسانه يلهج بحب علي دونما خوف أو وجل، . . . فهذا حجر بن عدي الكندي، من أكابر أصحاب النبي وأصحاب علي، يأبى أن يتبرأ من علي أو يسبه أو يشتمه، ويأبى إلا أن يرفع صوته بمدحه وذكر فضائله، فينتقم منه معاوية شر انتقام، ويقتله، بعدما يقتل ولده أمام عينيه، وأصحابه كذلك، في مرج عذراء قرب دمشق]، وفي ظنه أنه يضعف شوكة عاشقي علي وإذا به يزيدهم تعلقاً بذلك النور، تعلق الفراشة بالمصباح، كلما ذببتها عنه ونحيتها، ازدادت رغبة فيه وجنوحاً إليه، حتى ولو كان في لصوقها به حتفها!

على أن قتل حجر وأصحابه، لم تكن أقسى طعنة وجهها معاوية في خاصرة عاشقي علي، . . . بل إن الطعنة الدامية والألم المبرح والأنين، كانت قد سبقت ذلك الجرح بسنة!

***

. . . [كان عام خمسين للهجرة، عاماً لا يختلف عن الأعوام التي سبقته، ظلماً وعتواً على آل بيت النبي، وصبراً وتحملاً لما لا يُحتمل.

على أن ما بدا لمعاوية في ذلك العام، كان ثلمة رآها في بيت الإمام، فترصدها وأحسن استغلالها، . . . ولم تكن تلك الثلمة إلا أفعى متلونة خادعة ومخدوعة، هي فرخ لأفعى أخرى، زُرعت في بيت الإمام قبل أكثر من عشرة أعوام، فلم تُنبت إلا خبثاً، ولم يجدِها شهد الولاية أن يحلو مذاقها، ولا عذوبة الكوثر أن يطيب موردها، بعد أن تشربت الخبث وسو- الطوية في أعماقها وورثت من أصلها الدنيء ما جعلها تهوي نحو الحضيض كلما ارتفع من حولها نحو العلى، بل إنها هبطت إلى ما هو دون الحضيض، إلى عمق من أعماق جهنم لا يدري سوى الله مداه.

. . . [كانت جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، زوجة من زوجات الإمام الحسن عليه السلام]، ترتع في فيض نوره فتشتعل ناراً ويحسن إليها ويسبغ عليها خيره فلا تزداد عن الخير إلا بعداً، وتعيش في جنة الخلد فلا تحن إلا لجحيم الفناء!

. . . [وكان الله قد حرمها الولد من الإمام، وكان الإمام يعزيها، ويرحمها لذلك وغيره، وهو على علم بما تنطوي عليه سريرتها، وكان قد أسرّ إلى أهل بيته بما يكون منها، فنصحوه بإخراجها من منزله، فنظر إلى البعيد بصبر تعلمه من سيد البشر، وأجاب على الكلام بعد النظر:

- كيف أخرجها ولم تفعل شيئاً بعد، ولو أخرجتها ما قتلني غيرها، وكان لها عذر عند الناس؟!]

. . . ترى، هل علمت أم البنين بخبر ذاك الحديث؟! . . . هل أدركت قبل وقوع المحذور أي شر كان يرتع في بيت الخير، وأي رجس كان يتربع في بيت الطهارة؟!

ربما، ولعلها إن كانت قد أدركت لودت من صَميم فؤادها لو سمح لها الإمام أن تسعى إلى تلك الحية لتزهق أنفاسها، ولو كان في ذلك الأمر ما يعرضها لسمها الزعاف أو حتى للموت، فروحها وروح أولادها وكل من هومنها بسبيل، فداء لابن بنت رسول الله!

ولكن، لعلها لم تعلم الخبر، ولكن، لعلها كانت في صميم فؤادها تنفر من تلك المرأة، فتعزو نفورها تارة إلى صنع والدها بالأمير، إذ كان أحد الذين ساعدوا ابن ملجم الملعون في فعلته، ثم إنها تتذكرالآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فتستعيذ وتستغفر، ولا تجد للنفور مبرراً، سوى سلوك تلك المرأة الذي لم يكن لائقاً بزوجة إمام، فهي لم تكن تتحلى بالصبر والورع وحسن الخلق مع زوجها، ولعل أم البنين، ولو لم تكن تعلم من أمرها ما يكون، إلا أنها كانت تتوجس منها شراً وتتذكر بها من كانت قبلها من نساء الأنبياء، ممن لم يثمر فيهن فلاح أزواجهم، ولا انتقل إليهن شيء من بر أعمالهم.

إنه لمن الخطير حقاً أن يكون المرء غارقاً في النعيم فلا يراه، ويحن دوماً إلى سواه، أن يجد طعم الشهد علقماً وطعم الكوثر مراً، . . .

إن أم البنين قد تعلمت، على يدي ثمامة، أن للزوج على الزوجة حقاً لا تستطيع وفاءه، ما لم تكرم وفادته وتحسن معاشرته، فإذا هي تسر لسروره

وتحزن لحزنه، . . . فتكون له سكناً وستراً وغطاء، هذا شأن الزوجة مع زوجها، وهو إنسان عادي له أخطاؤه وعيوبه، فكيف يكون شأنها إن كان زوجها إماماً معصوماً عن الزلل، حجة على الخلق أجمعين؟! . . . إنها لو رصدت له نهارها وليلها قائمة على خدمته مؤتمرة بأمره، تخضع لقوله وتطأطئ رأسها بين يديه، تتمرغ في رياض الجنة تحت قدميه، وتذوب شمعة في فضاء عينيه، لكان ذلك في حقه أقل من القليل!

على أن جعدة لم تكن لها أم كثمامة، ولا أب كحزام، . . . ولم يكن لها من حسن الأصل والسيرة ما كان لأم البنين، ولا كانت تحمل في قلبها بذرة الإيمان الحقيقي والطهر المصفى، فضلاً عن نبتة غنّاء، تنمو وتترعرع وتزداد وتتوزع في فضاء عشق الحق وأهله!

كانت جعدة امرأة غلب عليها حب الدنيا، وكان بصرها كليلاً كما كان إيمانها مهلهلاً ضعيفاً، ولذا فهي لم تكن تميز جيداً بين النور والنار، وبين عطر الجنة وفوح الدمنة، ولذا [فإن معاوية اختارها، يعينه على ذلك أبوها، أخبث خبثاء أهل الكوفة، فراح يوسوس في صدرها] بما حول نفورها من زهد الإمام إلى كره، ولربما رأت في تساميه ورفعته تعالياً، ونسيت أو تناست، أن الإمام كان أحسن الناس خُلُقاً وأكثرهم تواضعاً لأهل بيته وغيرهم، . . . نسيت أو تناست، كم كان الإمام يحسن إليها ويرحمها لكي لا تتأثر بعدم إنجابها، . . . لقد دخل الشيطان إهابها وأفسد عليها رأيها الضعيف أصلاً، وزين لها سوء عملها، [فوافقت على اقتراف ذلك الجرم العظيم]، الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتخر الجبال هدا، ظناً منها أنها بذلك تنال نعيم الدنيا وتحصل على متعتها الزائفة.

[لقد أرسل إليها معاوية مالاً جسيماً وسماً زعافاً، كان قد استقدمه من ملك الروم، ووعدها بأن يجزل لها العطاء من بيت المال، فزاغ بصرها لرؤية المال، وعميت بصيرتها التي كانت أصلاً عمياء، . . . ومناها معاوية بأن يزوجها من وحيده يزيد إن هي قامت بدس السم للإمام!]

ويلاه، . . . كيف استطاعت تلك اليد التي لامست يوماً طهر الإمام، أن تقوم بقتل الإمام؟!

إن أم البنين، التي سنت لنفسها ولسائر نساء أمير المؤمنين أن يحرمن على أنفسهن الرجال بعد الأمير، لم تكن لتفهم كل هذا، بل لعلها كانت لتفهم، . . . ولكن أنى لمن هي فوق الملاك أن تستطيع الهبوط إلى ذلك الدرك الذي تعيشه وتتنفسه من هي دون الشيطان؟!

فأما جعدة، فقد تملكت منها نوازعها الشيطانية، فوافقت، وكما هو حال الحق في كل حين، لا يفهمه ويتمسك به إلا من هو عارف بالحق، وكما هو حال الباطل أيضاً، تبذل من أجله النفوس والعقول، وأثمن الأثمان، حتى الآخرة برحبها، من أجل لذة عابرة!

***

. . . [كان يوماً كئيباً من أيام شهر صفر، . . . كانت ذكرى استشهاد الرسول الأكرم تقترب، وتقترب معها مواعيد الحزن واللوعة، وإذا بالإمام يدخل منزله عشيةً بعد صيام يوم طويل، قد زادته طولاً حرارة الجو وحرارة الانتظار، . . . لا بد أن الإمام كان عالماً بما أخبره به أبوه عن جده عن جبرئيل عن الله العليم، أن كيف ومتى يأتيه أمر الجليل العظيم، . . . لقد

كانت شربة اللبن التي أعدتها له جعدة بانتظاره لافطاره، بعدما خشيت الخبيثة أن لا يشرب على زهده بأطايب الدنيا سواها، فتفوتها الجائزة، ويفوتها شر المطلب، فدست السم في تلك الشربة، التي كان ظاهرها عذب بارد وباطنها سم ناقع![

... ترى، هل طال الانتظار بالأفعى الحاقدة وهي تترصد قدوم الإمام؟!... هل استبطأته بعد أن كان من عادته أن يصلي قبل الإفطار، فخشيت أن تفضحها نظراتها الملتهبة المجنونة القادحة ناراً وشراً وبغياً وحقداً على جواد آل محمد؟!

لا بد أن الإمام إذ أتى الدار لاحظها، وعرف طويتها، وأدرك ما تضمره، وهو من قبل عارف مدرك، تماماً كما [عرف وأدرك أبوه قبل عشر سنين، طوية ابن ملجم، إذ أيقظه للصلاة فجر ذلك اليوم المشؤوم وهتف به وهو يراه نائماً على وجهه وقد أخفى سيفه تحته:

- يا هذا قم من نومك هذا، فإنها نومة يمقتها الله وهي نومة الشيطان، ... يا هذا، ... لقد هممت بشيء تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك![

ترى، هل خاطب الإمام الحسن زوجته قبل أن تناوله إفطاره المشؤوم؟! هل ألقى عليها الحجة من جديد وذكّرها ووعظها؟!

لاريب أنه فعل، ولكن كان قد سبق السيف العذل، وما كانت لتتراجع عما أقدمت عليه، وفي ظنها أن الدنيا قد صارت منها قريبة المنال، بعد أن

تتخلص من الإمام الذي أضحى بالنسبة لها حاجزاً يحول بينها وبين دنياها، وهي لو أرادت الخلاص على غير هذا النحو لما أمسكها لحظة، ولسرّحها سراحاً جميلاً ولأحسن وفادتها وأكرم مثواها، وهو الجواد الكريم، ولما خسرت ذاك الخسران الأعظم! . . . [لقد ارتشف الإمام اللبن، . . . لامست شفتاه الذابلتان من حر الصيام ولسانه المتشقق ظمأ حرارة السم ولذعه، فنحى عنه القدح، . . . واسترجع طويلاً، وراح لسانه يلهج بحمد الله على التحول عن هذه الدنيا الفانية إلى الجنان الباقية، للقاء جده وأبيه وأمه وعميه حمزة وجعفر، . . . وكيف لا يلهج بالحمد والثناء، وهو ابن علي المرتضى، الذي كان أول نطقه عند وقوعه بعد ضربة ابن ملجم اللعين، نداؤه:

ـ فزت ورب الكعبة!

. . . ثم إنه التفت إلى تلك الخبيثة التي اختلط في سحنتها الخوف والرعب بالشر الظاهر والحقد المبين، . . .]

ترى، هل ارتعدت فرائصها لنظرته؟! . . .

هل حسبته سيقوم إليها فيقضي عليها جزاء فعلتها به؟!

كلا، بل هي تعرفه، تعرف سماحة خلقه وسعة صدره، . . .

أوليس أبوه قد أمهل ابن ملجم بعد ضربته حتى يرى رأيه فيه، فلم يسمح بقتله إلا بعدما قضي الأمر، وأوصى ولده الحسن أن يضربه ضربة بضربة، وأن لا يمثّل به، إطاعة لأمر رسول الله الذي نهى عن المثلة ولو بالكلب العقور؟!

وإن جعدة لتتمثل في تلك اللحظة، وكأنما كان على فكرها غمامة فانقشعت، وتتذكر، لا قتلة الإمام لابن ملجم بسيفه في ضربة وتر لم يثنيها، ولا أمره بإحراق جيفته كما يُفعل بقتلة الأنبياء، حتى أحرقت وذري رمادها، ليس ذاك فحسب، بل هي تذكرت تلك المرأة الخارجية، قطام، التي كانت قد اشترطت على ابن ملجم دم أمير المؤمنين مهراً لها، كيف أصابها المسخ والتشويه عقب مصرع الإمام، فخسرت دنياها وآخرتها معا، وأخزاها الله في هذه، وهي في الآخرة من الخاسرين.

ولعل جعدة إذ تمثلت كل هذا، شعرت بالاختناق، لعلها أحست، لا بعظيم جرمها، فالقلب إذا قسا إلى ذاك الحد فقد الشعور بالإنسانية، بل بالخوف على نفسها جراء فعلتها، فسارعت تخرج من الدار جرياً، هرباً من خطيئتها، قبل أن يكتشف آل البيت ما جرى، ويجرون عليها القصاص، . . . ولكنها لم تكن لتهرب قبل أن [يدوي في أذنيها صوت الإمام الحسن وهو يهتف بها، بصوت غلب عليه الألم والقهر، من هول ما يعانيه من أثر السم من ناحية، ومن هول ما ابتلي به من الخيانة، حتى وصلت الخيانة إلى عقر داره:

ـ أي عدوة الله، قتلتني قتلك الله! . . . والله لا تصيبين مني خلفاً أبداً، ولقد غرك وسخر منك. . . والله يخزيك ويخزيه!!]

. . . ترى، هل فرت جعدة؟! . . . ولكن، ممن تفر؟! . . . أمن ربها الذي هو بالمرصاد لكل باغ ٍ فكيف بقتلة الأنبياء وأولاد الأنبياء؟!

[أما الإمام، فهو قد قام يذرع الدار طولاً وعرضاً لحرارة السم، ثم

ارتمى على فراشه يتلوى ويتألم، ويتقلب يميناً وشمالاً من شدة الألم.]

... إيه يا مولاي يا أبا محمد، لهفي على ذلك البدن الطاهر الذي حُرّم على النار فاستباحه حر السم، وعلى تينك الشفتين الزكيتين اللتين طالما لثمهما رسول الله فلثمهما بعده ذاك القدح المشؤوم!

مولاي، هل كتب على بياض اللبن أن يكون دوماً عنواناً لكل سواد وبلاء؟ أم لعله غذاء الأولياء، ولذا فقد جُعل فيه الداء والدواء؟!

مولاي، بالأمس مضى الأحبة، ... ذاك عمار بن ياسر صفي والدك وأعز صحبه، ما استشهد في صفين إلا وقد أبلغ عن الرسول قوله: «يا عمار، آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن».

... وذاك أمير المؤمنين بعد ضربته، ينصحه الطبيب باللبن، لا للشفاء، بل لتبريد حرارة السم الذي كان يجري في عروقه كما يجري في النبات الماء، وظل اللبن له غذاء مدة ضربته، وهو الذي طالما حرم على نفسه كل طيب، حتى اللبن، واكتفى من طعامه بالشعير والملح ومن شرابه بالماء.

وهذا الحسن عليه السلام يُسقى السم في اللبن،

... ترى، ماذا يبرد غليلك يا مولاي، إن كان إفطارك بعد الصيام لبناً مسموماً، فهل بقي لك من دواء؟!

... [وضج بنو هاشم لما وصلهم الخبر!]

... ولعل أم البنين كانت في مقدمة الهابطين كالشهب نحو منزل

الإمام، . . . لعلها خرجت ملهوفة لا ترى طريقها، وقد ازداد بها الجوى واضطرم فؤادها واكتوى.

لعل أم البنين كانت، ككل أم تستشعر الشر على أولادها قبل وقوعه، كانت منقبضة منذ الصباح، كانت تغالب انقباضها، وتمتنع تارة بعد أخرى أن تقارنه بذاك الانقباض المماثل الذي أحسته يوم ضربة بعلها أمير المؤمنين!

حتى إذا بلغها الخبر، خرجت ذاهلة اللب إلى ولدها وسيدها وابن سيدها، وكانت أول الواصلين إلى منزل الإمام من البشر.

ولعلها إذ وصلت، ارتمت على الأرض تلهج حزناً وتذرف الدموع، ولا ريب أنها وجدت في الدار الحسين عليه السلام، وولدها العباس الذي كان دائم الصحبة له، وقد أتيا قبل الجميع!

لعلها وجدت العباس جاثياً بينهما، هو تارة يمسح العرق المتصبب عن وجه أخيه الحسن، لشدة الألم ووقع السم، وتارة يكفكف دمع أخيه الحسين، غافلاً عن مسح دموعه، . . . ثم هو ينكب على وجه الحسين يغسله بفيض عينيه، عساه يوقظه مما حل به من غشية، لحظة عاين أخاه الحسن على تلك الحال!

ولعل العباس لما رأى أمه، بل لعلها لما رأته تزايد بكاؤها، ولكن، لعلها صمتت فجأة، وازدردت غصتها كمن يعتصر بركاناً تفجر، إذ كيف تغرق في البكاء وأحبتها يحتاجون من يلتقط دموعهم ويجمع آهاتهم ويمسح جراحهم؟!

ولكن، واهاً للجرح الذي تزمع مسحه اليوم، وأنى لها بمسحه وتضميده، وهو غارق في عمق كبد الإمام، يفريه ويقطعه إرباً إرباً، والإمام يتلوى ويتململ، ويلفظ كبده قطعة بعد قطعة؟!

أي قلب يستطيع تحمل كل هذا، وأي يد تستطيع أن تبلسم هذا الجرح العسير؟!

ولعل أم البنين في تلك اللحظة توجهت إلى الزهراء، وهي التي لا تفارقها لحظة، تستمد منها العون، وتسألها كيف يكون العزاء، . . . ثم إنها أقبلت على ولديها وسيديها الحسنين، تواسيهما، وتحاول وسعها أن تكون لهما سنداً، . . . ولعل الحسن التفت يخاطبها، وملء عينيه الدموع الجارية:

ـ أماه، يا أم البنين، إذا أقبلت زينب، فلا تخبريها بما ترَين! . . .

ولعله إذاك يشير إلى ذلك الطشت الذي يلفظ فيه بقايا كبده المفتت!

ولعله لا يكاد ينهي كلمته، حتى تقاطعه نوبة أخرى من الألم أشد من سابقتها، فينكفئ على نفسه يعالج ألمه، . . . وتقاطعه ضجة عند الباب، فلا تكاد أم البنين تعي صدمتها وتفيق من شدة لوعتها لكلامه، حتى تكون اللوعة الكبرى بالمرصاد، . . . [إنها زينب، لقد أقبلت تئن خلف الباب الموصد!

ويشير الحسن، رغم ما به من ألم مبرح، على الحسين بأن يخفي الطشت لكي لا تراه زينب!]

وكأني بالعباس الذي لم يكن ليجف دمعه، أو يستكين بكاؤه، كأني به

ينظر من خلف غلائل الدموع وعبق الزفرات، إلى أخته الكبرى وهي تدخل المكان، فيهرع إليها وقد زاد وجده لانفعالها، فيكفكف آهاتها ويمسح دموعها، ويحاول أن يخفف عنها!

ولكن تالله، فأي بلاء يخفف، وأي دموع يكفكف؟!

آهٍ لك يا زينب، . . . لقد كتب عليك أن تري دماء أهل بيتك مسفوحة أمام ناظريك في كل حين، ولئن أخفي عنك هذا الطشت الآن، فهل استطاع الحسن أن يمسح كل ما تضرجت به شفتاه الشاحبتان من آثار ذاك النزف الذي يعتريه، أم هل استطاع أن يوقف تقطع كبده حتى تغادريه؟!

آهٍ لك يا زينب، . . . بالأمس كانت دماء أمك الزهراء تنسكب خلف الباب، وبالأمس كانت دماء أبيك المرتضى تخضب لحيته ووجهه وهويعود من مسجد الكوفة في رحلة الإياب، واليوم، هوذا أخوك الحبيب، شقيق فؤادك، يخفي عنك ما استطاع من دمائه، ويحسب للوعتك وحزنك ألف حساب، . . . وهوذا أخوك الحسين، شقيق فؤادك ايضاً، يضمك ويواسيك، يرفع عن كاهلك بعض ما تثقلك به الأيام من ألم وعذاب، . . . هوذا أخوك العباس، فلذة فؤادك، كفيلك وحاميك، يحيطك بالعناية ويمسح جراحك ويواسيك عن فرقة الأحباب!

ولكن، تالله، من سيحسب حساب فجيعتك غداً يوم يأتيك المصاب؟!

. . . من ذا سيخفي عنك الدماء، دماء حبيبك الحسين، بل دماء كل أحبتك، وهي ستنتشر حولك، مثلما ينتشر في السماء السحاب وعلى وجه الأرض ينكفئ الضباب؟!

من ذا سيضرب بينك وبين الرأس المرفوع ستراً وحجاب؟!

بل إن كل ما جرى ويجري، رغم هوله، لن يكون شيئاً أمام ما هو آت، على جناحي ذلك الغراب!

ولن يكون كفيلك هناك عند المصاب، ولن يكون الحسين، بل سيعز إذذاك الكوثر وسيفيض الدم من المنحر، وسينسكب على التراب.

وتنظر أم البنين إلى زينب، إلى الحسن والحسين، إلى العباس، ترى ما هم فيه، وتتلوى أكثر، ثم تنظر إلى الناحية الأخرى، فترى بقية أولادها، عبد الله وعثمان وجعفر، الذين هرعوا كإياها إلى بيت أخيهم وسيدهم الأكبر، بل أبيهم الأصغر، الذي ما برح لهم أباً بعد أبيهم، . . . هوذا عبدالله، ابن ستة عشر ربيعاً، وعثمان، وهو ابن أربعة عشر، وجعفر وهوابن اثنتي عشرة سنة، . . . ها هم يدخلون المنزل باكين منتحبين، فيحيطهم العباس بحنانه وعطفه، يضيف دموعهم إلى دموعه، ويخلط آهاتهم بآهاته!

ترى، هل كتب عليكم يا أبناء أم البنين، ان تذوقوا اليتم مرتين، مرة بفقد أبيكم أمير المؤمنين، ومرة بفقد أخيكم الحسن الزكي الأمين؟!

واهاً لك أيتها الدنيا وترحاً، وصبراً على نوائب الدهر التي لا تكفكف آهة ولا تضمد جرحاً، . . . إنه الصبر الذي غذاه أمير المؤمنين لكل من والاه، ولكل من عاش عشقه فأفناه العشق وما أفناه!

صبراً آل علي وآل محمد، فإن موعدكم الجنة!

***

. . . رسمت آهات المجتبى في فضاء المدينة غلائل من شحوب الصباح، وخطت على أديم بقيعها أثلاماً من جراح.

كان الألم يزداد، وشحوب اللون في ذينك الخدين المشرقين يزداد، وتعود الذكرى بأهل البيت إلى ذلك اليوم الذي لم يندرج بعد في عداد الذكريات، . . . يوم ضُرب الأمير، . . . وما كان بعد تلك الضربة، حتى مضى في ركاب السابقين إلى العلي القدير.

. . . ولعل حرقة لم تعصف قط بقلب على وجه الأرض، بمثل ما عصفت الحرقة بقلب الحوراء زينب في ذلك اليوم العسير، سوى حرقة أمها على سم جدها، . . . إنه التاريخ يعيد نفسه، لا بل هو يزيدها في كل مصيبة عن سابقتها فجيعة وإيلاماً.

. . . إنه قلب العقيلة الملوّع أبداً بصنوف البلايا، لم يرحم الدهر صغر سنها يوم أيتمها بجدها، ثم بأمها، ولا توقفت طعناته الدامية يوم أفقدها أباها، . . . وها هي اليوم تجر خطاها ذاهلة وهي تتردد في كل يوم إلى منزل أخيها، تراقب ذبول مهجته وانصهار شمعته، فتنكفئ نحوه تذوب في حضرته، وتقف نفسها على خدمته، عساها تستنقذه بدمعها المبارك من ذاك المصير المحتوم، ولكن، هيهات، فلقد قضى الله ما هو قاض ٍ ولا مغير لقضاء الله إلا إذا شاء!

ثم [ها هو الإمام الحسن، يختلي بأخيه الحسين، ويوصيه بوصاياه، ويسلم إليه مواريث الإمامة!

ها هما يتناجيان، ويتعاهدان ويتساران، ويبكي الحسين بكاء شديداً حتى

يغشى عليه، فإذا أفاق، قال له الحسن برحمة، رغم كل ما به من بلاء:

ـ ياأخاه، . . . لا تحزن، فمصيبتك أعظم من مصيبتي، ورزؤك أعظم من رزئي.

وأتم كلامه بغصة زادته ألماً على ألمه، وزفرة دونها كل زفراته الماضية:

ـ لا يوم كيومك يا أبا عبد الله!

ها هو الحسن يبكي ليوم الحسين، ويحدثه بما حدثه به أبوه عن جده عن جبريل عن الله، من أخبار كربلاء، . . .]

وها هو الحسين، . . . واهاً لك يا أبا عبد الله، . . .

ليت شعري، أوليس حزنك لفراق صنو روحك وشقيق فؤادك، ، أكبر من كل ما يُتلى على سمعك من مصائب ستمنى بها بعد حين؟! . . .

وكيف لا يكون كذلك، وأنت ما رأيت الدنيا قط إلا بجواره، ولا عشت حلواً ولا مراً إلا شاركك فيه، يشاطرك الفكرة، ويقاسمك العبرة، ويناجيك سراً وجهرا، . . . حتى لكأنكما روح واحدة في بدنين، ولعمري، إن فراق الروح كان أسهل للسبط من فراق أول السبطين، . . . فهما ريحانتا رسول الله، قد سقاهما كوثر فاطمة بيد علي فأزهرتا وأينعتا، فأنى يكون المصير إن ذوت إحداهما والغصن واحد والقلب واحد؟!

إنه لولا رحمة الجبار بالعباد، ولولا أن تخلو الأرض من حجة، لقضى الحسين حزناً على أخيه قبل أن يبلغ أخوه دار المعاد!

[ثم ها هو الحسين يرى أخاه، وقد ازداد لونه اصفراراً، فيزداد قلبه انكساراً، . . . ها هو يستمع إليه، يطلب منه أن يخرج فراشه إلى صحن الدار!]

مولاي يا أبا محمد، لأي شيء طلبت إخراج فراشك من ظل الدار إلى خارجها؟!

أهي الجدران ضاقت بها روحك المرفرفة المتهيئة للرحيل، تريد أن تنطلق تواً إلى جوار الخالق الجليل؟!

أم هي أنفاسك الفياضة بالشوق والحنين، لم يعد يتسع لها المكان والزمان؟!

أم لعلها تلك الذكرى التي تلح على القلب فتضنيه، ذكرى لم ولن تشهدها يا أول السبطين، وأول السيدين، وأول الريحانتين، بل ستشهدها روحك بعدما تنتقل إلى عالم الملكوت؟!

لا بد أن العباس كان حاضراً في تلك اللحظات، ولعله راح يراقب كيف حمل سرير الحسن إلى خارج الدار، بل لعله أن يكون قد حمله بنفسه فهو ماكان ليترك خدمة أخيه لأحد غيره، حتى إذا وضعه وراح يردد بصره بينه وبين سيده الحسين، لعله فهم المراد بهذا الانتقال، لعل الحسن أراد أن يواسي أخاه الحسين، بأن لا يقضي نحبه في ظل من برد الدار ودعتها، بل أن يمسه حر الهاجرة وأن تلذعه الشمس بأشعتها، . . . وهو كإياه ظمئ لا يروي ظمأه شيء، فتلك حرارة السم لا يطفئها إلا برد المنية، وهومتفتت الكبد يلفظ أحشاءه وينزف دماءه، وهو في حرارة الشمس يريد أن يكتوي بكل ما يمكن أن يكتوي به، ليشارك أخاه كربلاءه!

[ثم إن الحسن عليه السلام استقبل القبلة، ورأسه في حجر أخيه الحسين]، . . . لعل العباس كان راكعاً عند قدميه، وأولاده وإخوته جميعهم منكبون عليه!

أما النساء، فأختاه زينب وأم كلثوم كانتا بجواره، تندبانه بصمت تارة، وبصوت تارة أخرى، وأم البنين بينهما، وسائر أولاده ونسائه يجلسون حوله في بكاء خافت وأنين، وهو يصعد بصره فيهم مرة بعد مرة، [ثم يقول:

ـ حفظكم الله، أستودعكم الله، . . . الله خليفتي عليكم، . . . وعليكم السلام يا ملائكة ربي ورحمة الله وبركاته.

. . . ثم إنه أغمض عينيه] عن أحب الخلق إليه، ليفتحهما على أحب الخلق إليه، [وانسلت الروح من ذلك الجثمان الطاهر]، لتسمو فوق سموها إلى أعماق ذاك النور الباهر، وانتقل الإمام من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وارتفع عندئذ بكاء الحسين، والعباس، ونحيب الرجال وعويل النساء، وعم المدينة ضجيج الأرض يقابله ضجيج السماء.

. . . اليوم استشهد رسول الله، . . . اليوم استشهد الحسن الزكي، تماماً كما استشهد جده، مسموماً مغصوباً عليه حقه، . . . لقد شاء المولى أن يرحل الحسن عليه السلام في الثامن والعشرين من صفر من سنة خمسين للهجرة، بعد تسع وثلاثين عاماً تماماً من رحيل جده، ليشهد الزمان أنه قد اختار له المصير الذي يشاطره فيه، والبلاء الذي يمتد من زمن الرسول إلى زمن ذريته وبنيه!

***

لم تنته باستشهاد الحسن عليه السلام فصول الحكاية، بل إن هذا الفصل بالذات لم ينته بعد، فما زال للبلاء بقية، ما زال للخيانة والجور وغصب الحق بقية، بل لعل الآتي هو الأعظم، ولعل كل ما مضى من أهوال ليس إلا مقدمة لما يتمخض عنه الدهر، مع موت هلال وبعث هلال.

[لقد غسّل الحسين عليه السلام أخاه بعد دموع عينيه بالماء الطهور الزلال، وهو الطهر المطهر على كل حال، يعينه على تغسيله أخوه العباس، وابن عمه عبد الله بن العباس، وصهره وابن عمه عبد الله بن جعفر، زوج الحوراء زينب.]

ولعل أمرا لفت انتباه القوم رغم ذهولهم لعمق مصابهم، أمر غريب غير مسبوق، [إن الحسين لما دعا العباس ليعينه على غسل أخيه، والإمام لا يتولى غسله بنفسه إلا إمام، فهو لم يقم بعضب عينيه، كما كان الحال مع البقية، وهي كانت عادة لازمة لكل من يساعد في تغسيل الإمام!]

ولعل الموضع لم يكن موضع سؤال وجواب، ولذا فإن استغراب القوم لم يله استفسار، ولعل الأمر اتضح لهم بلا سؤال، إذ تنبهوا إلى عظيم منزلة أبي الفضل، وسمو مقامه عند أخويه الحسنين، حتى خصه الحسين عليه السلام بهذه الفضيلة!

ولعل أم البنين إذ سمعت الرواية، وضعت يدها فوق قلبها لئلا يفر، ولعل الدمع انهمر من عينيها فوق ما كان ينهمر، . . . إنها شاكرة لله عظيم بلائه وعظيم نعمائه، وإن ولدها مهما بلغ من عظيم الشأن، سيبقى ظلاً لعظمة آل محمد، وسيعيش ما عاش ويفنى في سبيل بقاء دين محمد.

إيه يا أم البنين، حتى لكأنك على سريرة العباس الآن تطلعين، . . . لقد زاده إكرام سيده الحسين وتخصيصه له بهذه المنزلة تواضعاً وتذللاً، مصداقاً للدعاء: «اللهم لا تزدني عندك درجة إلا وضعتني عند نفسي مثلها!»

لقد كان له من حزنه ووجده على فراق مولاه الحسن، ماشغله ربما حتى عن التفكير فيما أراده الحسين بما فعله، وهو حتى لو فكر فيه، ما كان ليزيده إلا خجلاً من قدره أمامه، واستقلالاً لشأن نفسه وإن أولاه اهتمامه، تماماً كما كان شعوره منذ عشرة أعوام، يوم استبقاه والده في جملة أولاد الزهراء، وقلّده ذاك الوسام، وسام كفالة وديعته وبضعته زينب الحوراء.

. . . [وحُمل نعش الحسن على عواتق أحبته]، الحسين والعباس ومحمد وسائر إخوته، وكذا الإمام لا يواريه إلا إمام، ولذا فقد كان الحمل ثقيلاً على كواهل الأبطال، أثقل منه على كاهل الأيام، فهو ثقل الإمامة، وكان الحسين هو الذي يحمل، فبورك الحامل والمحمول، . . . ولكن، إلى أين؟!

[كانت وجهة آل المصطفى قبر الحبيب المصطفى، حيث أوصى الحسن بأن يدفن، ولكن، كان الظلم له بالمرصاد.

لم يكتفِ الدهر منه بعذاب واستشهاد، بل هو زاد، فها هم بنو أمية، أو من حضر منهم، يخرجون لاعتراض النعش المبارك، ويعترضون!

. . . وها هي أم المؤمنين عائشة، تخرج على رأس الجمع، تركب بغلة وتصيح:

ـ يا حسين، رد أخاك عن بيتي، لا أريد أن يدخل بيتي من لا أحب.

فانبرى عبد الله بن عباس يتدخل بقوله مستنكراً:

ـ واسوأتاه، يوم على بغل ويوم على جمل؟!... تريدين أن تطفئي نور الله، وتقاتلي أولياء الله، وتحولي بين رسول الله وحبيبه أن يدفن معه؟!

فرمت بنفسها عن البغلة وقالت:

ـ والله لا يدفن الحسن ها هنا أبداً أو تجزّ هذه...!

وأومأت بيدها إلى شعرها. وكأنما كانت تلك إشارة ببدء الهجوم، فبمجرد أن أومأت فوجئ بنو هاشم بالنبال تتساقط على الجثمان الشريف كالمطر.

... ذهل الهاشميون، وتبادلوا النظر إلى بعضهم بعضاً، وكأني بالعباس يلتفت حوله، وقد تأجج فؤاده ناراً فوق تأججه، فثارت ثائرته ولم يستطع أن يصمت، فمد يده إلى قائم سيفه يريد أن يستله، وهو ينادي بحرقة ولوعة:

ـ يا بني هاشم، أيرمى جثمان مولاي الحسن بالسهام وأنتم تنظرون؟!

... تجاوب الهاشميون مع وقع النداء، وكادت السيوف تخرج من أغمادها، ولكن الحسين، المفجوع باستشهاد أخيه، الملوّع بكل أصناف الهموم والغموم، ما بدا وما لم يبدُ منها بعد، ... أمسك بيد العباس يهدئه ويمنعه من استلال سيفه، ورفع صوته يخاطب إخوته وبني عمومته وأصحابه:

ـ الله الله يا بني هاشم في وصية أخي الحسن، لا تضيّعوها، ولا تهرقوا دماً، . . . والله أيها الظالمون، لولا عهد أخي الحسن إليّ بحقن الدماء وأن لا أهرق في أمره محجمة دمٍ لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها!

ثم إنه أقبل على العباس الذي وقف بجانبه يرتعد غيظاً]، لعل دموع القهر كانت تسح من عينيه النجلاوين، وزفرات الغيظ تلتهب بها شفتاه المرتجفتان، [فضمه الحسين إلى صدره بحنانه المعهود، يهدئه ويقول:

ـ أخي عباس، ليس هذا يومك يا أبا الفضل، لك يوم أعظم من هذا اليوم!

ثم إن الحسين عاد يلتفت إلى بني هاشم يأمرهم بالرجوع، والتوجه نحو البقيع.]

وفي البقيع، كانت مواعيد حزن وحق ضاع ولا يزال يضيع، . . . في البقيع، . . . [شُقّ للحسن لحد، بجوار جدته فاطمة بنت أسد]، وربما بجوار أمه الزهراء، التي لا يعرف موضع قبرها سوى الحسين، وربما من كان منه بمنزلة الكفين من اليدين. ترى، هل تبادل الحسين والعباس نظرة ملهوفة وكئيبة كالخريف إذا أقبل في أوان الربيع؟!

مولاي، حتى الحزن على سيدة النساء لا يمكن أن يذيع، حتى الدمعة التي ما زلت تذرفها في ليل الصحراء واشتداد الصقيع، قد منعتها يد الطغيان والظلم الفظيع!

ولكن، . . هو المثوى الساعة يضم الأحبة، وها هو بكر الزهراء ينساب

في عمق الأديم كعذب الكوثر المرصود في التربة، ليستقر بجوارها، بعدما طال به الشوق إلى حضنها وجوارها.

وحتى لو لم يكن قبر الزهراء قريباً إليه كل ذلك القرب، فهو كان بلا ريب في عمق أعماق ذلك القلب، . . . حيث لا دور للمسافات والأبعاد، فخفق القلب هو الصدى، ودماؤه هي المداد، وصمته بعد طول الخفق هو ضمة أبدية للصدى والمدى والمداد.

. . . [وأقبل الحسين ينتزع النبال من جثمان أخيه]، ويذرف فوق كل جرح دمعة ويرثيه، ويحصي الجراح والنبال، بقلبه ودمعه وعينيه، فإذا هي سبعون نبلة لا أقل!

لقد شاء الله يا مولاي أن تكتمل المواساة، فحتى النبال ووقعها، لم تُحرم منها يا سيد الأزكياء، وبذا تكون قد أصبت ما أردت، تكون أول شهيد لكربلاء، فهل سمع الكون بشهيد يُذبح بعد استشهاده؟! . . . وبعدما تسيل منه الروح تسيل الدماء، فيكون قد استشهد مرتين، وجمع في شهادته بين السم الزعاف وطعن الأسياف، ونزف مرتين، مرة من أعماقه، ومرة فوق نطاقه!

مولاي، لقد حال بينك وبين كربلاء الزمان والمكان، ولكن الجور والكفران قربا ما تباعد، فكان أول دم لرسول الله يسفك في بقيع كربلاء.

أما عدد طعناتك أيها السبط الشهيد، فسرٌّ مكنون، سبعون وما أدراك ما سبعون، تماماً كعدد الطعنات التي وُجهت إلى أخيك وشقيق روحك الحسين، في ذلك الزمان الخؤون، وتماماً كعدد أولئك الطيبين، الذين

اختارهم الله منذ عالم الذر ليكونوا أنصاراً للحسين، وشهداء مقتولون، من الطف ينتقلون، إلى الخلد أحياءً عند ربهم يرزقون.

مولاي، [هي سبعون طعنة]، من كل طعنة ذرفتَ قطرة من دمائك الطاهرة، وعلى كل جرح ذرف صنوك وحبيبك وشقيق فؤادك دمعة من دموعه الزاخرة، فأنبتت دماؤك ودموعه حزمة من الأنوار الباهرة ؛ . . . سبعين نوراً، . . . أنوارٍ لم ولا ولن تجود بمثلها الدنيا قط، وكيف تفعل، ومبعثها سبطي نبي الرحمة، وسيدي شباب أهل الجنة، من ليس لهما في الدنيا مثيل أو نظير؟!

***

الفصل السابع عشر:

على مشارف الرحيل

الزمان: من العام خمسين للهجرة إلى العام الواحد والستين للهجرة.

المكان: ما بين المدينة وخارجها وصولاً إلى كربلاء.

. . . بمشهد من البيت العتيق، . . . كانت مشاهد الظلم والطغيان بحق آل البيت تتوالى، . . .

بمشهد من البيت العتيق، كان كل قلب يخفق بحبهم يُصمت نبضه، نساءً ورجالاً، . . . شيوخاً وأطفالاً.

بمشهد من البيت والمقام، كان النور في ذلك المدى يتلألأ وترصده عيون الحاضرين، وتتوعده ظلمة تريد أن تكتنف الكون وأن تلف النور فتخنقه وترديه، ولكن، هيهات، ما كان لنور آل محمد أن تخمده كل ظلمات الدنيا وظلّامها، ولكن هي غمامات ربداء تحجب وجه الشمس هنيهات، ريثما تنقشع وتنزاح، فيشرق النور الوضّاح أحلى وأبهى ما يكون.

. . . بمشهد من البيت العتيق، كان الظلم يغرز أنيابه في أجسام الأبرياء، وتسيل الدماء، ويضحك القدر ضحكته الوحشية، إذ يحسب أنه سيطمس بالدماء وجه الحق، ليخط عليها فوق تلك الصفحة الحمراء ما شاء، . . . ولكن دماء الحق كانت هي الناطقة، . . . كانت أبداً نديّة، لا يصلح سطحها قرطاساً، بل هو يمتص كل ما خُط فوقه، ويبقى القرطاس

مداداً يخط الحق على مدى الأزمان، ويراعاً يتأوه فوق آفاق المكان، وبذا، تبقى دماء الحق قرطاساً ومداداً ويراعاً لا يعترف بزمان أو مكان.

. . . و[بمشهد من البيت العتيق أيضاً، وقف سبط الرسول، ثاني الريحانتين، الإمام الحسين عليه السلام، ليخطب في الناس من جديد.]

وقف ليفرغ عن لسان أبيه وأمه وأخيه، ولينطق بالحق رغم أنف الحاقدين والصامتين، والناطقين بالكذب والبهتان، ليقرع أبواب القلوب والضمائر، ويشرعها، فتدخلها أشعة الحق لتنير أركانها التي أظلمها الظلم والجهل والتجاهل، وتُخرج الأرواح التائهة من الظلمات إلى النور.

وقف الحسين عليه السلام خطيباً في الحجيج، ليرفع عن الأبصار ما غشّاها من ضباب، نفخه زبانية بني أمية ليطمسوا الحق ويلبسوا الباطل لبوسه، فكانت لهم الغلبة عليه حتى حين.

ولكن، آن الأوان لينطق ابن سيد البلغاء، ليتحدث بحديث السماء ويوضح الحق لمن ضل ويرشد من غوى.

[كان ذلك سنة سبع وخمسين للهجرة، بعد استشهاد أخيه الحسن عليه السلام بسبع سنين.]

سبع سنين من القهر والتنكيل بآل البيت وبكل من يلفظ حرفاً في معجم محبتهم، حتى كادت الورود الفاطمية تذوى، والينابيع العلوية تجف، وكاد بنيان المصطفى الذي أقامه المرتضى ينقضّ وينهدّ.

ولكن الحسين عليه السلام كان بالمرصاد، . . . كانت حكمة الولاية وصبرها قد أصمتتاه ريثما يؤون أوان الكلام، حتى إذا آن، [خرج للحج في زمرة

من أهل بيته وأصحابه وعلى رأسهم صهره عبد الله بن جعفر، وابن عم أبيه عبد الله بن عباس.]

كان العباس بلا ريب في صحبة الإمام، فهو إذذاك ابن إحدى وثلاثين سنة، قد وقف نفسه على خدمته ورعايته، لا يفارقه طرفة عين، ويتمسك به تمسك الفصيل بالناقة، أو المهر بالفرس الأصيلة.

كان الحسين للعباس أكثر من أخ، وأكثر من مربٍّ وأكثر من سيد، كان له الروح التي بين جنبيه، والنفس الذي يتراوح في صدره، والنبض الذي يتحرك في فؤاده، فيبث في عروقه كل دماء العشق والتفاني والولاء.

كان الحسين هو دنيا العباس وآخرته، . . . كان له كل شيء، الأم والأب والأخ والناس أجمعين، . . . ولذا فقد كان له ملازماً كظله، لا يفترق عنه إلا حيثما تدعو الضرورة القصوى.

[ومع الحسين أيضاً، كان جُلّ بني هاشم، نساء ورجالاً. أحراراً وموالي، وحتى شيعتهم، . . . حتى اجتمع إليه بمنى، أكثر من ألف رجل.]

ولعل أم البنين أيضاً كانت مع الصحبة، وزينب وأم كلثوم، ولا ريب أنهن كن بمسمع ومرأى من الحسين عليه السلام حين وقف خطيباً في الناس ووقف الناس يستمعون، وكأن على رؤوسهم الطير، وكيف لا يصمتون وقد اشتاقت الأفئدة لأنغام الحق بعدما طال وكثر نعيق الباطل ونعيبه.

[وكان من المستمعين أيضاً، جمع غفير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أمكن الوصول إليه من أبنائهم، . . . دعاهم الحسين عليه السلام لمرافقته من

المدينة مع من دعا من بني هاشم، ليكونوا حجة على الناس فوق ما يلقيه من حجة.

وهدأت الأنفاس وسكنت الأجراس، ونظرت العيون الدامعة إلى سبط رسول الله، يقف موقف جده يوم الغدير، وأمه يوم الظليمة، وأبيه في أيامه القديمة، وأخيه من بعده.

كانت العيون الدامعة تتطلع إلى شخصه، فترى فيه من قبله، وتتنفس أنسام التاريخ المضمخة بعطر أنفاسه وأنفاسهم الزاكية، . . . ينظرون إليه ملء العيون، ويستمعون ملء الأسماع وينصتون ملء القلوب، . . . فهو البقية الباقية من العترة الطاهرة، الذين قضوا نحبهم وبقي هو ينتظر وما بدلوا تبديلا، . . .

و[نطق وريث القرآن الناطق، فقال بعد الحمد والثناء:

- أما بعد، فإن هذا الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم، ورأيتم وشهدتم، وبلغكم، وإني أريد أن أسألكم عن أشياء، فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم، من أمنتم ووثقتم به، فادعوهم إلى ما تعلمون، فإني أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون!

ثم انطلق الإمام يذكّر بفضائل أبيه أمير المؤمنين، ويتلو من القرآن ما نزل فيه ويفسره، وينقل من الحديث ما قاله جده الرسول صلى الله عليه وآله، فيه وفي أبيه وأمه وأخيه وأهل بيته، . . . فلا يدع آية ولا حديثاً إلا فصلهما وأعلنهما على

رؤوس الملأ، . . . فرأب بذلك صدعاً كاد يؤول ببنيان الدين إلى الانهيار، جراء ما حفرته أزاميل ومعاول بني أمية في جدرانه وأسسه، فدعم الإمام بكلماته النورانية صرح الإيمان، ورفع قواعد البيت بعدما كادت تنهدم وتندرس معالمها عبر الزمان، كل ذلك وأصحاب الرسول يقولون ويرددون:

ـ أللهم نعم، قد سمعناه وشهدناه.

والتابعون بإحسان يقولون:

ـ أللهم قد حدَّثناه من نصدقه ونأتمنه.

ثم إن الإمام لما فرغ، وما كان ليفرغ، فحديثه ذاك كسائر أحاديث أهل البيت ينبوع لا ينضب، قال للجموع المحتشدة حوله خاتماً حديثه:

ـ أنشدكم الله إلا رجعتم وحدثتم به من تثقون به.

ثم إنه سكت فتفرق الناس، وهم يحملون في جعبتهم ما اكتمل به حجهم وتم به سعيهم، وخُتم به رجمهم لهوى النفس وشياطينها.]

لقد كانت تلك المواقف شاهدة على أن الحق أُذيع بعد طول سكوت، . . . وأنه قد آن للحق أن يذيع، ليُبعث من جديد فلا يموت.

ولعل العباس كان في ذلك اليوم، عدا وقوفه بين يدي سيده وأخيه، يرمق الناس بطرفه، وهو يحيط به من كل جانب، خوفاً عليه من أن يأتيه طارئ يؤذيه.

لعل العباس ودّ في تلك اللحظات التي كانت له دهراً، أن يكون هو

الدرع الذي يرتديه الحسين، فيلاصقه ويحميه، حتى من وقع العيون المنصبة عليه!

كان فؤاده الطافح بالحق يطفح ويزيد، وهو يستمع، وليس للاستماع يريد، ولكنه صوت الحسين يضم جوارحه فلا يفلتها، ويملأ وجوده فلا يكفيه، وينصبّ في كل ذرة من كيانه، فتنسكب بالذوبان فيه، فيكون أقل القليل، بل ردة الفعل الطبيعية لكل هذا، أن يقف موقفه ذاك، يمتد طولاً وعرضاً وفي كل الأبعاد، ليقيه شرالحاقدين والحساد، وشر كل من يريد به شراً بين العباد.

وتنظر أم البنين إلى شبلها، الذي غدا أسداً ينتصب على أجمة الآساد، وإلى أشبالها الآخرين المنتشرين حوله كاللآلئ حول جوهرة نادرة المثال.

وتهنأ إذ تنظر، ثم ترمق البعيد، بل القريب القريب، إنه ذاك الحبيب الذي ما برح يساكنها مذ فارقها، ويعايش روحها مذ أسلم الروح، ربما مثلما كان وأكثر، وتغمض عينيها على صورة تهدئ بالها وتسكّن بلبالها:

. . . إنه العباس يا مولاي، ها هو كما أردته، ها هو كما ربيته، . . . ها هو يرسم دربك كما ارتضيته، بل يحرص على أن يرفق وراءه إخوته ليكونوا له تتمة، وزيادة في العزم والهمة.

ها هو أبو الفضل يزرع الفضل حيث يحل، ويستمد الفضل من ذلك المحل، . . . ها هو السقاء، إنه يستقي من ينبوعك عبر ولدك الحبيب ويسقي كل من رام الشراب، أحلى وأعذب شراب يطيب.

. . . وتنثني أم البنين عائدة إلى المدينة في ركاب إمامها، وتكر الذكريات

في خيالها مع كر الخطوات، . . . هي تمضي، والحسين أمامها، والعباس وعبد الله وعثمان وجعفر من حوله يحيطون به إحاطة السوار بالزند.

هي تمضي مع زينب وأم كلثوم، ترعاهما أماً وأختاً، وربما كما تريد هي جارية لا أكثر.

ولكنها، رغم إرادتها، وبحسب ما اقتضى شأنها، صارت أكثر واكثر.

تمضي، وتمضي الذكريات، بعيدة وقريبة،

أما البعيدة، فأليمة وحبيبة، تعايشها ولا تفتأ تفعل.

وأما القريبة، فتلك رسائل شوق ووفاء، تبثها لبعلها وإمامها، وترصد مع كل رسالة نظرة الرضى في عينيه، وبسمة التهنئة على شفتيه، وهمسة البركة في صوته الذي ما برح يملأ أسماعها منذ سبعة عشر عاماً، منذ رحل، وترك بين يديها أمانته الغالية، فلم يرحل!

. . . ها هو العباس يتحفها بفنون البر والتقوى، فتهنأ وتستقر، ويقدم لها عقب زواجه الميمون، الغلام تلو الغلام، ثماراً مباركة من شجرة مباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

أجل، أوليس العباس فرعاً لشجرة علي، فرعاً ندياً مزهراً مورقاً، محملاً بأطيب الجنى وأشهاه؟!

ولئن كان علي هو نفس محمد، فشجرتهما كذلك واحدة، ولكن، يبقى فرع العباس ظلاً لدوحة أخويه الحسنين، لا يسمو إلا بعزهما، ولا يتطاول إلا بمجدهما، . . . إن هو إلا عنصر من عناصر الحياة التي تستمد رحيقها منهما، وإذا فروع الشجرة العلوية كلها تدين بالحياة والنماء لذينك الفرعين

السامقين، حتى لكأن الفرعان جذور تستقي الخير وتسقيه، وهما في الوقت عينه يرقيان نحو العلى، نحو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويبقى العباس وإخوته فروعاً تتماهى بهما، وترصد سموهما وعلاءهما، فتنشدّ نحو ذاك العلاء، وتستمد العزم والحياة، وتمِدهما، إذ تتسلل عبرهم شرايين الشجرة المباركة بالري والنبات، فيكونون لهم فداءً ووقاءً في الحياة وعند الممات.

***

ويجد الركب في المسير، وتمضي ساعات الرحلة بطيئة يستوقفها عناء السفر، وسريعة يستحثها الشوق.

وإن أم البنين إذ تنظر إلى الحسين تنسى الكون وما فيه ولا تتذكر إلاه، . . . ثم تنظر إلى العباس فتتذكر، وتتساءل، أيشتاق ولدها لأهله، لأطفاله المنتظرين رجوعه هناك، بين ربوع المدينة المباركة؟! . . . ثم تطأطئ رأسها يتنازعها أمران، هي لا ترى في وجهه الشوق إلى الأحبة، إلا بقدر ما هو شوق لهذا الحبيب، ولئن كان هذا الشوق القريب يطغى على كل ما سواه، فلأن عشق الحسين لم يدع في كيانه مكاناً لأي عشق إلاه، ويبقى حبه لأهل بيته وأولاده ظلاً لذلك الحب الأكبر، فهو لهم مشتاق بقدر ما يحملون من حب لمولاه، . . . ويبلغ ذروة التعلق بهم إن هم كانوا على ذلك الدرب لا يحيدون ولا يطمحون لغير ذراه.

. . . ولعل أم البنين تتبسم بسمة خفية، وهي تنظر إلى ولدها من جديد بنظرة حفية، فعلام تتساءل عن سبب تلك العلاقة العلوية بين العباس والحسين، وهي في كل لحظة تستشعر في أعماقها جذورها وثمارها

سوية، . . . إنه العباس، من ربته ورباه سيد الناس، ليمضي على هذا الخط ويحمل هذا النبراس، وهل لها أن تتساءل عن سرٍّ هي صاغت حروفه منذ الأساس، فقالتها، ولقّنتها لشبلها ملء الروح والإحساس، حتى كان لسرها حافظاً وبكلماتها، بوصايا والده وعلمه وتقاه، يجسد العباس!

لقد ولد له الحسن والقاسم وعبيد الله، إنهم أشبالها الجدد، الذين ينتظرون يدها الحانية لترعاهم كما رعت أباهم، وتربيهم كما ربته، وإنها لتستفقد وجودها بينهم الساعة، وتستشعر الشوق إليهم، لا لنقص في شوقها نحو عمهم الحسين، الذي هو محور الشوق وماهيته، ولكن، لأن كل شوق لمن يتهيأ لنصرة الحسين هو شوق له، وبذا يكون الشوق منه وإليه، ولا يخرج عنه إلا لينصبّ عليه!

***

ثلاثة أعوام لا أكثر، مضت كما مضت سابقاتها من السنين على الأثر.

ثلاثة أعوام، . . . والحق والباطل يتصارعان أكثر فأكثر في قلوب البشر، بعدما أوقد الحسين جذوة الحق من جديد، ونفخ فيها روح الولاية لتنبعث ريانة تضج بالحياة.

. . . وفي أواسط عام ستين للهجرة، حدث المحذور.

لم يكن أمراً يكرهه أصحاب الحق، ولا يسوؤهم حدوثه، فوفاة طاغية كمعاوية كان جديراً بأن يفرح قلوب اهل البيت، بعد ما اقترفته يداه من جرائم بحق آل محمد.

ولكن ما جرى عقيب ذلك كان هو الأصعب، [فمعاوية لم يغادر الدنيا

إلا بعدما أوثق لولده الماجن العربيد، عرى ملك أراده متوارثاً باسم الدين بعنوان الخلافة، فإذا هو تسلط على رقاب المسلمين، أوكما قال معاوية لأهل الكوفة بعد صلحه مع الإمام الحسن منذ سنين:

- إني ما قاتلتكم لتصلوا وتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون، ألا وإني كنت منّيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها].

... أجل، ولعل التاريخ شهد ملوكاً كثيرين، أفسدوا في الأرض بدل إصلاحها، وتأمروا على العباد، وأكثروا فيها الفساد، ولكن، ... أن يكون هناك من له مثل وقاحة معاوية، إذ يرفع عقيرته في دار العرب، الذين يتغنون بالوفاء بالعهود، فيجاهر بخيانته لعهده، قبل أن يجف مداد العهد، فذاك كان مستنكراً أشد الاستنكار، أن يعمد الطاغية، لا إلى اضطهاد أنصار حليفه فحسب، ولا إلى التنكيل بهم، بل إلى قتله خفية في النهاية، وفي ظنه أنه قد أزاح من أمامه عقبة كأداء، وما أزاح إلا الستار عن أطماعه وجشعه اللامحدود، الذي بلغ به حداً طمع معه أن يجعل الخلافة ملكاً متوارثاً، لا بل أن يورثه لأسوأ مخلوق وضعته أنثى على وجه الارض، قد خبث أصله وفصله، وقوله وفعله، وبلغ أسفل دركات الرذائل، فكان من العجيب حقاً أن يتجرأ معاوية على إلصاق صفة الخلافة بمثل ذلك الإنسان!

ولعل العجب يزول، إذ نذكر أن الناس الذين امتطى ظهورهم معاوية، وركب أعناقهم وداس رقابهم، حتى وصل إلى ما وصل إليه، هم عينهم الناس الذين كانوا يوافقونه على كل منكر من القول، ويتسترون على

خبائث أفعاله، بل ويخترعون له الفضائل والمحاسن، حاسبين بذلك أنهم يغسلون رذائله ويمسحون وحول رجسه المتراكمة، وهم في الحقيقة يزيدون الوحول نتانة، إذ يطلونها بالرياء والكذب والنفاق، ما شاء لهم أن يفعلوا.

وإن امرءاً كمعاوية، لم يخش من المجاهرة بكفره وارتداده عن الدين في أكثر من موضع، لا يُستغرب منه أن ينصب الشيطان ملكاً، على من كانوا في الأصل أعداء الشيطان وأنصار الرحمن، حتى غدوا لشياطينهم عبيداً، فحق عليهم العذاب فهم لا يُنصرون.

. . . لقد كان حرياً بمن جعل نفسه بعيراً ينيخ على أبواب الظالمين الجبابرة، ويمرغ أنفه في تراب أقدامهم النتنة، أن يهيء نفسه للأسوأ، وأن لا يمرغ أنفه ساعتئذٍ فقط، بل أن يغمس ذاته، من الإهاب حتى عمق الأعماق، بذلك الرجس الذي يفوح وينتشر في ذلك الخضم الرهيب.

كان تنصيب يزيد خلفاً لمعاوية، عاقبة سوء لعمل سوء، . . . بل لكل ما اقترفه المسلمون حتى ذلك الحين من سوء بحق أوليائهم، . . . ولكن الكيل كان قد طفح وزاد، حينما [راح عمال معاوية في البلاد يأخذون البيعة ليزيد، بكل صلف وقحة وعناد، لا يحسبون للإسلام والمسلمين أي حساب. مع علمهم بمجاهرة ذاك العاهر بالفسق والفجور والإلحاد، ولكنهم برغم ذلك نصبوه أميراً للمؤمنين على رؤوس الأشهاد، وما المؤمنون الذين بايعوه إلا المؤمنين بغيه وكفره، لا المؤمنين بإله العباد.

. . . ولا بد أن أم البنين كانت شاهدة على ذلك اليوم الذي دعا فيه الوليد

بن عتبة، والي المدينة من قبل معاوية، دعا الإمام الحسين عليه السلام إليه، . . .

لا بد أن أم البنين شهدت الحسين عليه السلام، وهو يدعو أخاه العباس، وسائر إخوته، حتى بلغ من دعاهم من بني هاشم ومواليهم ثلاثين رجلا، وأمرهم بحمل السلاح، واصطحبهم معه إلى بيت الوليد.]

وكأني بأم البنين وقد وقفت تشيعهم بنظرة دامعة وقلب واله، وهي تستشعر بداية العاصفة في الأفق، بل بداية الإعصار الذي لا يبقي ولا يذر.

لقد وقفت تراقب سيد بني هاشم، وهو يتقدمهم، يحيط به ولده العباس وسائر أولادها، وسائر من معه، يسيرون في موكب مهيب، قد لطالما وقف له أهل المدينة وترقبوه، فهو يذكرهم بموكب رسول الله إذ كان يخرج لأمر جلل.

. . . ولعل أم البنين لم تغادر باب دارها عند تلك العشية، بل راحت تدخل وتخرج وهي تنتظر، فتستغفر وتحوقل وتستجيروتستغيث بالمولى القدير، وتذكر الله الذكر الكثير، تخاطب أمير المؤمنين تارة، وسيدة نساء العالمين أخرى، تستشفع إلى الله بهما لقضاء حاجتها، بحفظ ولدها وحبيبها ومولاها وابن مولاها ومولاتها، الحسين عليه السلام.

ولعل مكوثها بباب الدار لم يطل، حتى أطل الموكب المهيب من جديد، فانسابت عبراتها وتوالت زفراتها، بين همسات الذكر ونظرات الشكر، وهي تخر ساجدة على عتبة دارها، أن الحمد لله فقد عاد الحبيب سالماً من ذلك الجحر، لم يستطع الطغاة أن يمسوه بسوء.

لعل أم البنين لم تنتظر إلا ريثما علمت دخول الحسين داره، وربما

توقعت عودة الهاشميين إلى دورهم أيضاً. هي لم تتأخر حتى أتت دار العباس تسأل عنه زوجته وأولاده، ولكنها لم تجده في الدار، فهو لم يغادر بعد أخاه ومولاه، . . . إذاً، لا بد أن في الأمر سراً لاصبر لها على معرفته.

وكأني بأم البنين عادت تقصد دار الحسين.

كأني بها وقد استأذنت عليه، وإذا بزينب وأم كلثوم قد سبقتاها إليه، وإذا العباس كعادته جالس بين يديه.

وكأني بالعباس لما رآها وقف لها، وسعى نحوها يقبل يديها، وقد بدت على محياه البهي أمارات القلق، وأطل من نظرته الثاقبة حزن ووجوم.

وإذا بأم البنين تقبل على بكرها، سائلة بكل همها وانشغال فكرها عما هناك، وإذا بالعباس يجيب بعد استئذانه الحسين عليه السلام:

ـ [لقد دعا الوليد بن عتبة مولاي الحسين، ليرغمه على البيعة ليزيد.]

ازدادت لهفة أم البنين، وراحت نظرتها الدامعة تتصفح وجهي زينب وأم كلثوم، اللذين ألبسهما الخوف على أخيهما لباس التجهم والعبوس.

واستقرت نظرتها على وجه مولاها الحسين، فوجدته هادئاً مستقراً مشرقاً كما هو عهده، ولكن، لعل ألق الدموع كان يغشى عينيه بين الفينة والفينة.

أهي حسرته على ما آل إليه أمر المسلمين، وما وصلوا إليه من درك لم يدركه أحد من السابقين على سوء ما أدركوه؟!

أم هو أمر يراه ولا يرونه، ويعلمه ولا يعلمونه، ويستشرفه في المستقبل الآتي من حيث لا يستشرفونه.

إن ما جرى حتى الساعة على أهل البيت، رغم شدته وفظاعته، لن يكون شيئاً أمام ما سيجري بعد حين.

أجل، وتتذكر أم البنين وعود أمير المؤمنين، أخباره وأسراره وما أعلمها به، ما أعلم به زينباً وأم كلثوم والعباس، ولا بد أن ما أعلم به الحسين كان هو الأساس، والأوفى والأعظم في المكيال والمقياس.

هي تعلم [أن الحسين لا يبايع ليزيد، فهو لم يبايع حتى لمعاوية، رغم أن الحسن بايع لحقن دماء المسلمين، وحفظ ولاية أمير المؤمنين ومواليه. . . . كانت بيعة الحسن ضرورة، أما الحسين، فقد خاطب الحسن معاوية في شأنه يومها بقوله محذراً من إكراهه على البيعة:

ـ يا معاوية لا تكرهه، فإنه لا يبايع أبداً أو يقتل، ولن يقتل حتى يقتل أهل بيته، ولن يقتل أهل بيته حتى يقتل أهل الشام.]

وأكد علمها قول العباس يتابع ناقلاً [ما جرى في مجلس الوليد، إذ أجابه الحسين على طلبه بقوله:

ـ أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله!]

. . . ولعل العباس عاد إلى الحسين مختنقاً بحسرته، سائلاً إياه عما ينوي أن يصنع، ولعل الحسين أشار إليه بالعودة إلى داره، على أن يراه في الصباح، فيقضي الله ما هو قاضٍ وهو خير الحاكمين.

وكأني بأم البنين لما انفلتت تريد المغادرة التفتت حولها، . . . كان شيء

ما في الدار يخاطبها بهمسة وداع، وأنين والتياع، . . . وانقبض فؤادها فوق انقباضه، وانكفأت نحو زينب وأم كلثوم تقبلهما ولا تتمالك الدموع.

لعل زينب نظرت إليها ولم تعلق، فقد كانتا تتفاهمان بمجرد النظر، وأما أم كلثوم فقد أقبلت عليها تسألها عما يبكيها، . . . وكأني بأم البنين رفعت إلى وجهيهما الحبيبين تنهيدة طويلة، وهمست:

ـ إيه يا بنات الزهراء، من لي بأمكن الآن تشهد ما يكون، من لي بقلبها الذي يفطره الأسى لما يجري عليكن، من لي بدموعها الجارية، . . . ويحي، فإني مهما أجريت من دموع، لن أذرف معشار ما كانت لتذرف، ومهما اعتصرني الأسى فلن يداخلني منه معشار ما اخترق ذاك الجسم الناحل المعتصر بين الحائط والباب، . . . يكفيني تصدعاً وانكساراً أن ضلوعي لا زالت سالمة تنحني فداء لضلعها المكسور، . . . إيه يا مولاتي يا زهراء.

لعل نجواها نكأت جراحاً لم تندمل، وقرحت عيوناً لم يجف الدمع فيها بعد، فهاجت الأحزان وانطلقت الأصوات الفاطمية بالنحيب والبكاء.

وكأني بالحسين عليه السلام، وبعدما هاجه نداؤها وأبكاه بوحها، أوعز إلى أخيه العباس أن يسكتهن، بكلمة هو قائلها في كل حين: «لعمري ليكثر بكاؤهن!»

ولعل الدار لما آوت أم البنين ليلتئذ ٍ بعدما أوى ولدها إلى داره وعياله، لقد ضاقت الدار بها، أوجع الفراش أطرافها، الموجعة من ألم الفراق القريب، . . . لعلها تقلبت طويلاً قبل أن تقوم لنافلتها، فتلجأ إلى

نجوى ربها كعادتها، وتأتم في كل ليلة بسيدتها، تراقب نورها المشرق من جهة البقيع، ترصد بسناها المتوهج فيض أشعتها، فيدخل كل شعاع علوي داراً من دور أحبتها، فيضم أشواقهم ويهدهد أعماقهم، ويرسم لهم الدرب المستقيم الذي ما برحوا عليه لا يتنكبونه، إلى معرفتها ومحبتها.

ولعل الأشعة كانت تلك الليلة بازدياد، فالحسين الذي اختلى في منزله، ما برح حتى خرج خفية إلى قبر جده، ثم إلى قبر أمه وأخيه، . . . وهناك فاضت الأشواق، وغصت بالدمع الأحداق، . . . وانطلق الحنين الحسيني الفاطمي يجتاح عمق الأعماق، منذراً بقرب الالتحاق، فتزايد النور، سطع في الكون حتى بدد الديجور، وإذا العيون المتطلعة إلى ذلك المدى تراه، وتأنس بسناه.

***

كانت ليلة لا كالليالي، وكان يوماً لا كالأيام.

أما السهاد فأتى على راحة البال حتى تساوى معه الليل والنهار، ولم تذق أم البنين طعم الرقاد.

طال بها الليل حتى ضاق بها الانتظار للحظة الشروق، وقصُرت بها ساعاته خشية مما سيأتي بعده، . . . فالسماء مكفهرة، وأنياب الأفاعي الرقطاء مكشرة، ونيران الحقد الكامن في قلوب الكفرة مستعرة، . . . هي النار طال ضرامها تحت رماد السنين، وأتت الآن ريح غضوب لتكشف عن ألسنتها المستترة، ولتزيدها اضطراماً واستعاراً.

وأطل الصبح أربد خانقاً، . . . لاحت الشمس بأشعتها الخانقة من خلف

تلك الحجب المحيطة، . . . لم تكن غيوماً تلك الغلالات التي ملأت أجواز الفضاء، فهي لم تكن تأخذ شكلاً محدداً، . . . لعلها كانت أنفاس الحزن التي أطلقتها تلك الأفئدة التي عايشت الليل تترقب وفود الصباح، عساه يأتيها بنور جديد، وإذا به لا يحمل إلا تلك الأشعة الضئيلة المنبثقة من بعيد، تجاهد أن تخترق تلك السجوف المكتنزة المتراصة، فتنجح بعد جهد جهيد.

[لم يكن قد مضى من النهار إلا بعضه، حينما تناقل بنو هاشم وآل البيت الخبر العتيد ؛ إن الحسين يعتزم أن يمضي بأهل بيته وصحبه صوب مكة، ومن بعدها ربما صوب الكوفة!

تسابق الظامئون لينهلوا من ذلك المورد العذب قبل الرحيل، . . . وتسابق الناصحون ليسألوا سبط الرسول أن يعدل عن الرحيل، وكان في المقبلين اللاهفين، بل على رأسهم، أم المؤمنين أم سلمة!

لقد أقبلت دامعة العين نحو الحسين، تناشده البقاء]، وتستذكر صورة ذاك الوداع الأخير، وداع أمير المؤمنين قبل سنين، حينما خرج من المدينةنحو البصرة لحرب الناكثين في وقعة الجمل، فوقفت تشيعه، وتؤكد العهد له بالبقاء على العهد، وقد كان ذاك الخروج الأخير!

وها هي اليوم تشيع ولده، [وتهتف والهة الفؤاد:

ـ يا بني، لا تحزني بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدك يقول: «يقتل ولدي الحسين بأرض العراق، في أرض يقال لها كربلاء».]

نظر الحسين إليها بهدوئه المعهود، بسموه اللامحدود، بحنوه الذي لا

يضاهيه حنو في الوجود، [ورد يقول:

ـ يا أماه، أنا والله أعلم ذلك، وإني مقتول لا محالة، وليس لي من هذا بد، وإني والله أعرف اليوم الذي أقتل فيه وأعرف من يقتلني، وأعرف البقعة التي أدفن فيها!]

لعل الحسين التفت حوله إذذاك، إذ [ارتفع البكاء حوله من كل من كان حوله]، . . . لعله رمق أهل بيته وإخوته بنظرة عميقة تخترق الأعماق، [وتابع بقوله:

ـ . . . وإني أعرف من يقتل من أهل بيتي وقرابتي وشيعتي.]

. . . ترى، هل رمق الحسين إذذاك أخاه العباس؟! . . . هل استطاع أن يصعد بصره في محياه المتألق جمالاً وسناءً، وفي قامته المديدة الممشوقة كما لواء الحمد في وجه الطغيان، وكما ذو الفقار في يد علي في سالف الأيام؟!

هل عرج ببصره على بقية إخوته، أبناء أمير المؤمنين وسيد الوصيين؟!

هل راح يستعرض أبناء إخوته، أبناء حبيبه وصنوه المجتبى، فدمعت عينه لذكراه؟!

هل توقف طويلاً أو قليلاً عند ولده علي الأكبر، ليملأعينه وقلبه من صورة جده المنطبعة على محياه؟!

ثم، هل عاد ببصره من حيث انطلق، ليضم بشعاع عطفه وحنانه كل تلك النجوم الزاهرة التي تلتف حوله تعانق وجوده الملكوتي بوجودها

المتسامي، كما يعانق نسيم الفجر شعاع الشمس الباهر، فيستمد النور والدفء من ذراته؟!...

وهل التف شعاعه حول طيف ذلك القمر الذي ظل يشرق بدراً رغم سطوع شمسه، وراح يستمد نوره من وهج سنائه، فاجتمع في تلك اللحظة ألق الليل وضياء النهار، والنجوم والبدر والشمس، وندى الفجر ونسيم السحر وأريج الأزهار وزقزقة الأطيار؟!

وهل زاد بكاء أم المؤمنين كما زاد بكاء الهاشميات والهاشميين من المحدقين بذلك الموقف المشهود؟!

[ثم إن الحسين أطرق بعد ذلك طويلاً وتنهد طويلاً قبل أن يعود إلى أم سلمة فيقول:

ـ إن أردت يا أماه، أريك حفرتي ومضجعي!]

ترى، هل كانت أم البنين شاهدة على ذلك المشهد؟!... [لقد مد الحسين يده المباركة، وأشار بها إلى جهة كربلاء، فتوقفت أم سلمة عن البكاء، جمدت الدمعة في عينها والصرخة في حلقها، وبدا على وجهها المتألق بسيماء الأولياء نور عجيب، كانت تنظر إلى حيث أشار الحسين، وترى من حيث لا يرَون، أموراً لا تصدقها العين!]

ما كادت أم سلمة تفرغ من رؤياها، حتى تغيرت ملامحها، وتفجرت دموعها من جديد أغزر من ذي قبل، ربما حسب الناظر إليها انها تكاد تقضي نحبها لشدة البكاء!

ترى، هل ودت أم البنين لو ترى ما رأته أم سلمة، وقد حدثها حال

المرأة الحنون بفظاعة ما رأت؟! . . . أغلب الظن أنها حمدت الله وشكرت للحسين أنه لم يكشف لها عما كشفه لأم المؤمنين، لأنها ما كانت لتتحمل كل هذا، إنها كانت لتسلم الروح لحظة يقع نظرها حقاً على ولدها وحبيبها وابن حبيبيها الحسين، يُفعل به ما يُفعل.

إن الحسين لها الآن هو الزهراء والمرتضى والمجتبى جميعاً مجتمعين في آن، وإن كل ما حملته طوال حياتها من عشق وتعلق وولع بآل البيت قد تكاثف وتجمع وتآزر في شخص الحسين، فهو اليوم لها كل ما يعنيها في هذا الوجود، لا تبالي في سبيله أن تقدم له أقصى غاية الجود!

وإنها، إذ تعيد النظر حولها وترى العباس يدور في فلك الحسين، كما القمر حول الكوكب الدري، إنها لتدعو العباس إليها، . . . وينطلق لسانها يذرف الكلمات غزيرة مع الدموع، أن تقدم يا عباس، أقبل نحو مولاك والتصق به التصاق القشرة بالجذع، والدرع بالفارس، لا تفارقه طرفة عين حتى تفارق روحك جسدك، فهو البقية الباقية من عترة المصطفى، هو نور محمد وضلع فاطمة وهامة علي وكبد الحسن، هو جنة آدم وفلك نوح وكعبة إبراهيم ومعراج عيسى وقرآن محمد، . . . هو الحسين، هو الحسين!

. . . وكأني بالعباس إذ يستمع لحديث أمه ونجواها، ينكب على يديها يقبلهما، وقد امتزجت في فؤاده العابق باليقين روح اليقين، ويختلط الحزن بالتصميم، والدمع بالعزم العظيم، أن لا تخشي شيئاً يا أم البنين، لا توصي العباس يا أم العباس، وهل يوصى الأسد بعرينه؟! . . . وهل يُذكّر النبات بجذوره وفيئه وغصونه؟! . . . هل يستطيع الجدول الرقراق إلا الجريان،

وهو لو توقف لما كان؟!... هل يعيش الجسد بغير روح، وهل يستطيع إلا الذود عنها حتى يروح؟!... إن الحسين يا أماه هو الروح، بل إن الروح عنده هي بمثابة العبد النصوح، تتهاوى عند أعتاب رضاه وتتسامى نحوه صرحاً يسمو فوق كل الصروح، هي فداء له، وهو لها فلك نوح!

***

تزايد الهم بأم البنين حتى بلغ ذروته، وهي ترى أحبتها يعدون العدة للرحيل.

كانت تدور بينهم كالتائهة، تارة تقصد إلى بيوت العلويات، فإذا هن يتهيأن لمرافقة رجالهن بأمر من الإمام.

وطوراً تحج إلى بيت الحسين عليه السلام، تواكب النساء والأطفال في ما هم فيه من استعداد وإعداد، وهمٍّ وغمٍّ وسهاد، تمسح دمع هذه وتربت على وجنة تلك، وتغمغم بالعزاء بين الحين والحين إذا بلغها صوت نشيج أو أنين، وهي الأحوج بين الحاضرات إلى ذلك العزاء الحزين.

ولكن أم البنين كانت هي عمادهن، يستندن إليها في الملمات، لا ترى لنفسها حقاً في التعزي، بل هي صاحبة الواجب العريض في نصرة سيدها ومولاها الحسين.

وهي كذلك لا تني تتردد على حبيبتها زينب، وحبيبتها أم كلثوم، تشد أزرهن وتتذاكر معهن ما فات وما هو آت.

حانت ساعات وداع، ... كن جميعاً يعلمن ذلك، فينطقن به تارة ويصمتن عنه أخرى، ويتزودن بالعزم والحزم، والصبر والذكر، يشد

بعضهن أزر بعض، فيبكين ما شاء لهن البكاء، ويصمتن إذا أقبل الأحبة والأبناء، لئلا يزدن الهم هماً والبلاء بلاء.

[إن زينب راحلة مع الحسين، وكذا أم كلثوم.]

وإن أم البنين لتذكر الساعة، [ما اشترطته العقيلة على ابن عمها عبد الله بن جعفر في عقد قرانهما، أن لا يمنعها من مرافقة أخيها الحسين ما أرادت لذلك سبيلاً.]

وكيف يمنعها عبد الله، وهو نعم الزوج والأليف، ونعم الأب لأولادها، ونعم الصهر لإخوتها، لقد كان ولايزال لأخويها الحسنين أخاً ودوداً شفوقاً، وقد لطالما عدّه والدها أمير المؤمنين له ولداً، فقد احتل عنده المقام الرفيع، حتى زوجه ابنته العقيلة الحوراء، فكان لها نعم البعل، وهي ابنة سيدة النساء.

ولعل عبد الله كان يعتزم أن يرافق الحسين أيضاً، وذاك أمر لا يستغرب منه، فقد سبق وترك ماله وأرضه من قبل، ووصل جناح عمه أمير المؤمنين في الكوفة، وعاش في ظله الظليل سنوات هناك، إذاً فلا غرابة أن يلتحق بإمامه من جديد، لولا أن الإمام قد يكون رأى مصلحة له في أن لا يفعل. وأما أم كلثوم، فقد كانت تعد العدة أيضاً لمرافقة الحسين، وكذا زوجها مسلم بن عقيل، الذي لم يكن يقل عن عبد الله بن جعفر ولاءً وتعظيماً لحق الحسين.

وكذا [خرج في ركاب الحسين جل بني هاشم، نساءً ورجالاً وأطفالاً، خلا القلة القليلة منهم، ممن أوعز إليهم الحسين عليه السلام لهم بالبقاء، ومن أولئك القلة، كان محمد بن الحنفية، وكذلك أم البنين.

وكأني بأم البنين قد شهدت ذاك [الحوار المؤثر بين الحسين وأخيه محمد، إذ أتاه ينصحه ويلح عليه بعدم الرحيل، ثم يقطع كلامه ويبكي، فيبكي الحسين لبكائه، ثم يقول له كالمواسي:

ـ يا أخي، جزاك الله خيراً، فقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا عازم على الخروج إلى مكة، وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي، وأمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً لا تخفي عني شيئاً من أمورهم.

ثم أن الحسين دعا بدواة وبياض، وكتب لمحمد وصيته، ثم مهرها بخاتمه ودفعها إليه.]

. . . أجل، فإن أم البنين لم تخرج، ولم تتهيأ للرحيل! . . .

لقد كانت تواكب كل الخارجين، وتتمسح بأذيال الراحلين، وتلثم وجنات الأطفال، وتضم زينباً تارة وأم كلثوم أخرى، . . . ولكنها لم تخرج، إذ لم يأمرها الحسين بالخروج!

وكأني بها دعت إليها أولادها عند تلك العشية، هي دعوة لم يسبق لها أن دعتهم لمثلها، ولذا فقد كان لها عندهم وقع عظيم، ولعل العباس، الذي لم يكن يفارق الحسين عليه السلام في تلك الساعات إلا قليلاً، اغتنم جزءاً من هذا القليل ليلبي دعوة أمه.

وكأني بهم قد وصلوا إليها والليل قد أرخى سدوله إلا من لهيب مصباحها، والصمت قد أسدل ستاره إلا من بكاء الهاشميات خارجاً، وأنين فاطمة الكلابية في الداخل.

ولعلها إذ لاحظت دخولهم سكنت، وتحولت نحوهم ثابتة الطرف راسخة الخطى، ورفعت نبرة لم تُشْجِها المعاناة ولم تضعفها خفقات القلب الحزين، بل ارتفعت هادئة وادعة شامخة كما عهدوها، وهتفت تقول:

ـ إيه يا أبناء أمير المؤمنين، إيه يا أبناء خادمة الزهراء أم البنين، ما تعتزمون؟!

نظر بعضهم إلى بعض، وأجاب العباس باسمهم يقول:

ـ أماه، وما تظنين؟! . . . وهل أنت في أمرنا تشكين؟! أولست أنت من علمتنا كيف يكون الولاء للحسين؟!

. . . لعل أم البنين طأطأت رأسها إذذاك، لم يفاجئها كلامه، ولم يحزنها، بل لعل كلماته القوية أثلجت فؤادها، فلاحت على شفتيها بسمة وردّت:

ـ بوركت يا ولدي، بوركتم يا أشبال أمير المؤمنين، بوركتم يا أنصار الحسين، أفلا تعاهدونني الساعة؟! أفلا تجددون لي ميثاق الشفاعة؟!

وكأني بها تطوف في وجوههم تتصفحها، وتناديهم واحداً واحداً، وتزيد:

ـ أي عبد الله، أي عثمان، أي جعفر، هل أنتم على العهد باقون؟!

وكأني بالثلاثة يكبون على يديها يقبلونهما ويبكون، ويقسمون أنهم لا يخالفون العهد ما بقي فيهم نفس وروح.

وكأني بها تعانقهم جميعاً، تضمهم جميعاً، ولا تسمح لدمعها بالنزول،

مخافة أن يرَوها فيضعفون، وإن كانت تعلم أنهم لا يضعفهم شيء عن نصرة مولاهم وحبيبهم وأخيهم وسيدهم الحسين.

ثم لعلها صرفتهم إلى شأنهم رابطة الجأش، واستبقت العباس، الذي ما برح واقفاً منذ بدأت خطابها لإخوته، ينظر إليها وإليهم، ويزفر بين الحين والحين، يزدرد غصة ودمعة، وينتظر ما يكون.

. . . علم العباس أن أمه استبقته لأمر عظيم، فاستمر واقفاً إزاءها بخشوع ووجوم ينتظر ما تروم.

ولعلها إذ رأته كذلك طارت نفسها شعاعاً إليه، كما طار نحوها، فانكب على قدميها يقبلهما ويبكي، وأكبت عليه، . . .

تساقطت على الأرض ترفعه وتضمه، وتمسك بيديه، . . . ترى، هل استطاعت أم البنين أن لا تبكي عند تلك اللحظة، وهي تعلم أنها لو بكت، فلن تضعف عزم هذا الأسد الهصور، بل لعلها تزيده قوة وعنفوانا؟!

. . . لعلها كانت لتصمت عن البكاء لو لم تمسك بتينك اليدين، فإن لهما معها حديث ودَين، دَين آن أوان وفائه!

وكأني بأم البنين قد أهوت على يدي العباس تقبلهما وتبكي، أسوة بأمير المؤمنين.

وكأني بالعباس قد أجفل، . . . حاول أن يذبها عن تقبيل يديه، وكيف يسمح لها أن تفعل، وهو الولد البار التقي، الورع الحنون الزكي الرضي؟!

. . . لعل دمعها غسّل يديه، قبل أن يغسّلهما فيض من نوع آخر، ولعله

إذذاك مسح دمعها، وسأل متهدج النبرات:

ـ أماه، ما تفعلين يا أماه؟! . . . ما تريدين؟!

لعلها أخذت نفساً عميقاً استرجعت به كل عزمها، لتقول:

ـ تعلم يا عباس ما أريد، وتعلم أنني ما كنتُ ولا كنتَ أنت إلا من أجل هذا اليوم، . . . تعلم أي ذخر قد ادُّخر لك، وأي شرف قد جلّلك، من أجل هذا اليوم، . . . تعلم لماذا ادخرك أبوك، ولأي هدف أرجوك، . . . بني عباس، إنما أنت من الحسين وللحسين، ولست أخشى أن لا تؤدي الأمانة للحسين! بني عباس، . . . إنما انت كفيل زينب، فلا تعهد بها إلى أحد سواك، ولا تنكل عن مواساتها ورعايتها ما بقي فيك نفس، . . . لست معكم يا ولدي، ولكن فؤادي ينبض بين جنبيك، وروحي ترفرف في فضاء عينيك، . . . أعلم أنك لست بخاذلي، ولكن، لي رجاء إليك!

وكأني بالعباس وقد خفض نظره خجلاً من قولها، أوَأمه تترجاه؟! . . . وهمس بنبرة حيية:

ـ أماه، لك الأمر لا الرجاء، مُريني وأنا طوع يمينك!

فهتفت أم البنين محتبسة الأنفاس:

ـ إخوتك يا عباس، كن لهم إلى الجنة قائداً، ولا تغفل عنهم طرفة عين!

تبسم العباس يلاطفها ويقول:

ـ إخوتي هم أبناؤك يا أم البنين، دربهم دربي، وطريقتهم طريقتي، . . . لا تخشي شيئاً يا أماه، نحن للحسين درع ووقاء، نفوسنا لنفسه الشريفة الفداء، ترخص في سبيله الروح وتُبذل الأنفس والدماء!

وكأني به تريث قليلاً وهو يضيف:

ـ ويُضحى في سبيله بالأرواح والأبناء!

أجل، لعله أراد أن يزيدها اطمئناناً فأضاف:

ـ أماه، ولقد رأيت أن أردف معي أيضاً ناصرين جديدين للحسين!

قرأت في عينيه الصافيتين ما أراد، فتلوع قلبها ولكنه ازداد قوة وأجاد، وسألته بلا كلام فأجاب:

ـ إنهما ولدي محمد والقاسم، لقد قاربا عمرالشباب، ولا بأس بأن يكون لهما حظ من هذا المآب.

تبسمت أم البنين بقرحة، فمحمد والقاسم ولداها أيضاً، إنهما قد ربيا في حجرها، ولا بأس بأن يحوزا هذه المكرمة، ولعلها سألت مستفسرة:

ـ وهل لبابة على مثل رأيك؟!

فرد يقول بحزم:

ـ لئن لم تكن قد أفادت من عزم أم البنين، على طول العشرة عبر السنين، فهي لن تكون جديرة برفع هذا الحمل الثمين!

إيه يا أم البنين، وهل أنت قد ربيت هذا الأسد إلا ليلد الأشبال، . . .

فحق له أن يأخذ أمه خير مثال، ويجعل من نفسه وارثاً لتضحيتها بالنفس والروح والمال والآل؟!

ترى، هل أردت يا أبا الفضل أن تواسي أمك بأبنائك، فتضيف بلاءها إلى بلائك؟!

أم لعلك أردت أن تواسي الحسين، فحملت من أولادك من استطعت لتفدي به سبط النبي الأمين، فتكون له كما كنت وكما ستكون في كل لحظة، مذ ولدت حتى اليوم، وحتى تصل إلى تلك اللحظة، مواسياً له بنفسك وولدك، لا تتأخر عنه لحظة؟!

ولعلك لسبب ما، لم تستطع أن تواسيه بإخراج أهلك في ركابك، فلعل لبابة كانت قريبة عهد بولادة، ولذا فقد تعذر خروجها فيمن خرج من الهاشميات، لتكتمل بها وبأولادها فصول المواساة.

أما لماذا لم ترحل أم البنين، لماذا لم تخرج مع الخارجين في ركاب الحسين، لماذا لم تلازم زينب كما لازمتها منذ عشرات السنين، فذاك أمر ذو شجون، فقد كان البقاء في المدينة بعيداً عن أحبتها، أشد عليها من خروج روحها من جثمانها!

ولكن، لعلها ولنفس ما بقيت لأجله فاطمة العليلة بقيت، لعلها لنفس ما بقي لأجله محمد ابن الحنفية بقيت، بل لعلها لنفس ما بقيت لأجله أم المؤمنين أم سلمة بقيت ولم تخرج!

[أما فاطمة العليلة بنت الحسين عليه السلام، فهي بقيت في كنف أم سلمة تمرضها، عساها تلحق بأهلها بعد حين.]

وكذا أم البنين، فلعلها كانت عليلة قد ضعفت عن السفر وبقيت لتشفى وتلتحق بركب الحبيب!

أو لعلها بقيت لتمرض لبابة، وتهتم بأطفال العباس في غيابه.

وأما محمد، فقد بقي ليكون عوناً للحسين وعَيناً له، ولعل أم البنين كانت كذلك عيناً على أعداء الإمام، تسمع وتشهد ما يجري، فتقوم بما قامت به سابقتها لبابة [زوجة العباس بن عبد المطلب وزوجها، حينما بقيا بمكة بعد هجرة النبي عنها إلى المدينة، لينصراه ويكونا عيناً له على أعدائه، ثم قامت بنفس تلك المهمة مع أمير المؤمنين بعد وفاة زوجها، حينما أرسلت إليه رسولها تخبره بخبر الناكثين قبيل حرب الجمل.]

وأما أم سلمة فما أدراك من أم سلمة، خير زوجات الرسول بعد خديجة، وأكثرهن علماً وفهماً وعقلاً ودراية، وتقىً وورعاً وكمالاً ومعرفة بحق الولاية.

ولعل أم البنين، وهي زوجة الوصي، بعد إذ حكمت على نفسها بأن تكون كزوجة النبي، لا تتزوج بعده ولا تتحمل بُعده، كذلك فقد حكمت على نفسها بأن تقر في بيت الإمام لا تغادره، كما قرت أم سلمة في بيتها، بأمر من الآية الكريمة.

ويبقى الإحتمال الأخير، أن تكون أم البنين بقيت في المدينة بأمر من الإمام الحسين، لحاجة لا يعلمها إلا الله وإياه، وربما كشفت عنها الأيام!

لقد ظلت أم البنين في المدينة، وراحت تعالج شوقها العظيم، الذي بدأ يكبر ويتعاظم، وجرحها النازف، الذي راح يزداد عمقاً ونزفاً واتساعاً!

إن آل الحسين راحلون، . . . إن أحبتها وأولادها، وأحب الناس إلى قلبها، زينب وأم كلثوم، راحلون.

وفوق هذا كله، إن الحسين، مهجة فؤادها ومزاج نفسها، البقية الباقية من العترة الطاهرة، الخامس من أصحاب العبا ومن نزلت بحقه وبحق أهله آيات المودة في القربى، إن الحسين راحل، . . . وحتى ولده، وصيه من بعده والحجة على الناس أجمعين، علي السجاد، هو راحل أيضاً!

رباه، ماذا سيحدث لك أيها الحبيب متى تحققت النبوءة؟!

بل ماذا سيحدث لنا، نحن أهل الأرض المفتقرون دوماً إلى حجة، ولئن خلت الأرض من حجة ساخت بأهلها؟!

كان الجواب في علم الغيب، ولأن أم البنين كانت تعلم علم اليقين بأن الحسين هو الإمام المفترض الطاعة، العالم بما علمه الله، فهي لم تكن لتقف طويلاً عند تلك النقطة، بل إن وقوفها كان ليطول ولا ينتهي، عند حزنها الطويل الذي لا ينتهي، لذلك الفراق!

وبذا تكون أم البنين باقية في المدينة جسداً، راحلة نفساً وروحاً، هي لاحقة بأحبتها، ولو بعد حين!

***

ومع اقتراب موعد الرحيل، يخيم على المدينة شبح الحزن من جديد، . . . شبح كشبح الموت ما كان ليغادرها ليعود إلا بلبوس فريد.

وكيف لا تتشح المدينة بوشاح الأسى، وسبط المصطفى نزح عنها نزوح موسى عن مصر هرباً من بطش فرعون؟!

. . . [وعلى مشارف المنازل تصطف نياق الرحيل، محملة بمتاع قليل، هو متاع أهل الآخرة من عَرَض الحياة الدنيا.

وتُناخ الجمال، ويتقدم صوبها الرجال وتلحق بهم حليلاتهم وبناتهم وأطفالهم، ويُركِب كل رجل أهله.

حتى إذا وصل الدور إلى عيال الحسين، كان له من أولاده وإخوته من يقوم بخدمته خير قيام، . . . فها هو علي الأكبر يُركب أمه وأخواته، وها هو العباس يتقدم، فيلتزم جانب أم كلثوم وزينب، يمضي أمامهما فتتبعانه، ويمسك بأيديهما، ويثني ركبته ليجعلها لأقدامهما المباركة موطئاً، حتى يركبان هودجهما على اسم الله وملة رسوله وولاية أوليائه، ومحبة أحبائه.

وتقف أم البنين بين الجموع النادبة، جموع المودعين الهاتفين الصارخين:

ـ إلى أين يا ابن البتول؟! إلى أين يا سبط الرسول؟! . . . إلى أين يا ثمالة الباقين وعصمة اللائذين؟! . . . إلى أين يا حسين؟!]

أما هي، فلا تصرخ ولا تندب، بل تذرف الدمع بصمت، وتمسحه بصمت، وتختلج الغصة في حلقها فتكاد تخنقها، . . . هي لا تبدي الدموع لكي لا يحن أولادها للرجوع، وإن كانت تعلم أنها حتى لو أبدتها، فهم لا يحنّون إلا للمنون، في ظل الحسين، . . . وهي ترمقهم، ترى قرب التباعد فتنشدّ أنياط قلبها، ثم تبحث بناظريها عن بكرها، وحفيديها، ولما تراهم تتمزق، . . . هم في المدى خيالهم قد تعلق، كاللؤلؤ المنمق، . . .

ولعل أم البنين إذ تنظر، ترى العباس الذي ما فتئ يدخل ويخرج ويخدم

الحسين ويأتمر بأمره وينتهي بنهيه، تراه وقد أركب الزينبين، فتغص وتشهق، ولكنها تبقى واقفة بين الجموع تحدق ولا تدنو، فقد كان ذلك بها أرفق.

واكتمل الركب، ووقف الحسين يتفقد أهله، كان سطوع شمسه يعشي الأبصار، ربما أكثر من ذي قبل، ولعل أم البنين تذكرت وداعها له قبل ساعات.

كان قد عاد لتوه من زيارة قبر جده، وقبري أمه وأخيه، حينما وقفت لـ أم البنين بالباب تحييه، وتحبس كل وجدها وشوقها لأبيه وأمه وأخيه، . . . فيما هي تنظر إليه، وتطأطئ الرأس لوعة وأسفاً، وتتمنى أن يكون في حزنه ما يجديه، إذاً لما كانت تبالي أن تموت كمداً، إن كان في ذلك ما يحفظه ويحييه.

. . . لعل أم البنين استودعت الحسين أولادها، وأجهشت بالبكاء وهي تعتذر إليه، فهي تخشى أن تكون قد قصرت في أمر ما عليه!

ولعل [الحسين، الذي كان قد رأى للتو رؤيا قرب مثوى جده، رأى أنه يعده بقرب اللقاء، . . . وذرف من الدمع عند قبر أمه وأخيه ما زاد عن حده، . . . كان محمر العينين من أثر الدموع]، ولكن نور محياه كان في ازدياد وسطوع، وكأنما إذ ودع أحبته، حمّل مدادَهم صفحتَه، ونطق حقهم في وجهه عند الرجوع!

وكأني بالحسين وقد وقف لأم البنين، وخاطبها كما تعود منذ دخلت بيت والده أمير المؤمنين، وكانت له ولإخوته نعم الأم الحنون، لعله

خاطبها كما يجدر بمثله أن يقول:

ـ أماه، لقد وفيت بعهدك، وكنت بنا بارّة، ولأمنا الزهراء سارّة، ولو لم يكن لك إلاخدمة أهل بيت النبوة لكفى، كيف وقد كنت خير مستودع لخير الودائع، . . . إيه يا أماه، يا أم البنين، . . . لو لم تنجبي لنا سوى العباس لكفاك فخرا، وكفانا منك شكرا، كيف وقد أنجبت سواه ثلاثاً من ليوث العرين، ألا فاهنئي يا أم البنين، لقد وفيت فلا تخشي من التقصير، فلأنت أهل لكل بر وخير.

. . . لقد وقع كلام الحسين على قلب أم البنين إذذاك وقوع الغيث على الأرض الظمأى، والندى على الأزاهر، . . . فخرجت من الدار مجبورة الخاطر، تحمل الغيث والندى في فؤادها، وعلى وجنتيها تذرفهما ولا تحاذر.

أما الساعة، فلعل أم البنين في غمرة تذكرها لوداع الحسين، خرجت تشق الجموع إليه، أقبلت نحوه تجدد العهد، وتسأله العفو ثانية عن التقصير، ثم تنثال بكل قوة وصلابة لم تعرف لهما من قبل نظير، [فتدعو أولادها من جديد.

ويتحلقون حولها]، تشعر بأنها اليوم قد انتقلت إلى بعد جديد، ليس في الأبعاد ما يدانيه، . . . إنها في أفق بعيد، يتألق بهاء وسناء، . . . فوق رأسها تقف الزهراء، تنظر برحمة إليها، وعن يمينها يقف أمير المؤمنين، يحدب عليها، وعن يسارها يقف الحسن الزكي، يبارك ما لديها، [وبين يديها، يقف أبو الفضل العباس، وعبد الله وعثمان وجعفر، يقبلون يديها، وهي

تعيد لهم الوصية، وتؤكد عليهم العهد وتستوفي منهم الأيمان، وهم ينظرون إليها، يبتسمون بكل حبهم لها وبرهم بها ويقولون:

- حباً وكرامة يا أماه، لننعمنّك عينا، . . . حباً وكرامة، . . . لنبيضنّ وجهك أمام مولاتنا الزهراء، حباً وكرامة!

اما العباس فهو إذ يختم حلقة الوداع تلك، يقبل عليها، يطبع على جبهتها الأبية قبلة راضية مرضية ويستدير ليمضي]، وفي أذنيه يتردد صوتها، قوياً كما عرفه، يختصر كل مراحل حياته:

- أي ولدي، يا قمر العشيرة، كن القمر الذي ينير ليل الصحراء لكل عشاق الحسين، . . . يا ساقي العطاشى، كن ساقي الحسين وآله يوم يظمأون، تحملْ في غد قدحاً من كوثر فاطمة على حوض علي، لكل عشاق الحسين، . . . يا كبش الكتيبة، لا يكن كبش كتيبة الحسين أحد سواك، . . . يا حامل اللواء، لا يرفعن راية الحمد بين يدي الحسين سواك، تكن كف علي التي تحمل لواء يوم المحشر، إذ ترفع لواء الحق على مدى الأزمان، لكل عشاق الحسين.

ويتمازج صوتها مع روحه، ومع [صوت الحسين الذي ينطلق في تلك اللحظة هاتفاً ملء وجوده:

- أين حامل لوائي؟! . . . أين كبش كتيبتي؟! . . . أين أبو الفضل العباس؟!]

. . . ويطير العباس إليه، ويحط بين يديه، . . .

كان جواد الحسين ينتظر من يشد لجامه بيديه ويقدمه إليه، وهل غير

يدي أبي الفضل تشدان لجام ذي الجناح، وتدفعانه إلى الحسين؟! . . . وهل غير يدي أبي الفضل توقفان الجواد ريثما يركب مولاه؟! . . . بل هل غير عيني أبي الفضل تسبحان فلا تغرقان في بحر عشق الحسين، وترسوان على شط نبرته الصادحة، أن لبيك يا مولاي، هوذا خادمك العباس بين يديك، وأن هلموا يا آل الحسين فقد آن أوان الرحيل؟!

. . . [ويهرع بكر أم البنين، بعدما يركب الحسين، ليمتطي جواده، فيجول به بين المحامل لحظات، ليطمئن على أحوال الركب الحسيني، ثم يسارع ليلحق بسيده الحسين فيكون بين يديه.

يمضي العباس في مقدمة الركب]، فارساً يحاكي الطود ارتفاعاً وشموخاً، ويفوق البدر تألقاً وجمالاً، يكاد ينشغل الناظر إليه بنور وجهه عن جمال محياه، إذ لم يكن ما يميز العباس بين العرب جماله الباهر فحسب، بل كانت فتنته تنبع من ذلك الشعاع المنبثق من ثنايا قسماته، . . . شعاع التقوى والإيمان، والبصيرة النافذة التي لم يكن يحوزها إلا الأقلون!

[يمضي العباس بجواده المطهم تخط رجلاه في الأرض خطاً]، فإذا هو الفارس والجواد في آن معاً، كما كان ولا يزال، السيد والعبد في آن واحد، هو سيد أينما كان، ولكنه للحسين عبد مطيع يهنأ بقرب مولاه، ولا يرضى بسوى عطفه وحنانه ورضاه.

وما تحرك الركب حتى ارتفع صوت النحيب من كل بعيد وقريب، من كل مودع راح يلاحق بصدى نجواه شبح الحبيب.

ولعله لما غاب الركب عن العيون، ارتفع صوتٌ كان حتى تلك اللحظة

غائباً، . . . لا بل حاضراً في عمق القلب والروح والعيون، فانطلق بعد حبس طويل.

لعل المودعين التفتوا، وإذا بأم البنين، تسقط حيث كانت تقف، حيث كان الركب قبل قليل، تسقط إلى الأرض مغمى عليها!

. . . ولعل أم سلمة أقبلت في تلك اللحظة إليها، نثرت من فتات صبرها عليها، واحتضنت قلبها الملهوف بيديها، وراحت تعزيها.

ولكن، . . . ترى، . . . بعد كل ما جرى ويجري، ما ترى يكون العزاء؟!

***

تلاحقت الساعات، والأيام، والشهور.

بل هما شهران، شعبان ورمضان، . . .

ويتناهى إلى مسامع أم البنين الراصدة لأخبار الحسين، أن [سيدها وولدها لا يبرح في مكة، وأن الكوفة تستنصره!]

. . . يجفل فؤادها ويهتز، فهي لم تزل حديثة العهد بمصائب الكوفة، مهما تقادم العهد، فجرح الكوفة طري نازف، وشاهدها عليه حيدر وتلك المواقف.

ولكنها رغم كل ما أرق جفنيها، مطمئنة لحكم الحسين، فهو لا ينطق عن الهوى، تماماً كجده وأبيه، وأمه وأخيه، . . . هي عصمة اختصهم الله بها، وما كان لها أو لسواها أن تعترض على ما أتاها من ربها بلسان الحسين.

وقد يعلم الهاشميون سراً، ومن بينهم أم البنين، أن [مسلم بن عقيل، ابن عم الحسين وصهره وثقته، قد دخل المدينة خفية مودعاً أهله مجهزاً نفسه للخروج إلى الكوفة، رسولاً للحسين، ليرصد حال أهلها ويستوثق وفاءهم لنصرة مولاه.]

ولعل أم البنين لقيت مسلماً يومئذٍ تسأله عن الحسين، وعن زينب وأم كلثوم، . . . ولعلها إذ لم تسأله عن حال أولادها احترم عدم سؤالها ولم يتدخل.

ويلاه، . . . كيف تسأل عن الفرع والأصل هو الأساس؟! . . . إنها لتستحيي من ربها أن يكون بها قلق على الأهداب دون العيون، لا كان ذلك ولا يكون، . . . ولعلها أيضاً نظرت إلى مسلم مقروحة الفؤاد، . . . لقد أقلقها أمره، فهي تخشى عليه من ذلك الوجه الذي إليه يقصد، ولكن، ما في الأمر بد، فالأمر أمر الحسين، وهو أمر لا يُرد.

وتودع أم البنين مسلماً، وتسلمه لعيني عمه أمير المؤمنين، وتستودعه الرحمن الرحيم، وتقفل راجعة إلى ذاك العرين الذي خلا من حُماته.

إن أم البنين لتشرد بعينيها ثانية نحو البعيد، نحو مكة، تحاول أن تخترق ببصرها الملهوف عمق المسافات لتصل إلى أحبتها، فتراهم وتملأ عينهاوفؤادها من أنوارهم وسناهم.

ولعلها أيضاً كانت تتمثل أم كلثوم، ابنة الزهراء، حبيبتها وابنة حبيبتها، ترى، ما حالها اليوم، وقد غاب عنها ابن عمها وزوجها، في مهمة محفوفة بالمخاطر، لا يُدرى ما وراءها ولا ما تنطوي عليه من هموم.

إن أم كلثوم، هي بلا ريب مسلمة كعادتها لقضاء الله وقدره، ولأمر أخيها الحسين، ولكنها لا بد تستفقد وجود أم البنين بجانبها، لتمسح دمعة قد يهيجها الشوق، وتسكن زفرة قد يطلقها القلق، وتسند رأسها إلى عاتقها كما تفعل الأم الرؤوم، وكما تعودت أن تفعل، منذ نيف وثلاثين عاماً إلى اليوم، وإن كانت أختها زينب تقوم بذلك الدور وزيادة، إلا أن وجود أم البنين بينهما كان ذا واقع، وها هما تفتقدانه اليوم، . . .

ولكن، أنى لها ذلك وبينهم الرمال والجبال والغيوم؟!

كانت أم البنين تعلم أن بعدها عن أحبتها سيكويها، وأن المسافة التي تفصلها عنهم ستضنيها، ولكنها لم تكن تدري أنها، وهم بعد لم يبتعدو أكثر، تكاد تقتلها غربتها عنهم، وغربتهم عنها تكاد ترديها.

كان عزاؤها الأوحد، زيارة قبر المجتبى الزكي، تبثه لوعتها، وتخاطب من جواره روح أمه البضعة الزهراء، وروح أبيه سيد الأوصياء.

ولا بد أنها كانت كذلك تزور قبر النبي، بين الحين والحين، لتجدد له العهد بحفظ الحسين، وهي تعلم أنها إذ تزوره، تزور أيضاً قبر وصيه أبي الحسنين، وهي أيضاً تعاهده في ذلك المكان، على وفاء الدين، وأكرم به من دين.

ثم إن أم البنين كانت بلاريب تكثر من زيارة أم المؤمنين أم سلمة، فهمّهما واحد، والحبيب الحسين واحد، . . . وكذلك فإن في كنف أم سلمة حبيبة الحسين، طفلته العليلة، ولذا فقد كانت أم البنين تقصدهالتعتني بها وتمرّضها، ولتقرأ في طلتها ملامح الحسين وتتنشق في

أنفاسها عبير الحسين، وترتشف من دمعتها معين الحسين، فواهاً ثم واهاً من شوقها للحسين!

***

وإن لأيام الصيام حديث وكلام، فيها عيون تسهر الليل فلا تنام، وتقضيه في ذكر وقيام، وتصوم النهار بهدوء وسلام، . . . وعند الإفطار يجتمع الأحبة، يتقاربون، يفطّر بعضهم بعضاً رجاء للأجر والثواب، ومودة الأحباب.

ولكن، في أيام الصيام هذا العام، تستفقد أم البنين كل ذلك، تستفقد وجود أولادها حولها، مصلين وذاكرين، قائمين وقاعدين، غادين ورائحين، يملأون عليها الدار حركة وحياة، وحباً وحنانا.

هي تستفقد قيامها لخدمتهم ليلاً ونهاراً، وقيامهم على خدمتها، وتواجدهم حولها في كل حين.

أما العباس، فلعله كان لا يني يتردد عليها مثل ذلك لا أقل، فهو فوق تقواه وبره وزهده وعبادته، قد غدا أباً، فعرف بأبوته معنى الأمومة حقاً، وقدّر حق أمه أكثر فأكثر، فكان إليها، لذلك وغيره، الأقرب والأكثر لصوقاً.

إن أم البنين لتجهز مائدتها كل يوم، بما تعودته وبما رباها عليه أمير المؤمنين، وبما اقتدت به من قدوتها الزهراء وولديها الحسنين، إذ يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا.

ولعل أم البنين في تلك الأيام الموحشة الخالية، كانت تتشاغل عن

جلوسها في بيتها دامعة العين ترقب خلو مائدتها من الأحباب، فتحمل الطعام لتدفعه إلى مساكين المدينة وأيتامها، وعابري السبيل، وتترك لنفسها بلغتها، ما هو أقل من القليل، زهداً وتقشفاً، وكذلك بعداً عن اشتهاء الطعام، فقد كان قلبها يقتات بالأرق ليلاً ونهاراً، ولسانها يرتوي بالدعاء المستفيض لرب الفلق، أن يكفي أحبتها ويعيذهم من شر ما خلق، وروحها تنتظر مع كل غروب وشروق لون الشفق، لتحمله الشوق إلى الغائبين، وتنتظر عودتهم، لا بل أخبارهم، في الحين بعد الحين.

ولعلها أيضاً كانت تلجأ إلى أم سلمة، تبثها نجواها كعادتها، وتستعين بها على مصيبتها، . . . إذ لم يكن جل ما يضنيها فراق أولادها، بل فراق ولدها الأوحد، ذاك الفرقد الأمجد، الحسين سبط محمد.

وللعيد كذلك ذكرى، تفتقدها أم البنين في هذا اليوم، الذي أبى إلا أن يستبدل البسمة بالأنين، وكيف تبتسم وقلبها حزين، . . .

حتى صلاة العيد التي طالما صلتها مؤتمة بأئمتها، أمير المؤمنين ثم الحسن ثم الحسين، فها هي اليوم قد أضحت صلاة التائهين، هي تبحث في مدى المحراب عن صورة الحسين، وتقنت، لتدعو بما شاء لها المولى أن تفعل، وعندما تتردد على لسانها الكلمات: «اللهم أدخلني في كل خير أدخلت فيه محمداً وآل محمد، وأخرجني من كل سوء أخرجت منه محمداً وآل محمد، صلواتك عليه وعليهم» تعلم أنها قد قرنت القول بالفعل، والدعاء بالعمل، . . . بقي أن تظل قوية صامدة، كما تعودت، حتى يكتمل خير العمل، وعندها تكون قد عملت ونالت ثواب العمل.

. . . لا بد ان أم البنين كانت تزور أم سلمة في ذلك اليوم، تعايدها بهذا العيد الصامت الموحش، ولعلها لما تزورها تلمح في عينيها الوادعتين إحمرار الدموع، وتسألها، وهي تعرف الجواب:

ـ أماه، ما يبكيك؟!

. . . لعل أم سلمة تتوسل الذرائع لكي لا تجيب، لكي لا تنكأ قرحة لا تندمل، . . . ولكن، لا مفر من الجواب، إذ أن أم البنين قد تنثني نحوها وتسألها بغصة:

ـ هل سألتك فاطمة عن أبيها من جديد؟ . . . هل عادت تلح على اللحاق به؟

. . . وتخفي أم المؤمنين غصتها بدورها وتهز رأسها موافقة، فيما تتابع أم البنين بلسان الحال، والحسرة تجلجل في نبرتها المتخافتة:

ـ أواه يا أماه، . . . ليتنا جميعاً نلحق به، . . . إن الفراق عنه صعب يا أماه، فهو مولانا، به وبأخيه وبجده وأبويه عرفنا آخرتنا ودنيانا، . . . .

ولعل فكرة ما تخطر لأم البنين، تترجمها سؤالاً، لم تطرحه من قبل على أم سلمة، رغم ما تتحادثان به على الدوام:

ـ أماه، . . . عندما رحل رسول الله، كيف وجدت الحياة؟!

كان سؤالاً عسيراً والإجابة عليه أعسر، . . . فقد دفع إلى مقلتي أم سلمة بدموع كانت تغالبها، فغلبتها، . . . لقد نكأ جرحها الأصعب، ولعلها لما

نظرت إلى أم البنين، وجدتها كإياها تذرف ما شاءت من دموع، وتنتظر الجواب، . . . ولما وجدت صوتها والكلمات، همست تقول:

- إيه يا أم البنين، أي سؤال تطرحين؟! . . . إن الجواب على سؤالك يكمن في ذلك القرار المكين، حيث تركت أنت أمير المؤمنين، . . . إن الجواب هو سؤال ؛ أنت يا أم البنين، كيف وجدت الحياة بعد أمير المؤمنين؟! . . .

كأني بهما أطرقتا كلتاهما إلى الأرض، حتى كانت أم البنين أول من رفعت رأسها، ونطقت لاهجة بين زفراتها:

- إن أمير المؤمنين يا أماه، لا يزال يعيش في أعماقي، صورته منطبعة أبداً بين أجفاني وأحداقي، وأنا إذ أعيش ثمالة عمري الباقي، أطل من خلال تلك الصورة على عالم التلاقي، وأرى الكون كله بذلك المنظار الراقي، . . . أماه، إن أمير المؤمنين حينما رحل، ترك لي أشباله، فكان همي أن أفي بما عاهدته عليه، . . . أماه، وإن شوقي للحسين اليوم وحزني على فراقه، هو شوقي لأبيه، وشوق أبيه له، وهو خارج عن نطاقي، . . . هو كل يوم في ازدياد، كلما بعد العهد بالفراقِ.

وأجهشت بالبكاء ثانية وهي تتابع:

- أماه، إن أخشى ما أخشاه، وأنا أستشعر تزايد الشوق إلى أمير المؤمنين، أن يكون ذلك نذيراً باقتراب العهد الذي رواه، . . . أماه، أتظنين العهد قريب؟!

لم يكن بمقدور أم سلمة أن تجيب، لا لغصة علقت بحلقها فمنعتها عن الجواب، ولا لأنها لم تكن ترجم بالغيب، ولكن لأن ما قالته أم البنين كان يترجم ما اعتمل في وجدانها منذ رحل الحسين عن مدينة جده، وكان أساس ذلك الإحساس، عدا كونه إحساس المؤمنَ بما ينتظره من بلاء، [أن الحسين، وبعد ما أودعها ودائع النبوة والإمامة]، واختارها لتلك المهمة الصعبة، لعلمه بشدة إخلاصها وولائها من جهة، ووربما لأن الطغاة لن يتجرأوا عليها لكونها زوجة الرسول من جهة أخرى، وإن كانوا قد تجرأوا ويتجرأون على ذريته وأهل بيته، . . . كان مبعث ذلك الإحساس، أن الحسين قد كشف لها الغطاء عن وقعة تكون بكربلاء، تشيب لها رؤوس الأطفال وتترمل النساء، وتذرف الهاشميات دموعهن فوق تلك الدماء.

كانت أم المؤمنين وأم البنين تعلمان، أن العهد قريب، . . . لعلهما كانتا تتوسلان المولى عزوجل أن يبعد ذلك العهد، إن لم يكن إلى محوه من أم الكتاب سبيل، ولكن، . . . كانت الأيام تتراكم بعضها فوق بعض، كقتيل ينطرح فوق قتيل، ويزداد المدى ظلمة، وينطفئ سراج الأصيل، إن الحسين يمضي، وتمضي به أحداث جسام، لم ولن يكون لها في الكون مثيل.

***

ويمر شهران آخران، شوال وذو القعدة، . . . .

وتتسقط أم البنين أخبار الحسين، كما يتسقط الظمآن نزول الغيث، ولكن، ما كان يغشى أم البنين، كان أكثر من الظمأ، فالغيث هناك، ولكنها عن الوصول إليه عاجزة، لا لضعف ينتابها، بل لأمر ينطق به محرابها، . . .

هي تحتضن في بيتها جيلاً جديداً من الأشبال، هم أشبال العباس، إبناه الصغيران، عبيد الله والفضل، وطفلته، صغيرته التي لعلها ولدت في غيابه، . . . إنها ترعى زوج العباس وأطفاله تارة، وتنكفئ إلى طفلة الحسين تواسيها، وتساعد أم سلمة في تمريضها تارة أخرى، ثم هي بين الحين والحين تحج إلى دار الحسين والهة، تذرف دموع الشوق على الأعتاب التي تحن إلى وطأة أقدامه، وتتمسح بالجدران التي تنحني مشتاقة لشموخ بنيانه.

وتصل الأخبار، أن [الحسين لا يزال في مكة يجاور البيت الحرام، قد اتخذ له مسكناً في دار عمه العباس بن عبد المطلب، وراح يتوافد عليه أهلها، والمعتمرون من المسلمين في كل حين، وقد هنئ بعضهم بمكوثه بينهم، وثقل ذلك على آخرين أمثال عبد الله بن الزبير، إذ وجدوه قد استقطب اهتمام المسلمين]، . . وكيف لا يكون الحسين قطب الاهتمام ومحوره، . . وهو الدر المصفى وغيره التراب، فشتان ما بينهما، كلٌّ في جوهره.

ولعل هلال ذي الحجة إذ هل في تلك الآونة، أطل ليجد أم البنين تجالس أم سلمة في دارها، تتذاكران كعادتهما أيام الحسين، وجدّ الحسين وأبي الحسين، وأم الحسين وأخي الحسين، ولعل ذكرى حجة الوداع كانت تزورهما مع استعداد حجيج المدينة للوفود إلى مكة، لتأدية فريضة الحج، ولا بد أن تكونا قد حملتا من تثقان به من الحجيج، الكتب والأخبار والسلام، لإمامهما الحسين عليه السلام، ولعلهما راحتا تتأملان بحسرة ما بعدها حسرة، ما اعترى أمة محمد من ذبول ما بعده ذبول، وكيف صارت محاسن أهل بيته تختبئ وتتوارى خلف سجوف ونصول، حتى

لكأن حجة الوداع كانت، بما هي حجة من الرسول وربه على الخلق أجمعين، ليكتمل الدين بتنصيب علي على رؤوس الأشهاد أميراً للمؤمنين، ، حتى لكأن تلك الحجة كانت، وداعاً لزهرة الدين ونضارته، إذ بلغ فيها حقد الحاقدين وحسد الحاسدين ذروته، ونطقت الألسن تهنئ أمير المؤمنين على ما حظي به، فيما انطوت الأفئدة على الكره والكيد له، حتى إذا وجدوا لمكائدهم وكرههم متنفساً لم يتأخروا حتى اقتنصوه، ودفنوا مع دفنهم نبيهم بل قبل دفنه، كل ما أوصاهم به وما منه ورثوه.

. . . ولم يتأخر عليهما الخبر، خبر ارتعدتا له، وراحتا تتبادلان التأوه والنظر، [كان خبر خروج الحسين من حرم بيت الله، ليلحق بما كتبه له الله، يتوجه شطر الكوفة.]

لقد تجددت بالخبر لحظات الوداع، وتحركت شجون الفراق من جديد، بل هي تحركت أشد وقعاً من أي وقت مضى.

فالآن، الآن حقاً قد بدأ الرحيل، لقد بدأت رحلة الفراق الطويل.

ولعل أم البنين هرعت تهرب بدموعها إلى ديار الأحبة، إلى كعبتها التي ما فتئت تتخذها لأحزانها قبلة، ووقفت بين الأروقة الفارغة تسألها عن ساكنيها، وأتاها صوت أنينها يقطر بالجواب، ولكن، هيهات، فما كان الجواب إلا شبح الأحباب، بقية من فيض أنوارهم، أشبه بشذى العطر الفواح إذ يعبق بعد الغياب.

وكان الخبر غريباً، زاد أم البنين قلقاً، وحوّل سهادها أرقاً، وبكاءها المتصل نحيباً، إن الحسين عليه السلام خرج من جوار الكعبة يوم التروية، قد

أحل من إحرامه قبل أن يكمل حجه، وحولها عمرة مفردة، والتحق به من تبعه من أهله، وخرجوا جميعاً خفية في ليلة مظلمة شقية.

ولعل الخبر جاء على لسان محمد بن الحنفية، الذي كان قد لحق بأخيه الحسين إلى مكة في وقت سابق، ثم ودعه قبل الرحيل، وعاد إلى المدينة عملاً بوصيته، ولينقل للخواص ما جرى عليه في رحلته.

. . . كان بقاؤه قرب البيت أدعى للأمن والاطمئنان عليه ألاّ يمسه بنو أمية وأزلامهم بسوء، مراعاة لحرمة البيت.

كذا تناقل أهل المدينة، ولكن أم البنين هزت برأسها في حسرة عظيمة، هي تعرف هؤلاء، هم لم يرعوا حرمة الزهراء، وهي بضعة الرسول، ولم يتورعوا ان يحاربوا سيد الأوصياء، وهو زوج البتول، ولم يأنفوا أن يقتلوا بالسم سبط سيد الأنبياء، وهو ريحانة الرسول، أفيتورعون أن يسفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام والبلد الحرام بين الركن والمقام؟!

. . . [وأتى جواب محمد على كلام أهل المدينة، منقولاً عن لسان الحسين عليه السلام، إذ أجابه على رجائه له بالبقاء:

ـ يا أخي، إني أخاف أن أكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت!]

أجل، إن الحسين ليعلم، أن طغيان بني أمية وتسلطهم لا على رقاب الناس فحسب، بل على ضمائرهم وعقولهم، قد جعلهم لا يتوقفون بظلمهم عند حد، ولا يربأون بأنفسهم عن فعل، مهما كان قبيحاً، لقد أعشت عيونهم وعيون أتباعهم نيران السعير، التي حسبوها لجهلهم بهارج الدنيا وزينتها، فهم بلهيبها محترقون ولو بعد حين.

لقد توجه الحسين شطر الكوفة، وتوجه قلب أم البنين شطر الغري، فاضت عبراتها مراراً وهي تخاطب أمير المؤمنين، تسأله أن يكلأ بطيفه النوراني أحبته، أن يرعى بوجوده الملكوتي ذاك الركب المشتمل على أعز الخلق وأشرفهم، تنطوي تحت أرجل مطاياهم مسافات الغيب، وتنطوي في مدى أنظارهم آهات الزمان المقبل، وتنطوي في صدى أذكارهم نجوى المتقين، . . . إيه يا أمير المؤمنين، إن ما رسمته لأمتك أم البنين، قد بدأ يتجسد على رمال هاتيك البيداء الشاخصة نحو كربلاء، . . . إيه يا أمير المؤمنين، أفلا تكون قربها، تسندها في وحدتها، وتؤنس وحشتها بعد غياب الأحبة الميامين، أم لعلك منشغل بهم، تداري لوعتهم وتتعهد ما هم فيه من ضيق وبلاء، وتسبغ عليهم من حلمك وصبرك ما يزيدهم صبراً على محنتهم، وأي محنة أقسى من أن يخرج أهل الحق من دار الحق هاربين بحقهم، ذائدين عنه، فلا هم على التخلي عنه قادرون، ولا هم بالتمسك به آمنون.

إيه يا موسى، لقد أتاك فرعون فتوجهت تلقاء مدين، فأما إذا خرجت من مدين فإلى أين المسير، وما يكون المصير؟!

[إن أم البنين لتقف كل صباح ومساء على طريق الكوفة، تحمل على عاتقها عبيد الله ابن ولدها العباس، أو أخاه الفضل]، وأيهما اصطحبت، كانت تسنده ويسندهافي محنته ومحنتها، فتستمد من براءة عينيه صفاء وقوة، ومن احتضانها له عبرة وذكرى، تتقوى بها على فراق الأحبة، وتغالب ما بها من قر الفراق بدفء العناق، وتستضيء بلمحة من شعاع الأحبة.

[وإنها إذ تقف، تستوقف الغادي والرائح، فتسأل عن حال الحسين

وتتتبع أخباره]، وتتمثل مع كل خبر يأتيها، بذلك [الخبر الذي نقله عبد الله بن عباس بعد عودته من مكة ووداعه الحسين، . . . لقد قال وعيناه تهملان بالدموع:

- رأيت أبا عبد الله قبل أن يتوجه إلى العراق، وقد وقف على باب الكعبة، . . . كانت يد جبرائيل في يده، وجبرائيل يدعو الناس إلى بيعته ويقول: «هلموا إلى بيعة الله!»]

إيه جبرائيل، يا أمين وحي الله، إن أهل الدنيا لم يؤتمنوا على بيعة الله، لم يبايعوا ولي الله، بل ها هم يتتبعون أثره ويلاحقون خطاه، يتربصون به الدوائر، ويطلبه بنو أمية بثأر لهم من جده وأبيه لم يستوفوه بعد، على كثرة ما استوفوا من الأهوال وما استباحوا من المحارم.

***

الأخبار تتوالى، وخروج أم البنين إلى درب الأحبة يتوالى، حتى لكأنها إذ تسأل عنهم من رآهم، تراهم، . . . حتى لكأن الدرب يرسم على رمال الوجد خطاهم، ولكنه، كما هو حال الخطى على كل الرمال، يمحو ما يرسم ولا يترك إلا ذكراهم.

. . . وفي يوم، تعلم أم البنين أن الحسين نزل أرضاً يقال لها كربلاء، . . . ويعتصر الهم قلب أم البنين فوق ما كان يعتصره، ولعلها تهرع من وقتها إلى أم المؤمنين أم سلمة، تنتحي بها زاوية الدار بعيداً عن مسامع فاطمة العليلة، التي زاد علتها الشوق لأحبتها، ولعلها تسألها بلهفة ما تنفست مثلها يوماً، عن تلك الأرض التي كشفها لها الحسين في رؤياه.

لعل أم سلمة لم تجب، . . . إن الرحمة قد أدركتها بتلك الأم الملهوفة الملوعة، فلم تجب، . . .

ولعلها استطاعت أن تكبت غصتها في أعماق أعماقها ما استطاعت، حتى غادرتها أم البنين، وهي تعلم علم اليقين، أن ما أخفته عنها لم يكن خافياً، فهي قد أُبلغت به قبل سنين وسنين، وهي تنتظره انتظار النهار لليل، أو انتظار المشرف للموت، الذي يعلم أنه آت بعد حين.

لم يكن عدم الجواب دليلاً على الجهل به، كما لم يكن السؤال دليلاً على عدم العلم بالجواب، . . . كانت الأمور تسير وفقاً لما أُخبرت به كلتاهما، ولكن مجرد النطق بالخبر والإنباء به يجعله أقسى على القلب، تماماً كما هو السوط إذا لُوّح به في الهواء، ينذر بالشر، حتى إذا جُلدت به الأجسام والقلوب، ونزفت من وقعه الدماء، كان أقسى وأمرّ.

الفصل الثامن عشر:

سألتك عن الحسين

الزمان: سنة واحد وستين للهجرة

المكان: بين المدينة وكربلاء

هل قلت أن انتظار أم البنين لما سيجري، كان كانتظار النهار لليل، أو انتظار المشرف للموت؟!

بلى، ولكني لم أقل أن أقسى لحظات النهار هي تلك التي تقارب الغروب، وأشد الثواني على المحتضر هي تلك التي يعالج فيها خروج الروح.

. . . كانت حشرجات اللوعة تزاحم حلقومها، كما كانت عثرات الطريق تزاحم خطواتها على ذلك الدرب المؤدي إلى كربلاء.

كانت قد تعودت الخروج بحفيدها إلى تلك الطريق المتعرجة المزروعة شوكاً وصبراً، وتروح ترصد العابرين، ولولا سيماء الجلال والحكمة التي كانت تنطق في سؤالها الحزين، لظنها بعض من لا يعرفها قد مسها طائف من جنون.

كانت نبراتها الملتهبة الطافحة وجداً المتجذرة عشقاً تسأل في اختلاج العين وصدى الحنين:

ـ ها من رأى لي الحسين؟! . . . ها من يعرف خبراً عنه يطفئ نار هذا القلب الحزين؟!

ولكنها كانت في كل يوم ترجع بخفي حنين.

هل كانت الأخبار تلتف برداء أسود فلا تلمحه العين، بعد أن كان أشد سواداً من حلوكة الليل؟!

أم لعلها كانت تختفي في ثنايا أشداق المنافقين، وخلف بريق أنيابهم المغمسة بزعاف السلاطين؟!

أم لعلها كانت تُلف في صرر الأسلاب، وتُحمل كما أشخاص المخدرات على الأقتاب، وتُرفع مع الهامات المضمخات بنجيع الخضاب؟!

أم لعلها كانت لتُدفن بدلاً عن الجسوم المضرجات والأعضاء المقطعات، في باطن ذلك التراب، فيما تُترك الأبدان الزاكيات نهباً لوحوش الفلوات، متناثرة كما الفتات على شاطئ الفرات؟!

ولعل أم البنين لما عادت عند تلك العشية، ملتحفة بكاء حفيدها، متلفعة دموعه الزكية، . . . كانت متهافتة الخطوات، فألقت الطفل في أحضان أمه، التي لعلها أنهت لتوها إرضاع طفلتها. . . إن كان قد أبقى لها الحزن والقلق على زوجها وولديها، وعلى سيدهم ومولاهم الحسين، من اللبن لإرضاع الطفلة بقية.

. . . أجل، فإن أم البنين، لم تكن وحدها في تلك البلية، . . . كان هناك بالإضافة إلى الهاشميات والهاشميين، وأهل المدينة من شيعة أمير المؤمنين، وأم سلمة أم المؤمنين، . . . كانت هناك تلك المرأة الصالحة التي أهدت إلى موكب الحسين فرقدين، وبدراً مستتم النور، هو العباس عضيد الحسين.

. . . لعل لبابة، أم الفضل، كانت تخفي عن أم البنين ما بها من شجن وضيق، وحزن عميق عميق، إن كان إلى إخفاء الأنين من سبيل، عن أذن واعية وعين باصرة كأذن وعين أم البنين، لعلها استطاعت أن تلتف على جراحها، فلا يبدو منها إلا أثر النزف بين الحين والحين.

ولعلها عند تلك العشية، لم تعد تستطيع الصمت.

كانت ليلة الجمعة، ليلة العاشر من المحرم سنة واحد وستين للهجرة، . . . كأني بها تسأل أم البنين بكل لهفة ولوعة، أن تبقى عندها، أن تبيت ليلتها بين أحفادها، بعد أن كان ديدنها على الأغلب، أن تنتقل بين دارها ودار الحسين، فهي لم تعد تعرف في الليل مناماً، ولا يستقر بها الرقاد، بل هي ما إن تخلد إلى النوم هنيهات حتى تهب مذعورة تفتش حولها، تخشى أن يأتي خبر فلا تدركه، أو يحل خطب فلا تكون أول من يمسكه.

. . . هل انصاعت أم البنين لرجاء لبابة في تلك الليلة؟! هل قبلت أن تؤنس وحشتها بمبيتها بين أحبتها؟!

بل هل تذكرت على التو وحشة الحسين، . . . وهي تخشى أن لا يكون له الليلة من يؤنس وحشته، من أهله وأحبته؟!

ربما، . . . ولعلها، إذ أذعنت لرجاء كنتها، لم تفعل سوى البقاء، . . . لم تجد في نفسها اللهفة على احتضان أولئك الصغار، أو على هدهدتهم والحداء لهم، كما هي عادتها، ولو بالمراثي القصار.

لعلها جلست بعد صلاتها، تعقّب في زاوية الدار، جلست مقرورة تحدق من كوة ضيقة في أعلى الجدار، إلى عتمة دامسة ما لها قرار.

. . . وارتعدت، . . . لاحظت أم الفضل ارتعادها، لعلها كانت قد أنهت لتوها صلاتها، بعد ما نيّمت صغارها، فأقبلت على أم البنين ترتعد بدورها، وتقول بغصة مكبوتة:

ـ أماه، ما بالك ترتعدين؟! . . . أمقرورة أنت فآتيك بكساء تتدفئين؟!

رفعت أم البنين طرفها إليها، لعل لمحة من أنوار العباس لاحت تشع من مقلتيها، ففاضت دموع الأم، وغطت وجهها بيديها، . . . ركعت أم الفضل بجوارها، مدت يدها المثلوجة إليها وهمست بوجل:

ـ أماه، ماذا ترين؟!

لو كانت الرؤية نظراً فحسب، لكان الأمر هيناً، ولكن أم البنين كانت ترى بقلبها، ولذا فإن النظر إلى عتمة الليل من الكوة الضيقة عند تلك العشية، أعاد إلى ذاكرتها ليلة لم ولن تنساها قط، إنها ليلة جرح أمير المؤمنين.

. . . كان لا بد لها من أن تجيب، وقد سمعت في صوت لبابة بذور النحيب:

ـ لا بأس عليك يا بنيتي، إنما هي ليلة الجمعة، ، وقد اشتد شوقي إلى أن أستمع لصوت العباس وهو يقرأ علينا دعاء الخضر عليه السلام، بصوته الرخيم الحنون، . . . اشتقت لرنة الخشوع وأشباح الدموع إذ تلوح على محياه.

. . . بكت لبابة، بكت بصمت حتى غسلت دموعها وجهها الصبوح، فأقبلت عليها أم البنين، تحتضنها وتخفف عنها، ثم تسألها أن تنضم إليها

في تلك المناجاة العلوية التي يصدح بها صوت العباس بن أمير المؤمنين، هناك، عبر البيداء، بين خيام الأحبة في كربلاء.

وراح صوت أم البنين يتردد، وينضم في أفق غير محدد، إلى تلك الكلمات الخالدة التي علمها أمير المؤمنين عليه السلام لصاحبه كميل بن زياد، . . . ذاك الشهيد الذي انضم منذ سنوات قليلات إلى ركب الشهداء، شهداء عشق علي ومحبة الزهراء.

ـ أللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، . . . وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء، . . . .

وفيما همسات المناجاة تتوالى، تقرع باب العرش محبة وجلالا، وتهز كيان البدر جواباً وسؤالا، إذ بلغت أم البنين ذاك المقطع الذي يختم الدعاء بأقصى غاية التذلل والرجاء:

«. . . فإليك يا رب نصبت وجهي، وإليك يا رب مددت يدي، . .».

تزايد ارتعاد أم البنين، وراحت دموعها تنحدر في نشيج وأنين، كان صوتها، صوت العباس، مترافقاً مع امتداد اليدين، . . . امتدت يداها نحو السماء، أسوة بذينك الكفين الذين ارتفعا أمامها فجأة، مضرجين بالدماء في فضاء كربلاء.

كادت تلتفت، ولكنها لم تستطع ولم ترد أن تكف عن الدعاء، حتى إذ ختمت، . . . وهتفت:

«يا سريع الرضا»، . . . كان لها مثل الثلج إذا تساقط على جمر الغضى، فابتردت حماها، وهدأت نجواها، . . . واستكانت، تلتف بردائها، وتتابع

أذكارها، . . . وتدعو، . . . تدعو بحسن العاقبة لها ولأبنائها، وبانكشاف بأسائها وضرائها، وما هما إلا بأساء الحسين وضراؤه.

***

لم تكن تلك الجمعة عيداً كما تعوده المسلمون، بل كان يوماً غائماً ضبابي القسمات، لم تشرق شمسه في الصباح، ولم تجد على الكون بأكثر من شعاع ضئيل يخاطب الكائنات، بأن الليل قد فات، وأن النهار قد أتى على إثره، زاحفاً يلوذ من شره، ومن بقايا ظلمته يقتات.

. . . لعل أم البنين لم تحظ في ليلتها تلك على شيء من سبات، ولعلها إن كانت قد فازت من النوم بلحظات، أن تكون قد رأت لمحة من ذلك المشهد الفريد، الذي جاد به التاريخ منذ فجر الوجود على تلك البقعة الفريدة من المكان، وتلك الليلة الفريدة من الزمان، لعلها لمحت أشخاص المصلين، قائمين وقاعدين، راكعين وساجدين، مسبحين وذاكرين، في ذلك المكان الفريد الحزين، معسكر الحسين عليه السلام.

لعلها استطاعت أن تلمح العباس، أن تملأ قلبها لحظة من طلته البهية، قبل أن يهوي إلى السجود لساعات.

ولعلها استطاعت أن تطّلع على حبيبتها زينب، أن ترى الهم العظيم الساكن في فضاء عينيها، وأن ترى دموعها الجارية على وجنتيها، وهي تصلي وتدعو، . . . ولا تستكين.

ولعلها حظيت بمرأى الحسين، . . . لعل قلبها هزج لرؤيته، فقد كان يتألق ويتألق، فوق ما كان على مدى الأيام الماضية يتألق، وكان البلاء

اللائح في الأفق يجعل نظرته أكثر حزناً وأعمق، ولكنه لا يني يتألق!

ثم لعلها إذ أفاقت بعد تلك الهنيهات، وجدت المكان حولها خالياً، فتلوى فؤادها وانتحب، وراح ينشد طلبته، ولكن بعدما عز الطلب.

لقد أصبحت أم البنين عند ذلك الصباح، وهي أبأس خلق الله طراً وأكثر الناس وحدة، وأكثرهم مع ذلك شكراً.

. . . مضت بها ساعات الصباح كئيبة كئيبة.

لعلها حدثت نفسها بالخروج لزيارة أم سلمة، فاليوم جمعة، وهي قد تعودت أن تصل أرحامها في هذا اليوم، وأن تزور أحبتها وأعزتها، ولكن، . . . أين منها اليوم أرحامها؟! . . . أين الأحبة والأعزة؟!

لعلها انتفضت تغالب الحزن المتعاظم في أعماقها، والدمع المتراكم في أحداقها، وأسبلت عليها ثوبها وخمارها، وخرجت، . . . إلى حيث البقية الباقية من ولدها الحسين.

ولعلها إذ وصلت إلى دار أم سلمة، أقبلت على فاطمة العليلة تضمها، وتغرق في قبلاتها كل شوقها وهمها، فسألتها الطفلة بلوعة:

ـ أماه، يا أم البنين، ألا من خبر أتى عن والدي الحسين؟

تبادلت أم البنين وأم المؤمنين نظرة دامعة، بينما تابعت فاطمة بصوت مقروح:

ـ لم يأتني الرد على كتابي بعد، . . . إن أبي لا يمكن أن يقرأ كتابي فلا يبعث إلي بالرد!

وكأني بأم البنين تنظر إليها متسائلة، فتقبل أم سلمة لتجلس عند رأس الطفلة وتضمها إليها مواسية، ثم تحول وجهها صوب أم البنين قائلة بحسرة:

ـ [إنها قد أرسلت إلى والدها كتاباً قبل أيام،]

ثم انكفأت نحو فاطمة تجيب:

ـ لعل الكتاب لم يصله بعد يا ابنتي، أو لعل جوابه لم يصلنا بعد، اصبري يا حبيبتي، فغداً يأتي الجواب.

لعل أم البنين غصت بدمعتها، فقامت تواري حسرتها، وخرجت تعود إلى دارتها، آهٍ من غد وما يأتي به بعد، . . . آهٍ من الجواب وما سيحمله من عذاب، . . . آهٍ من الصبر وقد صار أمرّ من الصبر.

لعل أم البنين لم تدلف إلى دارها ساعتئذٍ لعل أمراً ما كان يشدها للبقاء في فناء الدار، لا تستظل بفيء ولا جدار.

كانت الشمس تزداد حدة، وكذلك قلقها.

كانت ترتفع في كبد السماء شيئاً فشيئاً، وكذلك نيران شوقها.

وعند الزوال، كانت أم البنين قد وقفت للصلاة، تشتق من مناجاة باريها ما يخفف عنها وطأة الأشجان، . . . لعلها صلت صلاة جعفر الطيار، تلك الصلاة التي حباه بها رسول الله، فكانت له ذكراً، وللمؤمنين ذخراً، يكتسبون بها أجراً، وتتردد على ألسنتهم، قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وتسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً وشكراً.

. . . ولعلها إذ وقفت بين يدي رب السموات والأرض، وتوجهت في

صلاتها، صلاة جعفر، تذكرت جعفراً ولدها، ثم تذكرت بتذكره عثماناً وعبد الله، ثم تذكرت العباس، وكان في لقب الطيار ما هز كيانها، فراحت دموعها تنسكب وقد أفلتت عنانها، ثم إنها أهوت لوجهها ساجدة مستغفرة، أن هل قد فتنها ذكر أولادها عن صلاتها؟!

ولعلها حال سجودها تذكرت الحسين، بل تمثلته أمامها، فهي لم تكن له ناسية قط، إذ هو دائماً ماثل في وجدانها، . . . لعله مد يده الحانية يرفعها من سجدتها، ويمسح دمعها بكلمات هو قائلها لا يسمعها سواها:

ـ هنيئاً لك يا أماه، هنيئاً لك يا أم البنين!

رباه، علام كان الحسين يهنئها؟!

بل علام كان محياه النوراني يقطر بالنور أكثر، ولعل في النور كان شبح من شعاع أحمر؟!

. . . وكأني بأم البنين ترتعد، وتقف، وترتعد أكثر، ثم تنطلق في عبادتها، تمخر عباب العاشقين، وتخوض لجة الذاكرين، وتنتصب في المدى أمامها كعبة المصطفى، ويلوح في المدى حولها كعبة المتقين، ويلوح لها مع ذكر الكعبة [حديث، نقله قبل حين عبد الله بن عباس، بعد عودته من الحج مودعاً الحسين، . . . لقد كان يسرد الخبر بحزن يمازجه صبر، ولوعة يخالطها فخر، لقد هتف يخبر، كيف صعد أبو الفضل العباس ظهر الكعبة يوم التروية، ووقف خطيباً في الحجيج في ذلك اليوم المشهود، بعد ما كانت الحشود قد تقاعست وتتقاعس عن نصرة الحسين، وتخاذلت وتتخاذل عنه، بل إنهم سكتوا عن تهديد بني أمية له، ونصروهم

بالصمت والكلام عليه، خوفاً أو طمعا، . . . لقد وقف أبو الفضل خطيباً فيهم بنبرة قادحة بالعزم والإيمان ينادي بقوله:

ـ الحمد لله الذي شرّف هذا،

وأشار إلى بيت الله، ثم تابع:

ـ بقدوم أبيه!

وأشار إلى الحسين مستنتجاً:

ـ ما كان بالأمس بيتاً أصبح قبلة!

ثم إن أبا الفضل استرسل في حديثه يخطب بحماس واندفاع، مؤنباً مهدداً، مبيناً الحق وأصحابه فاضحاً الباطل وأزلامه، وقد رأى صمت الناس وتلجلجهم وتلعثمهم أمام كلامه:

ـ أيها الكفرة الفجرة، أتصدون طريق البيت لإمام البررة، ومن هوأحق به من سائر البرية ومن هو أدنى به؟! . . . ولولا حكم الله الجلية، وأسراره العلية، واختباره البرية، لطار البيت إليه قبل أن يمشي لديه، وقد استلم الناس الحجر، والحجر يستلم يده! ولو لم تكن مشيئة مولاي مجبولة من مشيئة الرحمن، لوقعت عليكم كالصقر الغضبان على عصافير الطير! . . . أتخوّفون قوماً يلعبون بالموت في طفولتهم، فكيف يكون حالهم في رجولتهم؟! . . . هيهات، . . . أنظروا في من شارب الخمر؟! ومن صاحب الحوض والكوثر؟! . . . لا بلغ الله مداكم وبدّد أعماركم وأولادكم، ولعنة الله عليكم وعلى أجوادكم!]

. . . لعل أم البنين يوم سمعت تلك الحادثة تُروى في المدينة، أثلج فؤادها الخبر، كلا، هي لم تكن لتعتز أو لتفتخر إلا بقدر، فولدها العباس هو هذا، نافذ البصيرة والبصر، كذا علمه أبوه وأخواه، وكذا روته بعبرات عشق آل المصطفى فارتوى واعتبر، . . . إن الخبر كان لها في تلك اللحظات حجة ألقاها ولدها على من يليه من البشر، أما الساعة، فهي تعلم علم اليقين أن ذكرها له ولإخوته قبل قليل لم يكن فتنة، . . . لم يكن ليشغلها عن صلاتها، بل هي كانت بمثابة من يتنشق نفحة من عطور الجنة، . . . إن حبها لأولادها لم يكن يوماً ليقف دون نجواها، بل كان دوماً طريقاً لطاعة مولاها.

وإنها في هذه اللحظة بالذات، لحظة انطلاقها في فضاء الملكوت، تطير خلف جعفر الطيار بأجنحة من نور، إنها لتستشعر فوق ما تعودته من خشوع، شعوراً غريباً ينتابها، . . . لم يكن غريباً عن طبائعها، ولا دخيلاً على ما تعودته من شمائلها، ولكنه كان حدثاً تصاعدياً، ربما بدأ منذ زمن بعيد، وراح يرقى في ذات نفسها حتى بلغ الذروة اليوم، . . . كان ذلك هو طغيان شوقها للحسين على كل ما عداه، أجل كل ما عداه، . . . حتى شوقها للعباس لولديه، لأشقائه، ذاك الشوق الذي لم يطغ يوماً على شوقها للحسين، ولكنه لم يكن ليتبدد تماماً تحت سناء شمسه الوهاجة المتألقة، . . . رغم شدة تعلقها بأولادها، رغم تفانيها في حبهم، إلا أن ما جرى ويجري الآن حقاً غريب، ولكنه إلى فؤادها حبيب، إنه دلالة تزيدها اطمئناناً على أن حبها للحسين قد استطاع فعلاً أن يلغي كل ما عداه، حتى لم يبق في القلب والروح أحد سواه!

إن شمس الحسين قد أشرقت على روحها أكثر فأكثر، حتى استطاعت أن تطغى على بدر العباس ونجوم إخوته، . . . أجل، فحتى ذلك القمر الذي سقط في حجرها يوماً وتلك النجوم، صارت بين يديها قرباناً مقدساً تقدمه فداءً للحسين، وهي هانئة قريرة العين، . . . أو ربما هي أنوار ذلك القمر وتلك النجوم، قد ذابت في شمس الحسين، فلم تعد أم البنين ترى بقلبها وروحها سوى تلك الشمس الوضاءة النور، تهز الوجود، بألق يبدد الديجور، فبما بالك بوجود أم البنين الفياض أصلاً بالنور؟!

ها هو ذكر جعفر ينتثر، وعطر جعفر ينتشر، وها هي دماء جعفر تنتصر. ودعاء جعفر، . . . يفيض سناء على روح أم البنين وينحدر، مع دموعها المنسكبة كالمطر، تنعش زهرة عشقها للزهراء، وإذا الزهراء فوق رأسها، تبكي ثانية وتندب جعفر.

انتفضت أم البنين، كان الأذان يُرفع، ويرتفع، . . . حتى إذا خُتم هبط فجأة، كأنما وقع من عليين، فقد كان يُختم، كما في كل يوم، بشتم أمير المؤمنين!

تلوّت فاطمة، تزايدت لوعتها وفاقت كل حد، رباه، . . . إلى متى الصبر بعد؟!

ولئن وقفت تصلي فريضتها إثر الأذان، فقد وقفت ثائرة النفس لا تقوى على الصمت عن هذا الطغيان، ولا هي قادرة على الرد، إنها ملزمة بإطاعة أمر مولاها الحسين، فهو قد أرادها في المدينة، كما أراد أخاه محمداً، عيناً ترصد، وقلباً يخفق ولساناً يذكر ويذكّر، إن عزّت القلوب والألسنة والعيون.

. . . إيه يا حسين، إلى متى هذا البلاء؟! . . . نسكت على ظلم الأدعياء وأولاد الأدعياء، ولا نجد للداء الدواء، . . . إلى متى تبقى الشفاه تتمتم في الخفاء، بما تود أن تعلنه في الملاء بأعلى نداء؟! . . . إلى متى تغشى السماء هذه الغمامات السوداء؟! وإلى متى تشتاق الظلمة العابسة إلى بسمات الضياء؟!

لعل أم البنين لم تدر ما اعتراها عقيب الصلاة،

وكأني بها تذرع الدار ذهاباً وإياباً، وتتململ وتتلوى، . . . لم يكن ألم جسم بل عذاب روح!

لقد بلغ القلق بها ذروته، وفاض معين العذاب حتى ملأ الوهاد والهضاب.

وفيما هي كذلك، يلهج لسانها بالذكر ولا يفتر عن الدعاء، ويلهج قلبها بالخفق قد أبحه النداء، وإذا بالكون يتغير، وإذا بالأرض تميد وتتزلزل، وإذا بالفضاء يغيم ويتبدل، وتنكسف الشمس، ويغشى المدى لون كالنجيع، وإذا صوت كالنحيب يطبق آفاق المدينة كلها، . . .

لعل أم البنين هرعت إلى فناء الدار تستطلع الخبر، وقد خالجها يقين بأن أمراً فظيعاً قد جرى، . . . أمراً تكاد السماوات أن يتفطرن منه وتنهد الجبال، أمرا، . . . ككسر ضلع البتول وإسقاط المحسن، كضربة ابن ملجم للأمير، كسم جعدة للحسن، . . . لا بل هو أدهى، . . . إن كان إلى أدهى من تلكم البلايا سبيل!

وكأني بأم البنين خرجت تهرول في أزقة المدينة، ووجهتها مصدر

النحيب، وإذا هو بيت أم سلمة، . . . [وإذا بالسيدة الطاهرة، التي لا يُسمع صوتها إلا في الملمات، تولول وتنتحب!

كأني بأم البنين تندفع نحو أم سلمة وقد ازداد ولهها، وأيقنت بالشر المستطير، تستوضح الخبر بسؤال دون صوت، ودمعة أشبه بدمعة المحتضر عند الموت، وإذا بأم سلمة تنادي وتردد، للجمع الملتف حولها من بني هاشم وغيرهم من أهل المدينة، يستطلعون الخبر:

ـ الساعة استشهد ولدي الحسين!

راح بعضهم ينظر إلى بعض ويتساءلون، وقد خفقت القلوب بوله وجنون، ودمعت الأرواح قبل العيون، أن كيف علمت السيدة الصالحة بهذا الخبر؟!

وأتاهم الجواب، بين شهقات أم المؤمنين وزفراتها:

ـ إنها تربة كربلاء، أعطانيها سيد الأنبياء فوضعتها في قارورة، وأخبرني أنها تفيض دماً عند مصرع الحسين، . . . لقد غفوت هنيهات، فرأيت رسول الله في منامي أشعث أغبر، فسألته عما به، فأجابني: «الآن فرغت من دفن ولدي الحسين!» لقد أفقت مذعورة، وهرعت إلى القارورة، وإذا التربة تفيض دماً، . . . أي واولداه، . . . واحسيناه! . . .

. . . أجهش الهاشميون بالبكاء، وكذا أهل المدينة، ولطمت الهاشميات الرؤوس وقرعن الصدور]، أما أم البنين، فكأني بها تنظر حولها كالذاهلة، لعل الدوار غشيها، حتى لم تعد تميز سبيلها، . . . حتى صوتها

لم تعد تجده، . . . كان خفق فؤادها يصم سمعها قد شدت أنياطه على أوتار صوتها، حتى إذا نظرت إلى السماء، لاح لها وجه الحسين يطل من تلك العلياء وإذا السماء تمطر بالدماء، . . .

ومع ذروة الألم تقطعت أنياط قلبها، فأفلت لسانها من عقاله، وأطلقت صرخة مدوية علت على كل نداء:

ـ واولداه، واحسيناه، . . . واعلياه، واحسناه، . . . وافاطمتاه!

ولعلها سقطت في مكانها مغمى عليها.

لئن تمنت أم البنين الموت، فقد تمنته في تلك اللحظة، فما معنى أن يبقى المرء في دار الفناء هذه، وقد خلت من كل ما يحدو إلى البقاء؟!

ولئن أصابتها الغشية، فقد حملتها ولو للحظات إلى بعد آخر، إلى مكان ليس في الأمكنة ما يشبهه، تمنت كما لم تتمن من قبل أن لا تعود منه.

كأني بها منطرحة على الأديم، قد اجتمعت حولها الهاشميات يوقظنها ويبكين، . . . ولكن، لعلها لم تكن ترى غير مشهد واحد، إنه مشهد الزهراء تقف فوق رأسها كما لم تقف من قبل، محمرة العين متناثرة القرط مكسورة الضلع مسقطة الجنين، معولة نادبة، إنه مشهد أمير المؤمنين يقف بإزائها، كما أخوه رسول الله، أشعث أغبر دامع العين، في أم رأسه أثر ضربته تزداد نزفاً، إنه مشهد الحسن مصفر الوجه شاحبه، يحمل بين يديه طشتاً فيه كبده المفتتة من أثر السم، . . . بل هو مشهد الحسين! . . .

آهٍ من ذلك المشهد، لقد أشعل في فؤادها أتوناً يتوقد، وأغمضت عينيها لفظاعة المشهد، وأفاقت لاهثة، تلتقط أنفاسها وهي عنها مستغنية،

لا تبالي أن تكون تلك هي آخر الأنفاس، بعدما استل منها الظلم والبغي أحب الناس.

ولكن، ترى، ما حال العباس، وعبد الله وعثمان وجعفر؟!

كلا، هي لا تريد أن تطمئن على سلامتهم، بل هي تريد أن تعرف، إن كان الحسين قد مضى شهيداً فهل بقَوا هم؟!

لئن كانوا قد بقَوا فهي أبأس الخلق طراً، إذ لم تحفظ أمانة أمير المؤمنين، ولم تكن بحملها جديرة.

أفاقت أم البنين من غشيتها، وقامت لتدخل دار أحبتها، قامت لتأخذ من البلاء حصتها.

إيه يا عباس، هل نصرت الحسين؟!... هل استسقيت له وسقيته؟!.. هل حفظت حرمته وحفظته؟!... هل كنت قائداً لإخوتك ولصحب الحسين إلى الجنة؟!... هل فديت الحسين يا عباس؟! هل فديته؟!...

لم يكن لديها الجواب، ولم يكن بالها ليهدأ بلا جواب.

طافت أرجاء الدار، جاست خلال الديار، وصلت إلى بقيع الغرقد، أكبت على قبر الحسن المجتبى، ولثمت تراب المرقد، وذرفت من الدمع ما حوّل التراب طيناً وسألت، ولكنها لم تجد الجواب.

خرجت تجر أذيالها إلى قبر الرسول، سألته بآخر ما أبقى لها البكاء من عبرات وأنفاس، كان الجواب هناك، ولكنها أرادت أن تطمئن،... كما فعل إبراهيم إذ عمد إلى الطير يريد إحياءها ليطمئن قلبه، ولكنها لم تكن

تريد إحياء العباس، بل كانت فقط تريد التأكد من استشهاده!

وتلوى فؤادها إذ أحاط فكرها بالحقيقة، العباس استشهد؟!...

بل الحسين استشهد، ... ويحها، ويح الدنيا ما أقساها وأظلمها، ويح الحياة ما أعقها وأجرمها، ويح السماء ما أضيق مداها، ويح الأرض ما أعمق ثراها!... أي وصف يعبر عما قد اعتراها؟!

لا شيء كان يستطيع أن يترجم صدى بؤسها وأساها!

لا شيء يمكن أن يصف حالها، لا الصمت ولا الكلام، مهما بلغت بلاغته، يمكن أن يُعرّف ما كانت عليه أم البنين في تلك اللحظات والساعات والأيام، لا شيء،... سوى أنها غرقت في يم عميق من الآلام!

***

أربعون يوماً وأكثر، مضت، والمدينة غارقة في الظلام،...

أربعون يوماً وأكثر والتيه يغشى الأفئدة واللوعة تعتصرها، حتى غدت رثة مهلهلة، لا تقوى على ضخ الدماء لمتابعة الحياة.

أربعون يوماً والدموع تجري، والألسنة تلهج بالسؤال، وتحاول أن تنكر الجواب:

ـ أحقاً قد قتل الحسين، سبط الرسول المصطفى، سيد شباب أهل الجنة؟!... أيعقل أن يبلغ الجور بآل أمية، والجرأة على الله أن يقتلوا ريحانة النبي، أن يسفكوا دمه، ويستبيحوا حرمته؟!

لم يكن الجواب عصياً، فقد كان لهم مما سبقه دليل عليه، ولئن قتل بنو أمية ابن بنت محمد بن عبد الله، فقد أدركوا ثأرهم من بني هاشم، إذ اعترف كبيرهم وصغيرهم على رؤوس الأشهاد:

[لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل]

ولكن، لعل جل أهل المدينة ظلوا في شك من الخبر، حتى يعاينوه عن قريب، [ورغم أن السماء أمطرت دماً لثلاثة أيام، وكان ذلك شاهداً نقل الواقعة لا كلام، ورغم أن خبر قتل الحسين عليه السلام، أُعلن على منبر مسجد جده، أعلنه والي المدينة، عمرو بن سعيد بن العاص، شامتاً مفتخراً. وذلك بعد ما بلغه الخبر عبر رسول أنفذه إليه اللعين ابن زياد]، ولكن الخبركان فظيعاً، لا يتحمله عقل، ولذا، فقد رفض الكثيرون تصديقه، حتى يرَوا بأم العين ما كان!

وكذلك كان، فبعد أربعين يوماً ونيف من الانتظار، خرج المارد من قمقمه، مضى يشق السحاب بكيانه الضبابي، فينتشر بين سجوف الغيم، يزرع في كل غيمة صيحة كنفخة الصور، لتحملها إلى كل أرض وسماء، فتمطرها وابلاً من البلاء، يحكي عما جرى في كربلاء.

لم يكن ذاك المدى من الزمان الذي انصرم ليحمل إلى قلب أم البنين لحظة من سكون، بل إن تأجج نارها كان قد اضطرم في ذلك اليوم الذي عبر فيه الرسول إلى عالم الرؤيا، ليخبر أم المؤمنين بما اقترف البشر من جرم يصغر أمام جرمه كل جرم.

واستمرت النار تتأجج، وتقلبت أم البنين على الغضى، كانت تستقبل

الغسق كما تستقبل الشفق، وتنظر إلى الفجر بنفس العين التي تنظر بها إلى الغروب، كانت الأزمنة قد تساوت عندها، وكذلك الأمكنة والدروب، لم يعد يعنيها الخروج إلى تلك الدرب الحزينة، كان كل ما يعنيها من النظر أن تحلق في البعيد، عساها تلمح ما رسمته في الأفق يد القدر، وأن تقلب بصرها في القريب، في أولاد العباس وزوجه التي هدّ كيانها فراقه، . . . وتتوالى في خيالها الصور، وتتذكر في ما تتذكر، كيف أتاها قبل سنين وسنين ذلك الخبر، خبر معركة الجمل، كيف حملت النسور والجوارح أطراف المقاتلين، ونثرتها فوق الرمال ذات الشمال وذات اليمين، وإنها لترتعش الآن إذ تتذكر، وتسأل نفسها وتتحير، هل في نفسها رغبة بالتأكد أكثر، من حدوث الواقعة. بل إنها متأكدة من حدوثها، ولكنها تريد أن تطمئن إن كان ولدها، أولادها، زرعوا أنفسهم في ذلك المدى، ونشروا أرواحهم ودماءهم ملء المدى، كما ينتشر من الصوت الصادح الصدى.

لعل كل نسمة تلامس وجهها، هي شذرة من تلك الأرواح الطاهرة، ولعل كل شعاع يتألق مع كل شروق وغروب، هو لمحة من ضيائها الملكوتي.

ولكن قلبها لم يطمئن بعد.

ترى، ما تبغين يا أم البنين لتطمئني، أتبغين أن تري بأم العين نسوراً تحمل أطرافاً من جديد، فتبعثرها فوق الصعيد؟! . . . أم لعلك تبغين أن تنظري إلى كفي العباس، تينك الكفين اللّذَين قبّلهما أمير المؤمنين، أن تنظري إليهما محمولتين في مخلبي نسر يحلق بهما في العلاء، ويرفعهما رايتين على رؤوس الملأ، أم لعلك تنظرين عساك ترينهما تحلقان في

أجواز الفضاء، بأجنحة من ضياء تقطر بالدماء؟!... أم لعلك تنظرين عساك تلمحين ولدك السقاء نفسه، يطير بين الأرض والسماء، ويرفرف، ويتساقط سقاؤه غيثاً ليروي الأرض الظمأى والكلأ؟!

وقد تنتشي أم البنين بالمشهد، وتتعجب، ترى، هل يسعدها ذلك المشهد؟!

بل إنه يرعبها، لكنه يسكن وجدانها، فيخاطبها ويهدهدها، أن قد وفى أبو الفضل بوعده، ونال من الفضل ما يليق بعهدها وعهده.

ولكن وجدان أم البنين ما كان ليسكن حقاً، ثم يزيد كيانها اشتعالاً إن كان إلى أكثر من ذلك الاشتعال سبيل، إلا حين ارتفع في المدينة ذلك الصوت الرفيع الجليل، ذلك النداء الأثيل، ببكاء ونحيب وعويل:

[يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرارُ
الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدارُ]

ترى، هل كانت صرخة كصرخة أم سلمة قبل حين، أم، ...

لم تسمع أم البنين الصوت بمسامعها، بل بروحها، ولم تسعَ إلى مصدر الصوت مشياً على قدميها، بل لعلها طارت نحوه.

وعندما وصلت، قرب مرقد النبي، لم تره بناظريها، بل ببصيرتها المنفتحة على عالم الملكوت.

كان العويل يتردد من كل حدب وصوب، كان النبي يطل على الجموع، وينسكب نور وجهه كما الشمس عند الطلوع، ولكنها شمس محمرة تقطر

بالنجيع، أجل، لقد كان الرسول يبكي، وكذلك بضعته البتول، وكذلك وصيه أبو الحسنين، وكذلك سبطه الحسن، . . . كانت السماء حمراء مكتظة بالملائك، وبأهل السماء يرفعون الأصوات بالبكاء، ويحتشدون لمواساة محمد وعلي والحسن والزهراء!

[أقبلت أم البنين نحو صاحب الصوت، كان الشاعر بشر بن حذلم، وإذا الناس قد راحوا يتناوشونه بالسؤال.]

لم يكن بمقدور أم البنين أن تسعى إليه، ولكن شيئاً ما في هيئتها ومشيتها، وربما جلالها وهيبتها، ربما سؤالها ولهفتها، جعله يترك كل الناس ويلتفت إليها.

[كان عبيد الله بن العباس، حفيدها، متعلقاً برقبتها، وكانت متعلقة به، وهي توجه السؤال مجروحاً مذبوحاً، دونما وعي، إلى الشاعر:

ـ أيها الناعي، هل لك علم بولدي الحسين؟!

التفت حوله مستغرباً، هو قد نعاه قبل لحظة، فلِمَ السؤال؟! . . .

وأرخى الناس عيونهم آسفين متمتمين:

ـ إنها أم البنين!

كان لا بد من الجواب، غصّ بشر بريقه وهو يخاطب الأم الثاكلة بقوله:

ـ سيدتي، عظم الله لك الأجر بولدك عبد الله!

نظرت إليه، . . . كان بصرها حتى تلك اللحظة سابحاً في الفضاء، فلما سمعت قوله، نظرت إليه، وتراخت قبضتها قليلاً عن عبيد الله، وهتفت

بملء الروح، وقد اختلط الحزن العميق في فؤادها بسكون عميق:

ـ فداءً للحسين، . . . سألتك عن سيدي ومولاي الحسين!

علم بشر أن الخبر قد يقتلها، . . . ربما هي لا تريد أن تصدقه، لم يكن بمقدوره إلا أن يزدرد غصة ويتابع:

ـ يا أم البنين، عظم الله لك الأجر بولدك عثمان!

لم تتغير نظرتها إلا قليلاً، ولم تتراخَ قبضتها عن الطفل إلا أكثر بقليل. وأصبح حزنها أعمق بقليل، وكذلك سكونها، وهتفت من جديد، بروح أكثر امتلاءً بقليل:

ـ فداءً للحسين، ما سألتك إلا عن مولاي الحسين!

تزايدت غصة بشر ومن حوله، وتزايد أسفه لرؤية تلك القوة وذاك السكون، وعاد يزيد:

ـ يا أم البنين، عظم الله لك الأجر بولدك جعفر!

لم تذهل، بل لانت نظرتها أكثر، ربما دمعت عينها التي كانت تغالب الدمع، وتصدع قلبها الذي كان يقاوم الصدع، ازداد الحزن عمقاً والسكون صمتاً وامتلاء الروح كاد يطفح، وعادت تردد:

ـ قلت لك فداءً للحسين، إنما سألتك عن سيدي ومولاي الحسين!

ربما أجهش بشر بالبكاء، لم يعد يقوى على مواجهة تلك القوة اللامحدودة، . . . لعله رفع صوته، يريد أن يهزها ويوقظها، وهو لا يوقظ إلا غيرها:

ـ سيدتي يا أم البنين، عظم الله لك الأجر بولدك العباس!

تلوّت أم البنين، تراخت يداها عن حفيدها، الذي لعله فهم ما قيل، فأراد احتضانها واللجوء إليها لتحميه من هذا الخبر الثقيل، ولكنها أفلتته، وقد خانتها يداها، لقد بلغ بها الحزن أعمق مداه، والسكون، أما الروح فطفحت، وانصدع قلبها وفاضت مقلتاها، وتهاوى الطفل فلم تستطع أن تحويه ذراعاها، وأنّت أنّة طويلة وهي تقول:

ـ يا هذا، . . . قطعت نياط قلبي، . . . أولادي، ومن فوق الغبراء وتحت السماء، كلهم فداء لأبي عبد الله الحسين، إنما سألتك عن ولدي الحسين!

عندها، لم يجد بشر بداً من القول بقلب مقروح:

ـ سيدتي، عظم الله لك الأجر بولدك الحسين!

لو كان للروح أن تفيض حزناً وللقلب أن يذوب قهراً وشجناً، لذاب قلب أم البنين عند تلك الكلمة، ولفاضت روحها، . . . لقد رفعت صوتها المبحوح، نظرت إلى السماء من جديد، وإذا الدم المسفوح على وجه الصعيد يزيد، ونادت، لعلها ما أرادت إلا أن تردد وراء تلك الأم المقدسة التي وقفت فوق رأسها تندب وتعيد:

ـ واولداه، واحسيناه، . . . . وامهجة قلباه! . . .]

ثم خرّت في مكانها مغمىً عليها، . . .

لم تكن غشيتها الأولى، ولكن، لعل أمراً ما أيقظها هذه المرة، سوى

رذاذ الماء الذي راحت تصبه فوق وجهها النساء، ربما ممتزجاً بالدموع، . . . وانبعث في عمق وعيها ووجدانها السؤال عميقاً مفجعاً مهولاً لا يكاد يقال:

ـ أين ابنتي زينب؟ . . . أين مولاتي وابنة مولاتي؟ أين حبيبتي زينب؟!

وقبل أن تطرح السؤال، [كان بشر يلتفت إلى الناس ليقول:

ـ أيها الناس، هذا مولاكم علي بن الحسين زين العابدين، نازل بظاهر المدينة، مع عيال أبي عبد الله ونسائه، فهلموا إليه!]

لم ينطق بشر بالكلمة الأخيرة وحده، بل نطق بها كل من اجتمع حوله، هتفوا بها بصرخة واحدة، وهم يقرنون الكلمة بالحركة، ويتواثبون ويتسابقون:

ـ هلموا إليه!

أما أم البنين، فهي لم تدرِ كيف قامت، كيف استطاعت رغم ما بها من دوار وارتعاد أن تمشي، لا بل أن تسعى سعياً، ولعلها كانت تخترق صفوف البشر الساعين، وتنسل بين الأشخاص وفوق الرؤوس، كما النسيم، فقد كانت تقذفها رياح الحنين، إلى ذلك الركب الثاكل الحزين، إلى حبيبتها وفلذة قلبها، إن لم تكن فلذة كبدها، زينب الحوراء بنت أمير المؤمنين.

. . . [وصلتها، فوجدت الفسطاط قائماً، وجارية قائمة عند بابه، تمنع النساء الوالهات من الدخول قائلة:

ـ أوصتني سيدتي ومولاتي زينب، أن لا أسمح بالدخول إلا لشريكاتها في المصاب!

لعل الجارية لم تعرف أم البنين، فقد كانت مخدرة لا يبدو منها إلا خيال طويل أسود، يلوح يميناً وشمالاً، وهتفت من قلب مجروح:

ـ أخبري مولاتي زينب أنني أم البنين!

وأتى الصوت من الداخل متحشرجاً مبحوحاً كما لم يكن قط:

ـ إنها والله شريكتنا في المصاب، . . . آه يا أم البنين!

ودخلت، ربما تعثرت مراراً قبل أن تصل إليها، . . . ولم تصدق عيناها، أن تلك المرأة النحيلة الشاحبة، ذات الوجه المكدود والقسمات المتعبة والشعر الأشيب، والعنق الملطخ بآثار السياط، هي زينب، ولعل ما خفي من بنيانها من آثار الضرب والسوط كان أعجب، . . .

لم تصدق أم البنين أن هذه هي زينب، التي لم تجاوز الخامسة والأربعين من العمر، . . . زينب، بنت سيدة النساء وسيد الرجال، زينب العقيلة، الكاملة الأوصاف والمزايا، واهاً لك أيتها الحبيبة، واهاً لما جرى على هذا الكيان المرهف من البلايا، حتى حوّل هذا الوجه اليافع المنعم الذي لم يكن يتعبه إلا الزهد، إلى هذا الهيكل المرهق الهزيل!

وصرخت أم البنين وقد انزاح قلبها من مكانه:

ـ واولداه، . . . واحسيناه!

وهبت زينب نحوها، وقد أطلقت صرخة مثل صرختها:

ـ وا أخاه، . . . وا عباساه!

واعتنقتا، . . . بكتا، . . . بكت زينب التي لم تكل ولم تمل من البكاء،

قبل عاشوراء وبعد عاشوراء، . . . ولكنها الساعة بكت، على ذلك الكتف الحنون، الذي طال بها العهد عليه، وحنت وأنت وهي تلهج وتقول:

ـ أماه، . . . أي وا أماه!]

وكأني بهما قد سارتا جنباً إلى جنب حتى وصلتا إلى المجلس،

وكأني بأم البنين وقد تهاوت، لعلها أرادت أن تكون عند قدمي زينب، فهما عندها كقدمي أمها الزهراء وهي تحتهما تكون أقرب ما تكون إلى ذلك الفلك السماوي الرفيع، . . . ولكن، كأني بزينب تأبى، بل هي تنكب عليها، وتجلسها بجوارها، تكرمها وترفعها إليها، وتقول:

ـ أنت في القلب يا أماه، وفي العيون، ومكانك بجانبي، فقد ربيت ورعيت، وواسيت وضحيت، كفاك بالعباس فخراً يا أم البنين، فقد واسى وضحى، وأبلى أحسن البلاء، بين يدي أخيه الحسين في طف كربلاء.

لقد ذكرت العباس، وأم البنين عن ذكره خجلة، فكيف تسأل عن المصاب الأصغر، والمصاب الأكبر ملء القلب والبصر.

ولكنها، أرادت أن تطمئن، لم يعد بوسعها أن تنتظر، . . . لعلها لمست كف الحوراء المجهد بأنامل مثلوجة ونظرت في عينيها الذابلتين نظرة ملحة لجوجة، وهمست في رجاء وحياء:

ـ سيدتي، عندي سؤال!

رفعت إليها الحوراء عينين أطفأت نضرتهما الدموع، ووجهاً ذهبت

برونقه حرارة الشمس، وعنقاً لم تخفضه السياط، وإن أثرت في لونه زرقة هنا وسواداً هناك:

ـ سلي يا أماه!

هل ازدردت أم البنين ريقها قبل أن تهمس بما أبقى لها اللهاث من صوت:

ـ هل وفى أولادي بعهدهم؟!... هل وفى ولدي العباس بعهده، هل أطاع إمامه وكان من جنده؟!... هل استشهد من قبله أم من بعده؟!

لعل زينب أجهشت بالبكاء قبل أن ترد، وكان بكاؤها أبلغ من أي رد، ولكن أم البنين كانت تنتظر، فأتاها صوت زينب قد أبحّه النحيب، وغيّر نبرته هول الخطب العجيب:

ـ إيه يا أم البنين، أعن العباس تسألين؟!... إيه يا أم البنين،... لعمري ما واسى أخ أخاه كما واسى العباس الحسين!... إيه يا أم البنين، لو ترين العباس كيف قطعوا منه اليدين، والسهم إذ أصاب العين!... إيه يا أم البنين، ماسجد العباس إلا لبارئه، ولا شك في إمامه طرفة عين!... إيه يا أم البنين، لقد سقانا أبو الفضل مرتين، وفي المرة الثالثة،...

غصت زينب،... لم تستطع أن تتابع، ولعلها تابعت بعد حين:

ـ إيه يا أم البنين، [عندما مضى العباس في المرة الثالثة، ليروي ظمأ الحسين، بعدما قدم كل الأضاحي، واحتسب إخوته أمامه،

وولديه، حتى إذا مضى الجميع، ووصل الدور إليه، كان الحسين ضنيناً بإذن القتال عليه، لقد وقف بين يديه، . . . طلب الإذن بالجهاد، فأرخى الحسين بالبكاء عينيه، وألح أبو الفضل، بكى وتوسل إليه، أن يمن بالإذن عليه، حتى إذا فعل سأله أن يطلب الماء، . . . وخرج السقاء، أخبرنا أبو عبد الله أنه كشف عن المشرعة أربعة آلاف فارس، ووصل، . . . ملأ قربته، وحمل،]. . .

لعل أم البنين قاطعتها وسألت منقطعة الأنفاس:

ـ سيدتي، هل شرب العباس ماء قبل الحسين؟! . . .

لعل زينباً أطلقت زفرة كاد ينقطع لها حبل الوتين، وتابعت:

ـ بل هو لم يذق منه قطرة، . . . [كان الماء في كفه فألقاه، ولم يذق منه قطرة، . . . وبلغني أنه قال بحرقة وعبرة:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أن تكوني
هذا حسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني ... ولا فعال صادق اليقينِ]

. . . أطلقت أم البنين لدموعها العنان، وهدأ فؤادها واستكان، وسبحت في آفاق الزمان والمكان:

ـ بوركت يا عباس، بوركت يا قمر العشيرة، لقد بيضت وجهي عند مولاتي فاطمة ومولاي علي ؛ . . . ما أثلجت صدري قط كما

فعلتَ الساعة، بوركت يا ولدي، . . . بوركت!

***

كانت الأخبار كثيرة، وكانت جعبة زينب ملأى طافحة، كما كان قلبها الطافح هماً ودماً وصديداً، وكذلك كانت سكينة والرباب وأم كلثوم، وسائر الهاشميات اللواتي شهدن كربلاء، وحُملن من بلد إلى بلد على بعير بغير وطاء، أُسرن وأُذللن، ولكن رؤوسهن بقيت شامخة في العلاء، ينظرن إلى الحق المتألق في السماء، ينظرن إلى احمرار النجيع المنتشر مع كل شعاع من ضياء، وتلهج ألسنتهن بالدعاء، كما تتراوح في أنفاسهن أصداء البكاء.

[ولكن ما كان يميز زينب عنهن، أنها كانت تحمل فوق همومهن همهن، فقد كانت عنهن مسؤولة، . . . لا عنهن فحسب، بل عن وريث الإمامة، بقية العترة النبوية في تلك الآونة، الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، وكذلك عن ولده، ووريثه في الإمامة، الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، الذي كان آنذاك لا يتجاوز الثالثة من عمره!]

كانت زينب تحمل فوق ثكلها بأهل بيتها، وحزنها الذي دونه كل حزن، ثقلاً تنوء به الجبال الرواسي، ولكن العقيلة كانت أرسخ من الجبال، ولذا فهي لم تنؤ ولم تتهاوَ أمام الحمل الثقيل.

[بل هي أيضاً حملت مسؤولية أخرى، كان عليها أن تتابع الطريق، أن تبلّغ عن الحسين!

وكان أول تبليغها، أن هتفت حال دخولها المدينة، ولما بلغت مسجد

جدها ومثواه، . . . رفعت صوتها الذي لم يكن يسمعه أحد، فسمعه في تلك الآونة العدو والصديق، ونادت من قلب مقروح بنبرة تصدع القلب والروح:

ـ يا جداه، يا رسول الله، . . . إني ناعية إليك أخي الحسين!

وارتفعت الأصوات حولها بالنحيب، وهي لم تكن قد هدأت بعد.]

. . . واستقبلتها الدار، . . . لا أهل الدار، حماتها ورعاتها وأصحاب الذمار، بل الباب والبنيان والجدار، والفراغ والظلمة والغبار، . . . ولكن الدار كانت تنعى أهلها، ولو قُدر للجماد أن ينطق وأن يفهم البشر منطقه، لقالت الدار وأبلغت، ولكنها نعت أهلها بسكون الموت، ورجع الصدى للصوت، وإيواء الأحبة واحتضانهم، وتظليلهم من أشعة الشمس وحر الهجير، بعد ذل الأسر وطول المسير.

ولكن، ما ينفع حضن لا دفء فيه، وجسم لا قلب فيه، وظل لا روح فيه؟!. . .

لقد بكت الهاشميات شهداءهن، وبكين قبلهم الحسين، . . .

كان مقبولاً لدى كل إنسان أن يُقتل أي إنسان، مهما بلغ من علو المقام وعظم الشان، أما أن يُقتل الحسين، . . . أما أن تُسبى حريمه ويُطاف برأسه ورؤوس أولئك الأبطال أشراف العرب والمسلمين، من ذادوا عن الدين وجعلوا من أنفسهم وقاء لنفسه، ولكنهم لم يغنوا عنه أن يبلغ به قدره إلى رمسه، لحكمة أرادها المولى وتوّجها بعز قدسه، . . . فذاك أضنى للقلب وأقسى، أن تفدي من تحب، ولكنك حتى لو بذلت الروح لم تستطع أن تذود عنه، ولكن، يكفي أنهم لم يشهدوا مصرعه!

أما من شاهدت، فقد رأت وتأملت، وبلغت روحها التراقي من أثر تلك الرؤية الفظيعة، ولكنها عادت فبلغت، . . . لقد كن تلكم النساء اللواتي كتب عليهن الأسر والصبر ولبس الأزر، وعلى رأسهن، أم المصائب زينب!

لقد رصدت أم البنين، بنفس العين التي ربت وسهرت سنين وسنين، وانتظرت لأشهر طويلة على درب الحنين، وراقبت طلوع الشمس وغروبها الحزين، رصدت خروج الهاشميات معولات يندبن الحسين في أرجاء المدينة، ويعاتبن أهلها لا بل يعاتبن الإسلام والمسلمين:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضُرجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ورصدت وقوف الإمام زين العابدين، شاباً لم يجاوز من العمر الحادية والعشرين، ولكنه، لما مر عليه من صنوف الهم والغم والبلاء والسقم، والحزن والقهر، وعذاب الأسر، قد بدا ناحل الجسم محني الظهر ككهل جاوز الخمسين!

لقد وقف بين الناس، الذين تطلعوا بقلوبهم إليه، . . . كان صورة أخرى عن والده الحسين، . . . نظرت إليه أم البنين، وهي على ولهها ودموعها صامتة تلوذ بالأنين، واستمعت لصوته يرتفع، [بعدما أومأ للناس أن يصمتوا عن البكاء، وخاطبهم فقال:

ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. . .

أيها الناس، إن الله وله الحمد، ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبد الله وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية!

أيها الناس، فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله؟! . . . أم أي عين منكم تحبس دمعها وتضن عن انهمالها، ولقد بكت السبع الشداد لقتله، . . . .

أيها الناس أصبحنا مطرودين مشردين، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها! . . . فعند الله نحتسب ما أصابنا وما بلغ بنا، إنه عزيز ذو انتقام!]

***

ومع أن الأيام مرت، لكنها كانت عند أم البنين قد وقفت واستقرت في نقطة واحدة، وعند لحظة واحدة، لحظة استشهاد الحسين!

. . . هي لم تبخل على أولادها بالدمع لفقدهم، ولا على أحفادها بالضمة والأنة ليتمهم، ولكن روحها كانت تحلق في سماء الحسين، فما كانت تستطيع أن تحط الرحال، ولذا فهي كانت تحلق وتهيم، وتبقى تحلق لا تريم!

حتى حينما كانت تجالس زينب، وتحادثها وتواسيها، فتَبكيان وتُبكيان، . . . كانت ترى في نظرتها نظرة الحسين، وفي نبرتها نبرته، وفي صورتها صورته.

حتى حينما كانت تذكر أولادها، وتذكر ما ذُكر لها عن كيفية استشهادهم، هي لم تكن لتنحدر من ذلك الصرح العلوي، بل كانت تزداد ارتفاعاً وسمواً، ولم تكن شدة الحزن تزيدها إلا قوة، . . . ولعلها كانت لتسأل زينباً، وبعدما استقر بها المقام وما كان المقام ليستقر بها بعد الحسين، إنها كانت لتسألها عن جعفر وعثمان وعبد الله، وكأنما تستوقف الشمس عند المغيب، وتزفر مراراً بين الكلمات، إذ تتوالى وتتكرر أمام ناظريها الذكريات، التي لم تصبح بعد في عداد الذكريات، فهي هنا وهناك، وحيث تنظر وتلتفت أدنى التفات:

ـ إيه يا أماه، . . . [لو ترين العباس، كيف وقف كالطود الشامخ يعظ الأعداء بنفسه]، كيف بهرهم بشمسه، كيف صال وجال بينهم بسيفه وترسه، . . . [لقد وقف في بني هاشم يدعوهم للتمسك بحبل الحسين، ولما حمي الوطيس، كان لهم قائداً ولسائر الأنصار، وعنهم جميعاً ذائداً، فإذا حوصر أصحابه، قام بأمر الحسين أو برفقته، يهبط على الأعداء كالبرق الخاطف والرعد القاصف فيستنقذهم.]

إيه يا أماه، لو رأيت العباس لرأيت عجباً، [لقد صال كصولات أبيه أمير المؤمنين، وذكّر الناس بأسد بدر وحنين، حتى إذا بلغ نهاية المطاف، ولم يبق من الأنصار إلا بنو هاشم، بادر يريد أن يبدأ بالقتال، ولكن أخي الحسين كان يؤخره، ويؤخره!

أماه، أتدرين؟! . . . لقد قدّم أخي الحسين للموت ولده علياً الأكبر، علي، شبيه جدي رسول الله، علي، . . . والهفي على علي!

هو لم يرض أن يسبقه للبراز من بني هاشم أحد]، . . . أتدرين؟!

وغصت زينب، وضمتها أم البنين بغصة أشد، وقالت:

ـ هو الحسين بن علي، . . . هو الحسين بن فاطمة بنت رسول الله، ألم يكن جدك رسول الله يقدم أهل بيته الأقربين على أصحابه في المعارك، ويتخذهم لهم دروعاً في كل الدروب والمسالك؟! ألم يشهد شهادة عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر يوم مؤتة، وكان أبوك في كل تلك الحروب أول القوم، يقي المسلمين بنفسه، ويرد عنهم الضرب، لا بسيفه وترسه، بل بجسمه ويده ورأسه؟! . . . وهو ذا الحسين، يقي أحبته بأحب أحبته، . . . أي واحسيناه، أي واعلياه!

ولما هدأت زينب، إن كان لها أن تهدأ، عادت تتابع السرد من حيث انتهت، وربما أكثر:

ـ أماه، لعل العباس اقتدى بالحسين، وواساه أيضاً بذلك، . . . لقد قدم للموت ولديه محمداً والقاسم، . . . ويحي لذينك الغلامين، ويحي لهما من درتين لم يبلغا أوان الشباب! . . .

وكأنما تذكرت زينب أمراً، وكأني بها تلتفت إلى أم البنين تسأل عن لبابة، كيف أصبحت، وكأني بأم البنين تتنهّد من قلب مقروح إذ تتمثّل لبابة، . . . ويحي على لبابة وما جرى على لبابة، . . . إنها قد استنفذت كل قوتها في الصبر بانتظار الحبيب، حتى إذا بلغها أن الحبيب قد سبقها إلى الجنان، صار همّها اللّحاق به، . . . أجل فإن لبابة قد تهاوت، ما عادت

لديها القدرة على تحمّل جريان الروح في جسمها الناحل الذي أذواه الانتظار، . . . إنها قد أسلمت قلبها إلى مالك ذلك القلب، ولم يبق لها إلا أن تسلم الروح إلى مالكها لا غير، . . . لقد حمّلت لبابة أم البنين فوق ما كانت تحمل، إن كان إلى أكثر من ذلك الحمل سبيل، . . . لقد حمّلتها رعاية أطفالها الباقين، أطفال العباس، ولم يكن أمام أم البنين إلا أن تتحمل في سبيل العباس. . . ، طأطأت أم البنين رأسها وهي تردّ على حبيبتها بين دموعها المنسجمة:

ـ لم يدع الثكل امرأة من بني هاشم إلا نالها، لها فيك يا سيدتي أسوة حسنة، . . . إن المصاب لعظيم، وإن الخطب لمهول، ولكن الجرح يسكنه الجرح الأعمق، والطعنة تصمتها طعنة أشد إيلاماً، . . . إن مصاب الحسين لم يدع لنا مصاباً سواه، . . . واحسيناه!

كانت أم البنين جميلة التصبر، جميلة العزاء، كانت تنطق بما تراه وتحياه، كانت ترى كل مصيبة سوى مصيبة الحسين هيّنة، حتى ولو كانت فقدان الحبيبة زوجة الحبيب، وآخر أشعة من شمسه تؤذن بالمغيب.

. . . وكانت تريد أن تعلم علم اليقين، أن ولدها قد وصل إلى مبتغاه، وأنه لم يتعثر قط في ممشاه. ولذا فإن زينباً لم تبخل عليها بتتمة الحديث، . . . لعلها كانت ترى في عيني أم البنين سؤالاً آخر، وكأني بها تجيب:

ـ أماه، [إن أبا الفضل لم يكتف بمواساة أخيه بولديه، بل هو دعا إخوته،]. . .

لعل زينباً صمتت هنيهة، . . . لعل الدم جمد في عروق أم البنين، وكادت أنفاسها تخمد، ولكن زينباً لم تلبث أن التفتت إليها تسألها:

ـ أتدرين يا أم البنين، [أن ذاك الملعون شمراً أتى بأمان من ابن زياد للعباس وإخوته، بحجة أنه من أخوالهم]؟!

لعل أم البنين قرعت صدرها بجمع كفها وهي تطأطئ رأسها ثانيةً، ولكن خجلة مضطربة هذه المرة، وتقول:

ـ سيدتي، ما أنفت يوماً من الانتساب إلى بني كلاب، إلا حينما علمت أن هذا الكلب الأبقع ينتسب إليهم، ويحي وويح أهلي ونسبي، . . . وما يريد هذا اللعين الألعن من أولادي؟!

لعل زينباً أقبلت على أم البنين تواسيها وتخفف عنها قائلة:

ـ لا عليك يا أم البنين، إنما يخرج الله الخبيث من الطيب، فلا عيب في أهلك ونسبك إن كان هذا الخبيث قد خرج منهم، فهم والله الطيبون، ولو لم يخرج منهم إلاك لكان في ذلك الكفاية، كيف وفيهم من لا ينكر ولاؤه، أما ما أراده الشمر اللعين فلا أظنه إلا أراد فتنة العباس من جهة، وإنقاذ جيشه الجبان من وقع سيفه وقناته من جهة أخرى، ولكن هيهات، . . . هو لم يعرف أبا الفضل، [لقد ناداه مراراً بين الصفوف، فأبى العباس أن يجيبه، ولكن أخي الحسين أمره بأن يجيبه ولو كان فاسقاً، فلما عرض عليه الأمان]، أتدرين بمَ أجاب العباس؟!

وكأني بأم البنين يرتفع لهاثها وهي تجيب:

ـ سيدتي، لعن الله الشمر ولعن أمانه، . . . .

لعل زينباً تبسمت بسمة كالبكاء وهي تقول:

ـ ذاك ما رد به العباس عليه يا أماه، لقد كان أمانه خدعة أراد بها تفريق الناس عن الحسين، فالعباس هو صاحب اللواء وكبش الكتيبة، ولكن هيهات، [فهو لم ينل من العباس إلا اللعنة]، وارتفع اللواء خفاقاً فوق رؤوس أصحاب الحسين أكثر من ذي قبل، رغم أنوف الظالمين.

ـ وماذا قال العباس يا سيدتي؟!

سألت أم البنين وقد هدأت نفسها ولكن احتبست أنفاسها، . . .

فأجابت زينب وهي تتنهد:

ـ لقد قال ما قلت يا أماه، وأكثر، . . . [لقد رفع صوته في وجهه قائلا: «لعنك الله يا شمر ولعن أمانك، أتؤمنني وابن رسول الله لا أمان له؟!»]

ثم تابعت وهي تستدعي صوراً وذكريات لم تتوار عن خيالها وفكرها بعد، ولن تفعل:

ـ [لقد أقبل العباس يا أم البنين، حتى وقف بإزاء الحسين، ونادى إخوته، . . . ناداهم واحداً واحداً، فإذا هم يلبون نداءه بوجوه مشرقة ونفس للشهادة متشوقة، وهتف بهم بصوته الرنان الذي تعرفينه:

ـ تقدموا يا إخوتي، . . . تقدموا حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله،

تقدموا بنفسي أنتم فحاموا عن سيدكم حتى تموتوا دونه!]

لقد ودّعهم، . . . استودعهم الرحمن، وهو خير مستودع.

وشهقتا بالبكاء معاً، حتى إذا وجدت أم البنين صوتها، هتفت بقلب مقروح:

ـ واولداه، واحسيناه!

فأجابتها زينب:

ـ واأخاه، واعبد الله، واعثماناه، واجعفراه، أي واعباساه.

لعل ذاك المجلس لم يكن يحتمل بقية الخبر، فالروح قد بلغت التراقي، ولعل تتمة الخبر جاءت في مجلس آخر، وما أكثر مجالس أم البنين وزينب، وما أكثر الأخبار!

لم يكن يعني أم البنين بعدما علمت أن ولدها وفى بوعده وبذل غاية جهده، وقدم نفسه، وقبلها إخوته وولديه، . . . لم يكن يعنيها أن تعرف كيف قضى نحبه، بل لعلها لم ترد أن تعرف، لكي لا ينشغل فكرهابصورته، فتنشغل بها عن صورة الحسين، وإن كان ذلك عسيراً، فصورة الحسين كانت لها ملء القلب والفكر والعين!

ولكن، لعله كان قد بقي سؤال، . . . كيف ختم العباس ذاك الجهاد المشرف بين يدي الحسين؟! . . . هل أضعفت يقينه بادرات الموت، أم هل زلزلته تلك الأهوال عند النزال؟!

وكان الجواب عند زينب، وفي تلك الأبيات التي ما فتئ يرددها أهل

المدينة مستعبرين، ينقلونها عمن شهدوا الواقعة ووصفوا الفاجعة، ما أتى على لسان شهداء كربلاء، من حديث وشعر ونداء.

[فأما عبد الله، فقد روَوا عنه ذينك البيتين اللّذَين رسم بهما لنفسه درباً إلى عليين، قبل أن يلحق بالطاهرين الطيبين:

أنا بن ذي النجدة والأفضالِ ذاك علي الخير ذو الأفعالِ
سيف رسول الله ذي النكالِ في كل يوم ظاهر الأهوالِ

وأما عثمان، فقد أنشأ يرتجز قائلاً، وقد تقدم للحرب بعد استشهاد أخيه، وبعدما دعاه العباس إليه، وقدمه للحرب ليطمئن عليه:

إني أنا عثمان ذو المفاخر شيخي علي ذو الفعال الطاهر

وأما جعفر، فواهاً لجعفر، لم يجاوز من عمره التاسعة عشرة، وقد قدمه العباس للحرب بعد استشهاد أخويه، وهو يحثه ويعرض الجنة عليه، فهب للحرب والضرب وهو يقول:

إني أنا جعفر ذو المعالي ابن علي الخير ذي النوالِ
ذاك الوصي ذوالندى والوالي حسبي بعمي شرفاً وخالي]

إيه جعفر، . . . وما فخرك بعمك وخالك؟! . .

هل طأطأت أم البنين برأسها خجلاً من جديد خوف العتاب من أمير المؤمنين؟! . . .

وهل خال جعفر كعمه؟! . . . وهل بنو كلاب، على بطولتهم وشرفهم وولائهم لأهل البيت، كبني هاشم؟!

ولكن، مهلاً يا أم البنين، فلا تحزني، . . . لعل جعفراً أرادها رسالة إليك، ليعلمك أنه إذ يفتخر بانتسابه إلى أمير المؤمنين، لا ينسى قط أي شرف تحوزين، وأي ري رويت ذاك الزرع الذي تتعهدين، . . . هو يريد أن يقدم لك الشكر على ما حبوته من تربية وخلق قويم، وإرثٍ من بطولات وخير عميم، ولئن كان أمير المؤمنين نفسه قد تخيرك من بين النساء لهذا، فلِمَ لا يفتخر به جعفر بن أمير المؤمنين؟!

***

بقي أن تعرف أم البنين، كيف كانت آخر ساعة في حياة ولدها أبي الفضل.

ولئن واكبت حياته منذ الولادة حتى الصبا والشباب، لحظة بلحظة، وخطوة بخطوة، فهي كانت تتمنى أن تواكب على الأخص، تلك اللحظات الأخيرات، لتطمئن حقاً إلى أنها أدت ما وُجدت لأجله منذ الولادة حتى الوفاة.

هي كانت ترى كل ذلك بعين القلب، ربما منذ وقع وكان، فقد كان العباس لها عيناً وقلباً يرى ويخفق ويتصل بعينها وقلبها عبر الروح والوجدان، كما كان منذ كان، . . . ولكن، هي تفاصيل صغيرة لن تسأل عنها، ولعلها ستدركها وإن لم تسأل عنها، فهي تتبعها وإن لم تتبعها، وهي تنجذب نحوها انجذاب الحبيب لحبيبه، وهل أحب إليها من العباس، سوى الحسين؟! . . . فلئن أذن الحسين لقلبها المملوء به أن يتزين ببعض الزركشات ويتعطر بشيء من تلك النفحات، فلا بأس، . . . فهي تزيدها اطمئناناً أن العباس مضى على ما مضى عليه البدريون المجاهدون، مضى إلى ما وُعد به المتقون، مضى بدراً

مستتم الكمال، يهتدي به المؤمنون في ظلمات الضلال، فيكون لهم مرشداً إلى ذلك الدرب ومعبراً يرقى إلى ذاك المثال.

. . . لقد بلغ أم البنين من أخبار العباس ما قواها ورفع رأسها وزاد رضاها، . . .

بلغها فيما بلغها [خبر المارد بن صديف التغلبي، . . . ذاك المارد المتجبر الذي طلب العباس يوم عاشوراء ليبارزه، وقد راح يتمختر بدرعين، على فرس شقراء أعلى ما يكون من الخيل، يحمل رمحاً طويلاً ولساناً أطول، ويحاول أن يخيف العباس بشكله وقوته، ولكن العباس أجابه بما يليق بمثله أن يجيب مثله، فقال:

ـ أنا يا عدو الله وعدو رسوله معود على لقاء الأبطال والصبر على البلاء في النزال، ويلك، . . . أليس لي اتصال برسول الله ﷺ؟! . . . وأنا غصن متصل بشجرته، وتحفة من نور جوهره؟! . . . ومن كان من هذه الشجرة لا يدخل تحت الذمام ولا يخاف من ضرب الحسام، فأنا ابن علي، لا أعجز عن مبارزة الأقران، وما أشركت بالله لمحة بصر، ولا خالفت رسول الله في ما أمر، وأنا منه والورقة من الشجرة، وعلى الأصول تثبت الفروع!]

. . . لله درك يا ابن أمير المؤمنين، . . . لكم بردت غليل أمك أم البنين، إذ سمعت مقالتك وتذكرت بحديثك حديث أبيك وببلاغتك بلاغته، وهل أنت إلا حرف يبلّغ ذاك النبأ العظيم، وخط يقود إلى ذلك الصراط المستقيم؟! . . .

وأما تتمة الحديث فهي كبدايته، بل أبهى وأبلغ، [فقد أنشد العباس يقول:

صبراً على جور الزمان القاطع ومنية ما إن لها من دافع
لا تجزعنّ فكل شيء هالكٌ حاشا لمثلي أن يكون بجازع

حتى إذا هاجمه المارد برمحه، وقد استهون أمره، مكنه العباس من نفسه، حتى إذا وصل إليه قبض على الرمح وجذبه إليه، فكاد يقلع المارد من سرجه، رغم عظيم جثته، فترك رمحه ورد يده إلى سيفه، فشرع العباس الرمح للمارد صائحاً به:

ـ يا عدو الله، . . . إنني أرجو من الله تعالى أن أقتلك برمحك!

فجال المارد على العباس وقحم عليه، فبادره العباس وطعن جواده في خاصرته، فشبّ به الجواد ووثب المارد إلى الأرض، فلم يكن للّعين طاقة على قتال العباس راجلاً، فقد كان ضخم الجثة ثقيل الخطوة، فاضطربت الصفوف وتصايحت الألوف، . . . وقصده غلام له بفرس يقال لها الطاوية، ولكن العباس كان أسبق إليها، فوثب وثبات مسرعات وصل بها إلى الغلام فطعنه واحتوى على الطاوية فركبها، ومال على المارد الذي راح يستنجد بقومه وقد أيقن بالهلاك قائلاً:

ـ يا قوم، . . . أأُغلب على جوادي وأُقتل برمحي؟! . . .

وأقبل الجيش ينقض على العباس كالسيل، ولكنه لم يهن ولم ينكل، ولم يرتعد ولم يتزلزل، بل هو قصد المارد برمحه فطعنه به فأرداه، ثم عاد

إلى الجيش فقتل منهم من قتل، وجندل من جندل، فصاح به الحسين عليه السلام:

ـ يا أخي، استند إلي لأدفع عنك وتدفع عني!

فما زال يقاتل دون الحسين حتى كشفهم، فهتف به شمر اللّعين وكأنما يعيّره:

ـ يا ابن علي، إن كنت قد رجّلت المارد عن الطاوية وقتلته، فهي والله التي كانت لأخيك الحسن يوم ساباط المدائن!]

ترى، هل كان الشمر اللّعين يذكره بما جرى لأخيه الحسن من ضربته في ساباط المدائن؟! هل كان يريد ان يذكره بخيانة الخائنين ليطفئ همته ويضعف عزيمته؟!... ولكن، هيهات،... ما كان للشمر ولا لسواه ذلك، و[لقد أتى الرد من الطاوية نفسها، التي ما كادت ترى الحسين عليه السلام حتى لاذت به]، وكأنما تريد أن تقول للشمر وأمثاله من اللعناء، أن الأنعام هي أشد وفاءً من البشر في كثير من الأحيان، ولئن كانت يوماً مطية للحسن عليه السلام، فهي اليوم لصنوه وأخيه الحسين أكثر وأشد انقياداً.

... وأُبلغت أم البنين كذلك، بآخر ما صنعه العباس في آخر ساعة من حياته، .. شدت قامتها المديدة ونظرت إلى العلاء بنظرة جديدة، وهي تستمع فتحول الكلمات صوراً تنسجها ذرات الخيال في ذلك المدى المتعال، وكان الراوي يخاطب الناس ويصف، ويسهب فيمضي ولا يقف. ويشحذ القرائح والهمم، ويتسلق الجبال بهم ويرتقي القمم:

ـ إيه يا ابن أمير المؤمنين، ... إيه يا حامل اللواء، ما حُمل لواء في

تاريخ العرب مثلما حُمل لواؤك، [حتى اللعين يزيد، حينما سُلّم إليه اللواء في جملة الأسلاب، قام متعجباً له وجلس، ثم قام وجلس، ثم قام وجلس، ثلاثاً، . . . فسُئل في ذلك فأجاب: «عجبت للواء تمزق إرباً إرباً حتى لم يبق منه إلا مكان قبضة اليد، فإذا هي سالمة، إن حامل هذا اللواء بطل ولدته الأبطال!»]

أجل يا عدو الله، [فلواء العباس ظل في يده، يذود عنه ويحامي، ما بقي فيه نفس يردده، . . . حتى حينما مزقوا جسده، ظل اللواء قائماً]، . . . إيه يا عباس، . . .

هو ذاك فرسك يجول بك بين الصفوف، وسيفك في يدك يسقي الأعداء كأس الحتوف، حتى إذا وصلت إلى المشرعة لتملأ قربة الماء، وقد كان ذاك هو الهدف، أن تروي أخاك الحسين وأطفاله، . . . ونزلت إلى المشرعة، وملأت القربة وإذا الماء بيدك قد انجرف، وقلبك كالجمر من شدة الظمأ، . . . ولكنه كالأتون لعشق الحسين قد ارتشف، نظرت إلى الماء وخاطبته وقد عز عليك أن يكون هذا الجماد في جهادك هو الهدف، وخاطبت نفسك:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أن تكوني
هذا حسين وارد المنونِ ... وتشربين بارد المعينِ
تالله ما هذا فعال ديني ... ولا فعال صادق اليقينِ

. . . إيه يا صادق اليقين، إيه يا ابن كمال الدين، لقد فزت في امتحانك، ولم يغرك ما هو أعذب الماء، . . . «ألا من ناصر ينصرنا، ألا

من ذاب يذب عن حرم رسول الله»، فكنت أنت الناصر والذاب، . . . والسقّاء، . . .

ولكن هيهات، . . . ما أشد ما تلهف قلبك وذاب، بعدما أبى ابن رسول الله أن يمنحك الإذن بالقتال، بعد فناء عسكره، . . . وبكى لفراقك وبكيت لفراقه، . . . ولما كان لا بد لك من الذهاب، وكان لا بد من الجواب، سألك أن تأتي بالماء للأحباب، إذ لم تطاوعه نفسه أن يرمي بك في لهوات الحرب والضراب، لتدفع عنه، وهو لو استطاع لدفع عنك، . . . أوليس [كان يقول لك كلمة ما قالها لسواك: «بنفسي أنت!»]

أجل يا قمر العشيرة، . . . ولئن كنت في انتظار الرد إذ ذاك ملهوفاً، [فقد سارعت تحمل السيف والدرع والقربة، وتسعى نحو الميدان مشغوفاً، تريد أن تروي ظمأ الأحبة، كما تعودت منذ عرفت معنى العطش والري، فكنت للحسين مذ ولدت نعم الري، . . . رويت قلبه بالتفاني والمحبة، قبل أن ترويه بماء من قدح أو قربة.]

إيه يا عباس، . . . ولعلك لو قصدت الحرب نفسها لا الاستسقاء، عند خروجك إطاعة لأمر مولاك، لما تركت ببطولاتك في بني أمية وسائر العرب مكاناً لسواك، ولأفنيت جيش ابن سعد وغرست في فسطاطه المشؤوم لواك!

[ولكنك كنت بالماء مهتماً، ولعطش الحسين مغتماً، فخرجت بالقربة من داخل اللجة، ولو استطعت لطرت بها فوق الجيوش، واخترت درباً أردتها إلى مخيم الحسين أقرب]، فكانت إلى جنان الرحمن أكثر قرباً،

وكانت درب النخيل مسلكك في رحلة الإياب، . . . [ولكن الجيش اللعين هاج وماج، وهجم على السقاء، يريد أن يحول بين الحسين والماء].

ويحي لك يا حسين، لقد حالوا بين العباس وبينك، وفي ظنهم أنه لك الماء وأنت الظامئ، وما علموا أنك أنت له الكوثر وهو المستسقي الظامئ، . . . وأنه لك الحبيب القريب، بماء أو بلا ماء، بلا فرق!

[ولكن الماء صار هو الهدف، ولذا فإن العباس لما حمل القربة وقصد طريق النخيل لقربها من الهدف، كان يريد إيصال القربة لا مبارزة الأقران، ولئن قاتل ففي سبيل ذلك، . . . ولو كان هدفه المبارزة والقتال، لما صمد له منهم واحد عند النزال، . . . ولكن الغدر جبل في طينتهم، والعباس ماضٍ في سبيله، قد علق القربة في صدره، فوق قلبه، وهوبها مهتم لا بهم، فكمن له لعين وراء نخلة في الخفاء، فضربه على يمينه فقطعها، فطارت في السماء.]

ترى، هل استطاعت أم البنين أن تنسج بخيالها تلك الصورة الدامية المهولة؟! . . . هل استطاعت أن تنظر إلى شبلها مقطوع اليمين؟! . . . هل رفّ جفناها ودمعت العين، كما رفّ القلب وتهاوى؟! . . . ربما!

واستمر الراوي يصف، . . . [كيف انحنى العباس، من فوق ظهر فرسه، على يمينه المقطوعة وتناول السيف منها بشماله، بعدما ضم اللواء بعضدِه المقطوع إلى صدره، لينضم هناك إلى القربة المملوءة حباً وعطاء، والملطخة بالدماء، . . . لم يمنعه عظيم ألمه أن يرفع الصوت أكثر عمقاً وبهاء، ليقول مرتجزا:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقينِ نجل النبي الطاهر الأمينِ

ولكن الغدر كان له بالمرصاد مرة ثانية، وإذا بلعين آخر يرصده، وهو يحصد الأرواح بسيفه فيكاد يحصده، ويكمن له خلف نخلة أخرى، ويضربه على شماله فيقطعها، . . .]

هل استطاعت أم البنين أن تنظر من جديد إلى شبلها، وقد قطعت يمناه ويسراه، ووقف في معمعة الحرب والقتال، بين الفرسان الهابطين عليه من اليمين ومن الشمال، وهو مقطوع اليدين، قد ضم القربة بكلي عضديه؟! . . .

أغلب الظن أنها، رغم الدموع الجارية والزفرات اللاهبة استطاعت، فهي تبغي أن تنظر إليه، أن تملأ قلبها وروحها من وجهه وعينيه، حتى النظرة الأخيرة، واللحظة الأخيرة، . . . وها هي تراه لا يزال بطلاً، وإن كان بلا يدين!

[ها هو ينحني على سرج فرسه بقامته المهيبة، ويصل إلى شماله بفمه فيلتقط سيفه من جديد، بأسنانه هذه المرة، ويقاتل به!]

. . . لله درك يا أبا الفضل، بالأمس دربك أمير المؤمنين على صنوف الحرب والنزال، وها إن ما تفعله الآن هو من جملة ما تدربت عليه، بعدما كنت تعلم كما أخبرك أنك ستصل يوماً إليه.

ولعل أحداً كان يتساءل يومها، وهو يراقب تدريبك، أن لماذا هذه الحركات العجيبة؟! . . . ولكنه لو شهد الساعة موقفك لكان لتلك الحركات أكثر تعجباً وإعجاباً!

. . . لله درك يا قمر بني هاشم، . . . لقد وقفت موقفاً لم يقفه أحد قبلك، [ورحت تحصد أرواح اللئام وسيفك بين أسنانك يدور فلا يسلم منه أحد!]

هل ما فعلته كان فعل بشر؟! . . . أجل، ولكنه فعل ابن خير البشر، . . . فعل الروح إن أدركت أن الجسم هو أداة للوصول إلى معراج الحق لا أكثر، . . .

لقد تألق محياك الوضاء بنور الشوق إلى حيدر، . . . إلى الشهداء الذين سبقوك، إلى مسلم وحبيب وزهير، والقاسم ومحمد والأكبر، ولكن شوقك للحسين كان أكبر، ولذا فقد نهجت نحوه، نظرت إلى الخيام المنتصبة في عرض الأفق، فرأيت الفوز الأكبر، . . . ومضيت إليه بقلب يسعر، فالماء على قلبك يربض لا يتقهقر، ولواء الحمد بصدرك مغروس لا يتقهقر، والسيف، . . . السيف الناطق في شفتيك بليغ المنطق لا يُقهر!

لكن الحق المقهور، ولسان الحق المشهور، وإمام الحق المكثور، . . . والمسمار، النابت في الصدر المكسور، والدم يغلي يغلي ويفور، من مقطع زنديه يفور، من قلب مجبول بالنور، . . . وإذا بالنبل يثور . . . يثور، يغشاه كما لو أنه جبل الطور، ينغرز النبل بجسمه حتى ينتشر المسك مع الكافور، . . . لكنه، باقٍ يمضي لا يرضخ، والوجهة غار حراء وجبل النور، والذكر المسطور، على رمل مجبول بنجيع ودم وعطور، والرق المنشور، يهتف يصدح يتلو يذكر، . . . ألا من ناصر، وهو المنصور؟! . . . ألا من ناصر وهو المنصور!!

لكن السهم يصيب القربة، . . . آهٍ، . . . ويسيل الكوثر، يندلق على الصدر الممزوج بعرقٍ لجهاد أكبر، ها هو يمتزج، جهاد النفس مع الحرب فيصبح أكبر، أكبر!

فينادي الصوت بنبرته، فيها سحر يؤثر، . . . ألله أكبر ممن يطغى أو يتكبر أو يتجبر، ألله، . . . ألله هو الأكبر.

ماذا تفعل يا عباس؟! . . . عين الأم تراقب، والدمع المسكوب يراقب، والآهة تصعد تعلو، تلفح وجهه، وتضمه في وجد وتراقب.

. . . ماذا تفعل يا سقاء بني هاشم؟! . . .

الماء اندلق فلا ماء، توصله للآل الظمأى، للحسين لزينب وسكينة، وبنات علي وحسين، . . . الماء اندلق فلا ماء! . . .

ويداك على وجه الرمضاء، . . . وبصدرك ينغرس لواء، والجسد غدا مكدوداً من نزف نجيع ودماء، . . . والسيف غدا مروحة تحصد أرواح الأعداء، . . . ويدور الفلك كما القمر إذا حلق في تلك العلياء.

لكنه لم يعد يتقدم، . . . هو لا يبغي أن يصل إليه!

إن كان سيصل فماذا يحمل له؟! . . . لا ماء لديه!

لا كفين يحارب بهما ويجاهد بين يديه!

ما عاد يريد أن يصل إليه، . . . وإن كان منى عمره مذ ولد وعاش، أن يلفظ روحه بين يديه!

أماه، . . . يا أم البنين، هو ذا شبلك يأبى أن يلوذ بحصنه الحصين، يأبى أن يعود إلى الحسين، . . . أوترضين بهذا؟!

وكأني بأم البنين تطرق، وتمسح دمعاً لا يني ينهمر، وتلفظ آهاً لا تني تستعر، وتعلم ما يريد العباس إذ لا يقصد الحسين، . . . لكن الغدر يأبى إلا أن يتم الجريمة، ، ويظن أنه إذ يضرب ضربته الأثيمة يجترح الهزيمة.

[هو سهم، يصيب عينك يا عباس، . . ويحجب عنك تلك الرؤية العظيمة، ويحجب عينك الأخرى دم وصديد،]. . . ولكن قلبك يبصر، وتظل رابضاً فوق فرسك، تحوقل وتستعيذ وتعيد، لا يلعثم لسانك المنطلق في آفاق الذكر المبين، سهم ولا دم ولا صديد، فبصرك اليوم حديد.

ولكن السهم في العين يؤلمك، والألم شديد، وأنت لا تريد أن يشغلك عن الوصول إلى هدفك شيء، لا تريد، فتنحني، . . . رغم كل الأهوال أمامك، وتربص الجيش بأجمعه لك، يرصدك وينتصب أمامك، [تنحني، لا تخشى أن تنحني، لتقتلع السهم من عينك بركبتيك، عسى يتسنى لك أن تتابع القتال!

ولكن، رباه، هذه الهامة التي ما انحنت قط إلا لبارئها، قد سقط عنها إذ انحنت، ذاك الطاس الذي كان يغطي شعاع البدر، فانكشفت!]

وتألق البدر أكثر، . . . زاغت الأبصار تائهة مبهورة بذلك المنظر، . . . وعاد الغدر ليتم الجريمة، وفي ظنه أنه الآن حقاً يجترح الهزيمة، . . . [وصوّب إلى الهامة المرفوعة الشامخة عموداً من حديد، فلق الهامة الكريمة!]

واهاً لك يا عباس، واهاً لتلك الهامة التي انسكب منها على المنكبين مخ الراس، . . .

ترى، هل أصابك من وقع الضربة دوار؟!...

هل درت دورتك الأخيرة في ذلك المسار، كقمر يطل من علُ فتختفي لمرآه الأقمار؟!

بل هل رأيت رسول الله، يناولك كأسه الأوفى، واستشعرت شفتاك المتشققتان ظمأ برودة الكوثر من بعيد؟!

[إيه عباس،... لقد ترنحت قامتك الشامخة المهيبة]، ورغم الجنة التي دنت قطوفها النضرة العجيبة، إلا أنك حاولت أن لا تقع، [حاولت مراراً أن لا تقع، لكي لا يقع اللواء]،... ولكنك وقعت يا كبش الكتيبة، وما وقع اللواء، فهو منصوب مغروز في قلبك، قلب حيدر والزهراء، هو مغروس ترويه دموع ودماء،... وما وقع على الأرض لواء، ترويه دماء الزهراء!

وكأني بأم البنين تنتفض ملتاعة مروّعة، كما تنتفض كل أم إذا وقع ولدها، وكبا لوجهه على الأرض وهو يمشي، ولكنها تتلوى، تتمايل كنخلة من نخيل المدينة، زرعتها يدا علي في تلك الأيام القديمة، ورواها، وكواها الوجد والغصص الجديدة والقديمة،... وتكشفت لها عن بعد تلك المشاهد العظيمة الأليمة!

رأته يقع فتلوّت، ونظرت حولها وأنّت،...

لعل زينباً كانت بقربها، فأسندتها، وأقرّت بأن ما رأته أم البنين هو بعينه ما جرى،... لقد سقط الفارس البطل الهاشمي عن فرسه، وكبا فوق الثرى!

ولكن، رباه، كيف سقط؟! . . . أوليس الفارس يحتاج يديه إذا سقط، ليعتمد عليهما فيحمي صدره من هول الوقوع؟!

ترى، كيف كان ألمك يا عباس عند ذاك الوقوع؟!

هل انغرست في صدرك السهام التي كانت نابتة فيه، فتكسرت بين هاتيك الضلوع؟

هل استطعت أن تصمت، أن لا تنادي، أن لا تناجي حبيبك ومولاك قبل الهجوع؟!

كلا، بل [انطلق صوتك المفجوع من صدرك المقروع، بنداء ودماء ودموع:

ـ أخي أبا عبد الله، . . . أدرك أخاك!]

ويلاه، . . . رباه، . . . كلمة ما قالها أبو الفضل قط، لم يلفظها بلسانه الذاكر المسبح قط، لم تقطر من شفتيه شهداً من قبل قط، رغم أنه كان يهواها، ولكن، لحيائه من الزهراء، كان يأباها!

كذا علمته يا أم البنين، فهل ساءك اليوم نداؤه للحسين؟! . . . بل هل لاحقت الكلمات؟! . . . هل لاحظت كيف لم تبتل عروق القلب ببرد الكأس النبوي، ولم يرتوِ جفاف اللسان برطب الرحيق المختوم؟! . . . كلا، فالعباس ما كان ليشرب كأس الكوثر قبل الحسين! . . . لا بد أنه أزاحه جانباً واعتذر، ووقف على ضفة الكوثر يستوقف الحسين ليسقيه قبله، وانتظر!

ذاك كان سر النداء يا أم البنين، لم يطلب العباس نجدة من الحسين، بل طلبه ليستودعه اليقين الأكبر. وفوق ذلك لم يدع العباس الحسين بـ «أخي» إلا في تلك اللحظة، لقد كانت الزهراء تقف فوق رأسه باكية نادبة، وهي ترمق جراحه: «ولدي عباس» ومن ندبتها وزفرتها أخذ الإذن بتلك اللفظة، لقد علم أنها أعطته الإذن، بل إنها تريد منه ذاك النداء في تلك اللحظة.

وتتأوه أم البنين للنداء الذي تجمّع عبر كل هذه السنين، لتجود به لحظة من حنين، . . .

كلا، يا نور العين وثمرة هذا العمر الحزين!

كلا يا بقية النبض الذي احتضنته الأرض قبل اليدين، . . . كلا، . . .

قل ما تشاء يا منى عمري، وضياء بصري، فبعدك لا أريد أن أرى، وما رأيت أنت غير الحسين، ولا أريد أن أسأل، وما سألت أنت إلا عن الحسين!

[هوذا الحسين، يستقبل النداء بفيض القلب والعين، ويجلي كما يجلي الليث الغضبان، فيقتحم أرجاء الميدان كإعصار يلوح، يطوي الرمال والكثبان على فرس جموح، ويطوي الفرسان، كذرات رمل تتبعثر بين سيف وسنان.

ويصل إليه، . . . ينكب بكل آلامه عليه]، . . . كل آلامه، مذ وجد وكان، طفلاً يُتِّم في جده ثم أمه، وشاباً فجع في أبيه ثم أخيه، . . . وها هو اليوم يفجع في كل عشيرته وإخوته وأصحابه وبنيه، . . . ثم ها هو البقية الباقية من نفسه، أراد أن يرويه ويحميه، ها هو ذا يفجع فيه!

لقد ضنّ بالموت عليه، ولكنه أمر قد قُدر، وجزء من تلك الدرجات العلية التي تنتظر، لا ينالها إلا من صبر، وشكر، وضحى بالنفس والروح في سبيل إحياء دين الله بعدما كادت معالمه تندثر!

[أقبل عليه، وتوقف لحظة قبل الوصول إليه، انحنى على الأرض والتقط شيئاً، ثم شيئاً آخر، لقد التقط يديه بكلتي يديه، وقبلهما، ووضعهما على عينيه، . . . ومزج دماءهما بدموع عينيه!]

بخٍ لك يا عباس، . . . هو الحسين، يقبل يديك الآن، كما فعل أبوه من قبله، أي يدين هاتين، يقبلهما إمام الأئمة، ثم شهيد هذه الأمة!

لكم ودت أم البنين أن تزداد لتلكما اليدين تقبيلاً من جديد، كما فعلت في الماضي القريب والبعيد، وأكثر، . . . لعلها تتنشق منهما ذاك العبير، عبير علي، والحسين الشهيد!

[وصل الحسين إليه، . . . أقبل عليه، . . . ولكن، قبل أن يناديه ويناجيه ويصب كل وجده وحزنه عليه، إذا العباس يرفع صوته فجأة، بين زأرة أسد جريح وأنين:

ـ يا هذا، . . . أمهلني هنيهة، لا تحتز رأسي الآن، . . . أمهلني عسى أن يدركني ابن والدي الحسين، فأودعه ويودعني!

أجهش الحسين بالبكاء، لوّعه وزاد لوعته النداء، وأجاب:

ـ أخي عباس، . . . أنا أخوك الحسين!]

أشرق القمر رغم خسوفه، تناثرت الدموع درراً فوق سجوفه، . . .

عجباً، . . . وهل تذرف العين الدموع مع الدماء؟! . . . ربما، فقط إن كان مجراهما واحد، فالدمع الساعة لا ينبع من العين، بل من القلب والروح ومقطع اليدين.

[وضمه الحسين، . . . فضمه العباس، . . . ضمه بعضديه، إذ ما كان ليفوت تلك الضمة عليه!

ولكنه أحب أن ينظر إليه، النظرة الأخيرة، نظرة الوداع!

قرأ الحسين مراده، فمد يده يحتضن رأسه، يضعه في حجره، ويروح يمسح بيده الرؤومة الدم والتراب عن عينه، . . .]

وتشهق أم البنين، . . . . بل يشهق العباس، ويتدارك، . . . [ينسحب، بآخر ما أبقى له النزف من قوة، يسحب رأسه من حجر الحسين، ويلقيه على الأرض.

ويعيد الحسين الكرة، يعيد رأسه إلى حجره، فيعيد العباس الكرة، ويعيد رأسه إلى الأرض!

يسأله الحسين بحرقة وزفرة:

ـ أخي عباس، . . . ما بالك تزيح رأسك من حجري، أولا تريد أن تودعني؟!

وينطلق صوته، عميقاً لأنه ينطلق من عمق الروح، ضعيفاً لأن النبرة عنده قد استنفذها نزف الجروح:

ـ مولاي، . . . أخي أبا عبد الله، أنت الساعة أخي، حبيبي وسيدي

ومولاي وقرة عيني، تأخذ برأسي وتمسح الدم والتراب عن عيني، . . . ولكن، سيدي، بعد ساعة، وعندما تسقط سقطتي، من يأخذ برأسك ويمسح الدم والتراب عن وجهك؟! . . . سيدي، . . . لا يكون لي ما ليس لك، . . . دمي لك، قلبي لك، كياني وروحي لك، وعزائي ما عشت ومت أبداً لك، ، ولكن لا يكون لي أبداً ما ليس لك!

. . . وأطلق شهقة، ثم شهقة، ثم أخرى، . . .

وزفر يتشهد، هلّل ومجّد، ونطق باسم محمد، ثم علي، ثم لبى، ثم صلى على محمد وآل محمد!

وهتف الحسين منتحباً، . . . بحزن تجدد ولا يزال يتجدد:

ـ وا أخاه، وا عباساه، . . . الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي، . . . . الآن شمت بي عدوي!]

لقد فاضت روح الورع التقي، البطل الأمجد، . . . فاضت روح عشقت، فنيت، ذابت عشقاً في الحب الأوحد، فاضت وارتقت وسمت نحو الحسين، والحسن، والزهراء، وعلي ومحمد!

كأني بأم البنين تلملم آهاتها، وتدفن في صدر زينب بعض زفراتها، وفي قلبها فيضاً غلبها من عبراتها، وتهدهدها كلمات زينب:

ـ أماه، . . . لا بأس عليك، . . . لا بأس أن تندبي العباس، فالحسين أول من ندبه! . . . ومن أجدر من أبي الفضل بدموع عينيك؟!

وكأني بالكلمات تنسلّ من أم البنين بخجل، ترتعد وتقول:

ـ ولكن الحسين لا أم له، فهل أندب ولدي وأترك ندبه، . . . لا كان ولا يكون!

وتستعبران، ولعل زينباً تنظر بقلبها الولهان، إلى المرأة الثاكلة، الصابرة المواسية:

ـ إيه يا أم البنين، فلنبكِ العباس، وجعفراً وعبد الله وعثمان، فلنبكِ عوناً ومحمداً، فلنبكِ كل الهاشميين، وكل أنصار الحسين، ونحن إذ نبكيهم إنما نبكي الحسين!

. . . يومها خرجت أم البنين، عادت إلى دار الحسين، ثم مرت بدار العباس، . . . دخلت حجرته، رأت بين جدرانها صورته، وفي وجوه أطفاله وجهه الوسيم وفي عيونهم البريئة نظرته، فضمتهم طويلاً وبكت، . . . وعلى فراش في ركن المكان كانت زوجته، تغالب آلام قلبها وتلفظ مع الأنفاس روحها، . . . لم يكن قد بقي لديها ما يكفي من الأنفاس لتعيش ثمالة عمرها، وهي لم تتجاوز عمر الشباب بعد، كانت قد نزفت كل أنفاسها على شط العلقمي فوق جثمان العباس، . . . واقتربت منها أم البنين، كان عبثاً أن تحاول بث الأمل في ذلك الجثمان الذاوي، فالأمل قد أضحى هناك، يرفرف فوق ذينك الجناحين الأخضرين، ويسكن في تينك العينين النجلاوان، اللتين تستجليان أنوار الملكوت.

ثم إن أم البنين تركت لبابة وهي والهة، . . . وراحت تطوف في أرجاء البيت تتنسم عبير العباس، وتستمع لنبرته، . . . لعلها لاذت بثوب له تشم

فيه رائحته، وضمته إليها، . . . ضمته إلى ثوب والده الأثير، الذي ما فتئت تتنشق منه ذاك العبير.

لعلها جثت بعد ذلك في محرابه، قرب حليلته المسجّاة على أعتابه، وراحت تناجيه:

إيه ياعباس، من لي بثوب مضمخ بدمائك يرمى على وجهي فترتد إلي الحياة، كما يعقوب ويوسف!

إيه يا يوسف مشاعري، من لي ببئر أحفرها بأظافري، وأستدر ماءها من دموع محاجري، وأمدّ دلوي فيها فأستقي، وإذا الري غلام بشائري!

إيه يا يوسف أحلامي، يا كل حروفي وكلامي، يا زهرة عمري وسلامي، . . . يا نوراً ضاء لأيامي، . . .

غابت لغيابك أحلامي، صمت لساني، كل كلامي، . . .

ذبلت أزهاري، وتهاوت فوق الظلمات كأيامي، . . .

إيهٍ يا يوسف أحلامي، . . . .

ما يعقوب وما همه، إن قورن بالهم أمامي؟!

هو فقد حبيباً، كان بعلمه أنه حي، ولديه من الأولاد بقية، . . . وأنا في يوم، أيقظني القدر وأفقدني كل بنيّ؛ . . . أربعة وحسين، فوق الكل حسين، راح ولم يبقَ لديّ، . . .

لا عثمان، لا عبدالله ولا جعفر، . . . لا عباس ولا ولديه، . . .

لا حسين، ولا علي الأصغر والأكبر، . . . لا ناصر لحسين يُذكر، يا لها حقاً رزية!

ما يعقوب وما همه، إن قورن بالهم الأكبر، . . . همّ استشهاد بني حيدر!

ولعل أم البنين إذ خرجت، إذ حجت إلى بيت الحسين ثم بيوت أحبتها، . . . كان لا بد لها أن تجد مستقراً، فنظرت حولها، ثم سعت إلى مقبرة البقيع، سعت إلى قبر الحسن تحدثه عن همها وتذيع.

علمت أنها إن صمتت فهمّها المريع سيصبح أروع، والبلية الفظيعة ستمسي أفظع!

علمت أن عليها أن تتنفّس من جديد، أن تستجمع قواها المتناثرة من جديد، فلقد ترك لها العباس إرثاً ثميناً، ولئن لم تستطع أن تذود الحزن القاتل عن قلب زوجته الثاكلة، التي تتلمّس اللحاق به، فهي يجب أن تستطيع الذود عن البقية الباقية منه، ولديه وابنته، وتكون لهم أماً بعد أمهم كما كانت له، وأن تعلم أن قدرها هو الاحتمال، ربما بغير حدود.

وعلمت أم البنين ما يجدر بها أن تفعل، إن جدار القلب لديها قد تصدع، والخوف لديها، . . . من قول أو من فعل، . . . هي لا تعرف معنى الخوف!

هي فاطمة بنت حزام، قد رضعت لبن الأبطال،

هي فاطمة زوج علي، قد عاشت بين الأبطال،

هي لبوة حيدر، ربت ورعت، وغدت أماً للأشبال،

وغدا أشبالها آساداً، قرنوا بالقول الأعمال،

هي فاطمة، أم العباس وإخوته، أم الشهداء الأبطال!

نظرت وهي تبث اللوعة، . . . نظرت ومع الغصة دمعة،

[قامت تجبل طين الأرض بعبرتها، وتشكل من ذاك الطين قبوراً، لتجاور قبر الحسن السبط،

أربعة قبور] تشهد أن البنيان يقوم بأربعة أركان، . . . بنيان الحق الريان، والتضحية بلا حسبان!

ولتشهد أن أحبتها، إن كانوا قرب الحسين قد دفنوا، بعدما جاهدوا وفدَوه، فهم كذلك قرب الحسن يزورون مثواه، . . . وتعلم أنهم لن ينسَوه!

ثم جلست بين القبور، ترثي أحبتها، . . . وتحكي للحسن حكايتها، . . . والزهراء على مقربة تنظر، تصغي، وتواكب رايتها، . . .

تبكي وتئن لها، من مبدئها لنهايتها، . . . وتطلق في المدى آهتها، وتضم الشعر لغايتها، وتهز القلب بدمعتها، وتثير الوجد بلوعتها:

[يا من رأى العباس كرّ على جماهير النقذْ
ووراه من أبناء حيدر كل ليث ذي لبذْ
أُنبئت أن ابني أُصيب برأسه مقطوع يذْ
ويلي على شبلي أمال براسه ضرب العمذْ
لو كان سيفك في يديك لما دنا منه أحذْ]

الفصل التاسع عشر والأخير:

حاملة اللواء

الزمان: من سنة واحد وستين للهجرة إلى سنة أربع وستين

المكان: المدينة المنورة

الفصل التاسع عشر والأخير: حاملة اللواء ٥٩٧

مرت الأيام والشهور.

كانت ساعاتها تُطوى كطي السجل للكتب، أو كما تخترق السماء أشعة النجوم والشهب.

كان يبطئها جمود الزمان الذي توقف عند ذلك الخطب المهول، فما عاد يتزحزح.

وكان يحثها غضب وفوران، فقد تزلزلت الأرض لقتل الحسين، واكفهرت السماء، . . . هي لم تمطر دماً فحسب، بل أمطرت ثورة، بركاناً راح يتفجر ويتفجر، ويرمي حممه في كل اتجاه!

وكان وراء ذلك الانفجار، سوى مصرع الحسين وأهل بيته بحد ذاته، حديث زينب، وأخوات زينب!

لقد أوصى الحسين زينباً وهي تتخبط في عمق الفاجعة، أن تحفظ له النساء والأطفال، وأن تحفظ له أخبار الواقعة، أن تحدث الناس عما من أجله استشهد الحسين، فالحسين أحيى الدين بموته، وزينب أحيت ثورة الحسين بحديثها، . . .

لقد كان من المستحيل أن تمر تلك الفاجعة بسهولة، حتى وإن كان الناس قد تعودوا الهزيمة والتواني، فالجرح قد لامس الأعماق، والطعنة مؤلمة لا تطاق، . . . كان لا بد من ردة فعل تترجم ذلك الحزن الذي اعتصر أعماق الأعماق!

وكانت أخبار الفاجعة تتوالى، ترويها الهاشميات اللواتي شهدن كربلاء، والغلمان الذين لم يكن لهم حظ في القتال، . . . وبعض الأطفال، . . . وحتى الأعداء أو من كان على حياد، ثم باء بعد الواقعة بالخسران المبين، إذ خسر الدنيا والآخرة معاً، لأنه لم يلبّ نداء إمام الزمان، ولم ينصر ابن الزهراء، فكان بانهزامه وانسحابه، شريكاً في قتله وقتل أصحابه، وسبي نسائه وأطفاله وأحبابه!

. . . العدو والصديق كان يروي، وكانت تحف البطولات والتضحيات تروي وتكوي، تروي وجداناً أظمأه انعدام الوفاء في ذلك الزمان، فغدا أولئك الأبطال الذين بذلوا مهجهم دون مولاهم، معيناً لكل وفاء، وتكوي المهج بحر نارها المضطرمة التي لم ترحم صغيراً ولا كبيراً، فكان فيها كل من قال «يا حسين» سواء.

. . . وكان أكثر من اكتوى بنار كربلاء، من بني عبد المطلب، خلا الإمام السجاد، زينباً وأم كلثوم وأم البنين وأم سلمة، والرباب امرأة الحسين، وبناته سكينة وفاطمة، ولبابة زوجة العباس، . . . وسائر الهاشميات!

[كانت دور المدينة كلها تتشح بالسواد، لا دور آل محمد فقط، وكانت

زينب عليها السلام لا تهدأ عن البكاء والنحيب، ولا تفتر عن الحديث عن إمامها وأخيها الحسين، عن أخيها العباس، عن إخوتها وأبناء إخوتها، وسائر شهداء كربلاء، . . . وكانت نادراً ما تذكر ولديها عوناً ومحمداً، اللذين قدمتهما قربانين على مذبح الحسين!

ولم يكن ذلك غريباً، فها هي أم البنين كإياها، تندب الحسين ولا تأتي على ذكر العباس وإخوته إلا متى ذكرتهم هي!]

وكانت أم البنين تعلم، أن بكاءها على الحسين، ومن بعده على قمر بني هاشم ولدها، ونجوم بني هاشم، . . . لم يكن بكاء قلب فحسب، ولم تكن الدموع دموع عين فحسب، بل كان رثاء فكر وروح، فالحسين لم يكن لها ولداً فقط، بل إن الحسين هو الإمام، ولئن تجرأت عليه الطغمة الفاسدة من الحكام، ولئن نصره أهل بيته، وجادوا بأرواحهم في سبيله، فهم قد رسموا بتلك التضحيات الباهرة، والبطولات التي لم يسطر مثلها أحد في التاريخ، . . . رسموا لمن قبلهم ومن بعدهم طريقاً للحسين، صراطاً يستوي عليه المؤمنون، وينهجونه أبد الدهر، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، . . . كان صراط علي قد استوى أمامهم فسلكوه، ولكنه كان خافياً على بعض من ضلوه، فكان لا بد لهم أن يمضوا قدماً إلى الأمام، ليكونوا دليلاً للأنام، على الطريق الحق لطاعة رب الأنام.

. . . وكان العباس هو القمر المشرق في تلك الدياجي المدلهمة، كان قمراً لا بالحسن والجمال فحسب، بل بما حمله بين جنبيه من وقار وجلال، وخير الصفات والخصال، وكان دليلاً لمن أراد سلوك درب الحق والكمال، درب الحسين، فهو قد حمل لواءه، وتسلّم سقاءه، وكان في كل

لحظة معه، عن يمينه وشماله، وأمامه ووراءه، كان نعم الصاحب والأخ، ونعم الناصر والمحامي عن الله ورسوله، وقف في وجه الطغاة، وقال كلمة الحق وفعل فعل الحق، وجاهد وأبلى، فلم يهن ولم ينكل ولم يتخلَّ، بل كان في كل ما اتصف به وتحلى هو الأجمل، وفي كل ما أعطاه هو الأغلى، والأعظم والأكمل!

. . . وكان بكاء زينب وأم كلثوم والهاشميات هو رسول الحسين إلى جده الرسول، يروي له ما جرى عليه قبل الأفول، ويروي لكل من يدعي أنه على دين الرسول، بعض ما جرى على سبط الرسول وآل الرسول.

وبدأ جمع الرحال للرحيل إلى الحسين، بدأ جمع الأحبة ينفرط من جديد، ليجتمع في كنف الحسين.

وكانت أول الراحلين والراحلات على درب الحسين، عاشقة العاشق الأكبر للحسين، لبابة زوجة أبي الفضل، لقد التحقت خليلة العباس به، بعدما كانت حياتها عذاباً في غيابه، . . . ولم يكن ذاك العذاب لينتهي إلا بأن تعود إلى رحابه. وخلفت وراءها أم البنين مربية وراعية لأحبابه.

[وها هي أم كلثوم، صغرى بنات الزهراء، التي مرت عليها من صنوف البلايا ما لو مر على جبل لتصدع، وختمت بلاياها بما ختمت به، من استشهاد زوجها مسلم، وابنها عبد الله، ثم جميع إخوتها، وفي ختامهم سيد الشهداء!

لعل أم كلثوم لم تستطع أن تتحمل ما تحملته زينب، . . . كلا، هي لم تضعف أمام المصاب الجلل، بل كانت عوناً لأختها في حفظ الأطفال

والنساء، وسنداً لها على الصبر في ذلك البلاء، ولكن، لعل بنيتها كانت أضعف من أن تتحمل أكثر، فتهاوت عند أول نداء، ورحلت صوب كربلاء!

لقد التحقت أم كلثوم بأخيها سيد الشهداء، فكانت أول أهله لحوقاً به، كما كانت أول الناس لحوقاً بالنبي أمها الزهراء، . . .]

وبعث مصاب الحسين من جديد في قلوب الهاشميات والهاشميين، وبكوا جميعاً على رحيل السيدة الحبيبة لبابة، وعلى رحيل السيدة الجليلة أم كلثوم، ولا بد أن زينباً بكت لفقد زوجة أخيها، ثم شقيقتها، ولعلها غبطتها على سرعة منيتها، وحملتها ما حملتها من الأشواق والسلام إلى أحبتها، بل لعل الدمع الذي كان لا يزال منسجماً على خديها، زاده وفرة بعث مصاب جديد، مصاب هو تتمة لمصائب أم المصائب، تتمة لم توهن عزيمتها، بل ظلت، رغم الدمعة العالقة على وجنتها والغصة المتأرجحة في نبرتها، تحكي وتحدث، عن الحسين، وحق الحسين، وما جرى على الحسين!

[على أن بكاء الهاشميات أقلق زبانية الحكم]، كما أقلق من كان قبلهم بكاء الزهراء، فهم لم ينتظروا إلا ريثما ظنوا أن الجمر قد استحال رماداً، وأرادوا بعدها أن يعودوا إلى طغيانهم، يعيثون في الأرض فساداً، [فبدأوا بمحاولة إسكات أصوات النائحات، اللواتي كن يقرحن القلوب ويثرن لواعج الصدور]، ويروين بدموعهن النبات والجذور، فيلهبن حمية العرب، ويستنهضن بحزنهن من كان لا يزال في وجدانه مثقال ذرة من خير قد انسكب، . . . لم يعلموا أن ذاك الجمر لم ولن يستحيل رماداً، فهو يتغذى من نار القلب، وهي أبداً في اتقاد، ولكن، لم يكن بوسع آل أمية

أن يسفكوا من الدم الطاهر أكثر مما فعلوا، لا لندمهم على ما فات، ولكن لخوفهم مما هو آت.

[ولذا فهم قد بدأوا يضيقون الخناق على أهل البيت بخنقهم الأصوات، وبما أن زينباً عليها السلام كانت عقيلة الطالبيين، وهي العروة الوثقى لزمامهم، فهي الشاهدة الأولى والأهم على فاجعة كربلاء، بعد الإمام السجاد، ، والناطقة الكبرى لتفاصيل الفاجعة، والراوية الأولى لها، ، ولذا فقد أرادوا فيما أرادوا نفيها عن مدينة جدها، علهم يخمدون بإبعادها صوت الحق] الصادح على قمم الزمن، ولكنهم عن إخماد ذلك النور كانوا عاجزين، ولذا فإن زينباً، التي رضخت لأمر إمامها بالأمس بالصبر في أرض الطفوف، رضخت لأمر إمامها اليوم، ومضت لتحمل صوتها عبر الفيافي إذ تطوف، لكنها لم تصمت، . . . [لم يكن بوسعهم إصماتها، بل انتقلت لتقول كلمتها في مكان آخر]، فكانت كالشمس المتوهجة ناراً ونوراً، تحرق من يقترب منها ليؤذيها، وتدفئ من يقترب منها ليستعين بها على قره، وتنير لمن حولها طريق الظلمات التي يغرق فيها.

ووقفت أم البنين مرة أخرى على مشارف المدينة، لتودع حبيبتها، وفلذة فؤادها زينب، . . .

كان يوم وداع نكأ الجراح التي لم تندمل، والتي لا تندمل قط، . . . وكانت الدموع هي الوشاح الذي اشتمل على نزف القلب وآثار ذلك السوط! . . .

أجل، . . . فمتن الزهراء كان قد لاح سواداً على عاتق زينب، وكذا انفراط القرط.

وكما أُبعدت أم أبيها إلى بيت أحزانها، كذا أُبعدت أم أخيها إلى حيث اختار سجانها.

ولوّحت أم البنين بدمعتها لصفيّتها، . . . كان الحنين لها سراجاً حمّلتها إياه على مطيّتها، ليكون لها ذكرى في غمرة غربتها.

وتأوهت أم البنين ثانية، كما تأوهت زينب، . . . كانت الآهات قد أضحت لهما أنس الضلوع الحانية، . . .

والتف جرح نازف فوق الجروح النازفة،

وازداد عمق الوجد حتى غاب شوقاً في بحار داجية، . . .

نظرت أم البنين إلى زينب، . . . لعلها وقفت تخاطبها، تناجيها، تودعها، وتسلمها لباريها.

هو الوداع الثالث بعد وداع أمير المؤمنين، ثم الحسين، . . .

كانت زينب سقيمة، . . . أسقمها ما ابتلاها به الزمان، من فقد وحقد، وسبي وتشريد، . . . وحزن وضرب، وقتل وتنكيل.

أولم يسقم أمها نفس ذاك الفقد والحقد والحزن والضرب؟!

أولم تقضِ بغصتها بعدما لاذت بغربتها في وحدتها في غرفتها، حتى لو بين أحبتها؟!

أما زينب، فهي تسير بخطوٍ واهنٍ نحو الغربة قسراً، . . . لكن غربتها كانت أقسى من غربة والدتها، فقد فرق أهل البغي عنها أحبتها، ولم يبقِ البغي لها غير دمعتها وندبتها، . . . ولكنها لم تصمت، ظلت تنقل للملأ

الأعلى والأدنى صوت ظلامتها، ومضت، . . . خلفت في المدينة جدها، أمها، وأخاها، وأحب أحبتها، . . . خلّفت أماً لم تلدها، لكن عاشت بلوعة غصتها. . . . . ومضت، . . . علمت أن الفراق هنا والملتقى يوم القيامة، مثلما قال العباس في ذلك اليوم، . . . يوم مغادرة المدينة، . . . لقد كان الفراق يومها، . . . والملتقى، . . . بعدما تقضي تتمة عمرها الفاني، بين ربوع هذه الدنيا الفانية، التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، . . . وما أشوقها إلى انقضاء هذه الأيام برياحها العاتية، وأمطارها القانية، . . .

أجل، . . . لقد صار الموت عند زينب، وعند أم البنين، وعند أم سلمة، وعند الرباب، . . . وعند كل من عشقت الحسين، وفرقها عنه ذاك المصاب، صار الموت أمنية تلوح كالفجر الموعود خلف أفق الضباب.

[وكانت ثالث من حازت أمنيتها وحملها شوقها ولهفتها للقاء أحبتها، هي الرباب.]

. . . لم تستطع أم البنين، ولا زينب خلال مكوثها في المدينة، أن تخففا من لوعة الرباب ذرة، وأنى لهما بالتخفيف عنها، وهما تتنفسان نفس لوعتها، وتعيشان نفس غربتها؟!

ولعل أم البنين رأتها مراراً [تجلس في فناء الدار، تحت أشعة الشمس اللاهبة، فلا تتقيها بظل ولا جدار]، . . . ولعلها أقبلت عليها بحنانها المعهود، . . . نصحتها بدخول المكان كي لا يصيبها الأذى من حرارة الشمس، ولكنها كانت ترفع إليها وجهاً أذبل نضرته البكاء، وأذبلت نظرته

الدموع، وزادت الشمس عليه، فكسته من وهجها قتاماً يتوهج بأشعة العشق، . . . [وهتفت بصوت أبحت نبراته زفرات النحيب، وشهقات الرثاء للحبيب]:

ـ [لا تلوميني يا أماه، . . . إني رأيت جسد الحسين تصهره الشمس بحرارتها على رمضاء كربلاء، . . . أماه، دعيني أواسي الحسين بهذا العزاء!

وتشهق الرباب لتجدد البكاء:

ـ أي واحسيناه، . . . لا ظل بعد ظلك يا أبا عبد الله!]

. . . وتشهق أم البنين، وتجددان العزاء.

[أجل، فإن الرباب لم تكتف بذلك فقط، رغم أنه كان فوق الاكتفاء، بل هي ظلت تدفع عنها كل الأحبة والأعداء، وإن أم البنين، لتقف باكية إزاءها، وتتتذكر ببلوائها بلواءها، إذ ردت يوماً على خاطب لها أتاها، وعلى آخر وآخر، من أشراف المدينة أتوا يطلبون يدها، وهي المرأة الجليلة المصون، . . . لقد ردت عن بابها كل طارق، وأزاحت من فنائها كل صامت وناطق، لتخلو إلى حزنها وقلبها العاشق، وقالت بتعقل ربما بلغ حد الجنون:

ـ لا يكون لي حمو بعد رسول الله، لا يكون!]

حتى سكينة بنت الحسين، التي كانت لا تقل ولهاً عن أمها، كانت تحاول أن تثني أمها عن ذاك المكوث الدائم في حر الهجير، عساها تنقذها من ذلك المصير، الذي أضحى يراه في الأفق، الكبير والصغير، لكن الأمر

لم يكن بيدها، . . . كان الظل لها أشبه بنار تلذع قلبها، لم تكن تستطيع إلا البقاء، وكانت الشمس لها ظلاً، . . . تكويها بأشعتها، ولكن تغذيها بازدياد لهفتها ولوعتها، وتصهرها جسداً لا قلباً فحسب، وتعدها للقاء معشوق الروح والقلب.

لعل الرباب رأت في تلك الأشعة التي كانت آخر ما لامس قدس الحسين، رباطاً نورانياً وثيقاً يصلها به، فهي تلمس في حرارتها حره، وفي التهابها ظمأه، وفي اشتعال نارها اشتعال مهجته، فترى في جلوسها تحت وطأتها مواساة له، وهل تنعم بفيض عطائه، وتتقلب في ملكوت حبه وحنانه وهو حي، حتى إذا انسكب عطاؤه فوق الثرى مع الغضى، وانطلق شمساً تخترق أجواز الفضاء، عزلت نفسها عن كل ذلك، ورضيت بما هو دون الرضى؟!

[إن الحسين كان يقول فيها:

لعمرك إنني لأحب داراً تكون بها سكينة والرباب]

وهو إذ قال ذلك، ورآها أهلاً لمثل تلك الكلمات، التي لا تصدر عنه لهوى أو ميل، وهو الإمام المعصوم، فهل تخرج بملء إرادتها من تلك الدار؟!

ولئن قدمت رضيعها شهيداً بين يديه، وجادت بكل ما أعطاها الباري عليه، فلا أقل من أن تمكث الساعة بين يديه، . . . وتتوسل بآيات عشقها وهيامها، ويقينها وإيمانها به وإليه، . . . وتتعلق بشعاع تلك الشمس التي انصبت يوماً عليه، وتتشبث بها، عساها تحملها إليه، . . .

. . . إيه يا أبا عبد الله، لئن كان الباري قد جعل النار برداً وسلاماً على خليله إبراهيم إذ توسل إليه بك، وبجدك وأبيك، وأمك وأخيك، فها أنا ذي أتوسل بهم وبك إليه، لا أن يجعل هذه الشمس الملتهبة عليّ برداً وسلاماً، بل أن يزيد من وطأتها عليّ اضطراماً، حتى أكون جديرة بأن ألتحق بك في جنتك، . . . وأمهد لك في عليين دارك، وأبقى خالدة في عالم خلدك، أطوف في فلك محبتك وأنوارك.

كانت أم البنين تنظر إلى الرباب وتتأوه.

كانت الآهات قد أضحت أنفاسها وكلماتها وإحساسها، وكانت تفهمها، كما لم تفهم أحداً قط، فهي قد عاشت يوماً مأساتها، يوم استشهد نبراس حياتها، ولكن، . . . أواه لك يا رباب، وواهاً لك يا أبا عبد الله، . . . صدق جدك وأبوك، لا يوم كيومك، ولا كِلم ككِلمك، . . . فحتى حينما ضُرب أمير المؤمنين، وتزلزلت من وقع ضربته أركان الدين، فقد ضمد أحبته جرحه، وأحاطوا به يبكون قرحه، ثم صعدت بين أشخاصهم الحبيبة روحه، فبكوه وندبوه، ثم غسلوه وكفنوه، وفوق عواتقهم وعلى هاماتهم حملوه، ثم في مثواه بكل إكرام وإجلال أودعوه، بعدما صلوا عليه، ودفنوه، وكان الحسن والحسين والعباس وسواهم من بنيه قد شيّعوه، . . .

[أما الحسين، فقد ضُرب حتى ثملت السيوف من دمائه، وطُعن حتى فُلّت الرماح وكلّت، وصُبت عليه من كل صوب الحجارة والسهام والنبل، حتى صار جسمه كتلة من السهام المتواترة المتراكمة. . . .

كانت جراحه كلها في مقدم بدنه، لأنه كان يهجم على أعدائه كالليث الغضنفر، فلا يتراجع ولا يتقهقر، وكانت جراحه لا تحصى ولا تقدر، سبعون جرحاً وأكثر، وقد وقع بعضها فوق بعض، وقد عجز أعداؤه عن قهره في ساحة الحرب، لو لم يتكاثروا عليه بالطعن والضرب، وهو في كل هذا عطشان ظمآن، وقد زاد ظمؤه في ذلك الحر اللاهب عن الحد، ولسانه يردّد وزفراته تتردّد:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني

وهو مع ذلك مستهام بحب إلهه، مشوق أشد الشوق للقائه، شأنه في ذلك شأن أهل بيته وآبائه:

إلهي تركتُ الخلق طرّاً في هواكَ وأيتمت العيال لكي أراكَ
فلو قطعتني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكَ

وهو بعدما استشهد قطع رأسه وسُلب وجُرد أقبح تجريد، وتُرك على حاله فوق الصعيد، ثلاثاً بلا غسل ولا كفن ولا دفن ولا توسيد.]

إيه أيها الشهيد ابن الشهيد، إيه يا سيد الشهداء، [حتى بعد قتلك ما تركوك، بل داسوا بالخيل صدرك، وطحنوا أضلاعك]، ليؤكدوا أنهم على كسر الضلع مصرون، [ثم حملوا رأسك ورؤوس أصحابك الأبرار فوق الأسنة، وعلّقوها في الأعنّة، وطافوا بها البلدان والفلوات]، فكانت الرؤوس تشمخ في العلاء، والأبدان منطرحة على شط الفرات!

[حتى أتى ولدك السجاد بعد ثلاثة أيام، خرج خفية من خربة الكوفة لا تراه الأبصار، كما خرج جده رسول الله يوم الهجرة بعدما ذرى في عيون

المشركين التراب فأعشى الله أبصارهم عنه وأخذتهم سنة من النوم، . . . لقد خرج السجاد خفية عن آسريه، فوارى الأجساد الطاهرة في باطن الأرض، يعاونه قوم من بني أسد، وقد وضعوا لهم عيناً على الطريق خوفاً من مداهمة الأعداء، الذين أرادوا أن تبقى الأشلاء منطرحة فوق رمال الصحراء، عسى تأكلها عسلان الفلوات، وتمحو بذلك ذكر أولئك الهداة الأباة، . . . ولكن، هيهات، . . . لقد كانت وحوش البيداء أرحم بالشهداء، فكانت لهم في مقدمة الحماة.

. . . لقد دُفنت يا ابن الرسول خلسة، وحُمل أهلك ونساؤك فوق المطايا، يُطاف بهم من بلد إلى بلد سبايا، . . . يتصفح وجوههن البعيد والقريب، وينظر إليهن بعد الخدور كل غريب، . . . لقد جُلدت متونهن بالسياط، وصُفعن وضُربن، بعدما فُجعن في أحبتهن وأُثكلن، فلا البكاء كان مباحاً لهنّ ولا النحيب!]

. . . إيه أيها الشهيد ابن الشهيد، إيه يا سيد الشهداء، . . . لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، ولا أرض كأرضك إذ أكرمها بك الله، ولكن الأحزان تزيت بزيك، وصار يوم الحزن يوماً لك، والحق أصلاً كان من جندك، فصارت أرض الحق أرضاً لك، ولذا سارت كل أيامنا في ركاب عاشوراء، وعاشت كل أغراسنا من ري كربلاء، فأضحى كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء.

. . . وكذا، عاشت الرباب عشق الحسين حتى الثمالة، . . .

وكما مضت صغيرة الحسين رقية، هناك في خربة الشام، شهيدة ذاك

العشق الأبدي، . . . كما مضت الطفلة الفاطمية، تحتضن الرأس المقدس بخدها الطري، وتروي ظمأه بدمعها الندي، كذا مضت الرباب متعلقة بذاك الشعاع الملكوتي، المتصل بنحر الحسين، . . . مضت شهيدة شمسٍ صهرت بدن الحسين!

وارتقت روح الرباب فالتحقت الروح بالروح، وتصاعدت آخر الأنفاس من السيدة الطاهرة لتلثم تلك الجروح، وتحلق نحوه، وتروح!

وتجدد المأتم الحسيني، تجددت الأحزان التي لم تبلَ، وانضمت الرباب إلى شهيدات كربلاء وشهدائها، شهداء عشق الحسين!

ووقفت أم البنين وأم سلمة، وسكينة بنت الحسين، والهاشميات، . . . وقفن جميعاً يودّعن الرباب، ويودعنها ثرى البقيع، ويخاطبن أم الحسين بذلك اللحن الشجي الوديع، ويخاطبن أم عبد الله الرضيع، وكأني بسكينة تهتف بنشيج:

ـ طوبى لك يا عبد الله، فقد استرجعت أمك، . . . طوبى لك يا أصغر شهيد ومظلوم، فقد رحلت إليك والهة لتضمك، . . . إن كل أرض كانت لها بعد الحسين غربة، فالحسين كان وطنها، . . . ولذا فهي لم تهنأ ولم تستقر إلا بعدما أمست قربك وقربه.

. . . لعل أم البنين أسندت رأس سكينة، وعادت بها إلى الدار المقفرة الحزينة، لتضمّها إلى أيتام العباس، . . . واهاً لك يا بنت الحسين، فبعد يتم الأب والأخ أصبحت يتيمة الأبوين، . . . إنما هو قدر من الله مكتوب على كل حبيب له، أن يُحرم من حنان الأقربين، ليصبح للخالق كله!

كذا رأت أم البنين ما حُرمت منه، وكذا استطاعت أن تمضي في الحياة تنتظر ما حُرمت منه.

. . . كان أولاد العباس تحت جناحها يربضون وكذا أولاد الحسين، أو من تبقى منهم، ترعاهم وتزرع فيهم ما زرعته في أولادها قبلهم، فهي التي عرفت حق المعرفة كيف تزرع، . . . وكيف تجني أيضاً، . . . وهي التي تعلمت دروس الزرع من أمير المؤمنين، يوم كان يغرس النخيل، وفنون الري من ذلك المعين، يوم كان يحفر الآبار ويروي زرعه، بالماء والدعاء والذكر المبين.

. . . لقد دفنت أم البنين الرباب بعدما دفنت لبابة وأم كلثوم، وعادت من دفنهم جميعاً وقد زادت بها لوعة المصاب وألم الغياب.

عادت تسند سكينة وتحمل عبيد الله وأخته الرضيعة بينما الفضل متمسّك بأذيالها، وتسند أم سلمة ولو استطاعت لاستندت إليها، . . . ولكن أم سلمة كان قد أضعفها وزاد وهنها ذاك المصاب، . . . ولعل سنيها الثمانين حالت دون أن تتحمل أكثر، فكانت تقضي ليلها ونهارها في اغتراب، لا يجذبها إلى هذه الدنيا سؤال ولا جواب، تروي الأحاديث في فضل أبي تراب وتئن وتحن إلى دار الأحباب.

علمت أم البنين أن أم سلمة لن يطول بها المقام في هذه الدار، ولعلها ستكون أقرب الناس لحوقاً بعد الرباب بسبط المختار، فتأوهت من جديد، وكادت لولا تسليمها بحكم المولى وصاحب الأقدار أن تغبط كل من سبقها إلى دار القرار.

وكذا جرى،

فبعدما مضى عام وانقضى، . . . وأقبل شهر المحرم من عام اثنين وستين، كانت ذكريات اللوعة قريبة العهد، ولذا فقد انبعثت بأشد مما لو كانت من بنات الحاضر لا من مخدرات الماضي، . . . لقد لبست المدينة ثوب حداد لم تخلعه بعد، وزاد من لون السواد ظلم وسحاب وضباب لم ينقشع بعد.

وأنى ينقشع الضباب والعهد الأموي لا يزال هو العهد، والثورة رغم اضطرامها، مندلعة من باطن الطف وظاهره، ومن أصوات الندب والنعي المتصلة عن قرب وعن بعد، ومن الحزن العظيم ومظاهره، . . . رغم كل ذلك لم يتقوض بنيان ذاك الوادي الغائر بمغاوره، وإن كانت قد تدكدكت بعد الفاجعة أركانه، وازداد غوراً، ريثما تبتلعه سقر بسكانه!

. . . [وكان الإمام زين العابدين، لا يفتأ يجلس في داره كل يوم للعزاء، وهو إذ أخرج الطغاة عمته من المدينة، وراحوا يتربصون به عساهم يكيدون له كما كادوا لسواه من أسلافه، خرج إلى ظاهر المدينة ليبث لوعته وشجنه الهواء والسماء، ويبكي أحبته كما جدته الزهراء، . . . وكان بيت أحزانه خباء من شعر أسود، يلوذ به كلما زاد به الحزن عن الحد وتوقد.

. . . لكنه ما كان ليصمت عن رثاء أبيه، وكان يروي أحداث عاشوراء، ويجتمع لديه أهل المدينة للعزاء.]

وكذا كانت أم البنين، لا تصمت ولا تكل ولا تمل عن البكاء والأنين، ورفع الصوت في وجه العتاة الظالمين.

[ولكن العاشر من محرم أتى لهذا العام، العام الأول بعد استشهاد

الحسين، ليحمل معه، سوى دموع الباكين وذكرى فاجعة لا تستكين، روحاً جديدة من أرواح الصالحين.]

إيه يا أم المؤمنين، . . . يا أم الصالحين القانتين العابدين، يا من كنت حقاً للمؤمنين أماً ولآل محمدﷺ قلباً عطوفاً رؤوماً.

يا من عرفت حقاً حق النبوة والإمامة، وكنت للزهراء أماً وللحسن والحسين وزينب وأم كلثوم جدة وأماً، فخلفت خديجة في أحبتها، وحملت في قلبك الكبير مودتها، فكان الرسول يدخرك لهم، ويوصيك بهم، حتى إذا رحل الرسول، وهُضمت بعده حقوق حيدر والبتول، كنت شاهدة حق ولسان صدق يقول ولا يخشى أن يقول، ويتكلم بالذي يخشى غيره النطق به.

إيه يا أم سلمة، يا عزيزة خديجة، . . . طوبى لك لقاؤها وفقد أديت الأمانة، ورحلت عن هذه الدنيا مكرمة برضاها، معززة غير مهانة.

[وها هو الإمام السجاد يخرج من داره إليك، ويذرف من دموعه التي ادخرها لمصاب الحسين عليك، فلقد كنت أمينة على ذخائر النبوة والإمامة التي استودعها الحسين لديك، يوم خرج من المدينة خائفاً يترقب، وأديتها لصاحبها الإمام السجاد لما عاد، . . . كنت أمينة عليها كما كنت أمينة من قبل على بنت المصطفى وموقنة بإمامة المرتضى، تردين على الطغاة المفسدين بالرد الحكيم والجواب، ولا تخشين في الحق لومة لائم.]

ومرة أخرى، عادت أم البنين من البقيع، عادت بعدما دفنت هذه المرة أمها، فقد كان لأم سلمة عندها موقع آخر لم يكن لغيرها.

فقد كانت لها أيضاً أماً كما كانت أماً لسواها،

لعله قد كان بوسعها بين الحين والحين أن تضع عندها عن كاهلها ثقلاً قد أضناها، ثقلاً كانت تأبى على نفسها أن تتخفف منه في مكان آخر، ذلك أن أم البنين كانت صدراً حنوناً لبنات الزهراء وأبنائها، ولكل من كان منها بسبيل، ولذا فقد كان من غير المعقول أن تجعلهم يحملون عنها بعض عنائها، . . . أما أم سلمة، فقد غمرتها منذ اليوم الأول بحنانها واهتمامها. فلعلها كانت لها خير مستودع لكلامها حين يضنيها حبس الكلام.

لقد كانت زينب إبان مكوثها بجوارها، تحمل عنها كل هذا دون أن تطلب، فزينب ليست سيدتها فحسب بل هي حبيبتها وشقيقة فؤادها، تفهم مرادها دون أن تنطق بحرف، . . . ولكن، تبقى أم سلمة موضع همها وشكواها، وحزنها وبلواها، . . . يبقى قلبها الكبير الذي اتسع لهموم الأمة، متسعاً لهمومها حين تفيض وتزيد.

أما اليوم، وبعدما رحلت أم المؤمنين، فقد غدت أم البنين يتيمة حقاً، لا تدري أين تذهب وإلى من تلجأ، . . . ويبقى الله ملجأها، وجنة البقيع مرفأها، حيث يرسو الأحبة الذين تنتظر لقياهم، وينتظرون لقياها.

ولئن كانت كربلاء مرقداً لأجسادهم الطاهرة، فإن أرواحهم تحف بها هاهنا، وهي تستشعر دفء وجودهم حولها، بل حول مرقد النبي والزهراء والحسن، وبقية الأحباء، . . . إن أمير المؤمنين يطوف هاهنا في جوار أخيه، وإن الحسين ماكان ليكون بعد موته أقل براً بأمه من أخيه، ولذا فهو بلا ريب يزور مرقدها المعفي أثره، ويطيل الزيارة، أما العباس فهو دمعة

من كوثرعلي وعين الزهراء، وهو ربيب الحسن ولواء الحسين، وكفيل زينب، فهل يعقل أن يترك الحسين طرفة عين؟!

وكذا عبد الله وعثمان وجعفر، هم بعض من ندى حيدر، أودعهم في واحة المحشر، فهم لسيدهم الحسين وأخيهم العباس كالمسك الأذفر، فلا ريب أنهم لهم لاحقون وبهم محيطون، بين السماء والأرض يسرحون، وما بقي الحسين ها هنا باقون.

ولعل أم البنين، إذ جعلت لها في جنة البقيع ذكراً، فهي تعلم أن العباس شفيعها غداً وكذلك إخوته، ولكنه رأسهم وكبيرهم، بدرهم وقمرهم، بل بدرأيامها، في دنياها وآخرتها، ولئن افتقدته الساعة فهو يحيى في الفؤاد كل ساعة، هي تنظر إليه حولها كيفما اتجهت، وأنى حلت، وترى نظرته في عيني ولديه عبيد الله والفضل وتلمس كفيه في كفيهما، . . . لا، بل لعلها لم تعد تستشعر للمس وقعاً مذ علمت أن أبا الفضل قطعت كفاه في نصرة أبي عبد الله، ولئن كانت عين أبي الفضل الموسومة بذلك السهم، قد ذهبت فداءً لعين الزهراءالملطومة، ولئن كان رأسه المضروب بذلك العمود قد ذهب فداءً لرأس أبيه أمير المؤمنين المضروب، ولئن كان صدره الذي انغرزت فيه السهام قد ذهب فداء لضلع الزهراء المكسور وصدر الحسين المرضوض، ولئن كان ولداه قد ذهبا فداءً لعلي الأكبر والأصغر، أفلا تكون كفاه قد طاحتا، لتحلقا في عليين ولتشهدا لرب العالمين، أنه بكله، ذهب فداءً للحسين!

ولعل أم البنين كانت لتفكر، [إن كفي أبي الفضل قطعتا في محبة

مولاه، وقد أُخبرت أنه يوم دفن الإمام السجاد له كان مطروحاً على المسناة، موذراً ومقطعاً إرباً إرباً،]. . .

وتتأوه أم البنين، وترفع رأسها مع الآه، ولعلها تسأل الله ؛ رباه، هل بقي من جسم العباس ما لم يتقطع في نصرة مولاه؟ أليكون شاهداً على الفناء في الحق، وشهيداً على كل إيثار وتضحية وصدق، . . . ولعل الخبر أتاها يوماً، لعله كان على لسان من زار كربلاء، ولعلها سمعته زفرة يطلقها الهاشميون نحو السماء، ورأته دمعة يذرفونها فوق الرمضاء، . . .

«إن قبر العباس على شفير الفرات لا يضم جسداً صحيحاً بل رفات، إنه في الطول لا يوازي طول العباس والذي عُرف في الناس أنه كان ذا طلعة بهية وقامة رشيدة».

لعل الهمس بلغها، فلوّع فؤادها، مثلما لوعها خبر قطع الرأس، إن أولئك الطغاة أرادوا الثأر من بني حيدر، ووضعوا نصب أعينهم أن يرووا غليلهم من دماء شبله، فقد وطنوا أنفسهم على أن يضربوه بكل ضربات أبيه، وأن يطعنوه بعدد طعناته فيهم، وأن يقتلوه بعدد قتلاهم، فلم يستطيعوا ذلك وهو ثابت على جواده، يطحنهم بسيفه ويبعجهم برمحه وقناته، [حتى إذا بُترت يداه، وتناثرت ثناياه، وسقط السيف منهما وأسقطوه بالعمود، راغوا عليه طعناً وضرباً، فقُطِعت بعد يديه ساقاه، ولعل الحسين لما أتاه، فهو على تلك الحالة رآه، فذهبت نفسه عليه حسرات، وندبه وبكاه!]

كان الخبر لأم البنين أليماً، ولكنه كان عظيماً، فهي قد اطمأنت حقاً أن العباس قد فني حقاً، روحاً ونفساً وجسداً، في عشق الحسين.

عندها، قامت أم البنين إلى البقيع، إلى حيث خطت فوق الصعيد أجداثاً نبت عليها الربيع، . . . كانت تلك الأجداث مبعث عجب للعدو والصديق، وهي لطالما سئلت عنها ربما بإعجاب وربما بضيق:

ـ ما تفعلين يا أم البنين؟!

هي لا تجيب، ولربما كان الجواب على السؤال، تلك الأسماء التي كتبتها فوق التراب الذي غمسته بالدمع والنجيع، . . . لقد كانت أسماء العباس، وعبد الله وعثمان وجعفر، أبناء سيد الأوصياء، وشهداء كربلاء.

[وهي إذ كانت تجلس بين تلك القبور، كانت تتنفس الصعداء، وتجهش بالبكاء وهي تجيب:

لا تدعوَني ويك أم البنين ... تذكريني بليوث العرين
كانت بنون لي أدعى بهم ... واليوم أصبحت ولا من بنين
أربعة مثل نسور الربى ... قد واصلوا الموت برفع الوتين
يا ليت شعري أكما أخبروا ... بأن عباساً قطيع اليمين]

***

[ظل ذلك هو دأب أم البنين، تندب الحسين وأولادها صباح مساء، وكانت تخرج إلى مقبرة البقيع، إلى تلك القبور التي خطت عليها أسماء أشبالها، وتروح تندبهم وترثيهم بأشجى ندبة وأعذب رثاء، حتى يبكي لندبتها كل عدو وصديق.]

وكما كان الإمام زين العابدين يأكل طعامه مجبولاً بوجعه، ويشرب شرابه ممزوجاً بدمعه، كذا كانت أم البنين، . . . كانت تربي أولاد العباس

بآهاتها، وتعلمهم كل دعواتها وصلواتها، وتزرع فيهم كل ما تعلمته على مدى حياتها.

[حتى إذا أتى يوم، لام فيه بعض المحبين إمامهم على امتداد حزنه، وألحوا في الطلب عليه بأن يجلس يوم العيد في مجلسه ليسلموا عليه، بعدما تعود أن يكون يوم العيد هو يوم مصيبته وبكائه، . . . وبلغ أم البنين أن الإمام أجاب شيعته إلى ما طلبوه، وأنه اليوم، صبيحة العيد، جالس في مجلسه ليعايدوه!

وأقبل عبيد الله بن العباس إلى جدته أم البنين، يسألها أن تلبسه ملابس العيد ليذهب لمعايدة سيده ومولاه، . . . . لعل أم البنين نظرت في عيني عبيد الله، وضمته إلى صدرها بحرقة، وما ضمت إلا أباه، وقامت إلى صندوقها، فأخرجت ثوباً كان للعباس، تعودت أن تلبسه إياه في طفولته أيام العيد.

ألبست أم البنين حفيدها ثوب أبيه]، وأقبلت على عبيد الله بعدما أتم لبسه، ضمته مجدداً وقبلته، وغسلت وجهه بفيض دمعها، قبل أن ترسله إلى إمامه.

[وما إن دخل عبيد الله على الإمام، حتى نظر إليه، وتأوه وبكى، . . . لقد عرف لباس عمه، وأدرك رسالة أمه، فقام من مجلسه حتى وصل إلى ابن عمه، فاستغرب الحاضرون وسألوه:

ـ لا أبكى الله عينيك يا ابن رسول الله، ممَّ بكاؤك؟!

فرد الإمام قائلاً:

ـ لما وقع نظري على ابن عمي هذا، المقبل علي وقد لبس ثياب أبيه، تذكرت عمي العباس، وتذكرت موقفه يوم الطف فبكيت.

ثم إنه فتح باعه وضم الطفل إليه وقبله، ثم أجلسه في حجره وراح يمسح على رأسه مستعبراً ويقول:

ـ أظننت يا ابن العم أن حزننا على عمك الإمام الحسين، وعلى أبيك العباس وسائر بني هاشم والشهداء، قد انقضى؟!!... هيهات يا ابن العم، إن حزننا عليهم لا ينقضي إلى يوم القيامة!

ثم أنشأ يقول:

نحن بنو المصطفى ذوو غصص ... يجرعها في الأنام كاظمنا
عظيمة في الأنام محنتنا ... أولنا مبتلىً وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ... ونحن أعيادنا مآتمنا
والناس في الأمن والسرور وما ... يأمن طول الزمان خائفنا
وما خُصصنا به من الشرف ... الطائل بين الأنام آفتنا
يحكم فينا والحكم فيه لنا ... جاحدنا حقنا وغاصبنا

ثم بكى وبكى من كان حاضراً معه.]

ولعل الإمام تذكر إذذاك قول جده أمير المؤمنين، يوم سأله بعض أصحابه لمَ لا يختضب، والخضاب يومئذ عادة مستحبة للرجال والنساء على حد سواء، فأجابهم:

ـ إنما الخضاب زينة، ونحن قوم في مصيبة!

إن كان أمير المؤمنين رفض الاختضاب، لمصيبته في أخيه الرسول وزوجته البتول، التي لم يبرح يعيش آلامها حتى التحق بهم، أفلا يرفض حفيده السجاد أن يعايد الناس ويعايدوه، وهو الذي شاهد بأم عينه مصرع أبيه، ومصارع أعمامه وإخوته وجميع أهل بيته وأصحابه، وسبي ذراريهم وإذلالهم وضربهم، واستباحة حرمة الرسول؟!

إن الفرحة لم ولن تدخل إلى قلب الإمام ما عاش، فذكر الحسين عظيم الخطب شديد الوقع في القلب، فكيف بمرأى الحسين وهو غارق في ذلك الخطب؟!

ولعل أم البنين التي كانت لحزن الإمام مواكبة وشاهدة، كانت شاهدة، أو على الأقل عارفة بخبر ذلك [الحوار الذي دار بينه وبين أحد غلمانه إذ رآه يخرج يوماً إلى الصحراء فتبعه، ووجده قد سجد على حجارة خشنة، وهو يشهق ويبكي ويقول:

ـ لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إله إلا الله تعبداً ورقّاً، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً.

ثم إنه رفع رأسه من السجود، وقد تبللت لحيته ووجهه بدموع عينيه، فسأله الغلام:

ـ يا سيدي، أما آن لحزنك أن ينقضي ولبكائك أن يقل؟!

فرد عليه الإمام بقوله مستنكراً:

ـ ويحك، إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبياً ابن نبي، وكان له إثنا عشر ابناً، فغيّب الله سبحانه واحداً منهم، فشاب رأسه من

الحزن واحدودب ظهره من الغم، وذهب بصره من البكاء، وابنه حي في دار الدنيا، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي، ورأيتهم أمام عيني صرعى مقتولين، فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي؟!]

***

. . . لم تكن قد انقضت أكثر من شهور ستة على وفاة أم المؤمنين أم سلمة، حين جرى أمر آخر لم يكن بالحسبان.

لعل بوادره كانت شبيهة ببوادر البلايا السابقة، إذ استشعر قلب أم البنين الشر قبل حدوثه، ومع أن تلك الأيام، الأيام البيض من شهر رجب، كانت عادة مدعاة لأنسها، إذ كانت تشتغل فيها بالعبادة، وتتذكر بالثالث عشر من رجب أطيب ولادة، ولادة ولي الله الأعظم، أحب الخلق إليها وأكرمهم عليها، بعلها ومهجة روحها أمير المؤمنين، في باطن الكعبة المشرفة.

رغم أن تلك الأيام كانت أيام عبادة وزهادة، وبعد استشهاد الإمام المرتضى، كانت لأم البنين ذكرى استشهاد وولادة، فيها من الحزن لمصائب الأمير وأهل بيته، أكثر مما فيها من الأنس ببزوغ فجره، . . . . ورغم أن أم البنين، والتي كانت تتعهد أيام شهر رجب، بالرعاية والاهتمام، فهو شهر أمير المؤمنين، وهو رجب الأصب، الذي تُصب فيه الرحمة صباً، وما أحوج عباد الله إلى الرحمة في كل لحظة، . . . إلا أن ذلك الشهر بالذات كان أكثر انسياباً في وجدانها، وأعماله وصلواته أكثر اقتراباً، حتى نور بدره الغافي على أعتاب لياليه الدامعة، كان أكثر انسكاباً، وربما أكثر حزناً وعذاباً، . . .

كلا، لم يكن السبب رؤية البدر، . . . فالبدر كان يطل عليها كل شهر، منذ يوم الفاجعة، فلا ترفع بصرها إليه، بل تكتفي بأن تنظر إلى أعماق قلبها، فتلف حناياها عليه، أما النجوم، فكانت تتناثر حولها، فتشيح عنها بإصرار، وتضم بلمح بصرها بعض التماعات متناثرة هنا وهناك، حول بدرها المتوهج في اعماقها.

. . . وما كادت الأيام البيض تنقضي، بأعمالها التي كانت أم البنين تتفرغ لها، وقد حولتها ببكائها وحزنها حال دعائها ونجواها، إلى أيام سود، . . . حتى اشتدت بها اللوعة، وكاد فؤادها يتمزق جزعاً.

لعلها أدركت أن خطباً جديداً قد حل، واعتصرت حشاشة فؤادها، لتجد خطباً آخر يقنعها، سوى ما خطر لها ورفضت تقبله، ولكنها لم تستطع، واضطرت أن ترجح في النهاية، ولو كانت تعلم الغيب لقررت، أن سوءاً ما قد أصاب أحب الناس إليها، ومن تكون أحب الناس سوى البقية الباقية من أحب الناس، سيدتها وحبيبتها وفلذة فؤادها، حبيبة الزهراء، زينب!

ولعل أم البنين عادت تقف ثانية على درب الرحيل، كما وقفت قبل عام ونيف، تسائل الغادي والرائح على طريق الشام، عن حال الغريبة عن الأوطان، المنفية إلى بلاد الشام، زينب بنت علي بن أبي طالب، عقيلة الهاشميين، وفخر الطالبيين على مدى الأزمان.

[لم يكن قد انقضى رجب كله، حين وصل الخبر اليقين إلى مدينة الرسول الأمين، وإلى أم البنين والإمام زين العابدين، أن مهجة البتول، عقيلة آل الرسول، أم المصائب والبلايا، وسيدة الحرات والسبايا، وريثة

الزهراء، بنت سيدة النساء، قد اشتدت عليها العلة لما نزلت في تلك الأرض الغريبة]، التي بعثت لديها الذكريات البعيدة والقريبة، الأليمة الموجعة الرهيبة، ذكريات السبي والذلة، وحمل الرؤوس فوق الأسنة كالكواكب والأهلة، [لقد اشتدت العلة على الحوراء الغريبة في تلك الأرض الغريبة، حتى قضت في وحشتها عليلة غريبة، متأسية بأمها وأخيها!]

هل شعرت أم البنين حال سماعها الخبر، بأن في صميم بنيانها جسراً قد انهار، جسراً كان لا يزال قائماً طالما أن في الدنيا نهار؟!... أما وقد خيم الليل على وجه البسيطة، وخلت من كل آل علي وفاطمة، فلعل أم البنين قد تهاوت، وما عاد بوسعها أن تتحمل أكثر، ولعلها جلست في ليل معاناتها في مصلاها تحدث نفسها بعد صلاتها، وتنتقل من نجواها لبارئها إلى مناجاتها هي، حبيبة الفؤاد والروح:

- إيه زينب، إيه يا سيدة المصائب والنوائب، لقد كان عزائي الأوحد أن في الكون من ترى بعينيّ، وتسمع بأذنيّ، وتتنفس برئتيّ وتنبض بفؤادي،... لقد كان عزائي أن في المدى لواء أتمسك به، كما تمسك أبطال كربلاء بلواء العباس،...

إيه زينب، هوذا كفيلك قد حملكيه، فزرعت في كل مكان حللت فيه، نفس ما كان يزرع صاحب اللواء في نفوس الظالمين من رعب وتيه.

إيه زينب، لقد حمل العباس لواءه فلم يسقط منه إلا حينما سقط، ولم يفلت من يده إلا حينما بترت، حتى حينها، فهو ضم اللواء بعضديه إلى

صدره، وأبقاه مرفرفاً نابضاً قرب قلبه، فهل تعتزمين يا بضعة علي والزهراء، وسيدة العباس وأمه، أن تلقي لواءك؟!

ولئن ألقيتِه، فهل لا يزال بي عزم على حمله؟!

ولعل أم البنين، رغم هول المصاب واشتداد الحنين، شدت قامتها المهيبة فلم تتضعضع ولم تتزعزع، واكتفت بما عودتها إياه البلايا في كل حين، اكتفت بالبكاء والأنين، ورفع الجبين، رغم أنوف الظالمين!

وكما تسلحت في بكائها على أحبتها بالصبر والقوة، فقد تسلحت بذلك أيضاً هذه المرة، وقد علمت أن موعد القطاف قد حان، وإن هي إلا جولة أو جولتين وتدنو من ذلك الموعد الموعود، وإذا جنى الجنتين دان ؛ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

ولئن كان العمر قد أوهن ذاك العود الصلب المتين، ولئن كانت البلايا قد نخرت في ذلك الجثمان الحزين، لكنها ما عاشت لن تتأخر عن أداء دورها، فهي تعلم علم اليقين، أنها لم تنبت في هذا المكان عبثاً، ولا أثمرت وأينعت عبثاً، ولا أثقلها الجنى والضنى عبثاً، ولا هرمت قبل أوانها وشاخت عبثاً، . . . ولكن، شأنها شأن كل نخلة ذات طلع نضيد، فهي تتجدد إذا اجتُثّ منها فرع قديم، وتأتي بعد حين بفرع جديد.

ولكن، أي فرع قد اجتث منك اليوم يا أم البنين، فبعدما اجتثت كل فروعك في كربلاء، واجتث جذرك، أصل الحياة في أصلك، ها أنت لا زلت تتنفسين وتعطين، ولقد خلّف الفرع الأعظم فرعين، عبيد الله والفضل ابني العباس، وتلك اليتيمة الصغيرة ابنته، وخلفت الجذور بعد كربلاء

جذرين، زينب وزين العابدين، . . . على أن زينباً كانت لها هي نبض القلب وأصل الطلع وعذق النخل، وها هي اليوم قد رحلت، حملت معها بقية الصبر ورحلت، فأنى يكون الإحتمال بعد؟!

إنه ليس لها من بعد الحسين وزينب إلا إمامها زين العابدين، وإنها، إذ تنظر إليه الآن من خلف سجوف حزنها الكظيم، ترى فيه صورة أخرى من والده، وتعلم حقاً، ربما كما لم تعلم من قبل، أنها ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم، ولا تخلو الأرض من حجة، إذاً لساخت بأهلها، وإن العزاء يبقى دوماً في الحجة على العباد، به يتقوى المؤمنون للصبر على البلاء الذي هم أبداً به مبتلون.

إن سيدة اللواء قد ألقت لواءها يا أم البنين، . . . وتركته لك، ومن أجدر باللواء من أم صاحب اللواء؟!

ولأنت بحمل هذا الوسام جديرة، فقد سلمتك زينب السلاح والذخيرة، بقي أن تكوني أكبر من تلك الهموم الكبيرة، . . . لعمري، إن أم البنين هي أكثر من جديرة، فهي حاملة لواء الصبر والجهاد بالقول والكلمة المؤثرة البصيرة.

إن وعظك يا أم البنين، لكل من سمع مراثيك الكثيرة، وسردك لوقائع كربلاء وحديث الطف، وبطولات الحسين وفداء قمر العشيرة، . . . إن ذاك الوعظ قد رفع فوق الرؤوس لواء الصبر والغيرة.

. . . لقد حملت أم البنين سيف العباس بلسانها، كما حمله بأسنانه، ورفعت لواءه فوق جبينها كما أقامه ببنيانه، وراحت تذود عن آل الحسين

بشمالها ويمينها، . . . . إن كلامها كان يسقط على أهل الجور سقوط صاعقة ذي الفقار، على أشرار البشر، وكانت تهز عروش الظالمين بزلزال كربلاء، وترفع على رؤوسِ العالمين أخبار ما جرى على الحسين وآله من بلاء،

إن رأس الحسين قد وعظ وأبلغ، بين كربلاء والكوفة، وبين الكوفة والشام، ومنها إلى كربلاء، أفلا يعظ ويبلغ الآن، بين الشام والمدينة، بين الغريبة عن الأوطان، والغريبة في الأوطان؟!

لقد اشتد الأمر، . . .

هي أم البنين تشد الأزر ولا تكترث، تماماً كما عض ولدها على جرحه يوم العاشر من المحرم، ووقف يطلب الإذن بالقتال، بعدما عاين استشهاد كل أحبته.

لقد شحذ عزيمته بألمه، وأرهف بطولاته على حد إعصاره، ثم أخذ الإذن وانطلق، . . . ولكن، شاء الله وأمر الحسين، أن ينطلق ليستسقي لا ليقاتل!

حتى حين خرج العباس ليجاهد، كانت وجهته الماء، ري ظمأ الحسين وآله الظماء، وهل أسمى من أن يجاهد المجاهد في سبيل إطفاء عطش أولاد الأنبياء؟! . . .

إن الماء الذي أراده العباس لم يكن إلا ماء الفرات، مهر فاطمة الزهراء، وهو ما أراد سوى رد حق الزهراء بذلك الاستسقاء!

واليوم، . . . تحيي أم البنين ما أحيته زينب، تحيي ذكر الحسين فوق ما كانت تفعل، وتدفع، بالقلب والروح واليدين ما للزهراء في عنقها من دين.

. . . وتمر شهور أُخر، كحبات عقيق دامية في عقد منتظم قد انتثر، أو كسبحة من تراب الحسين، فيها دم ودمع يُعْتَصَرْ، ويهل شهر جمادى الآخرة، وفيه، في الثالث منه، تعيش أم البنين الذكرى الآخرة، لاستشهاد الصديقة الطاهرة.

ربما تعلم أم البنين أنها الذكرى الآخرة، . . . لعلها نظرة كانت قد أشرفت بها على درب الآخرة.

فعلمت أنها الآخرة.

[. . . وتشتد العلة عليها، وتشتد عزيمتها في مواجهة الطغمة الكافرة، . . .]

ويلتهب شعاعها أكثر، تماماً كما الشمعة إذا اقتربت من لحظة الذوبان، . . .

وكيف لا تذوب أم البنين، كيف لا تنصهر ذرة في ذلك الوجدان ؛ . . . إن الزهراء لتطل عليها، لعلها تنتظرها على قمة جبل الأحزان، تنتظر ذاك اللواء الخفاق الذي تحمله، كما انتظر الحسين لواء العباس.

وكأني بالظمأ يشتد على أم البنين، كأني بها تتقلب على فراش العلة، وتنطرح على فراش غير وثير، تخيرته منذ الفاجعة مواساة لولدها الحسين.

وتتقلب أم البنين وتتقلب، حتى إذا بلغ بها الظمأ الغاية، تراءى لها ماء بين يديها يلمع كاللجين، ولكن، كان ثمنه الري دون ظمأ الحسين.

وكما رمى العباس الماء على الماء في مشرعة الفرات، ورفض أن يرتشف عذب الماء والحسين يقاسي مرارة الحياة، كذلك رفضت أم البنين أن ترتوي إلا من كف سيدة النساء، بعد الممات.

إن ذكرى سيدة النساء كانت تزيد بلواها، إن كان إلى زيادة ما هي فيه من سبيل، وهي تنأى بنفسها أن تنطرح على فراشها، تعالج نفسها، وربما تقارع آخر لحظات حياتها، دون أن تواسي الزهراء بعين تحمر وضلع يُكسر وجنين يُسقط!

كيف السبيل إلى المواساة بعد؟!

أيكفيها أن ولدها قد واسى، وأنها قد واستها به، وبإخوته الثلاثة؟!

وما يفعل المحب الواله إن أراد أن يرضي حبيبه، وهو مهما فعل وسأل يشعر بأن التقصير يجيبه؟!

[وتنظر أم البنين حولها، وهي تفيق من غشية لتغيب في أخرى، وتنادي بين الغشية والغشية، بصوت يذيب القلوب الملتاعة حولها، قلوب أحفادها وكل من كانت لهم أماً على مدى عمرها الحزين:

ـ واولداه، واحسيناه!]

هل كانت ترى في كل غشية صورة لم ترها من كربلاء؟... هل كانت آهات الشهداء وصرخات الثكالى واليتامى والسبايا تصل إليها عبر البيداء؟!... هل كانت تعيش كربلاء من جديد، بحسها وروحها بعدما عايشتها بقلبها ووجدانها كل تلك السنين؟!

وتنظر من جديد وتتذكر ؛ . . . بالأمس كان ولدها وسيدها الحسن عليه السلام يحتضر، ويلفظ كبده قطعاً من أثر السم، . . .

بالأمس أمر الحسن بإخراج فراشه إلى صحن الدار، وأبى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت سقف ظليل وخلف جدار، . . . وها هي ترى الحسين بأم العين منطرحاً على الرمال يحتضر، والشمس تصهر جسمه، . . .

واليوم، . . .

يجلدها ظل الجدار، يخنق أنفاسها أكثر ظل الجدار، [وتطلب نقلها إلى فناء الدار، حيث لا ظل ولا جدار.

ويُفرش لها في صحن الدار دثار، فتأبى، بل تزحف من حضن الدثار لتلصق خدها برمضاء التراب،]. . . تماماً كما فعل أبو الفضل يوم عاشوراء، إذ ترك أحب حضن لديه، حضن الحسين، وأراد أن يواسيه بالموت بعيداً عن أحضان الأحبة، كإياه!

إيه يا أم البنين، لشد ما تحنين إلى أبي تراب، ولشد ما يبرد غليل قلبك الواله لذع الهاجرة فوق التراب، . . . ويتعالى نداؤك من جديد، رغم ضعف النبرة وتلاحق الحسرة:

ـ واولداه، . . . واحسيناه!

إيه يا أم البنين، . . .

ها هم أولاء أحبابك عليك يطلون، . . .

[هي ذي الزهراء تحمل كفي ولدك بين يديها، وتضع قميص الحسين الممزق الدامي على كتفيها، وعمامة أمير المؤمنين المخضبة بمخ رأسه فوق

هامتها، وتتوجع بأوجاع أبيها النبي المصطفى وولدها الحسن المجتبى، وتضع جنينها المحسن بين يدي بارئها، وتتلوى بآلام ابنتيها زينب وأم كلثوم من سبي وصبر وضرب وتشريد، . . . ولكنها رغم كل هذه المصائب التي تنوء بحملها الجبال، تختار البدء بمصيبة أبي الفضل، فترفع كفيه المقطوعتين بين يديها، وتقدمهما أمامها شاكية إلى ربها، تناجيه من قلب مقروح:

ـ يا حق يا حكيم، ما ذنب هاتين الكفين أن تقطعا؟!]

ويجف لسان أم البنين، ويشتد ظمؤها، ولكن قلبها يبترد برؤية حبيبتها وسيدتها!

إن ولدها قد ذهب يستسقي للحسين وللزهراء، ولعل في قربته ما يكفي ليرويه ويرويها، أجل، فإن الزهراء التي قضت ظامئة إلى الحق الذي اغتصب منها، لهي الأحق بالري!

أي عباس، لا تقصر في نصرة الحسين!

أي عباس، لا ترتوي قبل ري الحسين!

اي عباس، دونك الحسين، كن درعاً للحسين، وسيفاً وسناناً، وحباً وعشقاً وإيثاراً وحناناً، كن نوناً للحسين، ترتفع كلاً نحو ساقِيك كما اليدين، وتتقوس لينغرز اللواء في صدرك وتدمع العين، وتبقى قطرة الماء معلقة في السماء إلى يوم يبعثون، تنتظر ري الحسين!

عباس، هو اسمك، أربعة حروف ذات رسم وأجراس ؛ . . . العين مفتوحة ناظرة إلى وجه الحسين، والباء بدر مشرق ينسكب نوراً ودماء، قطرة الباء تنفلت دمعة من العين، قطرة من دم الكف المرفوعة بالألف

واللواء، المبتورة المحلقة في السماء، وتمتد السين خلف اللواء، تمتد كما امتد جسدك على مشرعة الماء، والساقان مبتورتان بترهما حقد الأعداء، أو ربما مثنيتان حياءً وخجلاً من حضور الزهراء!

ويطل الحسين عليك، حاؤه حنو وحياء، سينه سجود وسماء، ياؤه يم من دموع ودماء، نونه نور ونار ونداء، هي نجوى ترتقي نحو السماء، عبر أكف من ضياء!

[ويعرق جبين أم البنين، ويهدأ أنينها، . . .]

ينظر أولادها، أولاد العباس، وأحباؤها إليها، . . . هي تبتسم، فيزداد بهم البكاء!

إيه يا أم البنين، لقد بعد بك العهد على الابتسام!

وتتألق في العين التي ألفت الدموع دمعة جديدة، ويفتر الإحساس، . . . ويطير في لمحة أمامها العباس بجناحين من نور، يهفو فؤادها، تترك كفيها وراءها، . . . وتنظر جيداً حيث تحلق، وإذا زينب أمامها، وإذا الحسن والحسين فوق رأسها ينظران إليها برحمة، وإذا أمير المؤمنين في المدى ينظر إليها برضى، وإذا الزهراء تمد يدها، وتلقنها حجتها، وتعيد بعدها، ملء القلب والروح:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أللهم صل على محمد وآل محمد.

. . . وتريد أن تتعلق بيد الزهراء، ولكن، لا يد لديها، فهي قد فقدت كل كفوفها في كربلاء، . . . فتمتد بكلها، تعانق اليد الطاهرة بكلها، وتمتد، تلبي

الدعوة بشوق لا يحد، . . . دعوة طال بها الشوق إليها والحنين، . . .

إيه يا سيدة النساء، هي ذي خادمتك أم البنين!

إيه يا فاطمة، ها قد أقبلت جاريتك فاطمة!

قدمت فاءها على مذبح فائك فوزاً وفناء، . . . وامتدت ألفها نحو ألفك كي تؤلف في حبك كل الأسماء، . . . وسقطت طاؤها عند قدمي طائك طاعة وعطاء، . . . واستدارت تاؤها تركع وتسجد في محراب تلك التاء!

فاطمة، يا من فطمت محبيها عن النار الحاطمة، . . . يا من اشتق لها فاطر السموات من اسمه اسمها، . . . هي ذي فاطمة، تقدم لك قرابين الفداء،

هي ذي أم البنين، نقطتان على نون، وياء،

جعفر، وعثمان وعبد الله،

وهمزة شامخة في مطلع الحق تشق أجواز الفضاء، . . . ترفرف كما اللواء، فأبو الفضل هو الهمزة المرفوعة فوق هام أم البنين، وهو الهمزة المتمرغة عند أذيال الزهراء، وتبقى الياء لأم البنين، هي انسكاب الدمع تحت العين، والدم الجاري من الكفين، بين نونين وياء!

. . . وتهز الكونَ أشواقُ النداء، للمرة الأخيرة ينطلق عبر الجسد الفاني ليزرع الروح في آفاق الضياء:

ـ واولداه، واحسيناه!

وتجيب زينب، بصوت يملأ اجواز الفضاء:

ـ واأخاه، واعباساه!

وتختتم الزهراء، تلف المدى بالسناء:

ـ واولداه واحسيناه، واولداه واعباساه!

. . . وتحلق روح في السماء، تشرق سحراً وعطراً وبهاء،

هي ذي أم البنين، تبلغ منتهى الشوق والعشق والولاء،

ويفيض العشق حتى يملأَ الكونَ عطاء،

هي ذي تهفو، تركع، تسجد، تهلل وتمجد، توحد وتتشهد، وتمتد نحو العلاء،

وتنسكب عند قدمي فاطمة الزهراء، فتأبى فاطمة، وتبكي الحوراء، وتنكب عليها تعانقها، وترتقيان بها نحو السماء!

. . . [ويتعالى البكاء من بيت العباس، كما تعالى يوماً من بيت علي والزهراء!

ويهرع الفضل إلى مجلس الإمام زين العابدين ينعى إليه جدته أم العباس، يخرج الإمام منتحباً، حافي القدمين حاسر الرأس، ويدخل إلى بيت عمه العباس، ليجد أمه، أم البنين قد لفظت آخر الأنفاس!

يجدها منطرحة فوق التراب على الرمضاء تحت حر الهاجرة، فيزداد بكاؤه، . . . يعلم ما أرادت، . . .]

إيه يا أم البنين، إنك لأم العباس حقاً والحسين، فكما واسى أبو الفضل الحسين، في حياته وبعد مماته، كذا فعلت أيتها الطاهرة، وأبيت إلا أن تذوقي غصص الدنيا كلها قبل أن ترتحلي نحو الآخرة، . . . فهنيئاً لك يا أم

البنين هذه المواساة الفاخرة، وهنيئاً لك هذي الدموع التي تنسكب عليك من المقل الطاهرة، كما انسكب قبلها دمع الحسين على جروح العباس النازفة بالدماء الزاخرة،

هنيئاً لمن عاشت وماتت وأغمضت عينيها عن الدنيا، ولكنها مع ذلك قد بقيت عينها على آل الحسين وأحبته ساهرة!

أماه، . . . يا أم البنين،

السلام عليك يوم ولدتِ درّاً من السما نُثرا

ويوم تزوجتِ أبا السبطين مسكاً ينشر العطرا

ويوم أنجبت له العباس، فصار الدر محمرا

وشبلاً بعد شبلٍ جاء منك الفضل مفترّا

ويوم فقدت كل بنيك لم تبغي لهم ذكرا

سألتِ عن الحسين وقلتِ فدىً للسبط لا فخرا

وقد يكفيك أن بنيك كانوا الدرع والسترا

ويوم فقدت مولاكِ الحسين ذرفت الدمع والقطرا

ويوم رحلت صوب الحق روحاً تنشد الشكرا

رحلتِ إلى جوار المرتضى والمجتبى وحسين والزهرا

تمت بعون الله وفضله

كتبتها رجاء محمد بيطار

في العشرين من جمادى الآخرة سنة

١٤٣٥ هجرية / الموافق ٢٠١٤ ميلادية

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ـ الخصائص العباسية

لمؤلفه الحاج محمد إبراهيم الكلباسي النجفي

٢ـ منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل(١)

الشيخ عباس القمّي

٣ـ الموسوعة الشاملة في أم البنين

علي اليوسفي

٤ـ مجالس أم البنين

٥ـ في رحاب أئمة أهل البيت(١)

السيد محسن الأمين العاملي

٦ـ الإمام علي عليه السلام من المهد إلى اللحد

القزويني

٧ـ السيدة زينب عليها السلام

باقر شريف القرشي

٨ـ نهج البلاغة

للإمام أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب عليه السلام

٩ـ الطريق إلى منبر الحسين لنيل سعادة الدارين

للشيخ عبد الوهاب الكاشاني

المحتويات

مقدمة وإهداء ٥
ما وراء السطور ١١
الفصل الأول ١٧
«فجر وشروق» ١٧
الفصل الثاني ٣٧
«أول الشعاع» ٣٧
الفصل الثالث ٥١
ظهر الحق وزهق الباطل ٥١
الفصل الرابع ٦٣
... والعاديات ضبحا ٦٣
الفصل الخامس ٧٩
النبأ العظيم ٧٩
الفصل السادس ١٠١
الدرة المكنونة ١٠١

الفصل السابع ١٢٧
«أم البنين» ١٢٧
الفصل الثامن ١٤٧
البذرة المباركة ١٤٧
الفصل التاسع ١٥٩
ناصر الحسين ١٥٩
الفصل العاشر ١٨٣
سقاء المدينة! ١٨٣
الفصل الحادي عشر ٢٠٥
عودة الحق ٢٠٥
الفصل الثاني عشر ٢١٩
حرب الناكثين ٢١٩
الفصل الثالث عشر ٢٥١
حرب القاسطين ٢٥١
الفصل الرابع عشر ٣٣٧
مأساة التحكيم، وحرب المارقين ٣٣٧
الفصل الخامس عشر ٣٦١
«... تدكدكت والله أركان الهدى» ٣٦١
الفصل السادس عشر ٤٢٥
مع المجتبى، بين البقيع وكربلاء ٤٢٥
الفصل السابع عشر ٤٨١

المحتويات ٦٣٩

على مشارف الرحيل ٤٨١
الفصل الثامن عشر ٥٣٣
سألتك عن الحسين ٥٣٣
الفصل التاسع عشر والأخير ٥٩٥
حاملة اللواء ٥٩٥
المصادر والمراجع ٦٣٥

علم العباس أن أمه استبقته لأمر عظيم، فاستمر واقفا" إزاءها بخشوع ووجوم ينتظر ما تروم .

ولعلها إذا رأته كذلك طارت نفسها شعاعا" إليه، كما طار نحوها، فانكب على قدميها يقبلهما ويبكي، وأكبت عليه ،....

تساقطت على الأرض ترفعه وتضمه، وتمسك بيديه ، ... ترى ، هل استطاعت ام البنين أن لا تبكي عند تلك اللحظة، وهي تعلم أنها لو بكت، فلن تضعف عزم هذا الأسد الهصور، بل لعلها تزيده قوة وعنفوانا ؟!

... لعلها كانت لتصمت عن البكاء لو لم تمسك بتينك اليدين ، فإن لهما معها حديث ودين آن أوان وفائه !

وكأني بأم البنين قد أهوت على يدي العباس تقبلهما وتبكي ، أسوة بأمير المؤمنين.

وكأني بالعباس قد أجفل ، .... حاول أن يذبها عن تقبيل يديه، وكيف يسمح لها أن تفعل ،وهو الولد البار التقي ، الورع الحنون الزكي الرضي ؟!

لعل دمعها غسّل يديه، قبل أن يغسّلهما فيض من نوع آخر ، ولعله إذذاك مسح دمعها، وسأل متهدج النبرات.

أماه، ما تفعلين با أماه ؟! ... ما تريدين ؟!

ISBN 978-6-1442665-0-2

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com